

تأليف

عبد الله بن محمد الغنيمان
رئيس قسم الدراسات العليا
بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

الجزء الأول



الطبعة الأولى
١٤٠٥ هـ

توزيع
مكتبة الدار بالمدينة المنورة
شارع الستين . أمام مسجد الإجابة
ص ب (٢٠٨) هاتف (٨٣٨٣٠٩٥)



مقدمة

الحمد لله ، الأحد الصمد ، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له فى ألوهيته وربوبيته ولا ند له ، فى أسمائه وصفاته .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، ألأسله بالهدى ، ودين الحق ، فدعا إلى توحيد الله الخالص من كل شائبة شرك ، فى حقه ، أو فعله ، أو أسمائه وصفاته ، وجاهد فى هذا السبيل حتى وضح الحق ، واستبان وكمل به الدين ، وتمت النعمة ، فترك الأمة على البيضاء ، ليلها كنهارها ، لايزيغ عنها إلا هالك .

وسار على نهجه صحابته ، فلم يغيروا ، أو يبدلوا ، بل بذلوا جهدهم فى دعوة الخلق إلى عبادة الله وحده ، حتى مضوا لسبيلهم .

فصلاة الله وسلامه على عبده ورسوله محمد بن عبد الله ، إمام الحنفاء وسيد الأصفياء ، ورضى الله عن صحابته أجمعين ، وعمن سلك نهجهم إلى يوم الدين .

كمال الهداية وتمام على النعمة على هذه الأمة

أما بعد ، فقد عُلمَ أن الله – بعث رسوله محمداً – ﷺ على حين فترة من الرسل ، « وفى جاهلية لا تعرف من الحق رسما ، ولا تقيم به فى مقاطع الحقوق حكما » [1] وإنما ينتحلون ماتهواه نفوسهم ، وما تزينه لهم شياطينهم ، وما

---

(١) انتزاعا من خطبة الاعتصام للشاطبى ص ٢ .

وجدوا عليه آباءهم ، فجاهدهم وجادلهم باللين والحكمة ، وقارعهم بالسنان والحجة ، لمن كابر وعاند ، وكان نصر الله حليفه ، فاستقام أمره ، وانتصر على عدو الله ، وظهر دينه ، فجاء نصر الله ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وبعد تمام نعمة الله – تعالى – عليه وعلى أمته ، وظهور ما جاء به من الحق ، ووضوح الطريق توفاه الله إليه ، فقام بعده صحابته بأمره خير نيام ، فجاهدوا فى الله القريب والبعيد ، حتى تحقق ما أخبر به رسولهم – ﷺ – فيما رواه مسلم فى صحيحه عن ثوبان ، قال : قال رسول الله – ﷺ : « إن الله زوى (١) لى الأرض فرأيت مشارقها ، ومغاربها ، وإن أمتى سيبلغ ملكها مازوى لى منها – وأعطيت الكنزين ، الأحمر ، والأبيض (٢) ، وأنى سألت ربى لأمتى أن لايهلكها بسنة عامة ، وأن لايسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيضتهم (٣) ، وإن ربى قال : يامحمد ، إنى إذا قضيت قضاءً فإنه لايرد ، وإنى أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة (٤) وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم ، يستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ، حتى يكون بعضهم يهلكهم بعضا ، ويسبى بعضهم بعضا » (٥) .

ففتحت بلاد الروم ، وفارس فى عهد الخليفة الثانى ، وأنفقت كنوزها فى سبيل الله – تعالى – وواصلت جحافل التوحيد إلى مشارق الأرض ومغاربها ، تفتح القلوب إلى معرفة الله وتوحيده قبل البلاد ، حتى تمت نعمة الله على أكثر أهل

---

(١) معناه جمعها لى فرأيت أقصاها من الشرق ومن الغرب .

(٢) المقصود بالكنزين كنوز الفرس ، والروم ، الأحمر الذهب ، والأبيض الفضة .

(٣) أى يهلكهم جميعا ، ويستولى على بلادهم ، وذراريهم ، وأموالهم .

(٤) أى لا أرسل عليهم عذابا يعمهم ، ويستأصلهم .

(٥) صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢١٥ رقم ٢٨٨٩ .

الأرض ، فاتجهوا إلى عبادة الله وحده ، بعد ماكانوا يعبدون كل شئ ، وكانت تستعبدهم شياطين الجن والإنس .

ولكن كثيرا من الناس لايعجبهم ذلك ، بل يسؤوهم ويحزنهم .

ومن حكمة الله تعالى – أن جعل للباطل جنودا يناصرونه ، ويدافعون الحق ويردونه ، كما جعل للحق أنصارا يتفانون فى الذياد عنه ، والدعوة إليه .

وقد كان ذلك منذ باء إبليس اللعين بالطرد عن رحمة الله ، والبعد عن كل خير ، فأقسم بعزة الله ليغوين بنى آدم أجمعين ، إلا عباد الله المخلصين ، كما قال الله تعالى عنه : (فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين) [1] .

ومن المعلوم أن الله تعالى لم يقبض نبيه محمدا – ﷺ – حتى أكمل له دينه ، وأظهره على من عاداه بالحجج والبراهين ، وبقوة القتال لمن وقف فى وجهه وعاند الحق ، كما قال تعالى فى آخر ما أنزله الله عليه : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) [2] فإذا كان الله قد أكمل لهم دينهم ، فلابد من أنه وضحه لهم بحيث لايبقى فيه أى التباس أو اشتباه ، ولابد من أنهم فهموه واعتقدوه على ما أريد منهم وعملوا به ، ولابد من الاستغناء به عن كل ماسواه ، فلا يحتاجون معه إلى غيره ، وأعظم مايحتاجونه وأشرفه هو معرفتهم ربهم بأسماءه وصفاته ، ومايجب له ويستحقه ، ويحمد ويمجد به ، ويثنى به عليه ، لأن هذا من أفضل العبادة التى أوجبها الله عليهم ، كما قال تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسماءه سيجزون ماكانوا يعملون) [3] .

---

(١) الآيتان ٨٢ و ٨٣ من سورة ص .

(٢) جزء من الآية ٣ من سورة المائدة .

(٣) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

قد أوضح الله ورسوله العقيدة وضوحاً جلياً

فلا بد من إيضاح الواجب لله تعالى ، والممتنع عليه ، والجائز عليه ، حتى يكونوا على بينة من دينهم ، ومعبودهم ، لأنه لا سبيل إلى معرفة ذلك إلا من الوحى ، إذ هو من الغيب ، الذى لا يعلم بالقياس ، ولا بالعقل .

وقد بين الله لنا طريقة الأنبياء التى كانوا يدعون بها أممهم ، كما قص الله تعالى عنهم فى القرآن ، فقد اتفقت طريقتهم فى الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده ، وخاتمهم جاء مقتفيا أثرهم فى ذلك ، فدعا أمته إلى مادعت إليه الرسل قبله ، من توحيد الله ومعرفته ، فلم يفارقهم حتى وضح لهم الطريق ، واستبان الحق من الباطل .

روى ابن ماجه عن أبى الدرداء ، قال : خرج علينا رسول الله - ﷺ - ونحن نذكر الفقر ونتخوفه ، فقال : « آلفقر تخافون ؟ والذى نفسى بيده لتصبن عليكم الدنيا حتى لا يزيغ قلب أحدكم إلاهيه ، وأيم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها ونهارها سواء »

قال أبو الدرداء : صدق والله رسول الله - ﷺ - « تركنا على مثل البيضاء ، ليلها ، ونهارها سواء » (١)

وقال الله تعالى : (وأنزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) (٢) ، وقال تعالى : (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) (٣) وقال تعالى : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ، ولعلهم يتفكرون) (٤) .

---

(١) سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٤ رقم ٥ .
(٢) النحل الآية ٨٩ .
(٣) سورة النحل الآية ٦٤ .
(٤) النحل الآية ٤٤ .

فالإيمان بالله وأسماءه وصفاته أعظم الأشياء وكذلك عبادته ، فلا بد أن يبين الكتاب الذى هو تبيان لكل شئ ذلك أوضح البيان .

ولابد أن يدل على أعظم الهدى الذى هو معرفة الله - تعالى بأسماءه وصفاته - كما أن من أعظم ما وقع فيه الخلاف فى الأمة هو فى هذا الباب ، فلابد أن يكون قد بينه ، لأنه تعالى أخبرنا أنه نزله ليبين لنا ما اختلفنا فيه ، ولابد أن نجد فيه ما يزيل كل شك ولبس ، لأنه هدى ورحمة - لكن ليس لكل أحد بل للمؤمنين فقط .

وأعظم ما أنزل إلينا هو الإيمان بالله ، ومعرفته ، وقد أخبرنا تعالى أنه أنزل الكتاب ليبين للناس مانزل إليهم ، فكيف يترك أعظم الأشياء المنزلة إلينا بدون بيان .

فعلم بهذا ونحوه أن الله تعالى بيَّن على لسان رسوله - ﷺ - للأمة كل ما تحتاج إليه فى دينها ، ومعرفة ربها ، ولم يكل ذلك إلى عقولهم ، أو قياساتهم .

قال ابن عباس فى قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) (١) أخبر الله نبيه والمؤمنين ، أنه أكمل لهم الإيمان ، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً ، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدا ، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدا » (٢) .

فإذا كان الله تعالى قد أكمل لهم الإيمان ، فكل مالم يقله رسول الله - ﷺ - فى باب الإيمان ، ولم يأمر به ويبينه للأمة فهو باطل ، وليس من الدين الكامل الذى جاء به .

وأصل الدين وأساسه معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته ، ومعرفة ما يجب له على عباده .

---

(١) الآية ٣ من سورة المائدة .

(٢) رواه ابن جرير بسنده ، انظر تفسيره جـ ٩ ص ٥١٨ ط المعارف .

ولا يجوز لمسلم يؤمن بالله ورسوله ، واليوم الآخر أن يظن برسول الله ﷺ أنه لم يبين مايعتقده العبد فى ربه ، لأن هذا هو الذى أمر بتبليغه .

قال شيخ الإسلام : « من المحال فى العقل والدين أن يكون الرسول الذى أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور ، وأنزل عليه الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبسا مشتبها ، ولم يميز بين ما يجب لله ، من الأسماء الحسنى والصفات العليا ، وما يجوز عليه ، وما يمتنع عليه ، فإن معرفة هذا أصل الدين ، وأفضل الأعمال ، فكيف يكون القرآن والرسول والصحابة – وهم أفضل الخلق بعد النبيين – لم يحكموا هذا الباب اعتقادا وقولا .

ومحال أن يعلم النبى – ﷺ – أمته أدب الأكل والشرب ، وقضاء الحاجة ، ونحو ذلك ، ويترك تعليمهم مايقولونه بألسنتهم ، وما يعتقدونه فى قلوبهم ، فى ربهم ومعبودهم ، مع كون ذلك غاية المعارف ، وأشرف المقاصد ، والوصول إليه غاية المطالب ، مع قوله – ﷺ – : « ما بعث الله من نبى إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير مايعلمه لهم ، وينهاهم عن شر مايعلمه لهم » (١) .

ومحال أن يكون الذين كان فيهم رسول الله – ﷺ – والذين يلونهم غير عالمين للحق فى باب معرفة الله ، وغير قائلين به .

ومعلوم أن من فى قلبه حياة ومحبة للعبادة ، أنه يحرص أشد الحرص على معرفة ذلك .

وقد صح عنه – ﷺ – أنه قال (٢) : « خير الناس قرنى ، ثم الذين

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ١٢ ص ٢٣٣ شرح النووى فى الإمارة باب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول ، وابن ماجه فى الفتن ، انظر جـ ٢ ص ١٣٠٦ رقم ٣٩٥٦ ، والنسائى فى البيعة جـ ٧ ص ١٥٣ .

(٢) البخارى ، انظر الفتح جـ ٧ ص ٢ وجـ ١١ ص ٢٤٤ و ٥٤٣ .

يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته » [١] .

بدء الانحراف

لما سيطر حكم الإسلام على أكثر البلاد ، فى آسيا ، وأفريقيا ، وغيرهما . دخل تحت حكمه أمم كثيرة ، رغبة ورهبة ، وكان لها أديان مختلفة ، من يهودية ، ومجوسية ، ونصرانية ، ووثنية ، وغير ذلك ، وقد كان لكثير من هذه الأمم سلطان كبير ، مثل المجوس ، والرومان ، فسلبهم المسلمون ذلك ، وكان عند هؤلاء من الكبر والاستعلاء مايجعلهم يأنفون من كونهم تحت سلطان المسلمين ، ولاسيما وقد كانوا يرون العرب من أحقر الأمم ، وأقلها شأنا ، كما أن اليهود واجهوا الإسلام ورسوله من أول أمره بالعداء ، وحاولوا القضاء عليه بأنواع من المكائد ، والمؤامرات . ولما يأس هؤلاء جميعا من قدرتهم فى مجابهة الإسلام بالقوة وجها لوجه انصرف جهدهم وكيدهم إلى الدسائس ، والمؤامرات ، والاغتيالات لرجاله العظام .

ودخل فى الإسلام ظاهراً من هؤلاء من قصده إفساده ، وتمزيق وحدة أهله ، ولابد أن يكون ذلك عن دراسة ، وإعمال فكر وتخطيط . وربما يكون هناك جمعيات متعاونة ، من المجوس واليهود ، والنصارى والهنود ، وغيرهم ، وقد تكون لكل طائفة مؤسسات تعمل لإفساد عقائد المسلمين ، لتيقنهم أنه لا يمكن هزيمة المسلمين ، إلا بإفساد عقيدتهم . فبدأت آثار تلك المؤامرات تظهر ، شيئا فشيئا ، فقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب بأيدٍ مجوسية ، وربما بمؤامرة مجوسية يهودية .

ثم قتل الخليفة بعده ، بأيدٍ مشبوهة ، من غوغاء ، يدفعهم بعض دهاة اليهود والمجوس .

---

(١) الفتوى الحموية ، ملخصاً ، انظر مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٧٠٦ .

ثم ظهر القول بنفى القدر ، وأول من عرف بذلك رجل مجوسى يقال له : سيسويه ، من الأساورة ، وإن كان قد اشتهر أن أول من قال به معبد الجهنى [1] .

ثم أوقدت نار الفتنة بين المسلمين ، وقتال بعضهم بعضا .

ثم خرجت الخوارج بجهلهم ، وعتوهم ، وتكفيرهم المسلمين ، وقتلهم إياهم .

ثم نجم التشيع الشنيع ، من قبل يهود ومجوس يوقدون ناره ، وأظهروا القول بأن للرسول – ﷺ – وصياً ، هو علىّ بن أبى طالب ، ولكن الصحابة تمالؤا على ظلمه ، وكتمان الوصية على حد زعمهم الكاذب .

ولم يزل التشيع يتطور بتطرفه ، وتشعبه ، حتى صار ملجئا لكل من يريد أن يحارب الإسلام والمسلمين ، وظهر فيه القول بأن القرآن مبدل ومحرف ، ومزيد فيه ، ومنقوص منه ، وأن أعظم الصحابة ارتدوا بعد إسلامهم إن لم يكونوا كلهم ، ماعدا عليّ بن أبى طالب ونفر قليل معه .

وقد يصل الضلال ببعضهم والجرأة على الله تعالى ، إلى أن يقول بخيانة جبريل للرسالة ، وأنه أرسل إلى علي فعدل بها إلى محمد .

ولم يزل الرفض يبتعد بأهله عن الدين . والعقل والفطرة إلى يومنا هذا .

ثم ظهر القول بإنكار الصفات لله تعالى ، وأنه لايحب أحداً من عباده ولا يحبه أحد ، ولا يتكلم ، وليس له يد ، ولا وجه ، ولا شيء مما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله .

---

(١) معبد الجهنى البصرى تابعى كان داعية فى ضلال ، قال الدارقطنى : حديثه صالح ومذهبه ردئ . تكلم فيه كثير من السلف من أجل قوله بنفى القدر ، قتله عبد الملك سنة ثمانين ، انظر تهذيب التهذيب جـ ١٠ ص ٢٢٥ .

وكان أول من عرف بذلك ، رجل يقال له : الجعد بن درهم .(١)

قال شيخ الإسلام : « أصل مقالة تعطيل الصفات ، مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين ، وضلال الصابئين ، فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة فى الإسلام – أعنى أن الله ليس على العرش حقيقة ، وأن الاستواء بمعنى الاستيلاء ونحو ذلك – هو الجعد بن درهم ، وأخذها عنه الجهم بن صفوان ، وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه .

وقد قيل : إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان ، وأخذها أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم ، وأخذها طالوت عن لبيد بن الأعصم اليهودى الساحر ، الذى سحر النبى ﷺ »(٢) وهذه سلسلة يهودية لها سوابق فى محاربة الإسلام .

وقال البخارى : « حدثنا قتيبة ، حدثنى القاسم بن محمد ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حبيبة ، عن أبيه ، عن جده ، قال : شهدت خالد بن عبد الله القسرى بواسط فى يوم أضحى ... وقال : ارجعوا فضحوا تقبل الله منكم ، فإنى مضح بالجعد بن درهم ، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله علوا كبيراً عما يقول ابن درهم ، ثم نزل فذبحه »

قال أبو عبد الله : قال قتيبة : بلغنى أن جهماً كان يأخذ الكلام من الجعد بن درهم »(٣) .

فتبين أن هذا الإلحاد جاء من قبل اليهود الذين أرادوا إفساد دين الإسلام ،

---

(١) عداده فى التابعين ، قتله خالد بن عبد الله القسرى على الزندقة يذكر أنه جعل فى قارورة ، ماء وترابا ، فاستحال دوداً ، فقال : أنا خلقت وهو فارسى ، قتل سنة ١٢٤ . انظر البداية والنهاية جـ ٩ ص ٣٩٤ .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٢٠ .

(٣) خلق أفعال العباد ص ٢٩ – ٣٠ . ورواه عثمان بن سعيد فى الرد على الجهمية ص ٢٥ .

كما أن الرفض أول من عرف من دعاته يهودى ماكر ، حاقد وهو ابن سبأ ، يقال له ابن السوداء ، واسمه عبد الله بن وهب بن سبأ من يهود صنعاء ، ولابد أن هؤلاء الأفراد الذين شهروا بدعواتهم المنحرفة ، وراءهم من يدعمهم ، ويخطط لهم ، وهذا الموضوع بحاجة إلى دراسة فاحصة ، تبين الأمر بوضوح ، وهذا الذى أشرت إليه تدل عليه كثير من الوقائع ، والآثار عن السلف ، وغيرهم .

فكان هذا هو سبب التفرق الحقيقى ، إذ هو تفرق فى الاعتقاد ، وهو منشأ الخلافات ، والحروب الكلامية الممزقة ، التى لم تزل تنخر فى كيان المسلمين إلى يومنا هذا .

وقد ينضم إلى ذلك عوامل جديدة فى كل فترة زمنية ، من أنواع الإلحاد ومحاربة الإسلام بأساليب شتى ، وأسلحة مختلفة ، مقروءة ، ومرئية ومسموعة ، ولولا أن الله تعالى تكفل ببقاء هذا الدين إلى آخر وقت من الدنيا ، لقضى عليه منذ زمن بعيد ، وهذا بالإضافة إلى ماهو كامن فى طباع البشر مما يبعدهم عن الحق ، مثل التقليد ، واتباع المألوفات ، وما يكون عليه رؤساء القوم وعظماؤهم ، كما ذكر الله تعالى عن الأمم السابقة مع أنبياءهم قال تعالى : (أم آتيناهم كتابا من قبله ، فهم به مستمسكون ، بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون . قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا : إنا بما أرسلتم به كافرون) [١] فهذا يدل على أن الإنسان يصعب عليه ترك المألوف له ، كما أن شيخه ، ومن يعظمه قد يسيطر على توجيهه إلى مايعتقده ، كما هى طريقة المتكلمين ، حيث يأخذون بآراء شيوخهم ومعظميهم ، مع مخالفتها لكتاب الله وسنة رسوله .

ومن ذلك الجهل ، واتباع الهوى ، كما هو حال أكثر الخوارج ، فإنهم

---

(١) الآيات من ٢٠ إلى ٢٤ من سورة الزخرف .

جهلوا معانى الكتاب ، وأرادوا من عموم الأمة أن لايكون لهم ذنوب ، وإلا أصبح عندهم كافرا مخلداً فى النار .

وأما الهوى فبابه واسع ، وقد قال الله تعالى : (أفرأيت من اتخذ إلٰهه هواه) [(١)]

وقال تعالى : (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) [(٢)] إلى غير ذلك من الدوافع نحو الانحراف ، وسأذكر شيئا مما ذكره أهل العلم يؤيد ما ذكر هنا :

قال شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى : « وقد روى أن أول من ابتدع [القول بنفى القدر] بالعراق رجل من أهل البصرة يقال له : سيسويه من أبناء المجوس وتلقاه عنه معبد الجهنى » [(٣)]

وقال الإمام ابن حزم : « الأصل فى أكثر خروج هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانوا من سعة الملك ، وعلو اليد على جميع الأمم ، وجلالة الخطر فى أنفسهم ، حتى إنهم يسمون أنفسهم الأحرار ، والأبناء ، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم ، على أيدى العرب ، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً ، تعاظمهم الأمر ، وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة ، فى أوقات شتى ، ففى كل ذلك يظهر الله سبحانه وتعالى الحق ، وكان من قائمتهم « منقاذ » و « المقنع » ، و « استابين » ،

---

(١) سورة الجاثية الآية ٢٣ .

(٢) الآية ٥٠ من سورة القصص .

(٣) مجموع الفتاوي جـ ٧ ص ٣٨٤ ، وذكره المقريزى فى الخطط جـ ٣ ص ٣٦٠ ، وسيأتى ، وأما ماذكره أبو لبابة حسين فى كتابه « موقف المعتزلة من السنة » أن معبداً أخذ مقالته عن نصرانى من أهل العراق أسلم ثم تنصر ، نقلا عن أدب المعتزلة ففيه نظر ، إذ هو خلاف المشهور .

و « دبابك » (١) ، وغيرهم ، وقبل هؤلاء رام ذلك عمار الملقب « خداشا » ، و « أبو مسلم السراج » .

فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع ، فأظهر قوم منهم الإسلام ، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله - ﷺ - واستشناع ظلم (٢) علي - رضى الله عنه - ثم سلكوا بهم مسالك شتى ، حتى أخرجوهم عن الإسلام ، فقوم منهم أدخلوهم إلى القول بأن رجلا ينتظر يدعى المهدى ، عنده حقيقة الدين ، إذ لايجوز أن يؤخذ الدين من هؤلاء الكفار .

وقوم خرجوا إلى نبوة من ادعوا له النبوة .

وقوم سلكوا بهم المسلك الذى ذكرنا ، من القول بالحلول ، وسقوط الشرائع .

وآخرون تلاعبوا بهم ، فأوجبوا عليهم خمسين صلاة فى كل يوم وليلة .

وآخرون قالوا : بل هى سبع عشرة صلاة ، فى كل صلاة خمس عشرة ركعة .

وهذا قول عبد الله بن عمرو بن الحارث الكندى ، قبل أن يصير خارجيا ، صفريا (٣)

---

(١) هذه الأسماء فيها اختلاف بين النسختين من الفصل المحققة والمطبوعة سابقاً ، ففى القديمة « ستقادة » « واستاسيس » والملقب « بخداش » و « أبو مسلم السراج » ولم يشر المحققان إلى هذا الاختلاف .

(٢) لم يقع على علي بن أبى طالب ظلم من الصحابة كما زعمته الرافضة ، وإنما هو شئ اختلق للتشنيع والوصول إلى المقصد الخبيث .

(٣) يجوز أن يكون عبد الله هذا يهوديا ، لم يشف حقده مافعله من إفساده دين من أفسد دينه ، فدخل فى الخوارج ليروى ظمأ حقده بدماء المسلمين . فالله أعلم .

وقد سلك هذا المسلك أيضا عبد الله بن سبأ الحميرى اليهودى [١] فإنه لعنه الله ، أظهر الإسلام ليكيد أهله ، فهو كان أصل إثارة الناس على عثمان – رضى الله عنه ، وحرق علي بن أبي طالب طوائف أعلنوا بإلٰهتيه .

ومن هذه الأصول الملعونة ، حدثت الاسماعيلية ، والقرامطة ، وهما طائفتان مجاهرتان بترك الإسلام جملة ، قائلتان بالمجوسية المحضة ، ثم مذهب مزدك الموبذ ، الذى كان على عهد أنو شروان بن قباذ ، ملك الفرس ، وكان يقول بوجوب تواسى الناس في النساء ، والأموال .

قال أبو محمد : فإذا بلغ الناس إلى هذين الشعبين أخرجوهم عن الإسلام كيف شاؤوا ، إذ هذا هو غرضهم فقط » [٢]

وهذا الذى ذكره أبو محمد ابن حزم – رحمه الله – ظاهر فى أنه كان هناك جمعيات تنظيمية تخطط لهدم عقيدة المسلمين ، بشتى الوسائل .

قال البخارى رحمه الله – تعالى – : « حدثنا محمد بن عبد الله – أبو جعفر البغدادى قال : سمعت أبا زكريا ، يحي بن يوسف الزمى ، قال : كنا عند عبد الله بن إدريس ، فجاءه رجل ، فقال : يا أبا محمد ، ماتقول فى قوم يقولون : القرآن مخلوق ؟ فقال : أمن اليهود ؟ قال : لا ، قال : فمن النصارى ؟ قال : لا ، قال : فمن المجوس ؟ قال : لا ، من أهل التوحيد ، قال : ليس هؤلاء من أهل التوحيد ، هؤلاء الزنادقة ، من زعم أن القرآن مخلوق ، فقد زعم أن الله مخلوق ، يقول الله – تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ، فالله لايكون مخلوقا ، والرحمن لايكون مخلوقا ، والرحيم لايكون مخلوقا .

---

(١) إن فعل هذين الرجلين يدلنا على أن هناك منظمات تتعاون على حرب الإسلام من اليهود والمجوس وغيرهم ، كما أشرت إليه قبل ذلك .

(٢) الفصل جـ ٢ ص ١١٥ – ١١٦ ، وانظر المحققة جـ ٢ ص ٢٧٣ – ٢٧٤ .

وهذا أصل الزندقة ، من قال هذا فعليه لعنة الله ، لاتجالسوهم ، ولا تناكحوهم » (١) .

وقال أبو سعيد الدارمى - رحمه الله تعالى : « لم يزل [أهل الباطل] مقموعين أذلة ، مدحورين ، حتى كان الآن بآخرة ، حيث قلَّت الفقهاء ، وقبض العلماء ، ودعا إلى البدع دعاة الضلال ، فشدَّ ذلك طمع كل متعوذ فى الإسلام من أبناء اليهود ، والنصارى ، وأنباط العراق ، ووجدوا فرصة للكلام ، فجدوا فى هدم الإسلام ، وتعطيل ذى الجلال والإكرام ، وإنكار صفاته وتكذيب رسله ، وإبطال وحيه ، إذ وجدوا فرصتهم ، وأحسوا من الرعاع جهلا ، ومن العلماء قلة ، فنصبوا عندها الكفر للناس إماما ، بدعوتهم إليه . وأظهروا لهم أغلوطات من المسائل ، وعمايات من الكلام ، يغالطون بها أهل الإسلام ، ليوقعوا فى قلوبهم الشك ، ويلبسوا عليهم أمرهم ويشككوهم فى خالقهم ، مقتدين بأئمتهم الأقدمين » (٢)

وقال البخارى : « حدثنى أبو جعفر ، حدثنى يحي بن أيوب ، قال : سمعت أبا نعيم البلخى ، قال : كان رجل من أهل « مرو » صديقاً للجهم ، ثم قطعه وجفاه فقيل له : لم جفوته ؟ فقال : جاء منه مالا يحتمل ، قرأت يوما آية كذا وكذا ، نسيها يحي - فقال : ما كان أظرف محمداً ، فاحتملتها ، ثم قرأ سورة طه فلما قال : (الرحمن على العرش استوى) قال : أما والله لو وجدت سبيلا إلى حكها لحككتها من المصحف ، فاحتملتها ، ثم قرأ سورة القصص فلما انتهى إلى ذكر موسى ، قال : ماهذا ؟ ذكر قصته فى موضع فلم يتمها ، ثم ذكرها ها هنا فلم يتمها ، ثم رمى بالمصحف من حجره برجليه ، فوثبت عليه » (٣)

---

(١) خلق أفعال العباد ص ٣٠ .
(٢) الرد على الجهمية ص ٢٥٩ عقائد السلف .
(٣) خلق أفعال العباد ص ٣٨ ، وانظر عقائد السلف ١٢٨ - ١٢٩ .

فهذه الوقائع – ومثلها كثير جداً – تدل على حقد دفين ، على هذا الدين ، وأنه دخل فى المسلمين الدخيل ، ذى القلب الموتور ، والصدر الموغور ، والنفس التى تأكلها نار عداوة الإسلام ، ونبى الإسلام ، وأن هؤلاء يحاولون اجتثاث الإسلام من قلوب الناس ، بالتشكيك فى أصوله ، وأن كثيراً من علماء السلف علِمُوهم ، وعرفوا أن مرادهم صدّ الناس عن الإسلام ، وإفساد عقائدهم . وأن تعاونا يهوديا ، ومجوسيا ، ونصرانيا وإلحاديا لم يزل ينتهز الفرص ، جاهدا فى إطفاء نور الله – ويأبى الله إلا أن يتم نوره .

ولاشك أن الصراع بين الحق والباطل قديم ، وأنه لايخلو زمان ، ولا مجتمع من ذلك ، وأن الله تعالى جعل للباطل هواة ومحبين ، ينفقون أموالهم ويبذلون نفوسهم فى الدفاع عنه ، كما جعل للحق أنصاراً ، وهذا أمر ظاهر كما قال تعالى : (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا) (١)

وإذا كان الإنسان متظاهرا بمساندة الباطل ونصرته ، فأمره أسهل ممن يخفى ذلك ، ويتظاهر بالخير والإيمان ، وهو من أبعد الناس عنه ، وأشدهم عداوة له ، وإنما مقصده معرفة مواطن الضعف من الإسلام وأهله ، والمداخل التى تنفذ سمومه منها فيهم ، ثم برميهم بكل ما يستطيع .

وربما يكون هناك تنظيمات تلبس لباس العلم والمعرفة ، والإصلاح ، والتجديد ، والمقصود منها القضاء على الدين ، وهم ينوعون أساليبهم فى كل وقت بما يناسبه ، وإن مصائب الإسلام بهؤلاء وأمثالهم ، من فجره إلى يومنا هذا تتوالى ، وقد وصف ذلك المقريزى – رحمه الله – وصفا مفيدا ألخصه فيما يلى : قال :

---

(١) سورة النساء الآية ٧٦ .

« لما بعث الله محمداً – ﷺ – إلى الناس ، وصف لهم ربهم بما وصف به نفسه ، فلم يسأله أحد من العرب بأسرهم ، قرويهم وبدويهم عن معنى شئ من ذلك ، كما كانوا يسألونه عن أمر الصلاة ، وشرائع الإسلام . إذ لو سأله أحد منهم عن شئ من الصفات لنقل ، كما نقلت أحاديث الأحكام وغيرها .

ومن أمعن النظر فى دواوين الحديث والآثار عن السلف ، علم أنه لم يرد قط لا من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة على اختلاف طبقاتهم ، وكثرة عددهم ، أنه سأل النبى ﷺ عن معنى شئ ، مما وصف الرب سبحانه به نفسه ، فى القرآن وعلى لسان نبيه ، بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا سكوت فاهم مقتنع ، ولم يفرقوا بين صفة وأخرى ، ولم يتعرض أحد منهم إلى تأويل شئ منها ، بل أجروا الصفات كما وردت بأجمعهم ، ولم يكن عند أحد منهم مايستدل به سوى كتاب الله ، وسنة رسوله .

ومضى عصرهم – رضى الله عنهم – على هذا ، وحدث القول بنفى القدر فى عهد آخرهم .

وكان أول من فاه بذلك معبد الجهنى ، أخذه عن رجل من الأساورة ، يقال له : أبو يونس سنسويه ، ويعرف بالأسوارى ، وتبرأ من هذه المقالة الصحابة .

ثم خرجت الخوارج ، وكفروا بالذنوب ، فقاتلهم أمير المؤمنين ، علي بن أبى طالب .

وحدث التشيع لعلي ، وغلا فيه طائفة بدعوة ابن سبأ اليهودى فحرقهم فى النار ، كما أحدث ابن سبأ القول بالوصية لعلي بالإمامة من بعد الرسول – ﷺ – والقول بالرجعة – أى رجعة علي بعد موته ، وأن فيه جزء من الإلٰهية .

ومن دعوة هذا اليهودى تشعبت الغلاة من الرافضة ، كالإمامية الاثنى عشرية ، والإسماعيلية ، والقرامطة ، والنصيرية ، وغيرهم ، وهو الذى أثار الفتنة على أمير المؤمنين ، عثمان حتى قتل ، ولم يزل مذهب الرفض يستفحل حتى ملأ الدنيا فساداً .

ثم حدث مذهب الجهمية ، وتعطيل الرب – تعالى – عن صفاته ، والقول بخلق القرآن ، وغير ذلك من العظائم ، وعربت كتب الفلاسفة فى عهد المأمون ، فعظمت الفتنة والضلال .

ثم ظهر الأشعرى ، وكان أخذ عن الجبائى الاعتزال ، ولازمه دهراً طويلا ، ثم سلك طريق ابن كلاب فى الصفات ، والقدر وغير ذلك .

وسلك طريقه جماعة من العلماء ، مثل الباقلانى ، وابن فورك ، والاسفراينيى والشيرازى ، والغزالى ، والشهرستانى ، والرازى وغيرهم ، وملئوا الدنيا بتصانيفهم ، يحتجون ، ويدعون أن طريقتهم هى طريقة أهل السنة والجماعة ، فانتشر هذا المذهب فى البلاد الإسلامية ، وجاءت دولة بنى أيوب ، وكانوا على هذا المذهب ، ثم مواليهم الأتراك ، وأخذه ابن تومرت إلى المغرب ، ونشره هناك ، فصار هذا المذهب هو المعروف فى الأمصار ، بحيث نسى ماعداه من المذاهب ، أو جهل ، حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه ، إلا أن يكون مذهب الحنابلة .

حتى جاء تقى الدين – أبو العباس ابن تيمية – ، فتصدى للانتصار لمذهب السلف ورد على الأشاعرة ، والرافضة ، والصوفية ، فافترق الناس فيه فريقان : فريق يقتدى به ، ويعول على أقواله ، ويرى أنه شيخ الإسلام حقا ، ومن أجل حفاظ أهل الملة الإسلامية .

وآخر يبدعه ، ويضلله ، ويزرى عليه إثبات الصفات وغيرها » .

ثم قال المقريزى :

« فهذا أعزك الله بيان ما كانت عليه عقائد الأمة من ابتداء الأمر إلى وقتنا ، قد فصلت فيه ما أجمله أهل الأخبار ، وأجملت مافصلوا ، فدونك طالب العلم تناول ماقد بذلت فيه جهدى ، وأطلت بسببه سهرى وكدى ، فى تصفح دواوين الإسلام ، وكتب الأخبار ، فقد وصل إليك صفوا » (١)

---

(١) الخطط للمقريزى ملخصا جـ ٣ ص ٣٠٩ – ٣١٤ .

وقال أحمد أمين فى كلامه على ابن سبأ : « والذى يؤخذ من تاريخه ، أنه وضع تعاليم لهدم الإسلام ، وألف جمعية سرية لبث تعاليمه ، واتخذ الإسلام ستاراً يستر به نياته » (١)

وذكر الطبرى : « أن ابن السوداء لما وصل إلى الشام لقى أباذر – رضى الله عنه – فقال له : ياأباذر ألا تعجب لمعاوية ، يقول : المال مال الله ، ألا إن كل شئ لله ، يريد أن يحتجنه دون المسلمين ، فذهب أبو ذر إلى معاوية وقال له : مايدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله » ثم أتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له أبو الدرداء : من أنت أظنك والله يهوديا ، وأتى عبادة بن الصامت فأخذه عبادة ، وذهب به إلى معاوية ، وقال له : هذا والله الذى بعث عليك أباذر » (٢) فإذا كان هذا اليهودى قد طمع بالصحابة ، فكيف بغيرهم .

ومن استقرأ التاريخ يرى أن أعداء الإسلام لم يدخروا وسعاً فى محاولة القضاء عليه ، إلى يومنا هذا .

كبريات الفرق الإسلامية

كان من نتائج التآمر على عقيدة المسلمين من جهات متعددة ، كما سبقت الإشارة إليه ، أن انشطر من الأمة الإسلامية عدة فرق ، انحرفت عن الطريق الصحيح ، الذى رسمه لها نبيها – ﷺ – وأخذت بنيات الطريق ، كما سبق فى حكم الله القدرى الكونى قال تعالى : (ولو شاء ربك لجعل الناس أُمة واحدة ، ولايزالون مختلفين * إلا من رَحِمَ ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمَّت كلمة ربك لأملأنَّ جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين) (٣)

---

(١) فجر الإسلام ص ٢٦٩ .

(٢) تاريخ الطبرى جـ ٤ ص ٢٨٣ .

(٣) الآيتان ١١٨ و ١١٩ من سورة هود عليه السلام .

روى ابن جرير عن الحسن « قال : الناس مختلفون على أديان شتى ، إلا من رحم ربك ، فمن رحم غير مختلفين »

وروى عن مجاهد : قال : « ولايزالون مختلفين » أهل الباطل ، (إلا من رحم ربك) أهل الحق » (١)

وقال : « معنى ذلك : ولايزال الناس مختلفين فى أديانهم ، وأهوائهم ، على أديان وملل ، وأهواء شتى ، إلا من رحم ربك ، فآمن وصدق رسله ، فإنهم لا يختلفون فى توحيد الله « وتصديق رسله ، وماجاءهم من عند الله » (٢)

وقال ابن كثير : « يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة ، من إيمان أو كفران ، كما قال تعالى : (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا) (٣) .

وقوله : « ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك » أى : ولايزال الخلف بين الناس فى أديانهم ، واعتقاداتهم فى مللهم ونحلهم ، ومذاهبهم ، وآرائهم . إلا المرحومون من أتباع الرسل ، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين الذى جاءت به رسل الله إليهم ، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة ، لأنهم الفرقة الناجية » (٤)

وقد أخبر النبى ﷺ بوقوع هذا الاختلاف ، محذرا منه ، فروى أبو داود ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله - ﷺ : « افترقت اليهود على إحدى ، أو اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على إحدى ، أو اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين فرقة » (٥)

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٥ ص ٥٣٤ ط المعارف .

(٢) المصدر السابق ص ٥٣٤ .

(٣) الآية ٩٩ من سورة يونس عليه السلام .

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩٠ - ٢٩١ ملخصا ط الشعب .

(٥) السنن جـ ٥ ص ٤ رقم ٤٥٩٦ ، ورواه الترمذى التحفة جـ ٧ ص ٣٩٧ ، وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه جـ ٢ ص ١٣٢١ رقم ٣٩٩١ .

ورواه أيضا من حديث معاوية بن أبى سفيان – رضى الله عنه – قال رسول الله – ﷺ : « ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب ، افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وأن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ، اثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة ، وهى الجماعة » (١) .

قال ابن كثير : « روى هذا الحديث فى السنن ، والمسانيد من طرق يشد بعضها بعضا » (٢) .

وأصل الفرق الذى ترجع إليه أربع كما قاله طائفة من السلف ، وهم الروافض ، والخوارج ، والقدرية [المعتزلة] ، والمرجئة ، وبعض العلماء يجعلها خمسا ويدخل أهل السنة ، كما قال أبو محمد بن حزم : « فرق المقرين بملة الإسلام خمس : وهم : أهل السنة ، والمعتزلة ، والشيعة ، والخوارج ، والمرجئة ، ثم افترقت كل فرقة من هذه على فرق » (٣) .

ومراده غير أهل السنة فإنهم فرقة واحدة ، وهم الذين تمسكوا بكتاب الله واتبعوا سنة رسوله ﷺ .

وقال الطرطوشى : « اعلم أن علماءنا قالوا : أصول البدع أربعة ، وسائر الأصناف الاثنتين والسبعين فرقة عن هؤلاء تفرقوا ، وتشعبوا . وهم : الخوارج : وهى أول فرقة خرجت على علي بن أبى طالب ، والروافض والقدرية ، والمرجئة » (٤)

---

(١) السنن جـ ٥ ص ٥ ، والترمذى من حديث عبد الله بن عمرو مع بعض الاختلاف فى اللفظ ، وقال : حديث حسن مفسر ، انظر تحفة الأحوذى جـ ٧ ص ٣٩٩ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩١ .

(٣) الفصل جـ ٢ ص ٢٦٥ .

(٤) الحوادث والبدع ص ٣١ .

ومن هذه الفرق تشعبت سائر الفرق ، وقد ألف فيها وفى بيان نحلها مؤلفات قديما وحديثا .

وكان من أول هذه الفرق الشيعة فإنها حدثت فى آخر عصر الصحابة ، ثم تطور التشيع الى الرفض ، ومبدأه من ابن سبأ اليهودى ، وغيره من المجوس ممن دخل فى الإسلام ظاهرا وفى الباطن هم إما يهود ماكرون ، أو مجوس موتورون ، قصدهم إفساد الدين الإسلامى ، كما تقدم .

فكان الرفض فى أوله يسمى التشيع ، فاشتهروا بالشيعة – أى شيعة علي ابن أبى طالب ، وكانوا فى زمنه ثلاث فرق .

فرقة تقول : إنه إلٰه ، وقد صرحوا له بذلك فحرق الذين تمكن منهم بالنار .

والثانية : الذين يسبون أبا بكر وعمر ، وقد توعد علي – رضى الله عنه – من فعل ذلك بأن يقيم عليه الحد – قيل : إنه القتل .

والثالثة المفضلة ، الذين يفضلون علياً على أبى بكر ، وعمر ، وبقية الصحابة ، وقد روى عنه أنه قال : « لا أتى برجل يفضلنى على أبى بكر وعمر إلا جلدته الحد » [١] .

ولما خرج زيد بن علي بن الحسين فى أوائل المائة الثانية ، سأله الشيعة عن أبى بكر وعمر ، فترضى عنهما ، وبين أنه يتولاهما ، تبرأ منه عند ذلك أكثرهم ، فقال : رفضتمونى ، فسموا الرافضة ، والذين اتبعوه سموا زيدية .

وأما القدرية : فأصلهم فيما يبدو والله أعلم ، من المجوسية المتعاونة مع اليهودية والنصرانية على حرب الإسلام .

---

(١) انظر فضائل الصحابة للإمام أحمد جـ ١ ص ٨٣ .

وحدثت هذه الضلالة أيضا فى آخر عهد الصحابة – رضى الله عنهم – ثم تطورت إلى الاعتزال .

وقد اغتر بهذا المبدأ كثير من الناس ، الذين عجزت عقولهم عن استيعاب الإيمان بقدر الله ، وأمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وظنوا امتناع الجمع بين ذلك ، فنفوا علم الله بالمستقبل لظنهم أنه لايحسن أن يأمر من يعلم أنه يعصى أمره ثم يعذبه على ذلك ، حيث جعلوا هذا ظلما لايجوز فقابلتهم الجبرية ، الذين هم صنو منهم ، ثم تطورت إلى التجهم ، والتعطيل بتغذية اليهودية ، المفسدة فى الأرض .

وأما الخوارج فهم الذين خرجوا عن الحق من جيش أمير المؤمنين علي بن أبى طالب ، وهم كذلك كان ظهورهم فى آخر عهد الصحابة رضى الله عنهم . وهم إنما أتوا من سوء فهمهم للنصوص ، ولم يقصدوا مخالفة القرآن ، ولكن فهمهم أداهم إلى مالم يدل عليه القرآن ، وهو تكفير أهل الذنوب ، والقول بخلودهم فى النار ، ولابد أنه اندس فى صفوفهم من يضللهم من منظمات الموتورين ، والحاقدين على دين الله وعباده المؤمنين .

وأما الإرجاء ، فإنه وإن كان أخف هذه البدع ، ومعتنقوه من أقربهم إلى أهل السنة ، ففيه من الضلال ، والمخالفة لشرع الله تعالى ماهو معروف فى مواطنه .

الأشعرية

من نتائج الافتراق والتشتت ، برزت الأشعرية ، وهى عبارة عن خليط من مذاهب عدة فرق ، كالمعتزلة ، والكلابية ، والجهمية ، وقد كان إمام هذه النحلة – أبو الحسن الأشعرى – تلميذاً لأبى علي الجبائى ، قرأ عليه أصول المعتزلة ، ولازمه ما يقرب من أربعين عاما ، ولهذا كان خبيراً بمذاهب المعتزلة ، ثم انتقل إلى طريقة عبد الله بن سعيد بن كلاب ، وهى أقرب إلى مذهب أهل السنة من طريقة

المعتزلة ، وجعل يبين فساد مذهب الاعتزال ويرد عليهم ، ويوضح فساد أصولهم . وتناقضهم ، وبعدهم عن الحق ، ومثلهم الرافضة والفلاسفة ، ولهذا صار له ذكر حسن وقدر عند المسلمين .

والذين ينتسبون إليه من المتأخرين ليسوا على طريقته ، مع أنه لم يكن من أهل السنة المحضة ، إذ لم يستطع أن يتخلص من بعض مسائل أهل الكلام .

قال شيخ الإسلام : « لا ريب أن الأشعرية إنما تعلموا الكتاب والسنة من أتباع الإمام أحمد ، ونحوه ، ولهذا يوجد أكثر ألفاظه التى يذكرها عن أهل السنة والحديث ، إما ألفاظ زكريا بن يحي الساجى ، التى وصف بها مذهب أهل السنة ، أو ألفاظ أصحاب الإمام أحمد ، وما ينقل عن أحمد فى رسائله الجامعة فى السنة ، وإلا فالأشعرى لم يكن له خبرة بمذهب أهل السنة ، وأصحاب الحديث ، وإنما يعرف أقوالهم من حيث الجملة ، لا يعرف تفاصيل أقوالهم ، وأقوال أئمتهم ، وقد تصرف فيما نقله عنهم باجتهاده فى مواضع يعرفها البصير .

وأما خبرته بمقالات أهل الكلام فكانت تامة على سبيل التفصيل .

ولهذا لم يذكر عن أهل السنة فى كتاب « مقالات الإسلاميين » إلا جملة مقالاتهم ، مع أن لهم فى تفاصيل تلك ماليس لأهل الكلام .

ولا ريب أن للأشعرى فى الرد على أهل البدع كلاما حسناً ، هو من الكلام المقبول ، الذى يحمد قائله إذا أخلص فيه النية .

وله أيضا كلام خالف به بعض السنة هو من الكلام المردود ، الذى يذم قائله إذا أصر عليه بعد قيام الحجة » (١) والله يغفر لنا وله .

وقد انتسب إلى الأشعرى أكثر العالم الإسلامى اليوم من أتباع المذاهب الأربعة ، وهو يعتمد على تأويل نصوص الصفات تأويلا يصل أحيانا إلى

---

(١) التسعينية جـ ٥ ص ٢٨٦ – ٢٨٧ من الفتاوى المصرية . ملخصا .

التحريف ، وأحيانا يكون تأويلا بعيداً جداً ، وقد امتلأت الدنيا بكتب هذا المذهب ، وادَّعى أصحابها أنهم أهل السنة ، ونسبوا من آمن بالنصوص على ظاهرها إلى التشبيه والتجسيم .

هذا ولابد لعلماء الإسلام – ورثة رسول الله ﷺ – من مقاومة هذه التيارات الجارفة ، على حسب ماتقتضيه الحال ، من مناظرات ، أو بالتأليف ، وبيان الحق بالبراهين العقلية والنقلية ، وقد يصل الأمر أحيانا إلى شهر السلاح .

وقد أكثر علماء السنة من التأليف فى الرد على أهل الأهواء والانحراف ، كما ظهر بعض الطوائف المقابلة لتلك البدع كالسالمية والكلابية ، الذين تولوا أيضا الرد على أهل تلك الانحرافات ، غير أنهم كثيراً مايردون البدع ببدع مماثلة لما يرد أو قريبا منها ، فيزداد من أجل ذلك التباس الحق على كثير من الناس ، بخلاف ما إذا كان الرد بما دل عليه كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، كما هو نهج أهل السنة بالإضافة إلى المعقول الصريح .

ومن كبار علماء السنة الذين ردُّوا على أهل البدع ، الإمام البخارى – رحمه الله تعالى – فى كتاب أفرد لذلك سماه « خلق أفعال العباد » ، ولم يقتصر فيه على ما يفهم من الاسم ، بل ردَّ فيه على الجهمية والقدرية وغيرهم ، كما رد على المرجئة فى كتاب الإيمان من الجامع الصحيح ، ورد على الجهمية والمعتزلة ومن سلك طريقهم فى كتاب التوحيد ، الذى ختم به كتابه الجامع الصحيح ، وسلك فيه طريقا واضحا فى الرد ، إذ اقتصر على ذكر النصوص ، من الكتاب والسنة ، التى فيها بيان بطلان مذاهب هؤلاء المشار إليهم ، فكأنه يقول : هذا كتاب ربنا الذى أنزله علينا وأمرنا باتباعه ، وحضَّنا على تدبره وفهمه ، وجعله هدى ونوراً وشفاءً للمؤمنين به ، وهذه سنة نبينا الذى كلفنا بطاعته ، ومتابعته ، وفيهما العصمة عن الخطأ ، وهما صريحان فى بيان الحق ، الذى ضل عنه هؤلاء المبتدعة ، وقد تكفلا برد ماجاؤا به ، فلا يسع المسلم إلا الأخذ بهما ، ورد ما خالفهما ، ففيهما الهدى والنور ، وفى تركهما الضلال والهلاك ، والله تعالى لم يكلنا إلى

عقولنا ، بل أرسل إلينا رسولا بين لنا كل ما نحتاج إليه من أمور ديننا ، وأنزل عليه كتابه ، فيه تبيان لكل شئ ، فرَّق فيه بين الحق والباطل ، فلسنا نحتاج معه إلى غيره ، فإن تمسكنا به أوصلنا إلى الله من أقرب طريق وأهداه ، وإن أعرضنا عنه تخطفتنا الشياطين من كل جانب كما قال الله تعالى : (ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمَن نقيّض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بُعْدَ المشرقين فبئس القرين) (١) .

الإمام البخارى

هو أبو عبد الله ، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه (٢) .

قال النووى : « اتفق العلماء على أنه ولد بعد صلاة الجمعة ، لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال ، سنة أربع وتسعين ومائة ، وتوفى ليلة السبت ، عند صلاة العشاء ليلة الفطر ، سنة ست وخمسين ومائتين ، ودفن يوم الفطر بعد الظهر » (٣) .

طلب العلم من صغره ، وتبينت نجابته وذكاءه ، وفطنته ، وحفظه ، ونبله من صغره ، وقد طوف البلاد مراراً لطلب الحديث ، وأخباره مشهورة ، واتفق العلماء على جلالته ، وإمامته فى الحديث ، وفقهه ، وتميز بذلك عن غيره ، وقد كتب فى ترجمته كثيرا ، فى كتب الرجال ، والشروح ، وأفرد لذكر فضائله ، وشمائله كتب خاصة ، فلا نطيل فى ذلك .

وأما كتابه « الجامع الصحيح » فقال النووى – رحمه الله – : « اتفق

---

(١) الآيات من ٣٦ – ٣٨ من سورة الزخرف .
(٢) هدى السارى جـ ٢ ص ٢٥٠ ، وتاريخ بغداد جـ ٢ ص ٤ .
(٣) شرح النووى للبخارى ص ٤ .

العلماء على أن أصح الكتب المصنفة صحيحا البخارى ومسلم ، واتفق الجمهور على أن صحيح البخارى أصحهما صحيحا ، وأكثرهما فوائد » (١)

قلت : هو كتاب عظيم ونافع جدا لمن قرأه ، وتدبره ، وقد أودعه من التراجم التى تعين على الفهم الشئ الكثير ، وهى تدل على عظيم فقهه فى الحديث ، ودقة استنباطه ، وقد بلغت ثلاثة آلاف وثمانمائة واثنتين وثمانين ترجمة ، وتزيد على ذلك فى بعض النسخ .

هذا ، وقد اعتنى العلماء به عناية فائقة ، قراءة ، وحفظاً ، وتدريساً ، وشرحاً . فحظى بشروح كثيرة جدا ، فذكر فى كشف الظنون ما يقرب من ثمانين شرحا للبخارى (٢) ، وله أكثر من ذلك بكثير .

ومع هذا ، فإن كتاب التوحيد منه بحاجة إلى شرح يبين مقاصد البخارى – رحمه الله تعالى – ووجه الرد منه على أهل البدع ، لأن غالب من قام بشرحه ، على المذهب الأشعرى ، ولاسيما الشروح المتداولة اليوم ، ولهذا تجد أحدهم يوجه الكلام من النصوص ، ليتفق مع مايعتقده ، ولو بالتعسف .

وكثير من الصفات التى يثبتها البخارى ، مستدلا عليها بنص من كتاب الله ، أو عن رسوله ، يحاولون ردها ، إما بالتحريف الذى يسمونه تأويلا ، أو بدعوى الإجماع على خلافها ، كما ذكر الحافظ – رحمه الله تعالى – عن ابن بطال ، فى قوله – ﷺ : « لا شخص أغير من الله » .

قال : « أجمعت الأمة على أن الله تعالى لا يجوز أن يوصف بأنه شخص » (٣) .

---

(١) شرح النووى للبخارى ص ٧ .
(٢) انظر كشف الظنون جـ ١ ص ٥٤٥ .
(٣) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٠ وسيأتى إن شاء الله الكلام عليه وذكر من رواه .

وذكر عن الخطابى : أنه رد وصف الرب – تبارك وتعالى – بالأصابع كما فى حديث عبد الله بن مسعود فى ذكر الخبر الذى سأل رسول الله – ﷺ – ونسب ذلك إلى تخليط اليهود ، وتشبيههم ، وقال فى قوله فى الحديث « فضحك رسول الله – ﷺ – تصديقا لقوله » أنه ظن من ابن مسعود ،وحسبان ، وحاول عكس الأمر ، وأن الضحك من جرأة اليهود على التشبيه (١) ، وأمثال ذلك كثير ، مما هو خلاف ما أراد إثباته مؤلف الكتاب .

ولذلك أرى من الواجب أن يتولى شرح هذا الكتاب العظيم ، الذى ألفه ذلك الرجل السلفى الفاهم للحق تمام الفهم ، من هو على نهج المؤلف فى العقيدة ، ويفهم مقصده ، وماذا يريد من إيراده للنصوص .

ولما أعوزنى وجود شرح على هذا الوصف ، ولم يسعفنى من طلبت منه القيام بذلك من مشائخنا ، تطفلت على كتب العلماء ، وقمت بجمع ما أراه مناسبا لشرح ماأورده البخارى – رحمه الله تعالى – وأرجو من الله الإمداد بالعون والسداد ، فإنه لايخيب سأله ، ولا يحرم أمله ، ولست أزعم أننى أفهم من كتاب البخارى – رحمه الله – مالا يفهمه شارحوه ، أمثال ابن حجر ، والعينى والخطابى وابن بطال ، والقسطلانى وغيرهم ، ولكن لكل منهم نهجه الخاص ، وعقيدته التى تملى عليه مسلكا معينا .

١ ــ وطريقتى فيه أنى أذكر نص الحديث بسنده ، ثم أتبعه بترجمة لراويه من الصحابة موجزة جداً .

٢ ــ أحاول بيان مراد البخارى – رحمه الله – من إيراده للنص ، وبيان وجه استدلاله بذلك ، حسب المستطاع .

---

(١) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٣٩٨ . وسيأتى إن شاء الله تعالى ذكر ذلك فى موضعه ، وإبطاله بالبراهين المعتمدة على الحق اليقينى ، لا ظنون المتكلمين وشكوكهم ، والله المستعان .

٣ ــ أعزو الكلام إلى قائله ، مبينا مكانه من المصدر ، بالجزء والصفحة . وأذكر رقم الآية واسم السورة ، ومكان الحديث فى المصدر ، وأما صحيح البخارى فغالبا أعزوما فيه إلى الفتح .

٤ ــ لا أتطرق إلى الكلام على رجال السند ، إذ هو أمر مفروغ منه ، فكل مافى البخارى ثابت ، عن المصطفى ﷺ . وقد تلقته الأمة بالقبول . فلا يطعن فيه إلا من له غرض . أو فى قلبه مرض ، خلا بعض المعلقات ، وقد تولى الحافظ رحمه الله وصل أسانيدها ، والإجابة عما قيل فيها فى كتابه تغليق التعليق .

٥ ــ أحاول جهدى بيان مذهب السلف ، فى أسامى الله تعالى ، وأوصافه ومدى تمسكهم بالكتاب والسنة ، مستعينا على ذلك بنقل ما تيسر لى من كلامهم على سبيل الإيجار .

٦ ــ أحاول رد القول الباطل ، أو الضعيف ، الذى لاتؤيده النصوص ، إذ أن مبنى أوصاف الله تعالى على ثبوت النص فى ذلك ، ولادخل لقياس وعقل فى ذلك ، وكل ذلك حسب المستطاع .

* * *

قال البخارى – رحمه الله تعالى :

« باب ماجاء فى دعاء النبى – ﷺ أمته إلى توحيد الله – تبارك وتعالى »

* * *

مقصده بهذا أن يبين أن النبى – ﷺ – قد أوضح مايجب على المسلم أن يعتقده فى حق الله – تعالى نفيا و إثباتا ، وأوضح مايجب لله على عباده ، من توحيد القصد والنية ، لأن قوله : « توحيد الله » يعم أنواع التوحيد ، فلم يترك الأمر مشتبها ، بل بينه ، فيجب أن يتبع بيانه فى ذلك ، فلا يصار إلى رأى متكلم ، أو عقل متفلسف ، أو قول مؤول .

وقوله : « دعاء النبى – ﷺ – أمته » أى الدعوة التى كلفه الله بها وأمره بإبلاغها .

يعنى : أن هذا مقصود الرسالة ، فلابد أن يبينه ، ويبلغه أمته ، البلاغ المبين ، بحيث لايبقى فيه التباس ، أو اشتباه .

وقد قام – صلوات الله وسلامه عليه – بهذا الواجب خير قيام ، فأوضحه غاية الإيضاح ، فلا عذر لمن انحرف عنه ، وتلقى توحيده من الفلاسفة والمتكلمين الذين كثر فى هذا الباب اضطرابهم ، وغلظ عن معرفة الله تعالى حجابهم [١] .

وهو بهذا يبين أن معرفة التوحيد ، الذى جاء به رسول الله – ﷺ –

---

(١) اقتباس من كلام شيخ الإسلام فى أول الحموية ، انظر ص ٥ بتعليقات محمد عبد الرزاق حمزة .

ودعا أمته إليه ، لايمكن الوصول إليها إلا بما جاء به - ﷺ - من كتاب الله تعالى ، وسنته التي هى شارحة ومبينة لكتاب الله تعالى .

والأمة هنا يقصد بها الأمة المطلقة - أى أمة الدعوة .

* * *

١ ـ « حدثنا أبو عاصم ، حدثنا زكريا بن إسحاق ، عن يحي ابن عبد الله بن صيفى ، عن أبى معبد ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبى - ﷺ - بعث معاذا إلى اليمن » .

٢ ـ وحدثنى عبد الله بن أبى الأسود ، حدثنا الفضل بن العلاء ، حدثنا إسماعيل بن أمية ، عن يحى بن عبد الله بن صيفى ، أنه سمع أبا معبد مولى ابن عباس يقول : سمعت ابن عباس يقول : « لما بعث النبى - ﷺ - معاذا إلى نحو أهل اليمن ، قال له : إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب ، فليكن أول ماتدعوهم ، إلى أن يوحدوا الله تعالى . فإذا عرفوا ذلك ، فأخبرهم ، أن الله فرض عليهم خمس صلوات ، فى يومهم وليلتهم فإذا صلوا ، فأخبرهم ، أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم ، تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم فإذا أقروا بذلك ، فخذ منهم ، وتوق كرائم أموال الناس » .

* * *

عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، الهاشمى ، ابن عم رسول الله ﷺ ، وحبر هذه الأمة ، من المكثيرين عن النبى ﷺ ، وجلّ مايرويه بواسطة أحد الصحابة ، دعا له النبى ﷺ - بأن يفقهه الله فى الدين ، ويعلمه التأويل ، فظهرت عليه آثار دعوته - ﷺ - حتى عرف بأنه ترجمان القرآن .

توفى النبى ﷺ - وهو ابن خمس عشرة سنة ، على الراجح .

وقد توفى سنة ثمان وستين - فى الطائف (١) .

ومعاذ بن جبل بن عمرو بن أوس ، الأنصارى ، الخزرجى ، من علماء الصحابة وساداتهم قال له رسول الله - ﷺ فيما رواه أبو داود ، والنسائى بإسناد صحيح : « والله يا معاذ إنى أحبك » (٢)

وقال ابن مسعود : « إن معاذاً كان أمة ، قانتاً لله حنيفياً ، ولم يكن من المشركين إنا كنا لنشبه معاذاً بإبراهيم ، عليه السلام » (٣)

شهد العقبة ، والمشاهد كلها مع رسول الله - ﷺ - توفى فى الشام بطاعون عمواس ، سنة ثمانى عشرة ، وكان عمره ثمان وثلاثون سنة (٤)

قوله : « بعث معاذاً إلى اليمن » أى أرسله مبلِّغا عنه ، وداعيا إلى عبادة الله وتوحيده

« وأصل البعث إثارة الشىء ، وتوجيهه .

ويختلف باختلاف ماعلق به .

فبعثت البعير : أثرته من مبركه ، وسيرته ، وقوله تعالى : (والموتى يبعثهم

---

(١) انظر الإصابة جـ ٤ ص ١٤١ ، تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٣٧ ، أسد الغابة جـ ٣ ص ٢٩٠ ، سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ٣٣١ وغيرها كثير .

(٢) السنن جـ ٢ ص ١٨٠ الحديث رقم ١٥٢٢ ، وانظر المجتبى جـ ٣ ص ٥٣ .

(٣) انظر الإصابة جـ ٦ ص ١٣٧ .

(٤) سير أعلام النبلاء جـ ١ ص ٤٤٣ ، أسد الغابة جـ ٥ ص ١٩٤ ، الإصابة جـ ٦ ص ١٣٦ .

الله) (١) أى يخرجهم من الأرض أحياء ، ويسيرهم إلى المحشر .

وقوله تعالى : (ولكن كره الله انبعاثهم) (٢) أى توجههم ، ومضيهم معك .

وقوله تعالى : (فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض) (٣) أى قيضه لذلك .

وقوله تعالى : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا) (٤) أى أرسلناهم لدعوة قومهم ، إلى الله تعالى ، فالبعث ضربان :

أحدهما يتعلق بفعل المخلوق ، كبعث البعير ، وبعث الإنسان فى حاجة .

والثانى : إلٰهى ، وهو قسمان :

الأول إيجاد الأعيان ، والأجناس ، والأنواع من العدم ، على غير مثال سابق ، وهذا خاص بالله تعالى .

والثانى : إحياء الموتى ، وهذا قد أعطى جل وعلا بعض من يشاء من عباده شيئا منه ، كعيسى – عليه السلام – ليكون آية على صدقه » (٥)

و « اليمن » اسم البلاد المعروفة الواقعة فى الجنوب الغربى من جزيرة العرب .

قال فى القاموس : « اليمن ماكان عن يمين القبلة من بلاد الغور » (٦) وفى المراصد : « سميت اليمن لتيامنهم إليها ، لما تفرقت العرب من مكة ، كما سميت

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٤٦ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٣١ من سورة المائدة .
(٤) الآية ٣٦ من سورة النحل .
(٥) المفردات للراغب بتصرف ص ٥٢ .
(٦) القاموس جـ ٤ ص ٢٧٩ .

الشام لأخذهم الشمال » (١) .

قلت : وفيه نظر . وذلك أن اليمن قديم ، قبل وجود مكة على يدي إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ، إلا أن تكون التسمية حادثة وقال قطرب : « سمى اليمن ليمينه » (٢) .

قال الحافظ : « كان بعث معاذ إلى اليمن سنة عشر ، قبل حجة الوداع » (٣) . وعند أهل المغازى ، أن ذلك فى ربيع الآخر ، من سنة تسع ، والصحيح ماقاله الحافظ . وقد أشار البخارى – رحمه الله – إلى ذلك بقوله : باب بعث أبى موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع » (٤)

وقيل : كان ذلك فى اواخر سنة تسع ، عند منصرفه – ﷺ من تبوك ، رواه الواقدى بإسناده إلى كعب بن مالك ، وحكى ابن سعد أنه كان فى ربيع الآخر سنة عشر » (٥) فالله أعلم .

قوله : « إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب » . تقدم بفتح الدال ماضيه ثلاثى مكسور العين ، ومصدره قدوما ، لأنه يدل على معالجة .

« القوم » الجماعة من الرجال ، والنساء ، أو من الرجال خاصة وتدخل النساء على التبعية . قاله فى القاموس (٦) .

« وأهل الكتاب » هم اليهود والنصارى ، « والمقصود هنا اليهود ، وكان

---

(١) المراصد جـ ٣ ص ١٤٨٣ .
(٢) تاج العروس جـ ٩ ص ٣٧١ .
(٣) الفتح جـ ٣ ص ٣٥٨ .
(٤) انظر البخارى جـ ٥ ص ٢٠٤ .
(٥) انظر الفتح جـ ٣ ص ٣٥٨ .
(٦) انظر القاموس جـ ٤ ص ١٦٨ .

ابتداء دخولهم اليمن فى زمن « أسعد ذى كرب » تبع الأصغر ، كما ذكر ذلك ابن إسحاق فى السيرة » (١) .

والمقصود بالكتاب : الجنس ، والمراد : التوراة ، والإنجيل .

وسمى اليهود ، والنصارى أهل الكتاب ، لأن الله تعالى أنزل عليهم التوراة والإنجيل ، فيهما أوامر الله ، ونواهيه ، ليعملوا بهما – وهدى من الله ونور يخرجهم من ظلمات الغى والشهوات قال الله تعالى : (وأنزل التوراة والإنجيل . من قبل هدى للناس) (٢) . فتوارثوه جيل عن جيل ، ثم إنهم حرفوه ، وغيروا فيه وزادوا ونقصوا ، فاختلط حقه فى باطلهم ، ثم نسخه الله تعالى بالقرآن الذى أنزله على خاتم الرسل – ﷺ .

قال الحافظ : قوله : « إنك تقدم » الخ . كالتوطئة للوصية ، لتستجمع همته عليها لكون أهل الكتاب ، أهل علم فى الجملة ، فلا تكون مخاطبتهم كمخاطبة أهل الجهل من عبدة الأوثان » (٣) . ولايدل على أن كل من يقدم عليهم من أهل الكتاب ، بل أغلبهم من عبدة الأوثان ، كما هو معلوم .

قوله : « فليكن أول ماتدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى » اللام للأمر ، وإذا اقترنت بالفاء أو الواو فهى ساكنة فى الغالب الأكثر .

وقوله : « إلى أن يوحدوا الله تعالى » ذكره فى الزكاة بلفظ : « ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله » (٤) .

وفى رواية : فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله ، فإذا عرفوا الله

---

(١) فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٤٨ .
(٢) الآية ٣ ، ٤ من سورة آل عمران .
(٣) الفتح جـ ٣ ص ٣٥٨ .
(٤) انظر الفتح جـ ٣ ص ٢٦١ .

فأخبرهم » الخ [١]

وفى أخرى : « فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » [٢] .

وفى رواية لمسلم : « فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله – عز وجل – فإذا عرفوا الله فأخبرهم » الخ [٣] .

وهذه الروايات متفقة فى المعنى .

فمعنى شهادة أن لا إلٰه إلا الله ، توحيد الله بالعبادة ، والبعد عن عبادة ماسواه ، وهذا هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ، الذى قال الله تعالى فيه : (فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) [٤] .

والطاغوت : كل ما عبد من دون الله ، كما قال مالك – رحمه الله [٥] سواء كان من البشر ، أو من الحجر ، أو الشجر ، أو الحيوان ، أو الأضرحة والعتبات .

والكفر به : الابتعاد عن عبادته ، التى هى طلب البركات منه ، أو

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٢٢ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٥٧ وجـ ٨ ص ٦٤ الفتح .
(٣) انظر مسلم بشرح النووى جـ ١ ص ١٩٩ .
(٤) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة .
(٥) قال ابن جرير : « الطاغوت كل ذى طغيان على الله لمن عبده من دونه ، إما بقهره لمن عبده أو بطاعة من العباد له ، إنسانا كان ذلك المعبود ، أو شيطانا ، أو وثنا ، أو صنما ، أو كائنا ما كان من أى شئ » انظر تفسير الطبرى جـ ٥ ص ٤١٩ تحقيق أحمد ومحمود شاكر .

الشفاعات أو دفع البليات ، أو إنالة الحاجات ، أو التوجه إليه بالدعاء ، ولابد من بغضه وعداوته ، وعداوة عابديه ومقاطعتهم ، والتبرىء منهم . لقول الله تعالى : (لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) (١)

والإيمان بالله – تعالى – هو : إفراده بالعبادة ، التى تتضمن غاية الحب ومنتهاه مع غاية الذل وأقصاه ، والانقياد لأمره ، والتسليم له .

وهذا هو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله ، كما قال ﷺ لوفد عبد القيس « آمركم بالإيمان بالله وحده ، أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال شهادة أن لا إله إلا الله » الخ (٢) .

وقال تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك) (٣) ، أخذ البخارى رحمه الله من هذه الآية وجوب العلم قبل العمل ، فقال : باب العلم قبل القول والعمل . لقول الله تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) (٤)

فالعلم بمعنى هذه الشهادة التى لابد لكل داخل فى دين الإسلام أن يشهد بها هو الإيمان المطلوب من العباد ، وهو معرفة حق الله على عباده ، الذى لايجوز الإخلال بشىء منه ، وإلا استحقوا عذابه .

وأما معنى شهادة أن محمداً رسول الله ، فهو : العلم اليقينى بأنه رسول من الله كلَّفه إبلاغه العباد أوامر الله ونواهيه ، وطاعته فى كل ماأمر به ، واجتناب ما نهاهم عنه ، وأن لا يعبد الله إلا بما جاء به ، وأن كل من سلك طريقا غير سنته

---

(١) الآية ٢٢ من سورة المجادلة .

(٢) انظر الفتح البخارى جـ ١ ص ١٢٩ ، ومسلم بشرح النووى جـ ١ ص ١٨٨ .

(٣) الآية ١٩ من سورة محمد ﷺ

(٤) انظر الفتح جـ ١ ص ١٥٩ .

فمصيره إلى النار ، وأنه بلَّغ العباد ما أرسل به ، وبيَّن لهم دينهم أتم بيان ، وأنه عبد الله أكرمه بالرسالة ، وليس له من العبادة شيء ، بل العبادة كلها لله تعالى .

وهاتان الشهادتان متلازمتان ، لا تقبل إحداهما دون الأخرى ، فمن شهد أن لا إله إلا الله ، ولم يشرك به شيئا ، ولم يشهد أن محمداً رسول الله ، فهو كافر بالله وخالد فى النار ، وإن جاء بعبادة أهل الأرض .

ومن شهد أن محمداً رسول الله ، وأشرك بالله شيئا شركا كبيراً ، فهو كافر خالد فى النار ، فلابد من اجتماع هاتين الشهادتين فى العبد حتى يكون موحِّداً .

وأما مجرد النطق بشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، مع عبادة غير الله وتعلق القلب بمن يعتقدهم أولياء ، وطلب الحاجات منهم التى لايقدر عليها إلا الله ، ومع مخالفة أوامر رسول الله – ﷺ – وارتكاب مانهى عنه ، فإن ذلك لايفيد شيئا ، ولايكون الإنسان به مسلماً .

قال النووى – رحمه الله : « واتفق أهل السنة من المحدثين والفقهاء ، والمتكلمين على أن المؤمن الذى يحكم بأنه من أهل القبلة ، ولايخلد فى النار ، لايكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام ، اعتقاداً جازماً خالياً من الشكوك ، ونطق مع ذلك بالشهادتين ، فإن اقتصر على أحدهما لم يكن من أهل القبلة أصلا ، بل يخلد فى النار ، إلا أن يعجز عن النطق لخلل فى لسانه » (١) .

وهذه الشهادة أيضا تتضمن الإيمان بأسماء الله وصفاته ، لأن ذلك من عبادة الله التى تعبَّدَ الخلق بها .

وهذا الحديث دليل ظاهر على أن التوحيد الذى هو إخلاص العبادة لله وحده ، والبعد عن عبادة ماسواه ، والإيمان بأسمائه وصفاته كما جاءت فى وحيه إلى رسله – هو أول واجب على العباد .

---

(١) شرح النووى للبخارى ص ١١٣ .

لا كما يقول أهل الكلام ، من المعتزلة ، والأشعرية ، وغيرهم : أن أول مايجب على العبد ، النظر فى الأدلة العقلية على وجود الله تعالى ، أو القصد إلى النظر أو الشك ، فهذا الحديث وأمثاله من نصوص الكتاب والسنة يبطل هذا الزعم الخاطىء .

« وذلك أن أصل العلم الإلهى ومبدأه ، هو الإيمان بالله ورسوله ، والاهتداء بوحيه ، كما قال تعالى : (قل إن ضللتُ فإنما أضِلّ على نفسى ، وإن اهتديت فبما يوحى إلىَّ ربى إنه سميع قريب) (١) . وقال تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا) (٢)

وقال ﷺ : « أمرت أن أُقاتل الناس ، حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم ، وأموالهم إلا بحقها » (٣)

ولهذا ابتدأ البخارى – رحمه الله تعالى – صحيحه ببدأ الوحى ونزوله ، الذى يحصل به الهدى ، والنور ، ثم أتبعه بكتاب الإيمان ، الذى هو الإقرار بالوحى والانقياد له ، ثم أتبعه كتاب العلم الذى هو معرفة ماجاء به الرسول ﷺ ، وفقهه ، فهذا هو الترتيب الحقيقى .

والمطلع على أقوال أهل الكلام يعجب مما جعلوه أصل الدين الإسلامى ، وبنوا عليه أن من لم يعرفه فليس بمسلم .

---

(١) الآية ٥٠ من سورة سبأ .

(٢) الآية ٥٢ من سورة الشورى .

(٣) رواه البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن عمر ، انظر الفتح جـ ١ ص ٧٥ ، وانظر مسلم بشرح النووى جـ ١ ص ٢١٢ ، وروى من حديث جماعة من الصحابة فى الصحيحين وغيرهما .

قال القرطبى : « لو لم يكن فى الكلام إلا مسألتان ، هما من مبادئه لكان حقيقا بالذم ، إحداهما قول بعضهم : إن أول واجب الشك ، إذ هو اللازم لوجوب النظر ، أو القصد إلى النظر .

والثانية : قول جماعة منهم : من لم يعرف الله بالطرق التى رتبها أهل الكلام ، لم يصح إيمانه .

والقائل بهاتين المسألتين كافر ، لجعله الشك فى الله – تعالى – واجبا ، ومعظم المسلمين كفارا ، حتى يدخل فى عموم كلامه السلف الصالح ، من الصحابة والتابعين ، وهذا معلوم الفساد من الدين بالضرورة ، وإلا فلا يوجد فى الشرعيات ضرورى » (١) .

وقال الغزالى : « أسرفت طائفة فكفَّروا عوام المسلمين ، وزعموا أن من لم يعرف العقائد الشرعية بالأدلة التى حرَّروها فهو كافر ، فضيقوا رحمة الله الواسعة ، وجعلوا الجنة مختصة بشرذمة يسيرة من المتكلمين » (٢) .

وقوله : « فإذا عرفوا ذلك ، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات فى يومهم وليلتهم » .

أى إذا عرفوا توحيد الله ، وعملوا به ، بأن أخلصوا عبادتهم لله وحده ، واجتنبوا عبادة كل معبود سواه ، عند ذلك يخبرون بفرائض الإسلام ، ويؤمرون بها ، وأعظمها بعد التوحيد الصلوات الخمس .

وفى هذا دليل على أنه لا يجب على العبد من الصلاة غير الخمس المذكورة .

ومعلوم أن بعث معاذ إلى اليمن فى آخر حياة الرسول – ﷺ – كما سبق .

---

(١) من الفتح جـ ١٣ ص ٣٥٠ بتصرف .
(٢) نفس المصدر جـ ١٣ ص ٣٤٩ بتصرف أيضا .

كما فيه : أنه يجب على إمام المسلمين بعث الدعاة إلى توحيد الله تعالى ، وتعليم الناس شرائع الإسلام ، وأمرهم بالتزامها ، وجباية الزكاة ، ودفعها إلى مستحقيها ، الذين ذكرهم الله تعالى بقوله : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) الآية (١) .

وفيه : أن الإنسان لايصير مسلما إلا إذا وحَّد الله تعالى بالعبادة ، بأن لايقصد بعبادته غير الله أحداً ، بل تكون عبادته كلها لله وحده ، وهذا هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأما معنى شهادة أن محمداً رسول الله هو أن يعبد الله بما جاء به الرسول - ﷺ ، والإيمان بأن الله أوحى إليه أوامره ، ونواهيه ، وكلفه إبلاغ الثقلين ذلك .

وفيه : أن أى تعبد يتعبد به العبد غير معتبر ، ولا معتدّ به بدون التوحيد .

وفيه : أن أخذ خيار المال فى الزكاة ظلم يجب اجتنابه .

وقصد البخارى - رحمه الله - بيان أن النبى - ﷺ - قد بيَّن للناس التوحيد بأنواعه ، وأنه أول واجب ، وأول مايدعى إليه ، فلا حاجة بعد بيانه إلى بيان أحد من الناس ، كما تقدم .

قال شيخ الإسلام : « وقد علم بالاضطرار من دين الرسول - ﷺ - واتفقت عليه الأمة ، أن أصل الإسلام ، وأول مايؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فبذلك يصير الكافر مسلما ، والعدو ولياً ، والمباح دمه وماله ، معصوم الدم والمال ، ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل فى الإيمان .

وإن قاله بلسانه دون قلبه ، فهو فى ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان » (٢)
والبخارى - رحمه الله - فى بداءة كتاب التوحيد بهذا الحديث ، يشير إلى الرد على

---

(١) الآية ٦٠ من سورة التوبة .

(٢) نقلا من يثير العزيز الحميد ص ١٠١ .

المتكلمين الذين جعلوا عمدتهم ، فى إثبات ما يثبتون ، ونفى ماينفون العقل .

فهذا الحديث دل على أن أول مايجب على العبد ، عبادة ربه تعالى بامتثال أوامره ، واجتناب مانهى عنه ، وأن المقصود من الدعوة : وصول العباد إلى ماخلقوا له ، من عبادة الله تعالى وحده لاشريك له .

ولا سبيل إلى ذلك إلا بابتاع الوحى الذى جاء به محمد – ﷺ – فيجب أن يتبع ، وأن يكون هو الأصل المعول عليه فى معرفة عبادة الله ، والإيمان به ، وبرسله . وملائكته ، وكتبه ، واليوم الآخر ، والإيمان بأسمائه وصفاته وعبادته بها ، خلافاً لطريقة المتكلمين ، الذين جعلوا عمدتهم عقولهم فى إثبات وجود الله تعالى ، بناء على حدوث الكون ، ثم إثبات صفاته نفيا وإثباتا بالقياس العقلى ، ثم إثبات النبوات ، ثم بعد ذلك يتكلمون فى السمعيات .

وهذه طريقة المعتزلة ، والكرامية ، والكلابية ، والأشعرية ، غير أن الأشعرية سلكوا هذه الطريقة فى الأصول الاعتقادية العلمية ، دون العملية .

وأما المعتزلة فلم يفرقوا بين العقيدة ، والعمل فى القياس العقلى . حتى إنهم ينظرون إلى القدر المشترك فى الأفعال بين الرب والعباد ، فما كان حسناً من العباد فى نظرهم ، فهو عندهم حسن من الله تعالى ، وما كان قبيحا منهم ، فهو من الله تعالى قبيح ، ولهذا سماهم أهل السنة مشبهة الأفعال نفاة الصفات .

★ ★ ★

٣ ــ «حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة ، عن أبى حصين ، والأشعث بن سليم ، سمعا الأسود بن هلال ، عن معاذ بن جبل – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – : « يامعاذ بن جبل ، أتدرى ماحق الله على العباد ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئا . أتدرى ماحقهم عليه ؟ قال الله ورسوله أعلم ، قال : أن لايعذبهم » .

* * *

جاء بصيغة الاستفهام ليكون أوقع فى النفس ، وأبلغ فى التعليم ، لأن الإنسان إذا سئل عن شئ لايعلمه ، ثم أخبر به بعد الامتحان بالسؤال صار ذلك أدعى لفهمه وحفظه .

وهذا من حسن تعليمه ، وإرشاده ﷺ ، وهذا الأسلوب ورد عنه ﷺ كثيرا .

يقال : درى يدرى ، دراية : إذا عرف ، فالدراية هى المعرفة .

و « الحق » : كل موجود متحقق ، أو ما سيوجد لا محالة ، ويقال للكلام الصدق حق ، لأن وقوعه متحقق ، لاتردد فيه ، ولأنه مطابق للواقع ، وكذا المستحق على الغير ، إذا كان لاتردد فيه ، فهو حق .

والمراد هنا « ما يستحقه الله تعالى على عباده ، مما جعله متحتما عليهم ، وألزمهم إياه بخطابه » [١] .

فحقه تعالى على عباده ، أن يعبدوه ، مخلصين له العبادة ، ممتثلين ما أمرهم به وأوجبه عليهم ، وأعظمه التوحيد ، ومجتنبين ما نهاهم عنه ، وحرمه عليهم

---

(١) فتح البارى جـ ١١ ص ٣٣٩ .

وأعظمه الشرك ، فإذا فعلوا ذلك ، فحقهم عليه أن يغفر لهم ، ولا يعذبهم وأن يدخلهم الجنة ، وقد وعدهم ذلك ، ووعده حق لايخلف .

قوله : « الله ورسوله أعلم » يؤخذ منه حسن الأدب فى التعلم ، وأنه لاينبغى لمن سئل عما لا يعلمه أن يتكلف الجواب بدون يقين ، ولكن يكل العلم إلى عالمه .

« ذكر يعقوب بن سفيان بإسناده ، عن ربيعة قال : قال ابن خلدة : إذا جاءك الرجل يسأل ، فلا يكن همك أن تخرجه مما وقع فيه ، وليكن همك أن تتخلص مما سألك عنه » (١)

قوله : « أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئا » المراد بالعبادة : فعل الطاعات ، واجتناب المعاصى .

والعبادة فى اللغة هى : الذل ، والخضوع .

قال الأزهرى : « معنى العبادة فى اللغة : الطاعة مع الخضوع ، يقال طريق معبد ، إذا كان مذللا بكثرة الوطء ، وبعير معبداً إذا كان مطليا بالقطران » (٢)

وقال الجوهرى : « أصل العبودية : الخضوع والذلة ، والتعبيد التذليل ، والعبادة الطاعة . والتعبد النسك » (٣) .

وأما العبادة الشرعية فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ، ويرضاه من الأقوال ، والأعمال الباطنة ، والظاهرة » (٤)

---

(١) تهذيب التهذيب جـ ٧ ص ٤٤٣ .
(٢) تهذيب اللغة جـ ٢ ص ٢٣٤ .
(٣) الصحاح جـ ٢ ص ٥٠٣ ، هذا متفقة عليه كتب اللغة .
(٤) انظر أول فقرة من رسالة العبودية .

وقيل : هى كمال الحب مع كمال الخضوع . لأن الحب الكامل مع الذل التام يتضمن طاعة المحبوب ، والانقياد له ، فالعبد هو الذى ذلله الحب والخضوع لمحبوبه ، فطاعة العبد لربه تكون بحسب محبته وذله له .

وعطف على العبادة عدم الشرك ، لأن العبادة لاتنفع عند الله ، ولاتعتبر إلا إذا كانت خالصة من الشرك .

والمشركون كانوا يعبدون الله ، ويعبدون معه غيره ، ولهذا اشترط نفى الشرك . والجملة حالية ، والتقدير : يعبدونه فى حال عدم الإشراك به .

قال ابن حبان : عبادة الله : إقرار باللسان ، وتصديق بالقلب ، وعمل بالجوارح .

ولهذا قال فى الجواب : « فما حق العباد إذا فعلوا ذلك . فعبر بالفعل ، ولم يعبر بالقول » (١)

قوله : « أتدرى ما حقهم عليه ؟ » فسره بقوله : أن لا يعذبهم .

وفى الرواية الأخرى : « أن لايعذب من لايشرك به شيئا » (٢) ، والتقدير : أن لايعذب من يعبده ، ولا يشرك به شيئاً ، لأن عدم الشرك مع عدم العبادة لاينفع ، وهذا معلوم من نصوص الشرع .

قال الحافظ : « اقتصر على نفى الشرك ، لأنه يستدعى التوحيد بالاقتضاء ، ويستدعى إثبات الرسالة باللزوم ، إذ من كذب رسول الله فقد كذب الله ، ومن كذب الله فهو مشرك ، أو هو مثل قول القائل : من توضأ صحت صلاته . أى مع سائر الشروط ، فالمراد : من مات حال كونه مؤمنا

---

(١) فتح البارى جـ ١١ ص ٣٣٩ .
(٢) انظر الفتح جـ ٦ ص ٥٨ .

بجميع مايجب الإيمان به » (١) .

وحق العباد على الله تعالى هو من فضله وكرمه ، وليس استحقاق عوض ، وجزاء كما تقول المعتزلة .

والناس فى هذه المسألة ثلاث فرق .

منهم من يقول : للمخلوق على الله حق يعلم بالعقل .

فهم يقيسون الخالق تعالى على المخلوق – كما تقدمت الإشارة إليه .

ومنهم من يقول : لا حق للمخلوق على الله تعالى بحال ، ولكن يعلم مايفعله [بعبده] بحكم وعده وخبره . وهذا قول أتباع جهم ، والأشعرى ، وبعض من ينتسب إلى السنة .

ومنهم من يقول : بل أوجب الله تعالى على نفسه حقا لعباده المؤمنين ، كما حرم الظلم على نفسه ، ولم يوجب ذلك عليه مخلوق .

ولا يقاس بمخلوقاته تعالى ، بل هو برحمته ، وحكمته ، وعدله كتب على نفسه الرحمة ، وحرم على نفسه الظلم . كما فى الحديث الذى فى صحيح مسلم وغيره (٢) « ياعبادى إنى حرَّمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا » .

وقال تعالى : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) (٣) . وقال تعالى : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) (٤) .

فمن قال : ليس للمخلوق على ربه حق ، فهو صحيح ، إذا أراد أنه ليس

---

(١) فتح البارى جـ ١ ص ٢٢٨ .
(٢) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٩٩٤ الحديث رقم ٢٥٧٧ .
(٣) الآية ٥٤ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٤٧ من سورة الروم .

عليه حق بالاعتبار والقياس على خلقه ، كما يجب للمخلوق على مثله ، وكما يظن جهال العباد أن لهم على الله حقا بعبادتهم ، لأن النفوس الجاهلة تتخيل أن الإنسان بعبادته ، وعلمه يصير له على الله حق ، من جنس مايصير للمخلوق على المخلوق (١) كمن يطيع سيده ورئيسه فيجلب له منفعة ، أو يدفع عنه مضرة ، ويبقى يتقاضى العوض ، والمجازاة على ذلك ، ويقول عند الجفاء والإعراض : ألم أفعل كذا ؟ يمن عليه بما فعل معه ، وإن لم يقله بلسانه ، كان ذلك فى قلبه ، وتخيل مثل هذا فى حق الله من جهل الإنسان وظلمه .

ولهذا بين تعالى أن عمل الإنسان يعود نفعه عليه ، وأن الله غنى عن الخلق .

قال تعالى : (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم) (٢)

وقال تعالى : (من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها وماربك بظلام للعبيد) (٣)

ومن قال للمخلوق على الله حق فهو صحيح ، إذا أراد به الحق الذى أخبر الله بوقوعه ، فإن الله لايخلف الميعاد ، وهو الذى أوجبه على نفسه بحكمته وفضله ورحمته » . (٤) .

---

(١) ولهذا نجد الجهال ، وأنصاف المتعلمين يلهجون إلى الله تعالى بسؤاله بحق فلان ، وفلان . ويعتقدون أن هذا أقرب إلى حصول مطلوبهم ، وهو من جهل الإنسان بربه ، وعدم تقديره حق قدره ، وأكثر ما يقع الشرك فى المسلمين من هذا الباب .

(٢) الآية ٤٠ من سورة النمل .

(٣) الآية ٤٦ من سورة فصلت .

(٤) مجموع الفتاوى جـ ١ ص ٢١٣ بتصرف .

وهذا القول : هو الحق الذى دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، وأما القول الأول فهو ضلال بيِّن ، حيث لم يفرق قائله بين مايجب على الخالق تعالى ، ومايجب على المخلوق .

« والفروق بين الخالق والمخلوق لاتخفى إلا على من عميت بصيرته .

منها : أن الرب تعالى غنى بنفسه عن كل ماسواه ، ويمتنع أن يكون محتاجا إلى غيره ، بوجه من الوجوه ، وأما الخلق فسادتهم وملوكهم ومن دونهم محتاجون إلى غيرهم ، حاجة ضرورية .

ومنها : أن الرب تعالى وإن كان يحب الأعمال الصالحة ، ويفرح بتوبة التائبين . فهو الذى يخلق ذلك ، وييسره ، فلا يحصل مايحبه ويرضاه إلا بقدرته ومشيئته ، والمخلوق كثيرا ما يحصل له مايحبه بغير فعله بل بفعل غيره

ومنها : أن الرب تعالى أمر العباد بما يصلحهم ، ونهاهم عما يفسدهم .

قال قتادة : « إن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم ، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً عليهم ، بل أمر بما ينفعهم ، ونهاهم عما يضرهم . بخلاف المخلوق الذى يأمر غيره بما يحتاج إليه هو وينهاه بخلاً عليه .

ومنها : أنه سبحانه هو المنعم بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وهو المنعم بإيجاد القدرة والحواس ، وغير ذلك مما يحصل به العلم والعمل الصالح . وهو الهادى لعباده ، والمخلوق لايقدر على شئ من ذلك .

ومنها : أن نعمه تعالى على عباده أعظم من أن تحصى ، فلو قدر أن العبادة جزاء لنعمه لم نقم بشكر قليل منها ، فكيف والعبادة من نعمه .

ومنها : أن العباد لايزالون مقصرين فى حقه ، محتاجين إلى عفوه ، ومغفرته ،

فلن يدخل أحد الجنة بعمله [١] ، وما من أحد إلا وله ذنوب يحتاج فيها إلى مغفرة ربه ؛ (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة) [٢]

فمن ظن أنه قائم بما يجب عليه ، وأنه غير محتاج إلى مغفرة ربه وعفوه وهدايته وتوفيقه فهو ضال » [٣]

والمقصود من الحديث هنا : بيان أن حق الله على عباده هو عبادته تعالى الخالصة من الشرك ، وهى طاعته بفعل ما أمر به ، واجتناب مانهى عنه ، فلا يخالف ماجاء عن الله ، أو جاء عن رسوله لغرض أو منفعة عاجلة أو آجلة : وغير ذلك .

ومن ذلك – يعنى حق الله على عباده – اتباع ما وصف الله به نفسه ، أو وصفه به رسوله من غير تحريف ، ولا إلحاد فيه ، ولهذا ترجم على هذا الحديث فى كتاب الرقاق بقوله : باب من جاهد نفسه فى طاعة الله .

ومراده : أن الرسول ﷺ قد بيّن مايجب لله على عباده من عبادته باتباع أمره ، واجتناب نهيه ، وعبادته بأسمائه وصفاته ، وتنزيهه عن مشابهة المخلوق ، وما يستحقه من فعل ذلك .

★ ★ ★

---

(١) فى صحيح مسلم ، عن جابر ، سمعت النبى ﷺ يقول : « لايدخل أحداً منكم عمله الجنة ولايجيره من النار ، ولا أنا إلا برحمة من الله » جـ ٤ ص ٢١٧١ رقم الحديث ٢٨١٧ وأخرجه البخارى فى عدة مواضع من صحيحه من حديث أبى هريرة وعائشة . انظر الفتح جـ ١١ ص ٢٩٤ .

(٢) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٣) مجموع الفتاوى جـ ١ ص ٢١٦ .

٤ — « حدثنا إسماعيل ، حدثنى مالك ، عن عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبى صعصعة ، عن أبيه ، عن أبى سعيد الخدرى : « أن رجلا سمع رجلا يقرأ « قل هو الله أحد » يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبى – ﷺ – فذكر له ذلك ، وكأن الرجل يتقالها ، فقال رسول الله – ﷺ : – والذى نفسى بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن » .

زاد إسماعيل بن جعفر ، عن مالك ، عن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبى سعيد – أخبرنى أخى قتادة بن النعمان ، عن النبى ﷺ .

* * *

أبو سعيد الخدرى هو : سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن الأبجر – وهو خدرة – الذى ينسب إليه ، أنصارى خزرجى ، بايع تحت الشجرة ، وغزا مع رسول الله ﷺ غزوات عدَّة ، وكان أبوه من شهداء أُحد . وأبو سعيد من علماء الصحابة وفقهائهم ، والمكثرين الحديث عن رسول الله ﷺ .

توفى رضى الله عنه سنة أربع وسبعين (١)

قوله : « أن رجلا سمع رجلا » السامع هو أبو سعيد راوى الحديث ، والقارى هو قتادة كما بينه البخارى بقوله : « زاد إسماعيل » الخ . وقد جاء مصرحا به فى مسند أحمد .

ولفظه : « بات قتادة بن النعمان يقرأ من الليل كله : قل هو الله أحد ، فذكر ذلك للنبى ﷺ ، فقال ﷺ : والذى نفسى بيده : لتعدل نصف القرآن أو ثلثه » (٢)

---

(١) الإصابة جـ ٣ ص ٧٨ ، أسد الغابة جـ ٢ ص ٣٦٥ .

(٢) المسند جـ ٣ ص ٨٥ ، وانظر الفتح الربانى جـ ١٨ ص ٣٤٦ .

« وقتادة هو أخو أبي سعيد لأمه ، وكانا متجاورين فى السكن » (١)

قوله : « وكأن الرجل يتقالها » بتشديد اللام أى يعدها قليلة بالنسبة إلى غيرها من سور القرآن « يقال : تقلل الشيء واستقله ، وقاله إذا رآه قليلا . والمراد أنه رآها قليلة فى العمل . لا أنه عدَّها ناقصة (٢)

قوله : « والذى نفسى بيده » كان ﷺ أكثر مايحلف بهذه الصيغة ، وقد ذكر البخارى – رحمه الله – فى الأيمان والنذور ، فى باب كيف كانت يمين النبى ﷺ – عدة أحاديث بهذا اللفظ .

وقد روى الطبرانى ، وابن ماجه ، عن رفاعة بن عرابة : « كان النبى – ﷺ إذا حلف قال : والذى نفسى بيده » .

وروى ابن أبى شيبة ، عن أبى سعيد ، كان النبى – ﷺ – إذا اجتهد فى اليمين قال : « لا والذى نفس أبى القاسم بيده » . ورواه ابن ماجه من وجه آخر ، بلفظ : « كانت يمين رسول الله التى يحلف بها – أشهد عند الله – والذى نفسى بيده » (٣)

قلت : وحديث أبى سعيد رواه أبو داود فى السنن (٤)

فقوله : « والذى نفسى بيده » أى روحى ، وحياتى وموتى ، يتصرف فيَّ كيف يشاء . وسيأتى إن شاء الله تعالى الكلام على صفة اليد ، وأنها من صفات الله الثابتة قطعا ، وأنها يد حقيقة تليق بعظمة الرب وقدره تعالى وتقدس عن مشابهة الخلق ، وعن الظنون السيئة التى أوجبت لأصحابها تعطيل الله – تعالى – عن

---

(١) فتح البارى جـ ٩ ص ٦١ .
(٢) المنهل العذب المورود جـ ٨ ص ١١٣ .
(٣) فتح البارى جـ ١١ ص ٥٢٦ .
(٤) انظر الحديث رقم ٣٢٦٤ .

صفاته ، ودعتهم إلى الإلحاد فى أسمائه وصفاته .

قوله : « إنها لتعدل ثلث القرآن » عدل الشئ بفتح العين ، ما عادله من غير جنسه ، والعدل بكسر العين : المثل ، تقول : عندى عِدل شاتك ، أو عِدل مالك ، إذا كان عندك شاة مثل شاة من تخاطبه ، ومال مثل ماله ، فإن أردت مايعادل ذلك من غير جنسه فتحت العين ، ذكر ذلك أهل اللغة [١] .

ومعنى كونها تعدل ثلث القرآن : - أن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام :

ثلث منه الأحكام وبيان الحلال من الحرام .

وثلث منه الوعد والوعيد ، والجزاء ، وما وقع بمن كذب الله ورسله ، وما سيقع بهم فى الآخرة ، وكذا ومن أطاعه .

وثلث منه فى أسماء الله تعالى وصفاته ، وهذه السورة خالصة فى الأسماء والصفات ، قاله أبو العباس ابن سريج ، وغيره من السلف .

واعتراض ابن عبد البر على هذا : بأن فى القرآن آيات كثيرة اشتملت على أكثر مما فى هذه السورة من التوحيد ، كآية الكرسى ، وآخر سورة الحشر ، وأول سورة الحديد - قد أجاب عنه القرطبى فى شرحه لمسلم : بأن سورة الإخلاص قد اشتملت على اسمين من أسماء الله متضمنين جميع أوصاف الكمال ، ولم يوجدا فى غيرها من السور ، وهما « الأحد » و « الصمد » .

« والقرآن باعتبار معانيه ثلاثة أقسام : توحيد ، وقصص ، وأمر ونهى ، وكله كلام الله تعالى والكلام - إما انشاء ، وإما إخبار .

فالإنشاء : هو الأمر والنهى ، وما يتبع ذلك كالإباحة .

والإخبار : إما عن الخالق تعالى ، أو عن المخلوق ، فالإخبار عن الخالق ،

---

(١) انظر ترتيب اللسان جـ ٣ ص ٧٠٧ .

هو التوحيد ومايتضمنه من أسماء الله وصفاته .

والإخبار عن المخلوق ، هو القصص ، وهو الخبر عما كان ، وما يكون .

« وقل هو الله أحد » هى صفة الرحمن خالصة لذلك ، وبهذا الاعتبار عدلت ثلث القرآن ، لما فيها من التوحيد ، الذى هو ثلث معانى القرآن ، وليس معنى ذلك أنه يكتفى بها عن سائر القرآن ، بمعنى أن من قرأها ثلاثا كفاه عن قراءة القرآن ، لأن النبى ﷺ قال : « إنها تعدل ثلث القرآن » .

وقد تقدم أن عَدْل الشيء – بالفتح – يطلق على ماليس من جنسه ، كما قال تعالى :

(أو عدل ذلك صياما) فجعل الصيام عدل الكفارة ، وهما جنسان .

فثواب قراءة « قل هو الله أحد » وإن كان يعدل ثواب قراءة ثلث القرآن فى القدر ، فلا يلزم أن يكون مثله فى النوع والصفة ، لأنها لاتغنى عما اشتمل عليه القرآن من الأمر والنهى ، والوعد والوعيد ، وسائر مايحتاج إليه العباد . فالناس محتاجون إلى جميع القرآن . ومنتفعون به منفعة لاتغنى عنها سورة الإخلاص ، وإن كانت تعدل ثلث القرآن » (١)

وفى هذا الحديث دلالة ظاهرة على تفاضل كلام الله تعالى ، وصفاته ، وهو المأثور عن السلف ، وعليه أئمة الفقهاء وغيرهم ، ونصوص الكتاب والسنة تؤيد ذلك .

قال الله تعالى : (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) (٢) فأخبر تعالى أنه يأتى بخير منها أو مثلها ، فدل على أن الآيات تتماثل مرة ، وتتفاضل أخرى ، والتوراة ، والإنجيل والقرآن كلها كلام الله تعالى ، وقد أجمع

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٧ ص ٢٠٧ – ٢٠٨ بتصرف .

(٢) الآية ١٠٦ من سورة البقرة .

المسلمون على أن القرآن أفضلها كما قال تعالى : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه) [١] أى هو المؤتمن ، والشاهد ، والحاكم على ماسبقه من الكتب .

وأما الأحاديث فكثيرة . من جملتها هذا الحديث ، ومن تأمل كلام السلف ، ومن سار على نهجهم علم أن هذا من الأمور المستقرة فى نفوسهم ، ولم يعرف من السلف من قال : لايكون كلام الله بعضه أشرف من بعض ، لأنه كله من صفات الله ، وإنما حدث ذلك لما ظهرت البدع من المعتزلة ، والجهمية ، ومن سلك طريقهم ، الذين اختلفوا فى القرآن ، وجعلوه عضين .

وتفاضل الكلام من جهة المتكلم فيه – سواء كان خبرا أو إنشاء – أمر معلوم بالفطرة ، والشرع ، فليس الخبر المتضمن حمد الله والثناء عليه بأسمائه الحسنى ، كالخبر المتضمن لذكر إبليس ، وفرعون وأبى لهب ، ونحوهم ، وإن كان الكل كلاما عظيما تكلم الله به .

وكذلك ليس الأمر بالتوحيد ، والإيمان بالله ورسله ، والنهى عن الشرك وقتل النفس بغير حق ، والزنا وغير ذلك مما أمرت به الشرائع كلها ، أو حرمته كالأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد ، أو الأمر بالإنفاق على الحامل ، والنهى عن قول : « راعنا » وإن كان الكل واجبا .

وليس تفاضل الكلام باعتبار نسبته إلى المتكلم به ، فإنه سبحانه واحد ، ولكن باعتبار معانيه التى يتكلم بها ، وباعتبار ألفاظه المبينة لمعانيه .

قال شيخ الإسلام : « الكلام له نسبتان : نسبة إلى المتكلم به ، ونسبة إلى المتكلم فيه ، فهو يتفاضل باعتبار النسبتين ، وباعتبار نفسه أيضا ، فقل هو الله أحد ، و « تبت يدا أبى لهب » كلاهما كلام الله تعالى ، وهما مشتركان من هذه

---

(١) الآية ٤٨ من سورة المائدة .

الجهة ، ولكنهما متفاضلان من جهة المتكلم فيه ، المخبر عنه ، « فقل هو الله أحد » كلام الله وخبره الذى يخبر به عن نفسه ، وصفته التى يصف بها نفسه ، وكلامه الذى يتكلم به عن نفسه .

و « وتبت يدا أبى لهب » كلام الله الذى يتكلم به عن بعض خلقه ، ويصف به حاله ، فهما من هذه الجهة متفاضلان » [١] .

ولا يلزم من كثرة الحروف أفضلية ذلك ، كما توهمه بعض العلماء ، لأن الفضل يتبع تفاضل المعانى .

فحروف الفاتحة لقارئها بكل حرف حسنة أعظم من حسنات حروف (تبت يدا أبى لهب) .

فلا يلزم من مماثلة الشئ مساواته فى الفضل ، كما أخبر النبى ﷺ « أنه لو أنفق من جاء بعد السابقين مثل أُحد ذهبا ، ما بلغ مُدَّ أحد السابقين إلى الإسلام ، ولا نصيفه » [٢]

قال شيخ الإسلام : « فإذا قرأ الإنسان (قل هو الله أحد) حصل له من الثواب بقدر ثلث القرآن ، لكن لايلزم أن يكون الثواب من جنس الثواب الحاصل بقراءة ثلث القرآن ، لأن الإنسان يحتاج إلى مايحصل له من ثواب الأمر ، والنهى والقصص وغير ذلك ، و « قل هو الله أحد » لا تسد مسد ذلك ، ولا تقوم مقامه ، مع أن فضل القراءة والذكر والدعاء وغير ذلك ، يختلف باختلاف حال الإنسان ، فالقراءة بتدبر أفضل من القراءة بلا تدبر ، والصلاة بخشوع وحضور قلب ، أفضل من الصلاة بدون ذلك ، فإذا كانت « قل هو الله أحد » يعدل

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٧ ص ٥٧ .

(٢) رواه البخارى فى فضائل الصحابة ولفظه : « لاتسبوا أصحابى ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا مابلغ مُدَّ أحدهم ولانصيفه » انظر الفتح جـ ٧ ص ٢١ ، ورواه مسلم فى الفضائل جـ ٤ ص ١٩٦٧ .

ثوابها ثواب ثلث القرآن ، فلابد من اعتبار التماثل فى سائر الصفات ، وإلا فقراءة غيرها مع التدبر والخشوع أفضل من قراءتها مع الغفلة والجهل .

والناس متفاضلون فى فهم هذه السورة ، وما اشتملت عليه ، كما هم متفاضلون فى فهم سائر القرآن » (١) .

وهذا الحديث يدل أيضا على تعدد صفات الرب تعالى ، وتفاضلها ، لأن القرآن كله كلامه ، وكلامه من صفاته .

والتفاضل إنما يقع بين شيئين فصاعداً ، إذ الواحد لايعقل فيه شئ أفضل من شئ ، وقد دلت النصوص الكثيرة على تعدد أسمائه تعالى وصفاته ، وأن لها معان متعددة ، وهذا المعنى هو الذى قصده البخارى بهذا الحديث ، فيما ظهر لى ، ولاشك أن فضل هذه السورة لما اشتملت عليه من أوصاف الله تعالى . ولهذا أعقب ذلك بأن ترجم بقوله تعالى : (قل ادعو الله أو ادعوا الرحمن أيًّاما تدعوا فله الأسماء الحسنى) .

وقال الحافظ : « مراده ما فيه من التصريح بلفظ الأحدية فى وصفه تعالى ، كما فى الذى بعده » (٢)

وقول ابن بطال : « ومذهب الأشعرى ، وأبى بكر بن الطيب ، وابن أبى زيد ، والداودى ، وأبى الحسن القابسى ، وجماعة علماء السنة : أن القرآن لايفضل ، بعضه بعضا ، إذ كله كلام الله وصفته ، وهو غير مخلوق ، ولا يجوز التفاضل إلا فى المخلوقات »

ومثله قول ابن الدراج : « أجمع أهل السنة على أن ماورد مما ظاهره المفاضلة بين أى القرآن وسوره ، ليس المراد به تفضيل ذوات بعضها على بعض ، إذ هو

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٧ ص ١٣٨ - ١٤٠ بتلخيص وتصرف .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٣٥٥ بالمعنى .

كله كلام الله ، وصفة من صفاته » [١]

فهذا النقل عمن ذكرهم ، والزعم بأن هذا مجمع عليه من أهل السنة هو بحسب ظن هؤلاء – يعنى ابن بطال ومن يقول ذلك – لأنهم ظنوا : أن هذا القول الذى هو عدم المفاضلة لازم لمن يقول : إن القرآن كلام الله ، فهو من صفاته ، والتفاضل لايكون إلا فى المخلوقات ، والقرآن عندهم غير مخلوق .

وهو ظن خطأ ، فلم ينقل عن أحد من السلف أنه نفى المفاضلة بين آيات القرآن وسوره ، ونحن نطالب مدعى الإجماع على نفى ذلك بالدليل ، ولن يجد ذلك ، والنصوص من الكتاب والسنة تبطل هذه الدعوى كما تقدمت الإشارة إلى ذلك ، وابن بطال – عفا الله عنا وعنه – كثيرا ما يدعى الإجماع على مسائل ، الحق خلافها ، كما ستأتى الإشارة إلى بعضها إن شاء الله تعالى .

★ ★ ★

(١) انظر مجموع الفتاوى جـ ١٧ ص ٧٣ .

٥ ــ حدثنا محمد ، حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، حدثنا عمرو ، عن ابن أبى هلال ، أن أبا الرجال محمد بن عبد الرحمن حدثه ، عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن – وكانت فى حجر عائشة زوج النبى – ﷺ – عن عائشة ، « أن النبى ﷺ ، بعث رجلا على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه فى صلاته ، فيختم بقل هو الله أحد ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبى – ﷺ – فقال : – سلوه لأى شئ يصنع ذلك ؟ فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال النبى – ﷺ – : أخبروه إن الله يحبه »

* * *

عائشة بنت أبى بكر الصديق ، وزوجة رسول الله – ﷺ – وحبيبته . كانت فقيهة ربانية ، وعالمة بأشعار العرب ، وأنسابهم ، وأيامهم .

أكثرت عن رسول الله – ﷺ – الرواية ، فلذلك صارت مرجعاً للصحابة فى كثير من أمور الدين ، فهى من حفاظ الصحابة وعلمائهم .

روى عنها خلق كثير من الصحابة ، والتابعين .

ولدت – رضى الله عنها – سنة أربع من البعثة النبوية ، وتزوجها رسول الله – ﷺ – بعد موت خديجة رضى الله عنها بثلاث سنوات ، ودخل بها فى المدينة ، وهى ابنة تسع ، وتوفى عنها ولها من العمر ثمانى عشرة سنة ، ومات ﷺ وهى حاضنته على صدرها .

مناقبها كثيرة ، توفيت فى المدينة سنة سبع أو ست وخمسين ، وقيل ثمان

وخمسين ، وصلى عليها أبو هريرة ، ودفنت فى البقيع رضى الله عنها . [١]

قوله : « بعث رجلا على سرية » هذا غير الرجل المتقدم ذكره فى باب الجمع بين السورتين فى ركعة واحدة ، للفروق الواضحة بين القصتين .

والسرية قطعة من الجيش ، يقال : خير السرايا أربعمائة رجل ، وفى اللسان مابين خمسة أنفس إلى ثلاثمائة ، سميت سرية لأنها تسرى ليلا فى خفية لئلا ينذر بهم فيحذر الأعداء ويمتنعوا » [٢] .

قوله : فيختم بقل هو الله أحد » قال ابن دقيق العيد : يدل على أنه كان يقرأ بغيرها ، والظاهر أنه كان يقرأ : « قل هو الله أحد » ، مع غيرها فى ركعة واحدة ، ويختم بها فى تلك الركعة ، وإن كان اللفظ يحتمل أن يكون يختم بها فى آخر ركعة يقرأ فيها السورة » [٣] .

وقوله : « لأنها صفة الرحمٰن » قال ابن دقيق العيد : « يحتمل أن يراد : أن فيها ذكر صفة الرحمن ، كما إذا ذكر وصف ، فعبر عن ذلك الذكر بأنه الوصف ، وإن لم يكن ذلك الذكر نفس الوصف ، ويحتمل أن يراد به غير ذلك ، إلا أنه لايختص ذلك بـ « قل هو الله أحد » ، ولعلها خصت بذلك لاختصاصها بصفات الرب تعالى دون غيرها » [٤] .

قلت : يريد بيان وجه تخصيص الصحابى لها بما ذكر ، أنها خالصة لذكر وصف الرحمٰن تعالى وتقدس

---

(١) انظر الحلية جـ ٢ ص ٤٣ ، أسد الغابة جـ ٧ ص ١٨٨ ، الاستيعاب جـ ٤ ص ١٨٨١ ، الإصابة جـ ٤ ص ، سير أعلام النبلاء جـ ٢ ص ١٣٥ .

(٢) ترتيب اللسان جـ ٢ ص ١٤١ .

(٣) شرح العمدة جـ ١ ص ٢٤٦ .

(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٢٤٧ .

وقوله : إلا أنه لايختص ذلك بـ « قل هو الله أحد » . يعنى أن أوصاف الرحمٰن تعالى موجودة فى آيات كثيرة من القرآن .

وهذه السورة وسائر سور القرآن هى صفة الرحمن ، لأنها كلامه ، وكلامه من صفاته ، ولكن تميزت هذه السورة بأنها خالصة لذكر أوصاف الرحمن تعالى - وهذا هو المتبادر إلى الفهم من مراد الصحابى - رضى الله عنه - أى أنها خالصة لوصف الرحمن - تعالى - دون غيره .

« قال ابن التين : إنما قال : لأنها صفة الرحمن لأن فيها أسماءه ، وأسماءه مشتقة من صفاته » .

وقال غيره : يحتمل أن الصحابى قال ذلك : مستنداً إلى شئ سمعه من النبى ﷺ - إما بالنص ، أو بالاستنباط .

وروى البيهقى فى الأسماء والصفات ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن اليهود أتوا النبى - ﷺ - فقالوا : صف لنا ربك ؟ فأنزل الله - عز وجل « قل هو الله أحد » إلى آخرها ، فقال : هذه صفة ربى - عز وجل (١)

وفى الحديث حجة لمن أثبت أن لله صفات ، وهو قول الجمهور ، وشذ ابن حزم فقال : هذه لفظة اصطلح عليها أهل الكلام ، من المعتزلة ، ومن تبعهم ولم يثبت عن النبى - ﷺ - ولا عن أحد من أصحابه ، فإن اعترضوا بحديث الباب ، فهو من أفراد سعيد بن أبى هلال ، وفيه ضعف ، وعلى تقدير صحته فـ « قل هو الله » صفة الرحمن ، كما فى هذا الحديث ، ولا يزاد عليه ، بخلاف الصفة التى يطلقونها ، فإنها فى لغة العرب لاتطلق إلا على جوهر ، أو عرض » (٢) وسعيد متفق على الاحتجاج به ، فلا يلتفت إلى تضعيفه .

---

(١) انظر الأسماء والصفات للبيهقى ص ٢٧٩ ، وفيه تسمية بعضهم وقد ذكر عدة أحاديث بمعناه .

(٢) انظر الفصل جـ ٢ ص ٢٨٤ ، وقد أطال الكلام على هذا المعنى ، واحتج بأشياء لا تدل على مراده .

وكلامه الأخير مردود ، باتفاق الجميع على إثبات الأسماء الحسنى ، قال الله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) . وقال تعالى : (له الأسماء الحسنى) والأسماء المذكورة فيها صفات ، ففى إثبات أسماءه إثبات صفاته » (١)

قلت : كلام ابن حزم – رحمه الله – باطل ، ولا حجة له فيما ذكر ، لأن الصفة : مصدر وصفت الشيء أصفه وصفا ، وصفة ، مثل : وعد ، وعداً ، وعدة .

فإذا قيل : إن الله بكل شيء عليم ، وهو رحمٰن رحيم ، وعلى كل شيء قدير ، فالمعانى القائمة بالرب تعالى – التى دل عليها هذا الكلام ، من العلم ، والرحمة والقدرة ، هى الصفات المقصودة ، وإنكار ذلك مكابرة ، أو عناد وضلال ، وإلحاد .

وقد دلت نصوص كتاب الله – تعالى – وسنة رسوله – ﷺ – والفطرة والعقل على ذلك ، قال الله تعالى : (ولا يحيطون بشيء من علمه) (٢) .

وقال تعالى : (أنزله بعلمه) (٣) ، وقال تعالى : (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) (٤)

وقال تعالى : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) (٥)

وقال تعالى : (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما) (٦) .

---

(١) فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ .
(٢) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .
(٣) الآية ١٦٦ من سورة النساء .
(٤) الآية ٥٨ من سورة الذاريات .
(٥) سورة المنافقون الآية ٨ .
(٦) سورة غافر الآية ٧ .

وفى الحديث الصحيح « اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك » (١)

وفى حديث عمار بن ياسر ، عن النبى ﷺ : « واللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق » (٢) .

وفى صحيح البخارى فى قصة أيوب : « قال : بلى وعزتك ، ولكن لاغنى بى عن بركتك » (٣)

وقال البخارى : « باب الحلف بعزة الله وصفاته ، وكلماته » . وقال ابن عباس : كان النبى ﷺ – يقول : أعوذ بعزتك . وقال أبو هريرة : عن النبى ﷺ : يبقى رجل بين الجنة والنار ، فيقول : يارب اصرف وجهى عن النار ، لا وعزتك لا أسألك غيرها ، ثم ذكر حديث أنس : « لاتزال جهنم تقول : هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه ، فتقول : قط قط ، وعزتك » (٤)

وفى هذا الحديث الذى نحن بصدد الكلام عليه : « لأنها صفة الرحمن »

وقال الله تعالى : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) (٥) وهذا من إضافة الموصوف إلى صفته ، فثبت بهذه النصوص ، وغيرها كثير ، أن لله صفات ، وأن كل اسم تسمى الله به يدل على الصفة ، لأن الأسماء مشتقة من الصفات .

وبهذا يتبين بطلان قول المعتزلة ، الذين ينفون أن يكون لله علم ، وقدرة ومشيئة ، ويجعلون هذه الصفة هى الأخرى ، أو الصفة هى الموصوف . كما يتبين

---

(١) هو حديث جابر ، انظر البخارى جـ ٢ ص ٥٠ ، وسنن أبى داود رقم ١٥٣٨ ، والترمذى رقم ٤٨٠ وسيأتى .

(٢) انظر سنن النسائى جـ ٣ ص ٥٤ و ٥٥ فى السهو فى باب نوع آخر من الدعاء .

(٣) صحيح البخارى كتاب التهجد باب ٢٠ جـ ١ ص ٥٤ وفى مواضع أخرى وسيأتى .

(٤) الصحيح ، كتاب الأيمان والنذور باب ١٢ جـ ٨ ص ١١٤ وسيأتى ذلك .

(٥) الآية ١٨٠ من سورة الصافات .

بهذا أيضا الفرق بين الأسماء والصفات .

١ ـــ فالأسماء تدل على الذات ، والصفات تدل على معنى قائم بالذات ، وهذه المعانى أيضا أسماء .

٢ ـــ وتقدم أن الأسماء مشتقة من الصفات .

قوله : « أخبروه أن الله يحبه » قد يكون سبب محبة الله له ، محبته لهذه السورة أو لمحبته ذكر صفات الرب عز وجل ، وحسن فهمه وعقيدته فى ذلك ، أو لمجموع الأمرين ، وهو الأولى .

وفيه ثبوت محبة الله تعالى لأهل طاعته من عباده ، والأدلة عليه كثيرة جداً ، فلذلك صار إنكاره ضلالا بيِّنا .

قال المازرى ، ومن تبعه : محبة الله لعباده : إرادته ثوابهم ، وتنعيمهم .

وقيل : هى نفس الإثابة ، والتنعيم .

ومحبتهم له ، لا يبعد فيها الميل منهم إليه ، وهو مقدس عن الميل .

وقيل : محبتهم له : استقامتهم على طاعته .

والتحقيق : أن الاستقامة ثمرة المحبة .

وحقيقة المحبة له : ميلهم إليه ، لاستحقاقه سبحانه المحبة من جميع الوجوه .

قال الحافظ : « وفيه نظر ، لما فيه من الإطلاق فى موضع التقييد » (١) ومقصده من الإطلاق ، قوله : « لاستحقاقه – سبحانه – المحبة من جميع الوجوه » لأنه قد يدخل فيه الحب المتضمن للشهوة ، ونحو ذلك .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٥٧ .

وقول المازرى : إن محبة الله لعباده إرادته ثوابهم ، ونعيمهم ، أو هى نفس الثواب والنعيم ، ظاهر البطلان ، والنصوص فيه لا تقبل هذا التأويل لكثرتها ، وتواطئها على أن الحب فيها هو ما يفهمه المخاطب الذى لم تفسد فطرتها بالعقائد المنحرفة عن الحق .

وهذه طريقة أهل التأويل فى كثير من صفات الله – تعالى – إما أن يجعلوها إرادة الثواب أو العقاب ، أو هى نفس الثواب ، والعقاب .

ومعلوم أن الثواب ، والعقاب ونحوهما مخلوق .

والإرادة التى يرجعون المحبة ، والرحمة ونحوهما من صفات الله – تعالى – إليها ، يلزمهم فيها نظير ما فروا منه فى المحبة والرحمة ، حيث قالوا : إن المحبة هى : الميل إلى المحبوب ، فيقال : والإرادة هى : ميل المريد إلى من يوافقه فى إرادته .

وأما تفسيرها بالثواب والعقاب ، فيلزم منه أن تكون صفته تعالى مخلوقة ، ثم نقول لسنا بحاجة إلى مثل هذا التأويل السخيف البارد ، لأن الله تعالى : ليس كمثله شىء فى صفاته ، كما أنه لا مثل له فى ذاته .

ومحبته تبارك وتعالى لعبده المؤمن شىء فوق إنعامه ، وإحسانه ، وعطائه وإثابته ، فإن هذا أثر المحبة وموجبها ، أما هى فأعظم من ذلك ، وأشرف . وهى التى يتسابق إليها أنبيائه وملائكته وأولياؤه ، وعباده الصالحون . وكم فى كتاب الله وسنة رسوله من نص صريح بأنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه ، كقوله تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) [١] وقوله تعالى : (إن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين) [٢] (بلى من أوفى بعهده واتقى ،

---

(١) الآية ٣١ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٢٢٢ من سورة البقرة .

فإن الله يحب المتقين) [١] (والله يحب المحسنين) [٢] (فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) [٣] والآيات فى هذا كثيرة .

وأما الأحاديث عن رسول الله ﷺ التى تنص على أن الله يحب عباده المؤمنين فإحصاءها عسير ، كقوله ﷺ : « لأعطين الراية غداً رجلا يحبه الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله » [٤] وقوله - ﷺ : « إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى » [٥]

وأما محبة العباد لربهم فعجيب إنكارها ، إذ هى من الضروريات الثابتة بالشرع ، والعقل ، والفطرة ، وإنكارها إنكار للواقع المحسوس .

كما أن تأويل المحرفين بأنها الاستقامة على الطاعة ، كما ذكره المازنى ، أو أنها إرادتهم أن ينفعهم كما نقله الحافظ عن ابن التين [٦] مخالف للشرع ، والعقل ، والواقع المحسوس ، بل قد يؤول ذلك إلى إنكار أصل دين الإسلام ، لأن مبنى دين الإسلام على شهادة لا إله إلا الله .

ومعنى الإله : المحبوب الذى تأله القلوب ، وتحبه ، وتعظمه وتجله ، وتقصده بالإنابة والخضوع والذل ، والافتقار إليه ، والخوف منه ، ورجاءه .

فمن أنكر ميل القلوب إليه تعالى بالحب والتأله ، فقد أنكر حقيقة الإسلام . وهل الشرك الذى حرمت الجنة على صاحبه إلا أن يجعل للمخلوق

---

(١) الآية ٧٦ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ١٣٤ من سورة آل عمران ، والآية ٩٣ من سورة المائدة . والآية ١٤٨ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ١٥٩ من آل عمران .

(٤) رواه صاحبا الصحيحين ، انظر الفتح جـ ٦ ص ١١١ وأماكن أخرى . ومسلم جـ ٤ ص ١٨٧١ و ١٨٧٢ .

(٥) رواه مسلم فى الزهد جـ ٤ ص ٢٢٧٧ رقم ٢٩٦٥ .

(٦) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٣٥٧ .

نصيبا مع الله تعالى فى هذا الحب كما قال تعالى : (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله) (١)

فبين تعالى أن الذى يحب المخلوق كحب الله أنه مشرك قد اتخذ لله نداً ، وأخبر تعالى عن هؤلاء أنهم سيقولون لأندادهم وهم فى النار : (تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين) (٢) ولايجوز أن تكون تسويتهم لهم برب العالمين إلا فى الحب ، لأنه لايمكن أن يقول عاقل أن أحداً من الخلق يساوى الله تعالى فى الفعل والتصرف .

وقول ابن التين الذى نقله الحافظ : « إن معنى محبة المخلوقين لله : إرادتهم أن ينفعهم (٣) » من أبطل الكلام المخالف للواقع ، وللشرع والعقل ، ولولا أن هذا مسجل فى الكتب المتداولة بين المسلمين ، لم يجز ذكره ، وهل يوجد أحد من الخلق لايريد أن ينفعه الله ، حتى إبليس ، ومن دونه من دعائم الكفر والإلحاد ، من الأولين والآخرين ، بل كلهم يريد أن ينفعهم الله ، فهل يقال : إنهم يحبون الله ؟ ولا شك أن مثل هذا القول نتيجة نقص العلم بكلام الله وكلام رسوله ، ونقص الإيمان بذلك .

« وإلا فإن من تيقن أن الله أصدق القائلين ، وأن قوله الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، وأن قوله الفصل ، ليس بالهزل ، وأنه الهدى ، والنور ، والشفاء لما فى الصدور ، من الجهل والشكوك ، وأنه تعالى أعلم بنفسه وبغيره من خلقه .

وعلم أن الرسول - ﷺ - أعلم الخلق بالحق ، وأفصح الخلق فى النطق

---

(١) الآية ١٦٥ من سورة البقرة .
(٢) الآيتان ٩٧ و ٩٨ من سورة الشعراء .
(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٣٥٧ .

والبيان . وأنه أنصح الخلق للخلق ، من علم ذلك تيقن أنه قد اجتمع له كمال العلم بالحق ، وكمال القدرة على بيانه ، وكمال الإرادة له ، ومع كمال العلم والقدرة والإرادة ، يجب وجود المطلوب على أكمل وجه .

فيجب أن يعلم أن كلام الله ورسوله ، أبلغ مايمكن ، وأتم مايكون ، وأعظمه بيانا لأمور الدين ، من حقوق الله وأسمائه ، وصفاته ، وغير ذلك .

فمن وقر هذا فى قلبه لم يجرأ على تحريف النصوص بمثل هذه التأويلات التى إذا تدبرها العاقل المنصف ، وجدها أبعد شئ عن كتاب الله ، وعن صفات الرسول ﷺ – وعلم أن من سلك هذا المسلك فإنما هو لنقص فى علمه ، وإيمانه بكلام الله ، وكلام رسوله – ﷺ » (١)

وقد علم المؤمنون أن محبة العباد لربهم هى حياة القلوب ، ونعيم الروح ، بل هى أعلى نعيم فى الدنيا والآخرة ، وهى فوق كل محبة تفترض ، ولا نسبة لسائر المحاب إليها ، وهى حقيقة لا إله إلا الله ، وبتمامها وكمالها تتفاوت منازل العباد عند الله فى الدنيا والآخرة ، وقد جاء فى الحديث عنه – ﷺ – أنه قال : « أحبوا الله من كل قلوبكم » (٢) يعنى لا يبقى فى القلب موضع لغير محبة الله تعالى .

وفى الصحيحين : مرفوعا : « ثلاث من كنَّ فيه ، وجد بهنَّ حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف فى النار » (٣)

وأصل التأله التعبد ، والتعبد هو آخر مراتب الحب ، يقال : عبده

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٧ ص ١٢٩ بتصرف وزيادة .
(٢) رواه ابن إسحاق فى السيرة انظر مختصرها لابن هشام جـ ٢ ص ١٤٧ .
(٣) انظر الفتح جـ ١ ص ٧٢ وجـ ١٠ ص ٤٦٣ ، ومسلم جـ ١ ص ٦٦ .

الحب وتيمه إذا ملكه ، وذلَّله لمحبوبه .

فالمحبة هي حقيقة العبودية ، ولايمكن وجود العبادة التي يريدها الله ويأمر بها عباده بدونها أبداً ، بل لايوجد أي نوع من أنواع العبادة المطلوبة شرعا بدونها ، مثل الإنابة ، والخشية ، والخوف ، والرجاء ، والحمد ، والشكر ، والصبر ، والدعاء ، والاستغاثة ، والاستعانة ، وغير ذلك من أنواع العبادة ، فمنكر المحبة في الحقيقة منكر لجميع مقامات الإيمان والإحسان ، وهؤلاء المحرفين لمثل هذا النص في المحبة ، يغالطون أنفسهم . وهذا الحديث يدل على حسن فهم الصحابة لمعاني القرآن ، حيث قالوا عن سورة الصمد : إنها صفة الرحمن ، ووجه ذلك : أن هذه السورة تضمنت أنواع التنزيه لله تعالى والتحميد ، ونفي النقائص كلها ، وإثبات الكمال جميعه . ولهذا عدلت ثلث القرآن – كما تقدمت الإشارة إليه .

(الكلام على معنى أحد وصمد)

فالصمدية تثبت الكمال المنافي لكل نقص وعيب ، والأحدية تثبت الانفراد بذلك الكمال ، فهي تدل على أنه – تعالى – أحد ليس من جنس شئ من المخلوقات ، « وأنه صمد ليس من مادة ، بل هو صمد لم يلد ولم يولد ، وإذا نفي عنه أن يكون مولوداً من مادة الوالد ؛ فلأن ينفي عنه أن يكون من سائر المواد أولى وأحرى ، فإن المولود من نظير مادته أكمل من المولود من مادة أخرى » (١)

وقال أيضا : « وقد فسر السلف الصمد بأنه الذي لا جوف له ، كما فسروه : بأنه السيد الذي يصمد إليه في الحوائج ؛ والأول قول أكثر السلف ، من الصحابة ، والتابعين ، وطوائف من أهل اللغة .

والثاني : قول جمهور أهل اللغة ، وطوائف من السلف والخلف .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٧ ص ٤٥٢ .

قال الجوهرى : صمده يصمده صمداً إذا قصده ، والصمد بالتحريك : السيد لأنه يصمد إليه فى الحوائج (١)

وقوله – تعالى – : (قل هو الله أحد ، الله الصمد) أدخل اللام فى « الصمد » ولم يدخلها فى « أحد » لأنه ليس فى الموجودات مايسمى أحداً فى الإثبات مفرداً غير مضاف إلا الله تعالى ، بخلاف النفى ، وما فى معناه كالشرط ، والاستفهام .

قال أهل اللغة : تقول : لا أحد فى الدار ، ولا تقول : فيها أحد .

وأما « الصمد » فأدخل عليه الألف واللام ليبين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ماسواه ، فإنه المستوجب لغايته على الكمال .

فالمخلوق وإن كان قد يطلق عليه بأنه صمد ، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه فإنه يقبل التجزئة ، وهو محتاج إلى غيره ، فإن كل ما سوى الله فقير محتاج إلى الله ، وليس أحد يصمد كل شئ إليه (٢) ، وهو لا يصمد إلى شئ إلا الله تعالى . وليس فى المخلوقات شئ إلا ويقبل التجزئة ، ويتفرق ، وينفصل بعضه من بعض ؛ والله سبحانه هو الصمد ، الذى لايجوز عليه شئ من ذلك ، بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة ولازمة ، لايمكن عدمها بوجه من الوجوه ، كما لايمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه ، فهو أحد لايماثله شئ من الأشياء بوجه من الوجوه » (٣) .

فقوله تعالى : « أحد » مع قوله : « لم يكن له كفواً أحد » ينفى المماثلة ، والمشاركة .

---

(١) انظر الصحاح جـ ٢ ص ٤٩٩ وتمامه : « قال :

علوته بحسام ثم قلت له : خذها حذيف فأنت السيد الصمد

وبيت مصمد – بالتشديد – أى مقصود » .

(٢) الصمود هنا هو الطلب والقصد والتوجه إلى المصمود إليه بالحاجة .

(٣) مجموع الفتاوى جـ ١٧ ص ٢٣٧ ملخصا .

وقوله تعالى : « الصمد » يتضمن إثبات جميع صفات الكمال . فالنقائص منتفية عن الله تعالى ، وكل مايختص به المخلوق فهو من النقائص التى تنزه ربنا عنها جل وعلا .

وأما ما يوصف به العبد من بعض الكمالات مثل العلم ، والقدرة ، والرحمة ، ونحو ذلك ، فالذى يثبت لله تعالى من هذه المعانى يكون على وجه لايقاربه فيه أحد من الخلق ، فضلا عن أن يماثله فيه .

وقد ثبت أن ماخلقه الله فى الجنة من المآكل وغيرها ، لايماثل ماخلقه فى الدنيا ، وإن اتفقا فى الاسم ، مع أن كليهما مخلوق ، فالخالق تعالى وتقدس أبعد عن مماثلة المخلوقات .

والمعنى الصحيح الذى هو نفى المثل ، والشريك ، والند ، قد دل عليه قوله سبحانه (لم يكن له كفواً أحد) وقوله : (قل هو الله أحد) وقوله تعالى : (هل تعلم له سميا) [١] وأمثال ذلك ، فالمعانى الصحيحة لصفات الله نفياً وإثباتا ، ثابتة بالكتاب والسنة والعقل يدل على ذلك .

وقول بعض أهل الكلام : الأحد ، والصمد ، هو الذى لاينقسم ، ولا يتفرق ، أو ليس بمركب ، ونحو ذلك من العبارات ، إن عنى بها أنه لايقبل التفرق والانقسام فهو حق ، وإن عنى بها أنه لا يشار إليه بحال ، فهذا يمتنع وجوده ، وإنما يقدر وجوده فى الذهن تقديراً .

وقد علمنا أن العرب حين أطلقوا لفظ الواحد ، والأحد نفياً ، وإثباتاً لم يريدوا هذا المعنى .

ولهذا لما قال الذين جادلوا الإمام أحمد ، فى نفى الصفات - مستدلين باسم الواحد - : لا تكونون موحدين أبداً حتى تقولوا : كان الله ولا شئ .

---

(١) جزء من الآية ٦٥ سورة مريم .

قال أحمد : قلنا نحن نقول : كان الله ولا شئ ، ولكن إذا قلنا : إن الله لم يزل بصفاته كلها ، أليس إنما نصف إلهاً واحداً ؟ .

وضربنا لهم فى ذلك مثلا ، فقلنا : أخبرونا عن هذه النخلة ، أليس لها جذع ، وكرب ، وليف ، وسعف ، وخوص ، وجمار ؟ . واسمها شئ واحد ؟ سميت نخلة بجميع صفاتها ؟ . فكذلك الله – وله المثل الأعلى بجميع صفاته إلٰه واحد .

ولا نقول : إنه كان فى وقت من الأوقات ولا قدرة له ، حتى خلق لنفسه قدرة ، أو كان ولا علم له ، حتى خلق له علما ، ولكن نقول : لم يزل عالما ، قادرا ، مالكا ، لا متى ، ولا كيف » انتهى (١)

وقال أيضا : « ودل قوله تعالى : (قل هو الله أحد الله الصمد) على أنه لم يلد ، ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، ولهذا فسر الصمد بأنه الذى لم يلد ، ولم يولد .

فإن الصمد : هو الذى لاجوف له ، ولا أحشاء ، فلا يدخل فيه شئ ؛ فلا يأكل ولا يشرب ، كما قال تعالى : (وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ) (٢) وفى قراءة بفتح الياء الأخيرة .

وفسر بعض السلف « الصمد » بأنه الذى لايخرج منه شئ ، وليس مرادهم أنه لايتكلم فإنه يقال فى الكلام : خرج منه ، كما فى الحديث : « ما تقرب

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٧ ص ٤٤٩ ، وانظر رد الإمام أحمد فى مجموع عقائد السلف ص ٩١ .

(٢) الآية ١٤ من سورة الأنعام .

العباد إلى الله بشئ أفضل مما خرج منه » انتهى [١]

ودل الحديث على استحباب قراءة الآيات التى تشتمل على صفات الله تعالى ، خلافا للمبتدعة الذين يكرهون قراءة آيات الصفات عند العامة ، وفيه التصريح بأن الله يحب ذلك ويحب من يحبه .

★ ★ ★

(١) المصدر السابق والحديث خرجه الترمذى جـ ٤ ص ٢٤٩ ، وعبد الله بن الإمام أحمد فى السنة ص ٢٠ .

« باب قول الله تعالى : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ماً تدعوا فله الأسماء الحسنى) [١]

* * *

قال الطبرى – رحمه الله تعالى – « يقول تعالى ذكره لنبيه : قل يامحمد لمشركى قومك المنكرين دعاء الرحمن (أدعو الله) أيها القوم ، (أو ادعوا الرحمن ، أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) بأى أسمائه جل جلاله تدعون ربكم فإنما تدعون واحدا ، وله الأسماء الحسنى وإنما قيل ذلك له ﷺ – لأن المشركين فيما ذكر ، سمعوا النبى – ﷺ – يدعو ربه : ياربنا الله ، وياربنا الرحمن ، فظنوا أنه يدعو إلهين ، فأنزل الله الآية ، ثم روى ذلك عن ابن عباس ، وعن مكحول [٢] قال ابن حجر « كأنه لمح فى هذه الترجمة بهذه الآية إلى ماورد فى سبب نزولها ، وهو ما أخرجه ابن مردويه بسند ضعيف ، عن ابن عباس : أن المشركين سمعوا رسول الله ﷺ يدعو ياالله يارحمن ، فقالوا : كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد ، وهو يدعو إلهين . فنزلت ، وأخرج عن عائشة بسند آخر نحوه » [٣] .

قلت : يظهر لى أن مقصود البخارى – رحمه الله – بالترجمة بهذه الآية بيان اختصاص الله – تبارك وتعالى – بالأسماء الحسنى ، وأن أسمائه كاملة المعانى ، لايلحقها نقص ، أو عيب ، وأن اتصاف المخلوق ببعض مايتصف الرب تعالى به من المعانى ، لا يلزم منه نقص أو عيب فى أسمائه ، وصفاته – تعالى – لأنها حسنى

---

(١) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

(٢) تفسير الطبرى جـ ١٥ ص ١٨٢

(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٣٦٠ .

كاملة تناسب عظمته ، وكبرياءه ، فلا يتوهم أن فى ذلك تشبيها كما يزعمه أهل البدع الذين ظنوا أن مجرد المشاركة فى الاسم ، أو المعانى يفيد التشبيه . فنفوا صفات الله تعالى من أجل ذلك .

وأما المخلوق فأسماؤه وصفاته ليست حسنى ، ولا كاملة فهى تناسب ضعفه وعجزه ، والذى يوضح مراد البخارى بذلك الحديثان اللذان ذكرهما « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » وفى الآخر « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » ، فإذا كان المخلوق يرحم ، ويسمى رحيما ، والله تعالى يرحم ويسمى رحيما ، فليس مايخص الله تعالى من هذا الاسم أو الفعل مماثلا أو مقاربا لما يخص المخلوق ، فلا يجوز تأويل أو نفى رحمة الله تعالى وغيرها من صفاته ، من أجل توهم أن مجرد المشاركة فى المعنى يلزم منها التشبيه ، والله أعلم .

قال ابن القيم : « أسماؤه – تعالى – كلها مدح وثناء وتمجيد ، ولذلك كانت حسنى وصفاته كلها صفات كمال » [1] .

وماذكره بعض الشراح : من أن البخارى ذكر هذا الباب ليكون كالأصل لما بعده من الأبواب ، ومابعده كالفرع عليه ، وقال : إنه قصد الاسمين المذكورين فى الآية وهما « الله » ، و « الرحمن » ، لأنهما خاصان بالله تعالى .

فليس بظاهر ، وهذان الاسمان جاء ذكرهما كثيرا فيما بعد ، والظاهر لى – والله أعلم – ما أشرت إليه فيما سبق قبل قليل ، يوضح ذلك ماجاء فى سبب النزول كما قال الحافظ ، والرحمن يأتى تابعا « لله » كغيره من الأسماء الحسنى .

فهو أراد بهذا الباب مادلت عليه الآيات الأخرى كقوله – تعالى –: « هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى » [2] وقوله : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » [3] وقوله « الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » [4] .

---

(١) مدارج السالكين جـ ١ ص ١٢٥ .
(٢) الآية ٢٤ من سورة الحشر .
(٣) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ٨ من سورة طه .

٦ ــ قال : « حدثنا محمد ، أخبرنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن زيد ابن وهب ، وأبي ظبيان ، عن جرير بن عبد الله ، قال : قال رسول الله – ﷺ – : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس »

* * *

جرير هو أبو عمرو ، جرير بن عبد الله بن جابر البجلي ، الأحمسي ، وأحمس بطن من بجيلة ، وبجيلة وخثعم أخوان ، وهما من قحطان ، وقيل : من ربيعة بن نزار .

قدم جرير على النبي ﷺ فى آخر حياته ، فبشَّر به أصحابه ، وبسط له رداءه .

وكان – رضى الله عنه – صادق الإيمان ، صادعا بالحق ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وكان يقول كما فى الصحيحين ، وغيرهما « بايعت النبى ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم » (١)

وبعثه النبى – ﷺ – لهدم ذى الخلصة ، وهو صنم كبير كان لدوس ، فهدمه .

ودعا له النبى ﷺ ، ولخيل أحمس ورجالها .

وكان حسن الوجه حيث كان يقال له : يوسف هذه الأمة ، وكان طويلا إذا ركب الفرس تكاد تخط رجلاه فى الأرض .

نزل الكوفة ، فأرسله علي رسولا إلى معاوية ، ثم اعتزل الحروب بينهما وتحول إلى جزيرة ابن عمر ، توفى بقرقيسيا سنة إحدى وخمسين ، وقيل بعدها رضى

---

(١) انظر الفتح جـ ١ ص ١٣٧ وغيره ، ومسلم جـ ١ ص ٧٥ فى الإيمان رقم ٥٦

الله عنه . (١)

« قوله : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » فى رواية لمسلم « من لا يرحم الناس ، لا يرحمه الله »

وعند الطبرانى « من لا يرحم من فى الأرض ، لا يرحمه من فى السماء » ورواته ثقات .

ولأبى داود ، والترمذى ، والحاكم « ارحموا من فى الأرض ، يرحمكم من فى السماء » .

وفى الطبرى « من لا يرحم المسلمين لم يرحمه الله » (٢) .

قلت : ومعنى هذه الروايات واحد ، ففى هذه الأحاديث وأمثالها كثير ، دليل على أن الرحمة صفة تقوم بمن يشاء الله من عباده ، الذين يريد جل وعلا رحمتهم ، وتتخلف عن الأشقياء ، الذين لا يرحمهم الله تعالى .

وقد روى البخارى فى الأدب المفرد ، من حديث أبى هريرة ، أن النبى ﷺ قال : « لا تنزع الرحمة إلا من شقى » (٣) .

وقد علم من دين الرسل ، وكتب الله تعالى أن الله متصف بالرحمة ، وليست رحمته ثوابه وجزاؤه ، كما يقوله أهل التحريف المؤولة ، من الأشعرية وغيرهم.

---

(١) انظر أسد الغابة جـ ١ ص ٣٣٣ ، والاستيعاب جـ ١ ص ٢٣٦ ، والإصابة جـ ١ ص ٤٧٥ ، وسير أعلام النبلاء جـ ٢ ص ٥٣٠ .

(٢) الفتح جـ ١٠ ص ٤٤٠ .

(٣) انظر الأدب المفرد ص ١٣٦ ، قال محققه أخرجه الترمذى ٢٥ كتاب البر والصلة ١٦ باب ما جاء فى رحمة المسلمين وأبو داود ، كتاب الأدب ٥٨ باب فى الرحمة ، وأحمد فى المسند رقم ٧٩٨٨ ، ٩٧٠٠ ، ٩٩٤١ ، ٩٩٤٦ ، ١٠٦٤ وسنده صحيح وغيرهم .

وقد قال الله تعالى : (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) [١]

فعطف الرحمة على الفضل يدل على المغايرة ، وفضل الله – تعالى – الذى هو الثواب والجزاء مخلوق ، ليس من صفات الله – تعالى – القائمة به .

وإذا كان الإجماع حاصل بين الأمة ، بأن الله تبارك وتعالى ليس كمثله شئ فى ذاته المقدسة ، فيجب أن تكون صفاته ليست كصفات خلقه ، لأن الصفة تتبع الموصوف ، فصفات الله – تعالى – من الرحمة ، والرضا ، والغضب وغير ذلك . تليق بعظمته ، وتناسبه ، وصفة المخلوق من ذلك وغيره تليق بضعفه ، وعجزه وفقره .

وإن من الضلال ، والبعد عن كتاب الله ، وهدى رسوله ، وسبيل المؤمنين حقا ، نفى صفات الله – تعالى – وتعطيله منها اعتلالا بأنها تفيد التشبيه . لأن المخلوق يوصف بتلك الصفات ، وهل هذا إلا مثل من يقول : أنا لا أقر بوجود الله تعالى لأن المخلوق موجود ؟ .

وقد تقدمت الإشارة إلى أن مجرد الاشتراك فى الاسم أو فى المعانى العامة لا يقتضى تشبيها ، وسيأتى لذلك مزيد إن شاء الله تعالى .

★ ★ ★

(١) الآية ٥٨ من سورة يونس .

٧ ـــ قال : حدثنا أبو النعمان ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عاصم الأحول ، عن أبي عثمان النهدى ، عن أُسامة بن زيد ، قال : كنا عند النبى ﷺ – إذ جاءه رسول إحدى بناته تدعوه إلى ابنها فى الموت ، فقال النبى – ﷺ : « ارجع فأخبرها ، أن لله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل شئ عنده بأجل مسمى ، فمرها فلتصبر ، ولتحتسب . فأعادت إليه الرسول ، أنها أقسمت لتأتينها ، فقام النبى – ﷺ – وقام معه سعد ابن عبادة ، ومعاذ بن جبل ، فدفع الصبى إليه ، ونفسه تقعقع كأنها فى شن ، ففاضت عيناه ، فقال له سعد : يارسول الله ما هذا ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء »

* * *

أسامة بن زيد بن حارثة بن سراحيل ، الكلبى ، حِبّ رسول الله – ﷺ – وابن حبه ومولاه ، وابن مولاته أم أيمن .

أمَّره رسول الله – ﷺ – على جيش فيه كبار المهاجرين ، والأنصار ، منهم أبو بكر وعمر ، وقال فيه ﷺ : « وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة » (١)

وفى البخارى ، وغيره أنه ﷺ قال له ، وللحسن : « اللهم إنى أحبهما ، فأحبهما » (٢)

وزوجه فاطمة بنت قيس ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، وتوفى رسول الله – ﷺ – وهو ابن تسع عشرة سنة ، وفضَّله عمر رضى الله عنهما فى العطاء على

---

(١) أخرجه البخارى فى مواضع من الصحيح ، انظر الفتح جـ ٧ ص ٤٩٨ ، ٨٦ و جـ ١١ ص ٥٢١ .

(٢) انظر الفتح جـ ٧ ص ٨٨ ، ٩٤ وجـ ١٠ ص ٤٣٤ .

ابنه عبد الله ، وحين راجعه قال له : إنه أحبُّ إلى رسول الله – ﷺ منك .

واعتزل الحروب بين أهل الشام وأهل العراق ، ومات بوادى القرى سنة أربع وخمسين ، وقيل غير ذلك [١] .

قوله : « إحدى بناته » قال الحافظ : هى زينب ، كما جاء فى مصنف ابن أبى شيبة » [٢]

قلت : يشير إلى ما رواه ابن أبى شيبة بالسند المذكور هنا . قال : « دمعت عين رسول الله ﷺ حين أتى بابنة زينب ، ونفسها تقعقع كأنها فى شن ، قال : فبكى قال : فقال له رجل : تبكى وقد نهيت عن البكاء » فذكر بقية الحديث كما ذكره البخارى [٣]

ثم قال الحافظ : « ووجدت فى الأنساب للبلاذرى ، أن عبد الله بن عثمان ابن عفان من رقية بنت النبى – ﷺ – لما مات ، وضعه النبى ﷺ – فى حجره وقال : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » ، وفى مسند البزار ، عن أبى هريرة ، قال : ثقل ابن لفاطمة ، فبعثت إلى النبى ﷺ . فذكر نحو الحديث المذكور هنا .

فعلى هذا ، فالابن هو محسن بن علي بن أبى طالب ، وقد اتفق أهل العلم بالأخبار أنه مات صغيرا ، فى حياة النبى – ﷺ – فهذا أولى أن يفسر به الابن لكن الصواب أن المرسلة ؛ زينب ، وأن الولد صبية ، كما ثبت فى مسند أحمد بالسند المذكور ، ولفظه : « أتى النبى – ﷺ بأمامة بنت زينب ، ونفسها تقعقع

---

(١) انظر الإصابة ص ١ ص ٤٩ تحقيق البجاوى ، وسير أعلام النبلاء جـ ٢ ص ٤٩٦ وغيرها .

(٢) انظر الفتح جـ ٣ ص ١٥٦ .

(٣) انظر مصنف ابن أبى شيبة جـ ٣ ص ٣٩٢ .

كأنها فى شن » وذكر بقية الحديث [١] . ومثله فى معجم الطبرانى ، وقد شفاها الله تعالى - فعاشت زمنا بعد وفاة رسول الله - ﷺ - وتزوجها على بن أبى طالب ، بعد وفاة فاطمة ، وقتل وهى عنده رضى الله عنهم جميعا » [٢] .

قوله : « إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى » . قال النووى - رحمه الله - : هذا أحسن مايعزى به . ثم قال : « وهذا الحديث من أعظم قواعد الإسلام ، لاشتماله على مهمات كثيرة من أصول الدين ، وفروعه ، والآداب ، والصبر على النوازل كلها ، والهموم ، والأسقام وغير ذلك ، ومعنى قوله : « إن لله ما أخذ » أن العالم كله ملك لله تعالى ، فلم يأخذ ماهو لكم ، بل أخذ ماهو له عندكم ، فى معنى العارية .

ومعنى : « وله ما أعطى » أن ما وهبه لكم ليس خارجا عن ملكه ، بل هو له يفعل فيه مايشاء ، وكل شئ عنده بأجل مسمى ، فلا تجزعوا فإن من قُبض فقد انقضى أجله المسمى ، فمحال تأخره أو تقدمه عنه ، فاعلموا ذلك ، واصبروا ، واحتسبوا مانزل بكم » [٣]

وقوله : « وكل شئ عنده بأجل مسمى » من فقد محبوب ، أو حصول مرغوب ، وتصرف فى هذا الكون الذى هو بأسره ملك لله يفعل فيه ما يريد ، والأجل المسمى : هو المقدر بوقت معين لايتأخر عنه ، ولا يتقدم .

وفى هذه الجملة من الحديث دليل واضح على أن الله تعالى قدر كل شئ وكتبه ، وعلم وقته وحاله ، وأن الحوادث كلها تقع على تقدير دقيق ، لا تتأخر عن ذلك لحظة ولا تتقدم ، وهذا أصل عظيم من أصول الدين الإسلامى ، يجب

---

(١) انظر المسند جـ ٥ ص ٢٠٤ .
(٢) الفتح جـ ٣ ص ١٥٦ .
(٣) انظر الأذكار ص ٢١٢ - ٢١٣ .

أن يعلم . والإيمان به من أركان الدين لابد منه ، والأدلة عليه من الكتاب والسنة كثيرة .

قوله : « فلتصبر ، ولتحتسب » الصبر : حبس النفس عن الجزع ، والتسخط ، وحبس الجوارح عما نهى عنه الشرع من شق الثياب ، وخمش الوجوه ولطمها ، والكلام الذى ينافى التسليم لرب العالمين ، وما أشبه ذلك مما يدل على تسخط الأقدار ، والاعتراض على القضاء الذى قضاه الله قبل وجود الخلق .

والاحتساب : هو نية طلب الثواب من الله على الإيمان بالقدر ، والتسليم لأمر الله تعالى ، والإيمان بوعد الله تعالى ، فإنه وعد على الصبر الجزاء .

قال ابن القيم : « حقيقة الصبر : أنه خُلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل مالا يحسن ، ولا يجمل » (١)

قوله : « فأعادت إليه الرسول ، أنها أقسمت لتأتينها » جاء فى بعض الروايات أنها راجعته ثلاث مرات ، وإنما ذهب إليها بعد الثالثة .

وإلحاحها لما علمت من أن حضور النبى ﷺ فيه الخير والبركة ، وأنه يتوقع أن يرفع الله ببركة دعائه وحضوره ماهى فيه وابنتها من ألم وتوجع . وقد حقق الله تعالى أملها ورغبتها ، فشفا مريضها كما سبق .

ولا يعترض بهذا على أن القدر لا بد من وقوعه ، فكيف يتخلف من أجل الدعاء أو غيره ، فإن الله تعالى جعل لكل شئ سبباً ، ورتب المسببات على أسبابها فقدَّر أن هذا الشئ يقع فى وقت معين إذا تخلف السبب من دعاء أو غيره ، وإذا وجد ، هذا السبب مثلا فإنه يتأخر إلى وقت آخر ، أى أن الله تعالى قد يجعل لوقوع هذا الحادث أجلين ، أجل إذا لم يفعل السبب - مثل الدعاء والعمل الصالح - وأجل آخر إذا فعل ذلك ، وقد علم الله أيهما يقع ، وهو جل

---

(١) عدة الصابرين ص ١٢ .

وعلا : يبتلى خلقه بالمصائب ، تأديبا لهم ، وتكفيراً لذنوبهم ، رحمة منه بهم .

قوله : « ونفسه تقعقع كأنها فى شن » القعقعة صوت الشئ اليابس الجاف الخفيف إذا حرك . يعنى بذلك صوت نفسه عند صعوده ونزوله فى صدره من شدة الألم .

والشن : بفتح الشين وتشديد النون ، القربة الخلقة اليابسة .

قوله : « ففاضت عيناه » أى ذرفت عينا رسول الله – ﷺ – بالدموع رحمة لهذا الضعيف ، وتوجعا لما نزل به من الألم الشديد .

« فقال سعد : يارسول الله ماهذا » كان ﷺ ينهى عن البكاء على الميت ، فظن سعد – رضى الله عنه وغيره أن النهى يدخل فيه دمع العين ، وحزن القلب ، فبيَّن لهم النبى ﷺ أن النهى عنه هو التسخط من المقدور ، ودعوى الجاهلية من العويل والنوح ، وتعداد محاسن الميت ، وما أشبه ذلك من لطم الوجه وشق ونحوه ، مما يدل على السخط من الواقع ، وعدم الصبر .

وأما دمع العين وحزن القلب ، فهو من الرحمة للضعفاء التى هى سبب رحمة أرحم الراحمين جل وعلا .

قوله : « هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده » أى الدمع الذى رأيته من أثر الرحمة التى جعلها الله تعالى فى قلوب عباده ، الذين أراد تعالى رحمتهم ، لأن الجزاء من جنس العمل ، والإضافة هنا خاصة أى الذين عبدوه باتباع أمره ، واجتناب نهيه .

قوله : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » أى رحمة الله تعالى للمحسنين إلى عباده برحمتهم ، والرحماء من صيغ المبالغة ، ولهذا قال بعض الشراح : « المعنى أن الله تعالى لا يرحم من عباده إلا كثير الرحمة ، فالرحماء جمع رحيم ، وهو من صيغ المبالغة » (١)

---

(١) المنهل العذب المورود جـ ٨ ص ٢٧٧ .

قلت : هذا الحصر لاينبغى ، وإن كان التركيب فى الحديث يفيده ولكن فيما يظهر لى – والله أعلم – أنه غير مقصود للأدلة على أن رحمة الله وسعت كل شئ ، وإنما المقصود هنا رحمة خاصة بمن هذه صفتهم .

وهذا القدر من الحديث هو محل الشاهد الذى سيق الحديث من أجله ، مع قوله « هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده » وذلك أن القدر المشترك بين أسماء الله تعالى وصفاته ، وبين أسماء المخلوقين وصفاتهم فى اللفظ والمعنى لا يقتضى المشابهة ، لأن أسماء الله تعالى حسنى ، لا يلحقها نقص ، ولا عيب . بخلاف أسماء المخلوقين – وإن كان منها الحسن – فليست بحسنى ، ولأن الصفات تابعة للموصوف ، وكذلك الأسماء ، فالرحمٰن اسمه تعالى . والرحمة صفته ، والمخلوق يتصف بالرحمة التى يرحم بها ، وهى تابعة له فى الخلق والمعنى ، فهى مخلوقة فيه ، لأنه مخلوق فصفاته مخلوقة ، وهو ضعيف فقير محتاج ، وصفاته تناسبه فى ذلك مع أنه يسمى رحيم ، وراحم ، والله تعالى موصوف بالرحمة ويسمى رحيم ، ولا يكون فى ذلك تشبيه ، لأن المخلوق اسمه وصفته يختص به ، والله تعالى اسمه وصفته يختص به ، فرحمة الله صفة له عليا صفة كمال ، وسالمة من كل نقص أو عيب يمكن أن يلحق المخلوق ، فليست رحمته تعالى عن ضعف أو عجز ، بل عن كمال فضله وإحسانه . ولا يجوز أن تؤول بالتواب أو العطى ، أو إرادة ذلك وما أشبهه مما يقوله أهل التأويل . كما ذكر الحافظ ابن حجر عن شراح البخارى . وغيرهم ، كقول ابن بطال : « إن المراد برحمته إرادته تقع لمن سبق فى علمه أنه ينفعه ، وأما الرحمة التى جعلها فى قلوب عباده ، فهى من صفات الفعل [1] وصفها بأنه خلقها فى قلوب عباده وهى رقة على المرحوم ، وهو سبحانه منزه عن

---

(١) صفات الفعل عند الأشعرية : ما فعله تعالى منفصلا عنه – يعنى مخلوقاته التى وجدت بصفة الخلق ، وليس هناك اشتباه بين ما يسميه ابن بطال صفات فعل ، وبين صفات الله حتى يلزم ما ذكره .

الوصف بذلك ، فتتأول بما يليق به » [١] .

وذكر من هذا النوع أشياء تخالف نصوص كتاب الله ، ونصوص سنة رسوله ﷺ – كما هى عادته ، لأنه عفا الله عنا وعنه ، على المذهب الأشعرى الذى يعتمد على تأويل صفات رب العالمين – وإن كان أحيانا يذكر مذهب السلف فيما ينقله ، ولكنه لايتبناه ، بل يخلط بينه وبين ما يخالفه .

وهذا المذهب – يعنى مذهب الأشعرية الذى عليه أكثر المتأخرين – مخالف لما عليه رسل الله صلى الله عليهم وسلم ، ومخالف لكتبه ، ولما عليه أتباع الرسل ، كما اعترف بذلك بعض كبار علماء هذا المذهب ، كالفخر الرازى ، والجوينى ، والغزالى ، والشهرستانى ، وغيرهم كما يأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى .

وهكذا تبرر الأشعرية تأويل صفات رب العالمين بما تعرفه من صفات المخلوقين . فكأنهم لم يعرفوا من الرحمة إلا أنها رقة على المرحوم ، ولا من الغضب إلا أنه غليان دم القلب ثم طلب الانتقام ، وما أشبه ذلك ، ولهذا لجأوا إلى التحريف الذى يسمونه تأويلا ، وجعلوه واجبا ضروريا ، حتى لا يلزم التشبيه ، فيسلم المسلم من التشبيه والتجسيم على مازعموا .

زعموا هذا مع أنهم ينكرون على الفلاسفة تأويلهم نصوص المعاد ، وعلى الباطنية تأويلهم الشرائع أشد الإنكار ، فما الذى سوَّغ لهم تأويل نصوص الصفات مع كثرتها ووضوحها ؟ وما ادعوه أن العقل يوجب ذلك بإمكان كل مبطل أن يدعيه .

فليس هناك عاصم من الضلال ، إلا الوقوف مع نصوص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك فى المقدمة .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٥٨ .

قال أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن على بن المرتضى اليمانى – رحمه الله تعالى : « الأمر الثانى وهو النقص فى الدين ، برد النصوص والظواهر ، ورد حقائقها إلى المجاز ، من غير حجة قاطعة ، تدل على ثبوت الموجب للتأويل ، إلا مجرد التقليد لبعض أهل الكلام فى قواعد لم يتفقوا عليها ، وأفحش ذلك مذهب القرامطة الباطنية فى تأويل الأسماء الحسنى كلها ، ونفيها عن الله تعالى ، على سبيل التنزيه له عنها ، وتحقيق التوحيد بذلك ، ودعوى أن إطلاقها يقتضى التشبيه ، حتى قالوا : لا يقال إنه موجود ، ولا معدوم .

فكما أن كل مسلم يعلم أن هذا كفر صريح ، فكذلك المحدث الذى طالت مطالعته للآثار ، قد يعلم أن تأويل بعض المتكلمين مثل ذلك .

ومن الضرورى ورود أسماء الله الحسنى فى كتابه على سبيل التمدح بها والثناء العظيم عليه بها ، ألا ترى – مثلا أن الرحمن الرحيم متلُوَّان فى جميع الصلوات مذكوران فى أكثر محافل المسلمين ، مجمعين على أنهما أحسن الثناء على الله تعالى متقربين إلى الله تعالى بمدحه بهما .

وكرر تعالى التمدح بالرحمة فى كتابه أكثر من خمسمائة ، مرة باسمه الرحمن أكثر من مائة وستين مرة ، وباسمه الرحيم أكثر من مائتى مرة ، وجمعهما مائة وستين مرة . وجاء الرحيم مقترنا مع التواب مراراً ، ومراراً مع الرؤوف ، والرأفة أشد الرحمة . ومرارا مع الغفور ، وهى كثيرة ، عرفت منها سبعة وستين موضعا .

وقد فطر الله العقول على معرفة رحمة الله ، وسعة علمه ، وكمال قدرته .

فما هو المانع من إثبات صفة الرحمة ونحوها مما أثبته الله ورسوله ، مع نفى النقائص المتعلقة بصفات المخلوقين فى حياتهم ، وكذلك كل صفة يتصف بها الرب ، تعالى ويوصف بها العبد . فإنه جل وعلا يوصف بها على أكمل وجه ، خالية عن جميع النقائص ، والعبد يوصف بها على ما يناسبه ، من نقص وضعف ، وبهذا فسر أهل السنة نفى التشبيه ، ولم يفسروه بنفى الصفات كما فعل المعطلة .

ومما يدل على بطلان التأويل ، كون المعتزلة يسخرون من تأويل الأشعرية للحكيم والأشعرية تسخر من تأويل بعض المعتزلة للسميع البصير ، وأهل السنة يسخرون من تأويل الفريقين للرحمن الرحيم ، وما أشبههما ، والكل يسخر من تأويل القرامطة . فيجب إثبات ما وصف الله به ذاته الكريمة ، من غير تأويل ، ولا تعطيل .

ولا يجوز القول بأن ظاهر هذه الأسماء كفر ، وضلال ، وأن الصحابة والسلف الصالح لم يفهموا ذلك ، أو أنهم فهموه ولم يقوموا بالواجب من نصح المسلمين وبيان التأويل الحق ، لأمرين :

الأول قاطع ضرورى ، وهو أن العادة توجب أن ما كان كذلك أن يظهر التحذير منه ، من رسول الله – ﷺ – ومن أصحابه ، ويتواتر أعظم من تحذيرهم من الدجال الكذاب ، ولا يجوز مع كمال عقولهم ، وأديانهم أن يتركوا صبيانهم ونساءهم ، وعامتهم يسمعون ما ظاهره كفر ، منسوباً إلى الله – تعالى – ورسوله ويسكنون عليه ، مع بلادة الأكثرين .

ولو تركوا بيان ذلك ، ثقة بنظر العقول الدقيق ، لتركوا التحذير من فتنة الدجال ، فإن بطلان ربوبيته أظهر فى العقول من ذلك ، ألا ترى أن المتكلمين لما اعتقدوا قبح هذه الظواهر ، تواتر عنهم التحذير عنها ، وتأويلها ، فصنفوا فى ذلك ، وأيقظوا الغافلين ، وعلموا الجاهلين ، وكفروا المخالفين ، وأشاعوا ذلك بين المسلمين ، بل بين العالمين ، فكان أحق منهم بذلك سيد المرسلين وقدماء السابقين ، وأنصار الدين ، لو كان ذلك حقا .

الثانى : أنه ثبت تحريم الزيادة فى الدين ، فلا يصح سكوت الشرع عن النص على ما يحتاج إليه ، من مهمات الدين ، فالإسلام متبع ، لا مخترع ، ولذلك كفر من أنكر شيئا من أركان الدين ، لأنها معلومة ضرورة ، فأولى وأحرى أن لا يجئ الشرع بالباطل منطوقا متكرراً من غير تنبيه على ذلك ، لاسيما إذا كان ماسموه باطلا ، هو المعروف فى جميع كتب الله ، ولم يأت ما يعارضه من طريق شرعى ، ولا عقلى ، حتى يجب التأويل .

وكثير منهم يزعم أنه ما جاء التصريح بالحق فى آية واحدة تكون هى المحكمة التى رد إليها جميع المتشابه ، والله تعالى ذكر أنه أنزل فى كتابه آيات محكمات ، ترد إليها المتشابهات ، ولم يذكر أن جميع كتابه متشابه ، فبطل ما يقولون .

وقد اعترف الرازى – فى كتابه الأربعين [١] – وهو من أكبر خصوم أهل السنة : أن جميع الكتب السماوية جاءت بصفات الله – تعالى – ولم ينص الله – تعالى – فى آية واحدة على أنه منزه عن الوصف بالرحمة ، والحلم والحكمة ، وما أشبه ذلك ، والأمر ظاهر وإن لم يعترف به ، وهذه الكتب السماوية موجودة .

وهبك تقول : هذا الصبح ليل　　　أيعمى العالمون عن الضياء » [٢]

قلت : دعوى المجاز فى اسمه تعالى « الرحمٰن » وغيره من الأسماء الحسنى – – من أبطل الدعاوى ، لأن ذلك يتضمن إنكار حقيقة صفة الرحمة ، وهو أعظم من إنكار الكفار لاسمه تعالى « الرحمٰن » ، كما ذكر الله تعالى عنهم ذلك ، قال تعالى : (كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن ، قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب) [٣]

وقال تعالى : (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا : وما الرحمن) [٤]

فهؤلاء الذين كفروا بالرحمن ، وأنكروه ، لم يكفروا بذاته تعالى ، وربوبيته ولم ينكروا مايدعيه المؤولة – أن معنى اسمه الرحمٰن هو الإحسان والإنعام إلى خلقه ،

---

(١) كتاب الأربعين فى أصول الدين فى علمِ الكلام .

(٢) إيثار الحق على الخلق ، بتلخيص وتصرف ص ١٢٩ – ١٣٩ .

(٣) الآية ٣٠ من سورة الرعد .

(٤) الآية ٦٠ من سورة الفرقان .

وإنما أنكروا اسمه تعالى « الرحمٰن » أن يسمى به .

وإنكار صفة الرحمة أعظم من إنكار الاسم ، وهو من أعظم الإلحاد فى أسماءه تعالى ، لأن وضع الاسم مقصود به الدلالة على المعنى المراد منه ، وهو الرحمة كما هو معلوم فى جميع أسماءه تعالى .

وتعليلهم لنفى الرحمة عن الله تعالى بأنها رقة القلب التى تحمل على الميل إلى المرحوم .

جوابه : أن هذه رحمة المخلوق ، ووصفه ، وأما رب العالمين ، فليس كمثله شئ فى ذاته وصفاته ، فليست رحمته تعالى من جنس رحمة خلقه جل وعلا . ومما يعجب منه أن أهل التأويل (١) يجعلون الرحمة بالنسبة للمخلوق حقيقة ، وبالنسبة لله تعالى مجازا ، فكيف تكون رحمة أرحم الراحمين التى وسعت كل شئ مجازا ، ورحمة المخلوق الضعيف حقيقة ؟ .

وكل العقلاء يدركون آثار رحمة الله تعالى فى الخلق ، كما يدركون آثار ربوبيته أو أعظم ، وهذا من أظهر الأشياء وأوضحها .

ومعلوم أن الأسماء التى تسمى الرب – تعالى بها وهى كلها حسنى – لها معانٍ يستدل بها عليها ، لأنها مشتقة من تلك المعانى ، وهذه المعانى هى الصفات ، وليست أسماءه تعالى . مجرد إعلام ، فالرحمٰن يدل على الرحمة ، والعليم يدل على العلم ، والحكيم يدل على الحكمة، وهكذا جميع أسماءه تعالى .

★ ★ ★

---

(١) أقصد الذين يؤولون الصفات كما هى طريقة أكثر الأشعرية .

قال : باب قول الله تعالى : (أنا الرزاق ذو القوة المتين)

٨ ــ « حدثنا عبدان ، عن أبى حمزة ، عن الأعمش ، عن سعيد بن جبير ، عن أبى عبد الرحمن السلمى ، عن أبى موسى الأشعرى ، قال : قال النبى – ﷺ – : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، يدعون له الولد ، ثم يعافيهم ، ويرزقهم » .

* * *

أبو موسى الأشعرى : هو عبد الله بن قيس بن سليم الأشعرى .

وأمه ظبية بنت وهب بن عك . هاجر إلى الحبشة قديماً ، ثم قدم على النبى ، ﷺ فى خيبر ، مع جعفر وأصحابه ، وهو من سادات الصحابة وعلماءهم . عرف بالشجاعة والاجتهاد فى طلب الخير ، وكان قارئاً حسن الصوت ، حتى قال فيه النبى ﷺ « لقد أُعطى مزماراً من مزامير آل داود » (١)

توفى رضى الله عنه بمكة ، وقيل بالكوفة سنة اثنتين ، أو أربع وأربعين ، عن ثلاث وستين سنة (٢) .

أما الآية فهكذا قرأها ابن مسعود ، وقال : إنه أقرأه إياها رسول الله ﷺ « كما رواه الإمام أحمد بسند صحيح » (٣) وأبو داود ، والنسائى ، والترمذى ، وقال : حسن صحيح (٤) .

---

(١) انظر البخارى جـ ٦ ص ١٦١ فضائل القرآن .
(٢) انظر الاستيعاب جـ ٣ ص ٩٧٩ ، أسد الغابة جـ ٣ ص ٣٦٧ ، الإصابة جـ ٦ ص ١٩٤ .
(٣) انظر المسند جـ ١ ص ٣٩٤ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٠٢ ، وانظر سنن أبى داود جـ ٤ ص ٢٩١ وفيه « إنى أنا الرزاق » الخ ، ومثله فى الترمذى جـ ٤ ص ٢٦٢ .

وهذه الآية مرتبطة بالآية قبلها فى المعنى ، وهى قوله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) (١) . والمعنى : أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه ، ولا يشركوا به شيئا ، فمن أطاعه فى ذلك جازاه أتم الجزاء وأحسنه ، ومن أبى وعصاه عذَّبه أشد العذاب .

وأخبر أنه غير محتاج إليهم ، بل هم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم ، فهو خالقهم ورازقهم » (٢) .

فهو جل وعلا لم يخلقهم ليستعين بهم أو ليقوى بهم ، كما يقصد السادة من عبيدهم .

قوله : « إن الله هو الرزاق » هذه القراءة المجمع عليها ، المتواترة ، وقراءة ابن مسعود تتفق معها فى المعنى .

والمعنى : أن الله تعالى هو المتكفل بأرزاق الخلق وحاجاتهم ؛ وأكد الجملة بإن ، والضمير ، لقطع توهم من يعتمد على قوته ، أو علمه وصنعته ، أو غير ذلك فى أمور الرزق ، ليصرف اعتمادهم إلى الله وحده .

« ذو القوة » أى القوة العظيمة التى لا تضاهى ، ولا تقاس بقوة خلقه مهما بلغت قوتهم ، فهو تعالى على كل شئ قدير ، لا يمتنع عليه شئ .

« والمتين » الشديد القوة ، الذى لا يطرأ عليه عجز أو ضعف ، تعالى وتقدس ، وهذا المروى عن ابن عباس كما ذكره الطبرى (٣)

قال ابن الجوزى : « والمتين : الشديد القوة الذى لاتنقطع قوته ،

---

(١) الآيات من سورة الذاريات من الآية ٥٦ - ٥٨ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٠٢ .

(٣) انظر تفسير الطبرى جـ ٢٧ ص ١٣ .

ولايلحقه فى أفعاله مشقة » (١) .

ورفع « المتين » على أنه وصف لـ « الرزاق » أو لذو ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو خبر بعد خبر ، وهذه قراءة الجمهور ، وقرأ يحي بن وثاب ، والأعمش بجر « المتين » على أنه صفة للقوة .

وهذه الآية ونظائرها تدل بوضوح على أن الله – تعالى – موصوف بالصفات العليا ، كما أنه مسمى بالأسماء الحسنى ، فالقوة صفته ، والرزاق اسمه ، وتقدم أن كل اسم لا بد أن يتضمن الصفة ، وبذلك وغيره يرد على المنكرين للصفات ، كما سبقت الإشارة إليه . والله أعلم .

وأما معنى الحديث : فقال النووى : « قال العلماء : معناه : أن الله تعالى واسع الحلم حتى على الكافر الذى ينسب إليه الولد والند ، قال المازرى : حقيقة الصبر : منع النفس من الانتقام أو غيره ، فالصبر نتيجة الامتناع ، فأطلق اسم الصبر على الامتناع فى حق الله تعالى » (٢) .

قال القاضى : والصبور من أسماء الله تعالى ، وهو الذى لايعاجل العصاة بالانتقام . وهو بمعنى الحليم فى أسمائه سبحانه وتعالى ، والحليم : هو الصفوح مع القدرة على الانتقام » (٣)

قلت : قوله : « فأطلق اسم الصبر على الامتناع فى حق الله تعالى » . فيه نظر ، وذلك أن رسول الله – ﷺ – أطلق على ربه الصبر ، وأنه ما أحد أصبر منه وهو ﷺ أعلم الخلق بالله – تعالى – وأخشاهم له ، وأقدرهم على البيان عن

---

(١) تفسير ابن الجوزى جـ ٨ ص ٤٤ .

(٢) قلت : هذا الكلام فيه نظر فقد جاء فى أسماءه تعالى الصبور ، وفى هذا الحديث : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله تعالى » .

(٣) شرح النووى على مسلم جـ ١٧ ص ١٤٦ .

الحق ، وأنصحهم للخلق ، فلا استدراك عليه ، فيجب أن يبقى ما أطلقه ﷺ على الله تعالى بدون تأويل ، إلا اذا كان يريد بذلك تفسير معنى الصبر ، ولكن الأولى أن يبقى كما قال ، لأنه واضح ليس بحاجة إلى تفسير .

قوله فى الحديث : « أصبر » أفعل تفضيل من الصبر ، ومن أسمائه الحسنى « الصبور » ومعناه : الذى لا يعاجل العصاة بالعقوبة ، وهو قريب من معنى الحليم . والحليم أبلغ فى السلامة من العقوبة » (١) .

وقال الزجاج : « أصل الصبر فى الكلام : الحبس ، يقال : صبرته على كذا صبرا إذا حبسته ، ومعنى الصبر ، والصبور فى اسم الله – تعالى – قريب من معنى الحلم » (٢)

وقال ابن الأثير : « الصبور : هو الذى لا يعاجل العصاة بالانتقام منهم ، بل يؤخر ذلك إلى أجل مسمى ، فمعنى الصبور فى صفة الله – تعالى – قريب من معنى الحليم ، إلا أن الفرق بين الأمرين أنهم لا يأمنون العقوبة فى صفة الصبور ، كما يأمنون منها فى صفة الحليم » (٣) .

يقصد أن صفة الحلم أكثر رجاء ورحمة وأوسع لعباده ، من صفة الصبور. والله أعلم .

قوله : « على أذى سمعه من الله » لفظ الأذى فى اللغة هو لما خف أمره ، وضعف أثره من الشرك والمكروه ، ذكره الخطابى ، قال شيخ الإسلام : وهو كما قال بخلاف الضرر ، فقد أخبر – سبحانه – أن العباد لايضرونه ، كما قال تعالى (ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا) (٤) فبين أن

---

(١) فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٦١ .
(٢) تفسير أسماء الله الحسنى ص ٦٥ .
(٣) جامع الأصول جـ ٤ ص ١٨٣ .
(٤) الآية ١٧٦ من سورة آل عمران .

الخلق لا يضرونه ، لكن يؤذونه » (١)

فأبن آدم يؤذى الله تعالى ، ويسبه بإضافة ما يتعالى ويتقدس عنه ، مثل نسبة الولد إليه – تعالى – والند ، والشريك فى العبادة ، التى يجب أن تكون خالصة له وحده ، ومثل إسناده نعمه وأفعاله إلى غيره . من الدهر ، والطبيعة ، والكون والمخلوقات ، وغير ذلك ثم يسبون ما أسندوا تلك الحوادث إليه ، فيقولون أصابتهم قوارع الدهر ، وأبادتهم حوادثه ، وأهلكتهم كوارث الطبيعة ، وياخيبة الدهر ، وهذا زمان سوء ، وما أشبه ذلك .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال رسول الله – ﷺ : يقول الله – تعالى – « يؤذينى ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره » (٢) .

وأذية الله – تعالى – بنسبة الحوادث ، والكوارث إلى الدهر ، أو الطبيعة ، وتوجيه اللوم ، والقدح والسب إلى ذلك كثيرة فى كلام أهل الأدب وغيرهم ، مع أن ذلك صنع الله وفعله ، ولذلك يرجع السب إليه ، تعالى عن قولهم علوا كبيراً ، كقول ابن المعتز :

يادهر ويحك ما أبقيت لى أحدا ... وأنت والد سوء تأكل الولدا

وقول أبى الطيب المتنبى :

قبحاً لوجهك يازمان كأنه ... وجه له من كل قبيح برقع

وقول الطرفى :

إن تبلى بلئام الناس يرفعهم ... عليك دهر لأهل الفضل قد خانا

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٥٤٢ .

(٢) انظر البخارى جـ ٦ ص ١٦٦ وتفسير سورة الجاثية جـ ٨ ص ٥٧٤ ، وجـ ١٠ ص ٥٦٤ الأدب وجـ ٩ ص ١٧٩ التوحيد ، ومسلم الأدب جـ ٧ ص ٤٥ .

وقول التهامى :

ليس الزمان وإن حرصت مسالما   خلق الزمان عداوة الأحرار

وقول الآخر :

وغاض رزقى ، وعادانى الزمان ، ولم   ينظر لما بى من العليا ، ولا حسبى

وقول الحريرى :

ولا تأمن الدهر الخؤون ، ومكره   فكم عالم أخنى عليه ، ونابه

وقوله أيضا :

ولما تعامى الدهر ، وهو أبو الردى   عن الرشد ، فى إيجابه ومقاصده
تعاميت ، حتى قيل : إنى أخو عمى   ولا غرو أن يحذو الفتى حذو والده

وقوله أيضا :

ولو أنصف الدهر فى حكمه   لما ملك الحكم أهل النقيصة

وقول موفق الدين ، عبد الله بن عمر الأنصارى فى تخميسه مقصورة ابن دريد :

يا زمنى ماذا العمى   فوقت لى من الرزايا أسهما ....
يا دهر كم هذى الحقود   والإحـــن .... [١]

وقال تميم بن المعز :

يا دهر ما أقساك من متلون   فى حالتيك ، وما أقلك منصفا
أتروح للنكس الجهول ممهدا   وعلى الحر اللبيب سيفاً مرهفا
وإذا صفوت كدرت ، شيمة باخل   وإذا وفيت نقضت أسباب الوفا
لا أرتضيك ، وإن كرمت لأننى   أدرى بأنك لاتدوم على الصفا

---

(١) انظر تخميس مقصورة ابن دريد ص ٤٢ .

زمن إذا أعطى ، استرد عطاءه　　وإذا استقام ، بدا له فتحرفا
ما قام خيرك يازمان بشره　　أولى بنا ما قل منك ، وما كفى

وقال عبد الرحيم الاسطنبولى :

أرى الدهر يسعف جهاله　　وأوفر حظ به الجاهل

ومثل هذا كثير جدا فى أشعار أهل الأدب قديما وحديثا ، وهو لايجوز لما دل عليه هذا الحديث الذى نحن بصدد شرحه ، وللأحاديث الأخرى الصحيحة الصريحة فى النهى عن ذلك ، كحديث أبى هريرة الآتى : « يقول الله تعالى : يؤذينى ابن آدم يسب الدهر ، وأنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره » (١)

يعنى أن الدهر الذى هو الليل والنهار مخلوق لله مسخر ، وهو مؤتمر بأمر الله تعالى مطيع له ، فإذا سبه الساب ، فإن السب يعود إلى فاعل الدهر وخالقه . ومعلوم أن توجيه الخطاب والملام إلى الأيام والليالى لأنها ظرف لوقوع الحوادث ، وما يؤلم ، فوجب اللوم إلى الدهر لذلك ، وإلا فغالب هؤلاء ، إن لم يكن كلهم لايعتقدون أن الليل والنهار هو المصرف المدبر ، والموجد لما يقع فيه ، فرجع اللوم فى الحقيقة إلى تلك الحوادث الواقعة فى الليل والنهار ، فبذلك يعلم أن اللوم والسب يعود إلى مقدرها وموجدها ، وهو الله – تعالى – خالق كل شئ ، فليحذر المسلم من مجارات هؤلاء الذين سلكوا طريق أهل الجهل من الكفار ، وغيرهم ، فى القدح فى أفعال الله تعالى ، وسخط أقداره وتدبيراته .

قال ابن الجوزى – رحمه الله – تعالى – : « ما رأت عينى مصيبة نزلت بالخلق أعظم من سبّهم للزمان ، وعيبهم للدهر ، وقد كان هذا فى الجاهلية ، ثم نهى رسول الله ﷺ عنه ، فقال : لاتسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر » (٢)

---

(١) سيأتى هذا فى باب قول الله « يريدون أن يبدلوا كلام الله » .

(٢) رواه مسلم فى الألفاظ من الأدب وغيره جـ ٤ ص ١٧٦٢ رقم الحديث ٢٢٤٦ وله عدة طرق عنده .

ومعناه : أنتم تسبون من فرّق شملكم ، وأمات أهليكم ، وتنسبونه إلى الدهر ، والله – تعالى – هو الفاعل لذلك .

وهؤلاء إن أردوا بالدهر ، مرور الزمان ، فذلك لا اختيار له ، ولا مراد ، ولا يعرف رشداً من ضلال ، ولا ينبغى أن يلام ، فإنه زمان مدبر ، ولا يعقل أن يكون ذم هؤلاء يقصد به الزمان الذى لاتصرف له ، فلم يبق إلا أن القوم خرجوا عن ربقة الإسلام ، ونسبوا القبائح إلى الله – تعالى – فاعتقدوا قصور حكمته ، وأنه يفعل مالا يصلح كما اعتقده إبليس فى تفضيل آدم ، وهؤلاء لا ينفعهم مع هذا الزيغ اعتقاد إسلام ، ولا فعل صلاة ، بل هم شر من الكفار » (١)

قلت : أكثر هؤلاء من الشعراء والأدباء لا يقصدون نسبة القبائح إلى الله – تعالى – من الجور والظلم ، وإنما ساروا فى ذلك على سبيل المتابعة لأهل الجاهلية والتقليد ، بدون تبصر لذلك . والله أعلم .

وكذلك يؤذى ابن آدم ربه بمخالفته أوامره تعالى – وارتكابه نهيه ، والإصرار على ذلك ، وأذية رسله ، وأوليائه ، وعباده الصالحين ، بعيبهم ، وتنقصهم ، كما فى مسند الإمام أحمد ، من حديث عبد الله بن مغفل المزنى – رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله – ﷺ : « الله ، الله ، فى أصحابى ، لا تتخذوهم غرضا بعدى ، فمن أحبهم ، فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم ، فقد آذانى ، ومن آذانى ، فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » (٢) .

وقد قال الله تعالى : (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعدَّ لهم عذاباً مهيناً) (٣) .

---

(١) صيد الخاطر ص ٤٩٠ باختصار وتصرف يسير .
(٢) المسند جـ ٤ ص ٨٧ .
(٣) الآية ٥٧ من سورة الأحزاب .

قال ابن جرير رحمه الله تعالى : « أى الذين يؤذون ربهم بمعصيتهم إياه ، وركوبهم ما حرم عليهم » [١] .

وفى قوله : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله » دليل واضح على تسميته تعالى بذلك ، أعنى « الصبور » كما جاء فى حديث الأسماء الحسنى .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : « فقد أطلق عليه – تعالى – أعرف الخلق به ، وأعظمهم تنزيها له – هذه الصفة : وما أحد أصبر على أذى سمعه من الله » ، كما أن ما ورد فى الأسماء الحسنى « الصبور » من أمثلة المبالغة ، فهو أبلغ من « الصابر » والصبار .

ومعنى الصبر معلوم فى اللغة ، والشرع ، والعرف ، فلسنا بحاجة إلى تأويلات المتكلمين ، التى تبعد عن المعنى المقصود من الخطاب .

وصبر الله – تعالى – لا يماثل صبر المخلوق ، بل يختلف عنه من وجوه .

منها : أنه عن قدرة تامة .

ومنها : أنه لايخاف الفوت ، والعبد إنما يستعجل لخوف الفوت .

ومنها : أنه – تعالى – لا يلحقه بصبره ألم ، ولا حزن ، ولانقص بوجه من الوجوه .

وظهور أثر هذا الاسم الكريم مشهود فى العالم بالعيان ، كظهور اسمه – تعالى – الحليم .

والفرق بين الصبر والحلم : أن الصبر ثمرة الحلم ، وموجبه ، والحلم فى صفاته تعالى – أوسع من الصبر ، ولهذا جاء فى القرآن فى مواضع كثيرة ، وجاء مقرونا مع اسمه العليم ، كقوله تعالى – : (وكان الله عليما حليما) [٢] ، وقوله – تعالى : (والله عليم حليم) [٣] ، وحلمه تعالى من لوازم ذاته .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢١ ص ٤٤ .

(٢) الآية ٥١ من سورة الأحزاب .

(٣) الآية ١٢ من سورة النساء . وقد جاء اقترانه باسمه الغفور فى مواضع عدة=

وأما صبره – تعالى – فمتعلق بكفر عباده ، وشركهم ، ومسبتهم له – تعالى – وتقدس – وسائر معاصيهم ، وفجورهم ، فلا يدعوه ذلك إلى تعجيل عذابهم ، بل يصبر عليهم ويمهلهم ، ويرفق بهم ، ويستصلحهم بحلمه وصبره ونعمه ، حتى إذا لم يبق فيهم موضع للصنيعة ولا يصلحون على الإمهال ، ولم ينيبوا إليه ، لامن باب الإحسان والنعم ، ولا من باب البلاء والنقم أخذهم أخذ عزيز مقتدر ، بعد غاية الإعذار إليهم ، وبذل النصيحة لهم ، ودعاءهم من كل باب .

وهذا كله من موجبات صفة حلمه ، وهى صفة ذاتية له لاتزول .

وأما الصبر فإذا زال متعلقه كان كسائر الأفعال التى توجد لوجود الحكمة وتزول بزوالها ، فتأمله ، فإنه فرق لطيف قلَّ من تنبه له .

وقد أشكل على كثير من العلماء مجيء هذا الاسم فى أسماء الله الحسنى ، وقالوا : لم يأت فى القرآن ، فأعرضوا عن الاشتغال به .

ولو أنهم أعطوه حقه لعلموا أن الرب – تعالى – أحق به من جميع خلقه ، كما هو أحق باسم العليم ، والرحيم ، والقدير ، والسميع ، وسائر أسمائه الحسنى من المخلوقين ، وأن التفاوت الذى بين صبره – تعالى – وبين صبرهم كالتفاوت الذى بين حياته وحياتهم ، وعلمه وعلمهم ، وهذا فى سائر صفاته – تعالى – ولهذا قال أعرف خلقه به : « لا أحد أصبر على أذى ، سمعه من الله » تعالى – فعلم أرباب البصائر بصبره سبحانه كعلمهم برحمته ، وعفوه وستره ، مع أنه صبر مع كمال علم وقدرة ، وعظمة وعزة ، وهو صبر على أعظم مصبور عليه ، فإن مقابلة أعظم العظماء ، وملك الملوك ، وأكرم الأكرمين ، ومن إحسانه فوق كل إحسان – بغاية القبح ، وأعظم الفجور ، وأفحش الفواحش ، ونسبته تعالى إلى كل مالا يليق به ، والقدح فى كماله ، وفى أسماءه وصفاته ، والإلحاد فى آياته ، وتكذيب رسله – عليهم السلام – ومقابلتهم بالسب والشتم ، والأذى وتحريق أوليائه ، وقتلهم وإهانتهم . أمر لايصبر عليه إلا الصبور الذى لا أحد أصبر منه ، ولا نسبة لصبر جميع الخلق من أولهم إلى آخرهم إلى صبره سبحانه وتعالى .

= من القرآن كقوله تعالى : (ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حليم) ١٥٥ آل عمران .

ومما يعين على معرفة صبره – تعالى – وحلمه ، والفرق بينهما ، تأمل قوله تعالى : (إن الله يُمسك السماوات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليما غفورا) (١) وقوله – تعالى – : (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدًّا . تكاد السماوات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدًّا . أن دعوا للرحمن ولدا) (٢) وقوله – تعالى : (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) (٣) . على قراءة فتح اللام .

فأخبر تعالى أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السماوات والأرض ، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر ، فبحلمه صبر عن معاجلة أعدائه .

وفى الآية إشعار بأن السماوات والأرض تهم وتستأذن بالزوال ، لعظم مايأتى به العباد ، فيمسكهما بحلمه ، ومغفرته ، وذلك حبس عقوبته عنهم ، وهو حقيقة صبره – تعالى .

فالذى صدر عنه الإمساك ، هو صفة الحلم ، والإمساك هو الصبر ، وهو حبس العقوبة ، ففرق بين حبس العقوبة ، وبين ماصدر عنه حبسها فتأمله » (٤) .

قال ابن المنير : « وجه مطابقة الحديث للآية (٥) اشتماله على صفتى الرزق والقوة الدالة على القدرة ، أما الرزق ، فواضح من قوله : « ويرزقهم » ، وأما القوة فمن قوله : « أصبر » فإن فيه إشارة إلى القدرة على الإحسان إليهم ، مع إساءتهم بخلاف طبع البشر ، فإنه لا يقدر على الإحسان إلى المسئ إلا من جهة تكلفه

---

(١) الآية ٤١ من سورة فاطر .

(٢) الآيات من ٨٨ إلى ٩٢ من سورة مريم .

(٣) الآية ٤٦ من سورة إبراهيم .

(٤) عدة الصابرين ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .

(٥) فى الفتح : مطابقة الآية للحديث – والمناسب ما أثبته .

ذلك شرعا ، وسبب ذلك أن خوف القوت يحمله على المسارعة إلى المكافأة بالعقوبة ، والله سبحانه قادر على ذلك حالا ، ومآلا ، لايعجزه شئ ولا يفوته » [١] .

قلت : ليس عجز الإنسان عن الصبر من أجل خوف الفوت فقط ، بل ولأنه لايستطيعه ولا يتحمله ، لأن ذلك يضره فى نفسه أو غير ذلك .

والذى يظهر أن ما أراده البخارى – رحمه الله – من الحديث ، هو البيان بأن الله تعالى مسمى بالأسماء الحسنى ، ومتصف بالصفات العليا حقيقة على مايليق به تعالى ، وعلى مايفهم من اللفظ الموضوع للمعنى المتعارف عليه من ظاهر اللغة – الذى أطلقه تعالى على نفسه أو أطلقه عليه رسوله ، دون تكلف تأويل ، أو رجوع إلى اصطلاح متكلم ، أو متفلسف كما بين ذلك قوله : « ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، يدعون له الولد ، ثم يعافيهم ويرزقهم » فهذا هو حقيقة الصبر المعروف من اللغة ، ونصوص الشرع فلا يجوز العدول عن ذلك بالتأويلات التى تبعد المعنى عن مقصود المتكلم من اللفظ ، ودل قوله : « ثم يعافيهم ، ويرزقهم » على فضله على عباده بالعافية والرزق ، وأن كل ما يقع بأيديهم من رزقه ، فهو الذى هيأ أسبابه ويسَّر طرقه .

وقوله : « ثم يعافيهم ويرزقهم » أى أنه تعالى يقابل إساءتهم بالإحسان ، فهم يسيئون إليه – تعالى – بالعيب والسب ، ودعوى مايتعالى عنه ويتقدس ، وتكذيب رسله ومخالفة أمره وفعل مانهاهم عن فعله ، وهو يحسن إليهم بصحة أبدانهم ، وشفاءهم من أسقامهم ، وكلاءتهم بالليل والنهار مما يعرض لهم ، ويرزقهم بتسخير ما فى السماوات والأرض لهم ، وهذا غاية الصبر والحلم ، والإحسان ، والله أعلم .

* * *

(١) فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٦١ .

قال : « باب قول الله – تعالى – : (عالم الغيب ، فلا يظهر على غيبه أحدا) [١] و (إن الله عنده علم الساعة) [٢] و (أنزله بعلمه) [٣] (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) [٤] (إليه يرد علم الساعة) [٥] .

* * *

أراد البخارى رحمه الله بيان ثبوت علم الله – تعالى – وعلمه تعالى من لوازم نفسه المقدسة ، وبراهين علمه تعالى ظاهرة مشاهدة فى خلقه ، وشرعه ، ومعلوم عند كل عاقل أن الخلق يستلزم الإرادة ، ولابد للإرادة من العلم بالمراد ، كما قال تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) [٦]

والخالق هو : المبدع بتقدير سابق الوجود فى الخارج ، وهذا يتضمن تقدير المخلوقات فى العلم قبل إيجادها فى الخارج ، وهو أيضا يستلزم الإرادة والمشيئة ، والإرادة مستلزمة تصور المراد والعلم به .

ووصف نفسه تعالى فى هذه الآية بأنه (لطيف) يدرك الدقيق ، (خبير) يدرك الخفى .

والأدلة على وصف الله بالعلم كثيرة ، ولا ينكرها إلا ضال أو معاند مكابر. وفى هذه الآيات التى ذكرها البخارى مدح الله سبحانه وتعالى فيها نفسه

---

(١) سورة الجن الآية ٢٦ .
(٢) الآية ٣٤ من سورة لقمان .
(٣) جزء من الآية ١٦٦ من سورة النساء .
(٤) الآية ١١ من سورة فاطر والآية ٤٧ من سورة فصلت .
(٥) الآية ٤٧ من سورة فصلت .
(٦) الآية ١٤ من سورة المُلْكِ .

بأنه عالم الغيب ، وأنه استأثر به دون خلقه ، فكان ذلك دليلا على أنه لا يعلم الغيب سواه ، فعلمه تعالى وسع كل شيء فى الماضى ، والمستقبل ، والحال . وفى الآية الأولى استثنى تعالى من ارتضاه من رسله ، فأطلعهم على مايشاء من غيبه ، عن طريق الوحى إليهم ، وأعلامهم به ، وجعل ذلك معجزة لهم ، ودليلا على نبوتهم وصدقهم .

وليس المنجم والكاهن ، ومن ضاهاهما كالضارب بالحصى ، والناظر فى الكتب والأكف ، وما أشبه ذلك ممن ارتضاه الله من الرسل ، حتى يطلعهم على مايشاء من الغيوب ، بل هم مفترون على الله ، يصطادون أموال الجهلة من الناس بالتلبيس والحدس والتخمين الكاذب والادعاء الفارغ .

« والغيب » مصدر غاب ، إذا استتر عن العين ، قال تعالى : (أم كان من الغائبين) [١] واستعمل فى كل غائب عن الحاسة ، وعما يغيب عن علم الإنسان ، قال تعالى : (وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين) [٢] ويقال للشيء : غيب ، وغائب باعتبار تعلقه بالناس .

أما الله تعالى فإنه لايغيب عنه شيء ، وقوله تعالى : (عالم الغيب والشهادة) [٣] أى ما يغيب عنكم ، وما تشهدونه ، والغيب فى قوله تعالى : (يؤمنون بالغيب) [٤] مالا يقع تحت الحواس ، ولا تقتضيه بدائه العقول ، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام » [٥]

---

(١) الآية ٢٠ من سورة النمل .

(٢) الآية ٧٥ من سورة النمل .

(٣) الآية ٢٢ من سورة الحشر .

(٤) الآية ٣ من سورة البقرة .

(٥) المفردات للراغب ص ٣٦٦ .

وقوله : « عالم الغيب » قال الحليمى : معناه أنه يدرك الأشياء على ماهى عليه ، وإنما وجب أن يوصف – عز اسمه – لأنه قد ثبت أن ماعداه من الموجودات فعل له ، وأنه لايمكن أن يكون فعل إلا باختيار ، وإرادة ، والفعل على هذا الوجه لايظهر إلا من عالم ، كما لايظهر إلا من حى » (١) .

فقوله : « عالم الغيب » أى المختص بعلم الغيب ، فلا يشاركه فيه أحد .

قال ابن جرير : عالم ما غاب عن أبصار خلقه ، فلم يروه ، « فلا يظهر على غيبه » أحدا فيعلمه أو يريه إياه إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يظهره على ماشاء من ذلك » (٢)

وقال القسطلانى : « عالم الغيب فلا يطلع على غيبه أحدا من خلقه إلا من ارتضى من رسول لاطلاعه على بعض الغيب ، ليكون إخباره عن الغيب معجزة له » (٣)

وقوله : و « إن الله عنده علم الساعة » الواو ليست من الآية وإنما جاء بها للعطف .

والمعنى : أن علم وقت مجىء الساعة – الذى هو النفخ فى الصور – لايعلمه إلا الله تعالى ، وحده ، فهو خاص به تعالى لا يشاركه فيه أحد .

قال الخازن : « ومعنى الآية ، أن الله عنده علم الساعة ، فلا يدرى أحد من الناس متى تقوم ، فى أى سنة ، أو أى شهر ، أو أى يوم ، ليلا أو نهارا » (٤)

وقوله : « أنزله بعلمه » أى أنزل القرآن عالما بما يترتب على إنزاله من الخير

---

(١) المنهاج جـ ١ ص ١٩١ .
(٢) تفسير الطبرى جـ ٢٩ ص ١٢١ .
(٣) إرشاد السارى جـ ١٠ ص ٣٦٣ .
(٤) تفسير الخازن جـ ٥ ص ٢٢٠ .

والفلاح وغير ذلك ، وعالما بمن يؤمن به ويقبله ، ويسعد بذلك ، ومن يكفر به ويرده ويشقى بذلك .

أو المعنى : أنزله فيه علمه الذى أراد أن يطلع عليه من يشاء من عباده من الإيمان به ، ومعرفته تعالى بأسمائه وصفاته ، وما رتب على ذلك من الجزاء فى الدنيا والآخرة ، ومعرفة حقه ، وأمره ونهيه ، والآية تدل على كلا المعنيين .

وقال ابن الجوزى : « فيه ثلاثة أقوال :

احدها : أنزله وفيه علمه ، قاله الزجاج .

الثانى : أنزله من علمه ، ذكره أبو سليمان الدمشقى .

الثالث : أنزله إليك بعلم منه أنك خيرته من خلقه ، قاله ابن جرير » (١)

وقال الخازن : « يعنى أنه تعالى لما قال : لكن الله يشهد بما أنزل اليك ، بين صفة ذلك الإنزال ، وهو أنه تعالى أنزله بعلم تام ، وحكمة بالغة .

وقيل معناه : أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله عليك ، وأنك مبلغه إلى عباده » (٢)

وقال ابن كثير : « أنزله بعلمه » أى فيه علمه الذى أراد أن يطلع العباد عليه ، من البينات والهدى ، والفرقان ، ومايحبه ويرضاه ، ومايكره ويأباه ، وما فيه من العلم بالغيوب ، من الماضى والمستقبل ، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التى لايعلمها نبى مرسل ، ولا ملك مقرب إلا أن يعلمه الله به ، كما قال تعالى : (ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما يشاء) ، وقال تعالى : (ولا يحيطون به علما) (٣)

---

(١) زاد المسير جـ ٢ ص ٢٥٧ ، وانظر تفسير الطبرى جـ ٦ ص ٣١ .
(٢) تفسير الخازن جـ ١ ص ٦٢٥ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٢٨ .

قوله : (وما تحمل من أنثى ولاتضع إلا بعلمه) اقتصر البخارى – رحمه الله تعالى على محل الشاهد من الآية ، وتمامها :

(والله خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم جعلكم أزواجا ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، وما يعمَّر من مُعَمَّرٍ ، ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ، إن ذلك على الله يسير) [(١)] يخبر تعالى العباد بأنه ابتدأ خلقهم بخلق أبيهم آدم من تراب ، ثم جعل خلق ذريته من نطفة – من ماء مهين – وجعلهم أزواجا أى ذكرا وأنثى رحمة منه تعالى ولطفا ، ثم أخبر تعالى أنه عالم بأطوار خلقهم ، لايخفى عليه شئ من مبدأه ، ووضعه ، ونوعه ، وعمره وعمله ، وزيادة عمره ، ونقصانه ، وأن ذلك عنده فى كتاب ، وهو سهل عليه يسير (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) ففى هذه الآية بيان شمول علمه تعالى لكل شئ ، فلا تكون حياة ، ولا موت ، ولا حركة ، ولا سكون إلا بعلمه وتصريفه ومشيئته .

قوله : « إليه يرد علم الساعة » أى هو تعالى المختص بعلم الساعة أى وقت مجيئها .

قال ابن جرير – رحمه الله – تعالى – : « إلى الله يرد العالمون به علم الساعة ، فإنه لا يعلم قيامها غيره » [(٢)] .

ففى هذه الآيات ونحوها دلالة ظاهرة على ثبوت صفة العلم لله ، بحيث لاينكر ذلك إلا معاند مكابر يجادل بالباطل ، ليدحض به الحق ، أو جاهل قد تناهى جهله ، ومن أوجه البيان فى ذلك أنه تعالى أضاف العلم إلى نفسه الكريمة إضافة حقيقة ، والمضاف إلى الله تعالى إما أن يكون أعيانا قائمة بنفسها كبيت

---

(١) الآية ١١ من سورة فاطر وقال – تعالى : (إليه يرد علم الساعة ، وما تخرج من ثمرات من أكمامها ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلَّا بعلمه) الآية ٤٧ من سورة فصلت .

(٢) تفسير الطبرى جـ ٢٥ ص ٢ .

الله ، وناقة الله ، ورسول الله ، وعرش الرحمٰن ، وما أشبه ذلك ، وهذا النوع من إضافة المخلوق إلى خالقه ، لتفضيلها على غيرها من المخلوقات .

وإما إضافة معان كعلم الله وقدرة الله ، وحياة الله ، وسمع الله وبصره ، وما أشبه ذلك ، وهذا النوع لا يكون الإضافة صفة إلى من تقوم به لأنها لا تقوم بأنفسها كما هو معلوم .

ومراد البخارى – رحمه الله – فى إراده هذه الآيات إثبات هذه الصفة لله – تعالى – والرد على من ينكرها من المعتزلة ، ونحوهم ممن عميت بصائرهم ، فابتعدوا عن الحق ، مغترين بعقولهم .

قوله : قال يحى : « الظاهر على كل شئ علما ، والباطن على كل شئ علما » .

قال الحافظ : « يحى هو ابن زياد الفراء النحوى المشهور ، ذكر ذلك فى كتاب « معانى القرآن له » (١)

قلت : هو يحي بن زياد بن عبد الله ، بن مروان الديلمى ، أبو زكريا المعروف بالفراء إمام العربية ، وصفه مترجموه بأنه متدينا ورعا ، وكان ثقة ، له مصنفات كثيرة ، ضاع أكثرها ، توفى سنة ٢٠٧ سبع ومأتين .

وقول الفراء هذا ، جزء من معنى هذين الاسمين الكريمين ، وقد كان من عادة السلف أنهم يفسرون الشئ بجزء من معناه . وإلا فهو تعالى الظاهر على كل شئ ذاتا ، وقوة وقهرا ، وعلما وحكما ، والباطن على كل شئ إحاطة وقربا وعلما ، وقد صح عن رسول الله ﷺ كما فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ – أنه كان يقول : « اللهم أنت الأول فليس قبلك شئ ، وأنت الآخر فليس بعدك شئ ، وأنت الظاهر فليس فوقك

---

(١) فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٦٢ ، وانظر معانى القرآن للفراء جـ ٣ ص ١٣٢ .

شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شئ » [1] .

فهذا أحسن مايفسر به هذه الأسماء ، وأوضحه ، وأقربه إلى معنى الكلام مع كونه من المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ، فلا ينبغى العدول عنه إلى كلام الناس ، الذى هو عرضة للخطأ .

★ ★ ★

(١) انظر مسلم جـ ٤ ص ٢٠٨٤ رقم ٦١ .

٩ ــ قوله : « حدثنا خالد بن مخلد ، حدثنا سليمان بن بلال ، حدثنى عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر – رضى الله عنهما – عن النبى ﷺ – قال : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله ، لا يعلم ماتغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم مافى غد إلا الله ، ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله تعالى »

* * *

ابن عمر : هو أبو عبد الرحمن ، عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل ، القرشى ، العدوى . وأمه : زينب بنت مظعون الجمحية ، ولد سنة ثلاث من البعثة النبوية ، وهاجر إلى المدينة وهو ابن عشر سنين ، وأول مشاهده مع رسول الله – ﷺ – الخندق ، وكان من سادات الصحابة ، وعبَّادهم المجدين ، وهو من المكثرين فى الحديث عن رسول الله – ﷺ – ، عرف بالعزوف عن الدنيا ، والاستعداد للآخرة ، كما عرف بشدة تمسكه بسنة رسول الله – ﷺ – ، وتتبع آثاره . له فى الصحيحين مائتان وثمانون حديثا . توفى سنة ثلاث وسبعين فى مكة ، وقد بلغ من العمر سبعا وثمانين سنة رضى الله عنه (١)

« قوله : « مفاتيح الغيب » ذكر البخارى هذا الحديث فى الاستسقاء بلفظ « مفتاح » وفى بعض النسخ « مفاتح » وفى تفسير سورة الأنعام ، وسورة الرعد بلفظ « مفاتح » وفى بعض النسخ « مفاتيح » .

والمفاتح جمع مفتح ، بكسر الميم ، اسم الآلة التى يفتح بها ، مثل منجل ، ومناجل . وهى لغة قليلة ، والمشهور : مفتاح ، وجمعه « مفاتيح » ، وقد قرأ بها

---

(١) الإصابة جـ ٤ ص ١٨١ والرياض النظرة ص ١٩٤ .

ابن السميقع ، ويطلق المفتاح على ماكان محسوسا مما يحل غلقا ، كالقفل ، وعلى ماكان معنويا ، كما جاء فى الحديث الذى صححه ابن حبان : « إن من الناس مفاتيح للخير » الخ [١] .

قوله : « مفاتيح الغيب خمس ، لايعلمها إلا الله » . قد بيَّن هذه الخمس ، بأنها : ما يغيض من الأرحام – أى ما ينقص – ، وما يكون فى الغد من الحوادث ، والأعمال ، وغيرها ، ومجىء المطر ، والمكان الذى يموت به الإنسان ؛ ووقت مجىء الساعة .

وعبر عن هذه الأمور الخمسة بالمفاتيح . لتقريب الأمر من السامع ، لأن كل شىء جعل بينك وبينه حجاب ، فقد غيب عنك ، والتوصل إلى معرفته فى العادة من باب الحجاب ، فإذا كان المفتاح الذى لايمكن الوصول إلى ما فى داخل الحجاب إلا بمعرفته لا يعلم ، فكيف بما فى داخل الحجاب ؟ .

ودل الحديث على أن هذه الأمور ليست هى الغيب ، وإنما هى منه ؛ وأن علم الغيب من خصائص الله تعالى .

وأما ماجاء عن الأنبياء من الأخبار ببعض المغيبات ، كإخبار الرسول – ﷺ – بما يقع بعده من الفتن ؛ والفتوح على أمته ؛ وبعض أشراط الساعة ، وكإخبار عيسى عليه السلام – بما يأكله بنو إسرائيل ، ومايدخرونه فى بيوتهم ، ونحو ذلك ، فإن هذا مما استثناه الله تعالى بقوله : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) [٢] ، وهو من معجزاتهم التى تدل على صدقهم .

---

(١) فتح البارى جـ ٨ ص ٢٩١ .

(٢) الآية من ٢٦ – ٢٨ من سورة الجن .

وبهذا ، وغيره يتبين ضلال الذين يزعمون أن فريقا من الناس ممن يدعون لهم الولاية . أنهم يعلمون الغيب ، وكذا الذين يدعون ذلك لرسول الله - ﷺ - فإنه لايعلم الغيب إلا الله تعالى ، وقد أمره الله أن يعلم الناس أنه لا يعلم الغيب فقال تعالى : (قل لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يبعثون) (١) فنفى تعالى علم الغيب عن الخلق عموما من فى السماوات كالملائكة ، ومن فى الأرض كالأنبياء ، فكيف يدعى علم ذلك لغيرهم .

وأما أصحاب الدجل والتمويه ، الذين يحتالون على اكل أموال الناس بالباطل ، كالذين يزعمون معرفة ما فى المستقبل ، بواسطة النجوم ، أو بقراءة الكف ، أو فنجان القهوة ، ونحو ذلك . فهؤلاء لايخفى ضلالهم ، وكذبهم إلا على أجهل الناس ، والمغفلين منهم .

وأما الإخبار عما يسمى « بالطقس » أحوال الجو من أمطار ، أو رياح أو غيوم أو صحو أو غير ذلك ، فهى توقعات مبنية على مقدمات مستفادة من مراصد الأحوال الجوية التى تتأثر بالرطوبة واليبوسة ونحو ذلك ، ولهذا كثيرا مايكون الأمر على خلاف ماقالوا .

« وأراد بالغيب فى الحديث المذكور ، الغيب الحقيقى ، إذ لبعض الغيوب علامات ومقدمات يستدل بها على شئ من ذلك ، وهذا ليس غيبا حقيقيا ؛ فالغيب الحقيقى لايعلمه إلا الله تعالى .

ثم الغيب نوعان : أحدهما ما يتعلق بذات الله تعالى وحقائق صفاته .

والثانى يتعلق بمخلوقاته ، وهى كلها لديه معلومة ، وقد قال تعالى : (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حَبَّةٍ فى ظلمات الأرض ، ولا رَطْبٍ ولا يابس إلا فى كتاب مبين) (٢) .

---

(١) الآية ٦٥ من سورة النمل .
(٢) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

فلما كان كل شئ محصى فى كتاب كَتَبَهُ الله تعالى عنده ، وعلمه محيط وسابق لكل شئ ، شبه الرسول - ﷺ - ذلك بالمخازن التى لها أبواب ، والباب له مفتاح ، فإذا كان المفتاح لايعلمه أحد ولايصل إليه ، فكيف بما وراءه ؟ .

وقد قال تعالى : (وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) [1] وحصر - ﷺ - مفاتيح الغيب بالخمس لأنها تشمل العوالم كلها .

فقوله : « ما تغيض الأرحام » إشارة إلى ما يزيد فى النفوس ، وما ينقص منها ؛ وذكر الأرحام لأن للناس عليها عوائد يعرفونها ؛ وتجارب أدركوها . وقد قرر عليها أحكام شرعية ، ومع ذلك لا يعلم حقيقتها ، ومتى تزيد ومتى تنقص إلا الله تعالى ، فغيرها مما هو أخفى أولى بأن لا يعلمه الخلق .

وأشار بقوله : « ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله تعالى » إلى أمور العالم العلوى ، فذكر منه المطر لأن له مقدمات ، وعلامات يستدل بها عليه عادة ، أجراها الله تعالى ، ومع ذلك لا يعلم حقيقة الحال إلا الله تعالى - فكيف بما وراء ذلك مما فى السماوات ، وما بينهما ، وما يجد هناك من المخلوقات ، والحوادث ، والأوامر التى يريدها الله - تعالى - ويأمر بها ؟ .

وأشار بقوله : « وما تدرى نفس بأى أرض تموت » إلى الحوادث الأرضية ، وذكر موضع الموت من الأرض ، مع أن العادة قد جرت فى الغالب أن الإنسان يموت فى الأرض التى يستقر فيها ؛ ومع ذلك لا أحد يتيقن أنه يموت فى مكانه الذى يعيش فيه ، ولا يدرى أين موضعه الذى يوارى فيه .

فإذا كان الأمر فى مثل هذا غير معلوم ، فكيف بالأمور الأخرى التى لا علامات لها ، ولا مقدمات يستدل بها عليها ؟ .

---

(١) الآية ٢١ من سورة الحجر .

وأشار بقوله : « ولا يعلم ما فى غد إلا الله » إلى أنواع الزمان ، وما فيه من الحوادث والتقلبات الطارئة ، وخص منه غداً لأنه أقرب الأزمنة من المخاطب ، فإذا خفى ما فيه فما بعده أخفى ، وأبعد عن معرفته .

وأشار بقوله : « ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » إلى أمور الدار الآخرة . وذكر منها يوم القيامة لأنه أولها وأقربها إلى الدنيا ، ولا يعلم وقت مجيئه إلا الله ، فما بعده أولى بأن لا يعلم ، فهذا من أبدع الكلام ، وأبلغه ، فقد حصر فيه جميع أنواع الغيوب ، وأبطل جميع الدعاوى الفاسدة » (١)

ويقصد بالدعاوى الفاسدة كل من يدعى شيئا فى علم الغيب ، وهذا الحديث إيضاح لقوله تعالى : (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير) (٢)

* * *

---

(١) انتهى ملخصا من بهجة النفوس جـ ٤ ص ٢٧٢ .
(٢) الآية ٣٤ من سورة لقمان .

١٠ ــ « حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن إسماعيل ، عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : من حدثك أن محمدا – ﷺ – رأى ربه فقد كذب ، وهو يقول : لا تدركه الأبصار ، ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب وهو يقول : « لا يعلم الغيب إلا الله » .

* * *

« كأن سبب هذا القول من عائشة – رضى الله عنها – ما أخرجه عبد الرزاق فى هذا الحديث من طريق مجالد عن الشعبى ، قال : لقى ابن عباس كعباً ، فقال ابن عباس : إنا بنو هاشم نقول : إن محمدا رأى ربه مرتين ، فكبر كعب ، وقال : إن الله قسم رؤيته وكلامه بين موسى ومحمد ، فكلم موسى مرتين ، ورآه محمد مرتين ، قال مسروق : فدخلت على عائشة ، فقلت : هل رأى محمد ربه » ؟ فذكر الحديث .

قال النووى – تبعاً لغيره – : لم تنف عائشة وقوع الرؤية بحديث مرفوع ، ولو كان معها لذكرته ، وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية ، وقد خالفها غيرها من الصحابة ، والصحابى إذا قال قولا ، وخالفه غيره منهم ، لم يكن ذلك حجة اتفاقا .

والمراد بالإدراك : الإحاطة ، وهو لاينافى الرؤية .

وهذا عجيب من النووى رحمه الله – فإن فى صحيح مسلم الذى شرحه هو : « قال مسروق وكنت متكئا ، فجلست فقلت : ألم يقل الله : (ولقد رآه نزلة أخرى) (١) » ؟

---

(١) الآية ١٣ من سورة النجم .

فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله – ﷺ – عن ذلك ، فقال : إنما هو جبريل .

وأخرجه ابن مردويه بسند مسلم . فقالت : « أنا أول من سأل رسول الله – ﷺ – عن هذا . فقلت : يارسول الله هل رأيت ربك ؟ فقال : لا ، إنما رأيت جبريل منهبطا » (١)

قلت : أعجب من كلام النووى ما قاله ابن خزيمة – رحمه الله – فإنه ذكر هذا الحديث بعينه – أعنى قول عائشة : « أنا سألت رسول الله – ﷺ – عن هذا قال : رأيت جبريل نزل فى الأفق ، على خلقه ، وهيئته ، ساداً ما بين الأفق » ثم بعد أسطر قال : « إن عائشة لم تحك أن النبى ﷺ أخبرها أنه لم ير ربه » (٢) فهذا ونحوه هو الذى غير النووى – رحمه الله – ودعاه إلى رد قول عائشة من غير تأمل للأدلة ؛ والله المستعان .

وكثير من العلماء يذكر الخلاف فى أن النبى ﷺ – رأى ربه ليلة – المعراج . « وليس فى الأدلة ما يقضى بأنه رآه بعينه ، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة صريحا ، ولا فى الكتاب والسنة ما يدل على ذلك ، بل النصوص الصحيحة على نفيه أدل ، كما فى صحيح مسلم ، عن أبى ذر ، قال : سألت رسول – الله ﷺ – هل رأيت ربك ؟ فقال : « نور أنى أراه » (٣)

وقد قال تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا) . ولو كان قد رآى ربه بعينه لكان ذكر ذلك أولى ، وكذلك قوله تعالى : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) (٤) . لو كان رآه لكان ذكر ذلك أولى .

---

(١) الفتح جـ ٨ ص ٦٠٧ .

(٢) انظر كتاب التوحيد لابن خزيمة ص ٢٢٦ .

(٣) انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٢ بشرح النووى .

(٤) الآية ١٨ من سورة النجم .

وفى الصحيحين ، عن ابن عباس ، فى قوله – تعالى – : (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ، والشجرة الملعونة فى القرآن) [(١)] قال : هى رؤيا عين ، أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسرى به ، وهذه رؤيا الآيات ، لأنه أخبر الناس بما رآه بعينه ليلة المعراج ، فكان ذلك فتنة لهم ، حيث صدقه قوم ، وكذبه قوم ، ولم يخبرهم بأنه رآى ربه بعينه ، وليس فى شئ من أحاديث المعراج الثابتة ذكر ذلك ، ولو كان قد وقع ذلك لذكره كما ذكر ما دونه » ا هـ [(٢)]

وبهذا تبين أن قول عائشة – رضى الله عنها – هو الراجح ، الذى تؤيده الأدلة والله أعلم ، وظاهر أن مرادها أنه تعالى لا يرى فى الدنيا .

قوله : « وهو يقول : ولا تدركه الأبصار » استدلت عائشة – رضى الله عنها – بظاهر الآية على نفى الرؤية ، وقد قال بذلك بعض المفسرين ، كما رواه ابن جرير بسنده ، عن السدى ، قال : « لا يراه شئ ، وهو يرى الخلائق » [(٣)] .

وذكر ابن كثير ما رواه ابن أبى حاتم بسنده إلى إسماعيل بن علية أنه قال : « هذا فى الدنيا ، وعن هشام بن عبيد الله نحوه [(٤)] » .

وذكر السيوطى : أن الحسن قال مثل ذلك ، قال : أخرجه أبو الشيخ ، والبيهقى فى كتاب الرؤية . [(٥)]

وبهذه الآية تعلق المعتزلة فى نفى رؤية الله تعالى فى الآخرة ، ووجه ذلك أنه جعل متعلق الإدراك البصر ، فلما نفاه عنه كان ظاهر ذلك نفى الرؤية . والحق ثبوت رؤية المؤمنين لله تعالى فى الآخرة ، كما تواترت النصوص فى ذلك .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٦٠ .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٥٨٠ .

(٣) انظر تفسير الطبرى جـ ٧ ص ٣٠١ قال السيوطى : أخرجه ابن أبى حاتم . الدر المنثور جـ ٣ ص ٣٣٥ .

(٤) انظر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٣٠٣ .

(٥) الدر المنثور جـ ٣ ص ٣٣٥ .

والجواب عما استدلوا به : أن الرؤية ثبتت فى آيات أخر ، كقوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) [١] ، وقوله تعالى : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) [٢] والأخبار بذلك ثابتة عن رسول الله – ﷺ – بل متواترة ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

فيتعين أن المراد بالإدراك المنفى فى الآية هو الإحاطة . وبذلك فسره ابن عباس – رضى الله عنه – وغيره من السلف .

قوله : « ومن حدثك ، أنه يعلم الغيب فقد كذب ، وهو يقول : ولا يعلم الغيب إلا الله » الضمير فى قوله : « أنه يعلم » يعود على محمد – ﷺ – أى من زعم أن محمداً – ﷺ – يعلم الغيب ، فقد كذب ، لأن علم الغيب يختص بالله تعالى . كما قال تعالى مخاطبا نبيه ﷺ وآمراً له أن يقول : (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب) [٣] والآيات فى هذا كثيرة .

وعلم الغيب من خصائص الرب تعالى التى بعث رسله وأنزل كتبه لبيانها ، ونفى ذلك عمن سواه تعالى .

وأما قوله تعالى : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) [٤] فهى كقوله تعالى : (ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء) [٥] فهى تبين أن الله تعالى يطلع من يشاء من رسله على ما يشاء من المغيبات ، وذلك بوحيه إليهم ، مثل إخباره عما جرى من الأمم الماضية ، وما أصيبوا به من

---

(١) الآية ٢٢ من سورة القيامة .
(٢) الآية ١٥ من سورة المطففين .
(٣) الآية ٥٠ من سورة الانعام .
(٤) الآية ٢٦ ، ٢٧ من سورة الجن .
(٥) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

العذاب وغيره ، كما قال تعالى : (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) (١) وكذلك الإخبار عن المستقبل من المعاد ، والجنة والنار ، التى أطلع الله عليها رسوله فآمن بها المؤمنون ، وعرفوها من كتاب الله تعالى ، ومن سنة رسوله ﷺ إجمالاً .

وأما الإحاطة بالمعلومات كلياتها وجزئياتها ما كان منها ، وما يكون . فهذا إلى الله وحده لا يضاف إلى غيره من الخلق ، فمن ادعى شيئا من ذلك لغير الله تعالى ، فقد أعظم الفرية على الله تعالى ، وعلى رسوله ﷺ .

« فعلم الغيب لله وحده ، ولا يقال لغيره عالم الغيب ، ومن أطلع على شئ منه بواسطة الوحى أو غيره يقال : أطلعه الله عليه ، كالإخبار عن حال البرزخ ، والحساب ، والجنة والنار ، وما أشبه ذلك ، وما يدعيه المتصوفة فى مشايخهم هو من تلاعب الشيطان بهم ، وكذا ما يسمونه الكشوف لا أصل له » ا هـ (٢)

« وقول الداودي : (ما أظن قوله : من حدثك أن محمداً يعلم الغيب محفوظاً ، وما أحد يدعي أن رسول الله ﷺ يعلم من الغيب إلا ما علمه الله تعالى) متعقب بأن بعض من لم يرسخ إيمانه يظن ذلك ، حتى ظن بعضهم أن صحة النبوة تستلزم اطلاع النبى ﷺ على جميع المغيبات ، كما فى مغازي ابن إسحاق ، أن ناقة النبى ﷺ ضلت ، فقال ابن الصليت : يزعم محمد أنه نبى ، ويخبركم عن خبر السماء ، وهو لا يدرى أين ناقته ، فقال النبى ﷺ : « إن رجلاً يقول : كذا وكذا ، إنى والله لا أعلم إلا ما علَّمنى الله ، وقد دلنى الله عليها ، وهى فى شعب كذا ، قد حبستها شجرة ، فذهبوا فجاؤا بها » فأخبر ﷺ أنه

---

(١) الآية ٤٩ من سورة هود عليه السلام .

(٢) غاية الأمانى بتصرف / حـ ١ / صـ ٣٤ .

لايعلم من الغيب إلا ما علَّمه الله » (١)

قلت : قد ادعى كثير من المتصوفة ، والغلاة أن مشايخهم ومعبوديهم من دون الله تعالى ، يعلمون الغيوب وكتبهم مشحونة بذلك مثل الطبقات الكبرى للشعرانى ، وجامع كرامات الأولياء للنبهانى ، وغيرهما من الكتب الخرافية

★ ★ ★

---

(١) القسطلانى ببعض التصرف جـ ١٠ / صـ ٣٦٥ .

قال : باب قول الله تعالى : (السلام المؤمن)

* * *

أي أن ذلك من أسماء الله تعالى التى سمى بها نفسه ، ومعناه : السالم من كل نقص وعيب . وسيأتى بيان ذلك

(قال ابن بطال : غرضه بهذا الباب إثبات أسماء من أسماء الله تعالى ، قال الحافظ : وفيما ذكره نظر ، ولو سلم له ذلك ، فإن وظيفة الشارح بيان وجه تخصيص هذه الأسماء بالذكر (١) دون غيرها ، وإفرادها بالترجمة ، ويمكن أنه أراد بهذا القدر جميع الآيات الثلاث ، فى آخر سورة الحشر ، فإنها ختمت بقوله تعالى : (له الأسماء الحسنى) .

وقد قال فى سورة الأعراف : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) (٢) وكأنه رحمه الله تعالى بعد إثبات القدرة ، والقوة ، والعلم ، أشار إلى أن الصفات السمعية ليست محصورة فى عدد معين ، بدليل الآية المذكورة (٣)

أو أراد الإشارة إلى ذكر الأسماء التى تسمى الله تعالى بها ، وأطلقت بعد ذلك على المخلوقين ، والسلام ثبت فى القرآن (٤) وفى الحديث « أنه من أسماء الله تعالى » .

---

(١) يعنى أنه قصر فى بيان وجه إيراد البخارى هذين الإسمين من بين الأسماء الأخرى .

(٢) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

(٣) هي قوله تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) .

(٤) كما فى الآية المترجم بها .

وقد أطلق على التحية الواقعة بين المؤمنين .

والمؤمن يطلق على من اتصف بالإيمان ، وقد وقعا معاً من غير تخلل بينهما فى الآية المشار إليها ، فناسب أن يذكرهما فى ترجمة واحدة) أ . هـ (١)

قلت : ما ذكره من أن السلام أطلق على المخلوقين ، كالتحية الواقعة بين المؤمنين غير ظاهر ، لأن السلام الذى جعل تحية للمؤمنين اسم من أسماء الله تعالى ، كما رواه البخارى – رحمه الله تعالى – فى الأدب المفرد ، من حديث أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن السلام اسم من أسماء الله تعالى وضعه الله فى الأرض ، فافشوا السلام بينكم » (٢) وإسناده صحيح ، وترجم به البخارى فى الصحيح فقال : [باب السلام اسم من أسماء الله تعالى] (٣)

وفى حديث عبد الله بن مسعود المتفق عليه « إن الله هو السلام فإذا جلس أحدكم فى الصلاة فليقل التحيات لله » وسيذكره فى الباب . وقال ابن عباس : « السلام اسم الله وهو تحية أهل الجنة » أخرجه البيهقى فى الشعب (٤)

ويدل على ذلك حديث المهاجر بن قنفذ ، لما سلم على النبى ﷺ لم يرد حتى توضأ ، وقال : « إنى كرهت أن أذكر الله إلا على طهر » رواه أبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه (٥)

قال الحافظ : صححه ابن خزيمة وغيره (٦) .

---

(١) فتح البارى جـ ١٣ / صـ ٣٦٦ .
(٢) الأدب المفرد صـ ٣٤٣ .
(٣) انظر الفتح جـ ١١ / صـ ١٣ .
(٤) انظر الفتح جـ ١١ / صـ ١٢ .
(٥) انظر سنن أبى داود جـ ١ / صـ ٢٣ الحديث السابع عشر ، النسائى جـ ١ / صـ ٣٧ ، ابن ماجه رقم ٣٥٠ .
(٦) انظر الفتح جـ ١١ / صـ ١٣ .

قال الخطابى « وفيه دليل على أن السلام الذى يحي به الناس بعضهم بعضاً اسم من اسماء الله تعالى » (١)

وقد اختلف فى معناه . فنقل عياض أن معناه : اسم الله أي كلاءته عليك وحفظه كما يقال : الله معك ومصاحبك .

وقيل : معناه : أن اسم الله يذكر على الأعمال ، توقعاً لاجتماع معانى الخيرات فيها ، وانتفاء عوارض الفساد .

وقيل معناه : السلامة . كما قال تعالى : (فسلام لك من أصحاب اليمين) (٢) أن المسلم أعلم من سلم عليه أنه سالم منه ، وألاخوف عليه منه) (٣)

قلت : هذه المعانى متلازمة ، لأنه إذا حصل حفظ الله لعبده وكلاءته ، وكان معه ، فقد حصل له الخير ، والبركة والسلامة .

قال ابن دقيق العيد : « السلام يطلق على معان ، منها السلامة ، ومنها التحية ، ومنها أنه اسم من أسماء الله تعالى ، قال : وقد يأتى بمعنى التحية محضاً ، وقد يأتى بمعنى السلامة محضاً ، وقد يأتى متردداً بين المعنيين ، كقوله تعالى : (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السَّلَم) (٤)

فإنه يحتمل التحية ، والسلامة وقوله تعالى : (ولهم مايدعون ... سلام قولاً من رب رحيم) ا . هـ (٥)

---

(١) معالم السنن على هامش السنن / جـ ١ / صـ ٢٣ .
(٢) الآية ٩١ من سورة الواقعة .
(٣) الفتح جـ ١١ ص ١٣ .
(٤) الآية ٩٤ من سورة النساء ، فى الآية قراءتان فى إحداهما السلم بمعنى الاستسلام والانقياد أى استسلم وانقاد لطاعة الله وتوحيده ، والأخرى السلام ، وفسرت بالتحية بأن يقول : السلام عليكم .
(٥) الفتح جـ ١١ / صـ ١٣ والآيتان من سورة يس رقم ٥٧ – ٥٨ .

قلت : يمكن إرجاع هذه الإطلاقات إلى معنى واحد ، إذ كلها فى الحقيقة تدور على طلب السلامة ، والخلاص من الشر والأذى ، وهذا ما تضمنته التحية المشروعة بين المسلمين .

فالصواب : أن السلام اسم من أسماء الله تعالى كما تقدم . وقد أمر المسلمون أن يفشوه فيما بينهم ، فعندما يُلقى المسلم على أخيه ذلك ، فإنه يذكر الله تعالى طالباً منه السلامة متوسِّلا إليه بذكر اسمه تعالى المناسب لطلبه ، فكأنه يقول : أنا مسالم لك أيها الأخ محب وداع لك وطالب حصول البركة والخير ، والسلامة من كل مؤذٍ ، ممن يملك ذلك متوسلاً إليه فى حصول ذلك باسمه السلام .

فتضمن ذلك ثلاثة أشياء : أحدها ذكر اسم الله تعالى .

الثانى : إعلام المسلَّم عليه : أنه مسالم له لا يناله منه أذى .

الثالث : طلب السلامة والخير له ، وبهذا يظهر أن قول من قال : إنه يطلق على التحية بين المخلوقين ، أنه لا يخالف كونه اسماً من أسماء الله ، أي أنه ليس قسيماً له ، بل التحية الواقعة بين المؤمنين هى ذكر اسم الله تعالى ، المطلوب به حصول السلامة ، وذلك أن السائل يسأل فى كل مطلوب من بالاسم المناسب لمطلوبه ، كما يعلم ذلك عند تأمل الأدعية الواردة فى كتاب الله تعالى ، وفى أحاديث رسوله ﷺ . والله أعلم .

والصواب : أن مراد البخارى – رحمه الله تعالى – بهذه الترجمة : تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوق ، وأن اشتراكه تعالى مع المخلوق فى الاسم ، أو فى معنى من المعانى لا يكون فيه تشبيه ، نحو اليد ، والرجل ، والاستواء ، والمجىء ، والضحك ، والسخط ، والعلم ، والسمع ، والبصر ، وغير ذلك مما أثبته تعالى لنفسه ، وأثبته له رسوله ، لأنه تعالى السلام ، أي السالم من كل عيب ونقص يلحق المخلوق .

« قال ابن قتيبة : سمى نفسه سلاماً لسلامته مما يلحق المخلوق من العيب والنقص والفناء ، وقال الخطابي : (معناه ذو السلام ، والسلام فى صفة الله تعالى هو الذى سلم من كل عيب ، وبرأ من كل آفة ونقص يلحق المخلوقين ، وقد قيل : هو الذى سلم الخلق من ظلمه » ا . هـ (١)

قلت : هذا القول الأخير لا ينافى الذى قبله ، بل كلاهما يدخل فى اسمه تعالى : السلام .

قال ابن كثير : « السلام من جميع العيوب والنقائص بكماله فى ذاته وصفاته وفى أفعاله » (٢)

فالسلام من الكلمات الجامعة . وحقيقته البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب ، وعلى هذا المعنى تدور تصاريف هذا اللفظ ، فمن ذلك (سلمك الله) وسلم فلان من الشر ، ومنه دعاء الرسل على الصراط « اللهم سلِّم سلِّم » وسلم الشئ لفلان أي خلص له وحده من ضرر الشركة فيه ، قال تعالى : (ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشا كسون ورجلاً سلماً لرجل) (٣) أي خالصاً له وحده لايملكه معه غيره . والسلم ضد الحرب قال تعالى : (وإن جنحوا للسَّلم فاجنح لها) (٤) لأن كل واحد من المتحاربين يسلم من أذى الآخر ويخلص منه ، والقلب السليم هو النقى من الغل والدغل ، الذى قد سلم لله وحده ، فخلص من دغل الشرك وغله ، ودغل الذنوب والمخالفات ، فاستقام على حب الله وحسن معاملته . ولذلك ضمن له النجاة من عذابه ، والفوز بكرامته .

---

(١) زاد المسير جـ ٨ / صـ ٢٢٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٨ / صـ ١٠٥ .

(٣) آية ٢٩ سورة الزمر .

(٤) آية ٦١ سورة الأنفال .

والإسلام أخذ من هذا المعنى ، فإنه الاستسلام لله والانقياد له والتخلص من شوائب الشرك ، والبدع المضلة .

والجنة دار السلام ، أي دار السلامة من كل آفة ونقص وشر فإطلاق السلام على الله تعالى اسماً من أسمائه أولى من هذا كله ، وهو أحق بهذا الاسم من كل مسمى به لسلامته تعالى من كل عيب ونقص من كل وجه ، فهو تعالى السلام الحق بكل اعتبار سلام فى ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم .

وسلام فى صفاته من كل عيب ونقص ، وسلام فى أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة ، فهو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار ، وهذا هو حقيقة التنزيه الذى نزه به نفسه ، ونزهه به رسوله ، فهو السلام من الصاحبة والولد ، والسلام من النظير والكفء والسمي والمماثل ، والسلام من الشريك .

ولهذا إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلاماً مما يضاد كمالها .

فحياته تعالى سلام من الموت ، والسنة والنوم ، وقيومتيه وقدرته سلام من الحاجة والتعب واللغوب ، وعلمه سلام من عزوب شئ عنه أو عروض نسيان أو حاجة إلى تذكر أو تفكر ، وإرادته تعالى ، سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة ، وكلماته تعالى سلام من الكذب ، والخلف ، والظلم ، بل تمت كلماته صدقاً وعدلاً وغناه تعالى سلام من الحاجة إلى غيره فى وجه من الوجوه ، بل كل ماسواه ، فقير إليه محتاج ، وملكه تعالى سلام من منازع فيه أو مشارك ، أو معاون مظاهر ، أو شافع عنده بدون إذنه . وإلٰهيته تعالى سلام من مشارك له فيها ، بل هو الله الذى لا إلٰه إلا هو وحلمه ، وعفوه ، وصفحه ، ومغفرته ، وتجاوزه ، سلام من أن تكون عن حاجة ، أو ذل ، أو مصانعة ، كما يكون من غيره ، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه .

وكذلك عذابه ، وانتقامه ، وشدة بطشه ، وسرعة عقابه ، سلام من أن يكون ظلماً ، أو تشفيا ، أو غلظة أو قسوة ، بل هو محض حكمته وعدله ووضعه الأشياء مواضعها ، فهو يستحق عليه الحمد والثناء ، كما يستحق على إحسانه ونعمه .

وقدره وقضاؤه سلام من العبث والجور ، والظلم .

وشرعه ودينه ، سلام من التناقض والاختلاف ، والاضطراب وعدم مصلحة العباد ورحمتهم » (١)

وهكذا جميع صفاته وأفعاله سلام من كل مايتوهمه معطل أو تخيله مشبه – تعالى ربنا السلام – عما يضاد كماله .

وأما ذكره (المؤمن) مع السلام فلبيان أن ما تسمى الله به ، وأطلق على غيره من خلقه ، فإنه لايكون بينه وبين من أطلق عليهمشابهة ، فالله تعالى سمى نفسه المؤمن ، ومن اتصف بالإيمان من عباده يسمى مؤمنا ، ولكن الله تعالى سالم من النقائص والعيوب التى تلزم الخلق لأنه تعالى هو السلام .

وهكذا كل مايطلق على غيره تعالى مما سمى به نفسه أو اتصف به نحو العزيز ، والكريم ، والرؤوف ، والرحيم ، والسميع ، والبصير ، والعليم . وهو كثير .

فلله تعالى ما يليق به من المعانى الكاملة السالمة من النقائص والعيوب وللمخلوق ما يناسبه ويليق بضعفه ، فهو محل كل عيب ونقص . والله أعلم .

المؤمن من أسمائه تعالى وهو على أحد التفسيرين المصدق الذى يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم ، فهو الذي صدق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه ، وشهد لهم بأنهم صادقون للدلائل التى دل بها على صدقهم – قضاءً وخلقاً – فإنه سبحانه أخبر – وخبره الصدق وقوله الحق – أنه لابد أن يرى

---

(١) بدائع الفوائد ملخصاً جـ ٢ / صـ ١٣٢ – ١٣٦ .

عباده من الآيات الأفقية والنفسية ما بين لهم أن الوحى الذى بلغته رسله حق كما قال تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد) (١) فشهد لرسوله أن ما جاء به حق ، ووعده أن يرى العباد من آياته الفعلية والخلقية : ما يشهد بذلك أيضاً ، ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل ، وهو شهادته تعالى على كل شئ ، فإن من أسمائه « الشهيد » الذى لايغيب عنه شئ ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . بل هو مطلع على كل شئ وشاهد له ، عليم بتفاصيله ، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته ، الأول استدلال بقوله وكلماته ، والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته » (٢)

وقال ابن الجوزي : « فأما المؤمن ففيه ستة أقوال :

أحدها : أنه الذى أمن الناس ظلمه ، وأمن من آمن به عذابه .

الثانى : أنه المجيب .

الثالث : أنه الذى يصدق المؤمنين إذا وحّدوه .

الرابع : أنه الذى وحّد نفسه ، لقوله تعالى : (شهد الله أنه لا إله إلا هو) (٣)

الخامس : أنه الذى يصدق عباده وعده .

السادس : أنه الذى يصدق ظنون عباده المؤمنين ، ولا يخيب آمالهم » ا.هـ (٤)

---

(١) الآية ٥٣ من سورة فصلت .
(٢) مدارج السالكين جـ ٣ / صـ ٤٦٦ .
(٣) الآية ١٨ سورة آل عمران .
(٤) زاد المسير / جـ ٨ / صـ ٢٢٥ .

قلت : هذه الأقوال كلها حق ، ويدل عليها اسمه تعالى « المؤمن » فهو المصدق الذى يصدق رسله بما يقيمه من الدلائل التى تدل على صدقهم ، فيما جاؤا به وبلغوه عنه تعالى ، ويصدقهم وعده بنصره إياهم على عدوهم ، ويصدق عباده ما أخبرهم به من توفيتهم مايستحقونه جزاء أعمالهم ، ولايضيع أجر أحد منهم ويؤمنهم من الظلم ، فلا يخافون ظلما ولا هضماً ، فهو الذى يجير عباده وينجيهم من المهالك والمخاوف ، وهو الذى شهد لنفسه بأنه لا إلٰه إلَّا هو العزيز الحكيم .

* * *

١١ ــ قال : « حدثنا أحمد بن يونس ؛ حدثنا زهير ، حدثنا مغيرة ، حدثنا شفيق بن سلمة قال : قال عبد الله : كنا نصلى خلف النبى - ﷺ - فنقول : السلام على الله ، فقال النبى - ﷺ - : « إن الله هو السلام ، ولكن قولوا : التحيات لله ، والصلوات ، والطيبات ، السلام عليك أيها النبى ، ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا ، وعلى عباد الله الصالحين ؛ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » .

* * *

عبد الله ، هو عبد الله بن مسعود بن غافل ، الهذلى ، من أهل السوابق ، هاجر قديما إلى الحبشة ، وقد شهد مع رسول الله - ﷺ - جميع غزواته ، ولازمه ، وخدمه فكان يقال له : صاحب السواك ، والنعل ، لأنه كان يحمل سواك رسول الله - ﷺ - ونعله .

وفى الصحيحين أن أبا موسى قال : « قدمت أنا وأخى من اليمن ، فمكثنا حينا وما نرى ابن مسعود ، وأمه إلا من أهل بيت رسول الله - ﷺ - لما نرى من كثرة دخولهم على رسول الله - ﷺ - ولزومهم له »

وقال حذيفة : « ما نعلم أحداً أقرب سمتاً ، ودلا ، وهديا برسول الله - ﷺ - من عبد الله بن مسعود ، ولقد علم المحظوظون من أصحاب رسول الله - ﷺ - أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله وسيلة » .

وهو من علماء الصحابة ، وفقهاءهم ، توفى فى الكوفة ، وقيل : فى المدينة سنة اثنتين أو ثلاث وثلاثين ، وله بضع وستون سنة ا هـ [١]

---

(١) الرياض المستطابة ملخصا ، وانظر الإصابة جـ ٤ ص ٢٣٣ ، وتهذيب التهذيب جـ ٦ ص ٢٧ ، وسير أعلام النبلاء جـ ١ ص ٤٦١ .

قوله : « فنقول : السلام على الله » . كأنهم رأوا السلام من قبيل الحمد ، والشكر ، فجوزوا ثبوته لله تعالى – وهو تعالى السلام ، والسلام منه بدأ وإليه يعود ، إذ هو تعالى واهب السلام لعباده ، الذى به يسلمون من شرور أنفسهم ، وشرور أعدائهم من الجن والإنس ، وهو تعالى السالم من كل ما فيه نقص أو شين ، فلا يطلب له السلام ، ولهذا قال لهم معلم الهدى ﷺ : « إن الله هو السلام » أى السالم من أن يلحقه حاجة ، أو يناله تغير أو آفة ، بل هو الكامل فى أوصافه العليا ، وأسمائه الحسنى ، وهو الغنى بذاته عن كل ما سواه .

وهذا الجزء من الحديث هو محل الشاهد الذى سيق من أجله ، لأنه يدل على أن الله – تعالى – سالم من جميع العيوب ، والنواقص التى تلحق الخلق ، فإذا سمى نفسه باسم قد يتسمى به بعض خلقه ، أو وصف نفسه بصفة قد يتصف بها بعض خلقه ، فالمعانى التى يدل عليها اسمه أو صفته تخصه تعالى لا يشاركه فيها المخلوق .

وكل نقص فى المخلوق فهو – تعالى – سالم منه ، ومتنزه عنه كما تقدم ، فهو السلام المؤمن .

قوله : « التحيات لله » قال فى اللسان : « التحيات لله » معناه : البقاء لله ، والسلامة من الآفات كلها التى تلحق العباد من العناء ، وأسباب الفناء » [١] .

وكذا قال غيره من أهل اللغة .

وجئ بلفظ الجمع ليدل على أن الله تعالى يستحق جميع الكمالات ، من العظمة ، والبقاء ، والملك ، والسلامة من الآفات والنقص ، وغير ذلك .

قال الخطابى : « لم يكن فى تحياتهم شئ يصلح به الثناء على الله تعالى ،

---

(١) لسان العرب جـ ١ ص ٧٧٥ – المرتب .

فلهذا أبهمت ألفاظها ، واستعمل منها معنى التعظيم ، فقال : « قولوا التحيات لله » أى أنواع التعظيم له » ا.هـ [١] .

وقوله : « لله » يفيد وجوب الإخلاص فى العبادة ، أى أن ذلك لايجوز أن يكون لغير الله منه شئ .

« والصلوات » أى جميع العبادات له استحقاقا بمقتضى العقل ، وبالشرع ، وذلك مثل الركوع ، والسجود ، والقيام ، والدعاء ، وأنواع العبادة له وحده لاشريك له فى ذلك .

« والطيبات » أى الأعمال الطيبات له تعالى يتوسل بها إليه ، وهو تعالى لايقبل إلا طيبا ، « وما طاب من الكلام وحسن أن يثنى به على الله ، دون ما لا يليق بصفاته » [٢] ، والوصف بالطيب يفيد خلوصها من الشرك ، وشوائبه ، وسلامتها من البدع .

« السلام » اسم الله - تعالى - الدال على سلامته من كل نقص وعيب ، فيدعى الله - تعالى - به ليسلم من ذكر عليه هذا الاسم الشريف ، من المكاره ، والمخاوف .

« عليك أيها النبى » أمرهم أن يفردوه بالسلام ، ويقدموه على أنفسهم لوجوب حقه عليهم ، ووجوب محبته التى يجب أن تكون مقدمة على النفس ، وما دونها .

والأحاديث متفقة على لفظ الخطاب ، وذكر حرف النداء « عليك أيها النبى » وقد عدل بعض الصحابة بعد وفاته - ﷺ - إلى لفظ خطاب الغائب فقالوا : « السلام على النبى » كما ذكره البخارى فى الاستئذان [٣] وأبو عوانة فى

---

(١) فتح البارى جـ ٢ ص ٣١٣ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) انظر الفتح جـ ١١ ص ٥٦ .

مسنده [١] ، وغيرهما .

وقال عبد الرزاق : « عن ابن جريج ، عن عطاء : أن أصحاب النبى - ﷺ - كانوا يسلمون - والنبى - ﷺ - حي - السلام عليك أيا النبى ورحمة الله ، وبركاته ، فلما مات قالوا : السلام على النبى ورحمة الله وبركاته » [٢]

وبهذا السند أيضا ، سمعت ابن عباس ، وابن الزبير ، يقولان فى التشهد فى الصلاة : التحيات ، المباركات لله ، الصلوات ، الطيبات لله ، السلام على النبى ورحمة الله وبركاته » [٣] .

والأولى : اتباع لفظ الحديث كما عليه الجمهور من الصحابة . ومن بعدهم من أهل العلم ، وكما أنه لا فرق بين الحاضر معه فى وقت حياته ، وبين من كان غائبا فكذلك بعد وفاته .

والنداء لطلب استحضار المنادى فى القلب ، فيخاطبه كأنه شاهد فى قلبه ، ومثل هذا معروف فى كلام العرب ، وأشعارهم ، يخاطب أحدهم من يتصوره فى نفسه ، وإن لم يكن فى الخارج من يسمع خطابه ، قال حسان بن ثابت رضى الله عنه - فى رثائه لرسول الله - ﷺ - :

ما بال عينك لا تنام كأنها ... كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعا على المهدى ، أصبح ثاويا ... ياخير من وطئ الحصى لاتبعد
وجهى يقيك ، لهفى ، ليتنى ... غيبت قبلك ، فى بقيع الغرقد
أأقيم بعدك بالمدينة بينهم ... ياليتنى صبحت سم الأسود [٤]

---

(١) انظر مسند أبى عوانة ص ٢٢٩ .
(٢) انظر المصنف جـ ٢ ص ٢٠٤ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٣ .
(٤) انظر ديوان حسان ص ٩٧ .

وقال امرؤ القيس :

يأيها الساعى ليدرك مجدنا ثكلتك أمك هل ترد قتيلا [١]

وقالت الخنساء فى أخيها صخر :

ألا ياصخر إن أبكيت عينى لقد أضحكتنى دهراً طويلا
بكيتك فى نساء معولات وكنت أحق من أبدا العويلا
دفعت بك الجليل وأنت حى فمن ذا يدفع الخطب الجليلا
إذا قبح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلا [٢]

وهذا كثير جدا ، ولا يحتاج إلى ذكر الشواهد عليه ، لشهرته .

وبهذا وأمثاله يتبين ضلال المغرورين الذين يستغيثون بالأنبياء ، والأولياء ويتعلقون بشبه واهية ، مثل استدلالهم بلفظ النداء ، والخطاب المذكور فى هذا الحديث ، على حضور النبى - ﷺ - عند كل من يناديه ، ويخاطبه ولذلك جوَّزوا التوجه إليه ، ومناداته ، فى كل ملمة فضلُّوا بذلك وأضلُّوا كثيرا .

مع أن هذه الصيغة هى التى كان النبى ﷺ - يقولها فى تشهده والأمة تبع له ، تقول مثل ما كان يقول ، كما فى شرح الآثار للطحاوى بسنده إلى عبد الله بن الزبير ، قال : « إن تشهد رسول الله - ﷺ - الذى كان يتشهد به .

بسم الله ، وبالله خير الأسماء ، التحيات ، الطيبات ، الصلوات لله ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالحق بشيرا ، ونذيرا ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، السلام عليك أيها النبى ، ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، اللهم اغفر لى

---

(١) انظر ديوان امرؤ القيس ص ١٧٨ .

(٢) انظر ديوان الخنساء ص ١٢٠ .

واهدنى » ا هـ [١] .

وهو أيضا عند البزار [٢] .

قال الحافظ : « فإن قيل : لم عدل عن الوصف بالرسالة إلى الوصف بالنبوة ، مع أن الوصف بالرسالة أعم فى حق البشر ؟

أجاب بعضهم : بأن الحكمة فيه أن يجمع له الوصفين ، لأنه وصفه بالرسالة فى آخر التشهد ، وإن كانت الرسالة تستلزم النبوة ، لكن الجمع بينهما أبلغ » [٣] ولأنها وجدت فى الخارج مقدمة على الرسالة فى الوحى كما فى قوله تعالى : (اقرأ باسم ربك) .

* * *

(١) شرح معانى الآثار جـ ١ ص ٢٦٥ .

(٢) انظر كشف الأستار جـ ١ ص ٢٧٢ .

(٣) انظر الفتح جـ ٢ ص ٣١٤ .



قال : « باب قول الله تعالى : « ملك الناس » .

* * *

الملك هو المتصرف بالأشياء حسب إرادته ، ومشيئته ، لا رادَّ لأمره ، ولا معقِّب لحكمه .

وخص الناس لأنهم الذين يملكون بعض الأشياء ، وفيهم ملوك . فهو تعالى ملك من يملك ، وملك الملوك ، فدخل غيرهم فى المعنى وملكه تعالى دائم لا يزول .

قال الطبرى : أخبر أنه ملك الناس « وهو ملك جميع الخلق ، إنسهم وجنهم وغير ذلك ، إعلاما منه بذلك من كان يعظم الناس ، تعظيم المؤمنين ربهم - أنه ملك من يعظمه ، وأن ذلك فى ملكه وسلطانه ، تجرى عليه قدرته ، وأنه أولى بالتعظيم ، وأحق بالتعبد له ممن يعظمه ، وتعبد له من الناس » اهـ [١]

قال الراغب : « الملك هو المتصرف بالأمر والنهى » [٢] .

وقال الزجاج : « قال أصحاب المعانى : الملك : النافذ الأمر فى ملكه ، إذ ليس كل مالك ينفذ أمره وتصرفه فيما يملكه ، فالملك أعم من المالك ، والله تعالى مالك المالكين كلهم ، والمُلَّاك إنما استفادوا التصرف فى أملاكهم من جهته تعالى » [٣] .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٣٠ ص ٣٥٤ .

(٢) المفردات ص ٤٧٢ .

(٣) تفسير الأسماء الحسنى ص ٣٠ .

وقال الطبرى : « ولا خلاف بين جميع أهل المعرفة بلغات العرب أن الملك من المُلك مشتق ؛ وأن المالك من المِلك [(١)] مأخوذ ، فتأويل قراءة من قرأ « ملك يوم الدين » أن لله الملك يوم الدين خالصا ؛ دون جميع خلقه الذين كانوا قبل ذلك فى الدنيا ملوكا جبابرة ، ينازعونه الملك ، ويدافعونه الانفراد بالكبراء ، والعظمة والسلطان والجبرية ، فأيقنوا بلقاء الله يوم الدين أنهم الصغرة . الأذلة ، وأن له – دونهم ودون غيرهم – الملك والكبرياء ، والعزة والبهاء ، كما قال جل ذكره وتقدست أسماؤه : (يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شئ لمن الملك اليوم . لله الواحد القهار) [(٢)] ، فأخبر تعالى ذكره أنه المنفرد يومئذ بالملك ، دون ملوك الدنيا ، الذين صاروا يوم الدين من ملكهم إلى ذلة وصغار ، ومن دنياهم فى معادهم إلى خسار » [(٣)]

قوله : « فيه ابن عمر » أى يدخل فى هذا الباب حديث ابن عمر ، وهو كحديث أبى هريرة المذكور فى هذا الباب سواء ، وسيأتى إن شاء الله تعالى .

* * *

---

(١) الأول بضم الميم والثانى بكسرها .

(٢) الآية ١٦ من سورة غافر .

(٣) تفسير الطبرى جـ ١ ص ١٤٨ – ١٤٩ .

١٢ ــ قال : « حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى يونس ، عن ابن شهاب ، عن سعيد – هو ابن المسيب – عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟

* * *

أبو هريرة عرف بكنيته ، واختلف فى اسمه واسم أبيه اختلافا كثيرا ، وصحح البخارى والنووى وغيرهما من الحفاظ أن اسمه عبد الرحمن بن صخر .

قدم على النبى – ﷺ – مسلماً – وهو يقسم غنائم خيبر ، ثم لازم رسول الله ﷺ – حضرا وسفرا ، فلم يشغله عن ملازمته أهل ولا مال .

وهو أحفظ الصحابة ، بل أحفظ الأمة ، ولهذا صار هدفا لأهل الإلحاد بسبب كثرة ما يغضبهم من مروياته .

قال الشافعى : أبو هريرة أحفظ من روى الحديث دهرا (١) .

جاء فى صحيح مسلم فى قصة إسلام أمه ، أنه قال : قلت : يارسول الله ادع الله أن يحببنى الله أنا وأمى إلى عباده المؤمنين ، ويحببهم إلينا ؟ فقال النبى ﷺ : « اللهم حبب عبدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين ، وحبب إليهما المؤمنين .

قال أبو هريرة : فما خلق الله مؤمنا يسمع بى ، ولا يرانى إلا أحبنى » (٢) .

ولهذا صار حبه علامة الإيمان ، وبغضه علامة النفاق والكفر .

---

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات ص ١ ص ٢٧٠ .

(٢) صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٩٣٩ .

توفى – رضى الله عنه – فى المدينة ، وقيل بالعقيق ، سنة سبع أو تسع وخمسين عن ثمان وسبعين سنة . (١) .

قوله : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوى السماء بيمينه » . المقبض هو أخذ الشئ باليد وجمعه ، والطى هو ملاقاة الشئ بعضه على بعض ، وجمعه وهو قريب من القبض . وهذا من صفات الله تعالى الاختيارية ، التى تتعلق بمشيئته وإرادته ، وهى ثابتة بآيات كثيرة وأحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ ، وهى مما يجب الإيمان به . لأن ذلك داخل فى الإيمان بالله تعالى ، ويحرم تأويلها المخرج لمعانيها عن ظاهرها ، وقد دل على ثبوتها لله تعالى العقل أيضاً ، فإنه لا يمكن لمن نفاها إثبات أن الله هو الخالق لهذا الكون المشاهد ، لأن الفعل لا بد له من فاعل ، والفاعل لابد له من فعل ، وليس هناك فعل معقول إلا ما قام بالفاعل ، سواءاً كان لازماً كالنزول والمجئ ، أو متعدياً كالقبض والطى . فحدوث ما يحدثه تعالى من المخلوقات تابع لما يفعله من أفعاله الاختيارية القائمة به تعالى .

وهو تعالى حى قيوم ، فعال لما يريد ، فمن أنكر قيام الأفعال الاختيارية به تعالى (٢) فإن معنى ذلك أنه ينكر خلقه لهذا العالم المشاهد ، وغير المشاهد وينكر قوله إنه على كل شئ قدير ، فالعقل دل على ما جاء به الشرع (٣) .

وما صرح به فى هذا الحديث من القبض والطى ، قد جاء صريحاً أيضاً فى كتاب الله تعالى ، كما قال تعالى (وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) . (٤) .

---

(١) انظر الإصابة جـ ٧ ص ٤٢٥ ، سير أعلام النبلا جـ ٢ ص ٥٧٨ ، الاستيعاب جـ ٤ ص ١٧٦٨ ، أسد الغابة جـ ٦ ص ٣١٨ وغيرها .

(٢) قلنا الاختياريه لأنها تقع باختيارية تعالى وإرادته ومشيئته .

(٣) أنصح القارئ إلى الرجوع في هذه المسألة العظيمة : إلى كتب شيخ الإسلام ابن تيمية كدرء تعارض العقل والنقل والرسالة الكمالية وغيرهما من كتبه .

(٤) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

والأحاديث والآثار عن السلف فى صريح الآية ، والحديث المذكور في الباب كثيرة وظاهرة جلية ، لا تحتمل تأويلاً ولا تحتاج إلى تفسير ، ولهذا صار تأويلها تحريفاً وإلحاداً فيها ، وسيأتى إن شاء الله تعالى ذكر ما تيسر من ذلك في باب قوله تعالى : (لما خلقت بيدى) .

وقوله : « ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض » أى أنه تعالى ينفرد بالملك ، فهو الملك حقاً الذى لامنازع له ، ولا معاون ، ولا ظهير ولا شريك ، وفي ذلك اليوم ، عندما يقبض الأرض بيده ، ويطوى السموات بيمينه ، ويصبح كل شيء في قبضته ، ينادى الذين كانوا ينازعونه فى الدنيا ملكه ، ويتعدون على سلطانه ، من المتكبرين ، والمتجبرين ، من ملوك الدنيا ، وقد انفرد مالك الملك الواحد القهار ، ذى السلطان – وهو متفرد به فى كل آن – غير أنه في ذلك اليوم ينكشف جلياً – فيناديهم بما يتضمن توبيخهم وتهديدهم – أين ملوك الدنيا ؟ فهل يستطيعون منعاً أو رداً ؟ وهل لديهم قوة أو حيلة أو فدى ؟ لقد ذهب منهم كل شيء ، وبقيت التبعات والذل والحسرات .

قال بعض شراح البخارى : « قوله ملك الناس داخل في معنى التحيات لله أى الملك لله ، وكأنه ﷺ أمرهم بأن يقولوا التحيات ، امتثالاً لأمر ربه (قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس)

ثم قال : « وفي الحديث إثبات اليمين صفة لله تعالى ، من صفات الذات ، وليست جارحة ، خلافاً للمجسمة » (١) .

قلت : قوله : « وليست جارحة » من كلام أهل البدع ، الذين عدلوا عما جاء في الكتاب والسنة من الألفاظ إلى ما ابتدعوه من الألفاظ الموهمة للنقص – تعالى الله – توهماً منهم أن تلك الألفاظ الواردة في كتاب الله ، وسنة رسوله ،

---

(١) فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٦٨ .

يتضمن ظاهرها التشبيه لصفات الخلق ، وهذا من ظن السوء بالله وبكتابه وبرسوله الذى أرداهم فضلوا سواء السبيل ، وأضلوا كثيراً من عباد الله .

وقوله : « خلافاً للمجسمة » يقال له : من هم المجسمة الذين تقصدهم ؟ وهل تستطيع أن تعين طائفة تؤمن بكتاب الله وسنة رسوله تقول : إن يمين الله جارحة ؟ أو أن الله جسم ؟ (١) فهؤلاء لا وجود لهم ، ولكن مراده الذين آمنوا بمثل هذا النص على ظاهره ، وقالوا : إن لله يدين حقيقيتين بدون تأويل ، كما هو الواجب على المسلم ، لأنه صريح النصوص ، وأيقنوا أن تأويل اليد واليمين ، ونحوها من صفات الله ، بالقوة أو القدرة ، أو النعمة ، أو ما أشبه ذلك ، تحريف كتحريف اليهود الذين حرفوا الكلم عن مواضعه .

فهذا الشارح ومن على نهجه إلى اليوم يسمون هؤلاء مجسمة ، ظناً منهم أن من أثبت هذه الصفات على ظاهرها ، لزمه أن يكون مجسماً ، لربه ومشبها له بأجسام الخلق تعالى الله أن يكون له مثل أو شبيه .

قال شيخ الاسلام : (وليس هناك من أطلق لفظ الجسم ، لكن نفات الصفات يسمون كل من أثبتها مجسماً ، بطريق اللزوم ، إذ كانوا يقولون : إن الصفات لاتقوم إلا بالجسم ، وذلك أنهم اصطلحوا في معنى الجسم على غير المعنى المعروف في اللغة ، فإن الجسم في اللغة هو البدن ، وهم يسمون كل ما يشار إليه جسماً ، فيلزم على قولهم أن كل ما جاء به الكتاب والسنة وما فطر الله عليه عباده ، وما [عليه] سلف الأمة ، وأئمتها تجسيماً ، فهم يطلقون لفظ المجسمة والمشبهة ، على اتباع السلف » . (٢)

---

(١) الذين نسبوا إلى التجسيم وذكرهم أصحاب المقالات بأسماءهم هشام ابن الحكم ، وهشام بن سالم الجواليقى ومقاتل بن سليمان ، وداود الجواربى ، وكلهم رافضة .

(٢) بيان تلبيس الجهمية جـ ١ صـ ٦٢٦ .

وقال : « لفظ الجسم لم يتكلم به أحد من الأئمة والسلف ، فى حق الله تعالى – لا نفياً ولا إثباتاً ، ولاذموا أحداً ولا مدحوه بهذا الاسم ، ولاذموا مذهباً ولا مدحوه بهذا الاسم ، وإنما تواتر عنهم ذم الجهمية ، الذين ينفون الصفات وذموا طوائف منهم ، مثل المشبهة وبينوا مرادهم بالمشبهة » [١] .

قال الحافظ : « الذى يظهر لى أنه أشار [بهذه الترجمة] إلى ما قاله شيخه نعيم بن حماد : « يقال للجهمية أخبرونا عن قول الله تعالى بعد فناء خلقه ، (لمن الملك اليوم) فلا يجبه أحد ، فيرد على نفسه ، (لله الواحد القهار) ، وذلك بعد انقطاع ألفاظ خلقه بموتهم ، أفهذا مخلوق ؟ » [٢] .

قلت : يظهر لى أن مراده بهذا الباب كالباب الذى قبله أن هذا الاسم الكريم (الملك) من أسماء الله الحسنى ، وقد أطلق على بعض خلقه ولم يكن في ذلك تشبيه ، إذا المعنى الذى يختص به الله تعالى لا يشاركه فيه أحد من خلقه ، فهو مالك الملك ، وله الملك التام المطلق ، وهو الذى يهب للمخلوق الملك ، مع أن ملك المخلوق ناقص يناسب نقصه ، قال تعالى : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شئ قدير) [٣] .

وأما التوفيق بين الحديث ، والترجمة فظاهر ، وهو أن الناس الذين يوجد

---

(١) نفس المصدر حـ ١ صـ ٤٧ ، ومراد السلف بالمشبهة : الذين يمثلون صفاته تعالى بصفات خلقه ، نحو اليد والوجه فيجعلون يده تعالى كيد المخلوق ووجهه كوجه المخلوق – تعالى الله عن ذلك .

(٢) الفتح حـ ١٣ صـ ٣٦٨ .

(٣) الآية ٢٦ من سورة آل عمران .

منهم الملوك والجبابرة ، والذين يذل لهم ويخضع بعض العباد ، وقد يصرفون لهم ما هو خالص حق الله من العبادة ، هؤلاء ملك له ، تحت قهره ، آخذ بنواصيهم ، يتصرف فيهم كيف يشاء ، ويظهر ذلك جلياً لكل أحد ، يوم يقبض الله الأرض ويطوى السموات بيمينه ، ويقول أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ فيعرف قدرهم وقدر ملكهم الذى أورثهم الذل والصغار . والله أعلم .

★ ★ ★

قال : « باب قول الله تعالى : « وهو العزيز الحكيم [١] – سبحان ربك رب العزة عما يصفون [٢] ولله العزة ، ولرسوله – [٣] ومن حلف بعزة الله ، وصفاته »

* * *

« العزيز » هو الذى له العزة التامة ، والقوة الكاملة ، فلا يعجزه شئ ، القاهر لكل شئ ، فلا يمتنع من قوته شئ ، المنيع الذى لا ينال ولا يغالب .

« فالعزة تتضمن القوة ، ولله القوة جميعا ، يقال : عز يَعَزُ بفتح العين إذا اشتد وقوى ، ومنه الأرض العزاز – الصلبة الشديدة – ويعز يعِز بكسر العين إذا امتنع ممن يرومه ، ويعز يعُز بضم العين إذا غلب وقهر .

فأعطوا أقوى الحركات – وهى الضمة – لأقوى المعانى – وهو الغلبة ، والقهر للغير ، وأضعفها – وهى الفتحة لأضعف هذه المعانى – وهو كون الشئ فى نفسه صلبا ، والحركة المتوسطة – وهى الكسرة للمعنى المتوسط – وهو القوى الممتنع عن غيره ، ولا يلزم منه أن يقهر غيره ، ويغلبه .

---

(١) الآية ٤ من سورة إبراهيم و ٦٠ من سورة النحل و ٢٦ من سورة العنكبوت ، و ٤٢ منها أيضا و ٢٧ من سورة الروم و ٩ من سورة لقمان و ٢ من سورة فاطر و ١ من سورة الحديد و ١ من سورة الحشر والأخيرة منها ، والأولى من سورة الصف ، و ٣ من سورة الجمعة .

(٢) الآية ١٨٠ من سورة الصافات .

(٣) الآية ٨ من سورة المنافقون .

والعز ضد الذل ، والذل أصله الضعف والعجز ، فالعز يقتضى كمال القدرة ، ولهذا يوصف به المؤمن ، ولا يكون ذما له ، بخلاف الكبر .

قال رجل للحسن البصرى : « إنك متكبر ، فقال : لست بمتكبر ، ولكنى عزيز » .

وقال تعالى : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) [١] .

وقال ابن مسعود : « ما زلنا أعزة ، منذ أسلم عمر » [٢] .

وقال النبى - ﷺ - « اللهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين ، عمر ابن الخطاب ، أو أبى جهل بن هشام » [٣] .

وفى بعض الآثار : « إن الناس يطلبون العزة فى أبواب الملوك ، ولا يجدونها إلا فى طاعة الله - عز وجل » .

وفى الحديث : « اللهم أعزنا بطاعتك ، ولا تذلنا بمعصيتك » .

وقال بعضهم : « من أراد عزاً بلا سلطان ، وكثرة بلا عشيرة ، وغنى بلامال ، فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة » .

فالعزة من جنس القوة » ا هـ [٤] .

قال الحافظ : « العزيز الذى يقهر ولا يقهر ، فأن العزة التى لله - تعالى - هى الدائمة الباقية ، وهى العزة الحقيقية الممدوحة ، وقد تستعار العزة للحمية والأنفة ، فيوصف بها الكافر والفاسق ، وهى صفة مذمومة ، ومنه قوله تعالى (أخذته العزة بالإثم) [٥] ، وأما قوله : (من كان يريد العزة فلله

---

(١) الآية ٨ من سورة المنافقون .
(٢) رواه البخارى وغيره ، انظر الفتح جـ ٧ ص ٤١ .
(٣) قال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الكبير ، والأوسط ، انظر مجمع الزوائد جـ ٩ ص ٦١ .
(٤) طريق الهجرتين ص ١٠٩ .
(٥) الآية ٢٠٦ من سورة البقرة .

العزة جميعا) [١] فمعناه : من كان يريد أن يعز ، فليكتسب العزة من الله ، فإنها لا تنال إلا بطاعته ، ومن ثم أثبتها لرسوله وللمؤمنين ، فقال تعالى : (ولله العزة ، ولرسوله وللمؤمنين) [٢] . وقد ترد العزة بمعنى الصعوبة ، كقوله تعالى : (عزيز عليه ما عنتم) [٣] ، وبمعني الغلبة ومنه (وعزنى فى الخطاب) [٤] ، وبمعنى القلة : كقولهم : شاة عزوز إذا قلَّ لبنها وبمعنى الامتناع ، ومنه قولهم : أرض غزاز ، بفتح أوله مخففا » ا هـ [٥]

« الحكيم » هو الذى يضع الأشياء مواضعها التى يحسن أن توضع فيها ، ولا يدخل تدبيره خلل ولا زلل ، وهذا من أسماءه تعالى الحسنى التى كثر ذكرها ، فى القرآن ، وما جاء عن رسول الله – ﷺ – وهو تعالى موصوف بالحكمة ، وقد دل على ذلك شرعه – تعالى – وخلقه ، فمن الضلال إنكار ذلك ، وكفى بالمرء ضلالا أن ينفى عن الله تعالى ما وصف به نفسه ، ووصفه به رسله .

« سبحان ربك » « أصل التسبيح عند العرب ، التنزيه لله عن إضافة ما ليس من صفاته إليه ، والتبرى من ذلك ، كما قال أعشى بن ثعلبة :

أقول لما جاءنى فخره　　سبحان من علقمة الفاخر

أى سبحان الله من فخر علقمة ، أى تنزيها لله مما أتى علقمة من الافتحار على وجه التكبر منه لذلك » [٦] .

---

(١) الآية ١٠ من سورة فاطر .

(٢) الآية ٨ من سورة المنافقين .

(٣) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

(٤) جزء من الآية ٢٣ من سورة ص .

(٥) الفتح جـ ١٣ ص ٣٦٩ وذكر أن هذا كلام الراغب ، ولكن الحافظ تصرف فيه وغيَّر وزاد ونقص ولهذا أضفته إليه .

(٦) ابن جرير الطبرى فى تفسيره جـ ١ صـ ٢١١ .

وقال أيضا : « وسبحان : مصدر ، لا تصرف له ، ومعناه : نسبحك » (١)

وفى تاج العروس : « وسبحانه تنزيها لله عن كل ما لا ينبغى أن يوصف به ، قال الزجاج : سبحان فى اللغة تنزيها لله – عز وجل عن السوء » (٢) .

فالتسبيح : تنزيه الله تعالى عمالا يليق بعظمته ، مأخوذ من السبح ، وهو الأبعاد والسرعة فى السير ، يقال فرس سبوح إذا كانت تسرع فى السبح الذى هو السير والجرى ، ومنه قوله تعالى : (والسابحات سبحا) فسرت بالخيل ، وبالسفن ، وبالنجوم ، وكلها تسبح وتبعد فى سبحها .

وقوله : « رب العزة » أى ذى العزة وصاحبها ، فرب هنا بمعنى ذى وصاحب ، والعزة صفته فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة ، وأخذ اسمه تعالى « العزيز » منها .

وقوله : « عما يصفون » أى تنزيها وتقديساً لذى العزة التى لا ترام ، عن الذى يصفه به المشركون ، من أن له صاحبة أو ولدا ، أو شريكا ، أو وليا من الذل ، أو أن أحدا يشفع عنده بدون إذنه ، أو أن أحدا يتصرف فى ملكه بدون إرادته ومشيئته .

وتنزيها لذى العزة التى غلب بها كل شئ عما يقوله المعطلون لصفاته ، حيث أنكروها أو أولوها تأويلا يؤول إلى إنكارها ، وتنزيها له تعالى عما يقوله المحرفون الملحدون فى صفاته الظانون بالله ظن السوء ، حيث توهموا أن اتصافه – تعالى – بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله – ﷺ – يقتضى التشبيه ، فحرفوا صفاته عما أراده بناء على أوهامهم الباطلة .

---

(١) المصدر نفسه جـ ١ صـ ٢٢١ .

(٢) تاج العروس جـ ٢ ص ١٥٦ .

وقوله : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » أى لله القوة والغلبة والقهر .

والعزة من صفات ذاته تعالى التى لا تنفك عنه ، فغلب بعزته وقهر بها كل شيء وكل عزة حصلت لخلقه فهى منه ، وكل من كان إليه أقرب وله أطوع كانت عزته أتم وأكمل من غيره ، ولهذا قال تعالى : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) وسبب نزول هذه الآية الكريمة قول رأس المنافقين : عبد الله بن أُبى بن سلول الذى ذكره الله عنه : (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) (١) ، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما (٢) ، يقصد بالأعز نفسه وذويه ، وبالأذل رسول الله - ﷺ - وأصحابه .

وقوله : « ومن حلف بعزة الله وصفاته » . وصفاته من عطف العام على الخاص . ومراده : أنه قد ثبتت النصوص بالحلف بعزة الله وبصفاته نحو كلماته ، وقد تقرر فى دين الإسلام أنه لا يحلف بغير الله - تعالى - وأن الحلف بغيره شرك كما صح عن الرسول ﷺ أنه قال : « من حلف بغير الله ، فقد كفر أو أشرك » (٣) وعند أبى داود ، « من حلف بغير الله فقد أشرك » (٤) .

وعنده أيضا عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ : « لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم ، ولا بالأنداد ، ولا تحلفوا إلا بالله ، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون » (٥)

---

(١) الآية ٨ من سورة المنافقون .

(٢) انظر البخارى مع الفتح جـ ٨ ص ٦٤٤ ، ومسلم جـ ٤ ص ١٩٩٩٨ .

(٣) رواه الترمذى وقال : حسن ، انظر الترمذى مع تحفة الأحوذى جـ ٢ ص ٣٧١ .

(٤) السنن جـ ٣ صـ ٥٧٠ ، ورواه أحمد فى مسنده جـ ٢ ص ٣٤ .

(٥) السنن جـ ٣ ص ٥٦٩ .

وفى الصحيحين ، عن عبد الله بن عمر ، أن رسول الله – ﷺ – أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير فى ركب ، يحلف بأبيه ، فقال : « ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » (١) .

وبهذا يتبين أن الحلف بقدرة الله ، وعزته وسائر صفاته ، أنه كالحلف به تعالى ، وأن صفاته ليست مخلوقة ، لأنه لا يجوز الحلف بالمخلوق ، ولا منفصلة عنه تعالى .

وبهذا يظهر مراد البخارى – رحمه الله – بهذا الباب وهو إثبات الصفات لله تعالى ، والرد على من أنكرها كالمعتزلة ، ومن تابعهم ، وقد تقدم الكلام فى ذلك .

قال الحافظ : « والذى يظهر أن مراد البخارى بالترجمة إثبات العزة لله راداً على من قال : إنه عزيز بلا عزة ، كما قالوا : العليم بلا علم » (٢) .

قلت : لا يقصد إثبات العزة بخصوصها ، بل مع سائر الصفات كما هو ظاهر .

قوله : « وقال أنس : عن النبى – ﷺ – تقول جهنم قط قط وعزتك »

وقال أبو هريرة : عن النبى – ﷺ – يبقى رجل بين الجنة ، وهو آخر أهل النار دخولا الجنة ، فيقول : رب اصرف وجهى عن النار ، لا أسألك غيرها .

قال أبو سعيد : أن رسول الله – ﷺ – قال : « قال الله : عز وجل – : لك ذلك وعشرة أمثاله » .

وقال أيوب : « وعزتك لا غنى بى عن بركتك » .

هذه المعلقات قد رواها موصلة ، فحديث أنس سيذكره فى هذا الباب

---

(١) انظر البخارى مع الفتح جـ ١١ ص ٥٣٠ ، ومسلم جـ ٤ ص ١٢٣٩ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٣٧٠ .

موصولا ، وحديث أبى هريرة يأتى كذلك ، وقد تقدم أيضا فى الرقاق ، وقول أيوب عليه السلام قد رواه فى الوضوء ، وفى أحاديث الأنبياء .

والمراد من هذه الأحاديث هنا ظاهر ، إذ فيها الحلف بعزة الله تعالى ولايحلف الا بالله أو بصفاته . ولكن حديث أبى هريرة لم يذكر محل الشاهد منه ، وإنما أشار إليه وهو قول الرجل يخاطب رب العالمين « وعزتك لا أسألك غيرها » .

★ ★ ★

١٣ ــ قال : « حدثنا أبو معمر ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا حسين المعلم ، حدثنى عبد الله بن بريدة ، عن يحي بن يعمر ، عن ابن عباس ، أن النبى ﷺ – كان يقول : « أعوذ بعزتك ، الذى لا إله إلا أنت ، الذى لا يموت ، والجن والإنس يموتون » .

* * *

قوله : « كان يقول » يدل على أنه سمع ذلك من النبى ﷺ مراراً ، لما يفهم من لفظة « كان » .

وقوله : « أعوذ بعزتك » العوذ : هو الالتجاء والاعتصام ، وحقيقته الهرب من المخوف إلى المجير العاصم ، فالعائذ بالله – تعالى – قد هرب مما يخافه ، ويؤذيه أو يهلكه إلى ربه ومالكه العزيز الذى لا يغالب ، يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويجير من احتمى به .

فالاستعاذه هى : الالتجاء إلى الله ، والاحتماء بجنابه من شر كل ذى شر ، والعوذ يكون لدفع الشر ، واللوذ يكون لطلب الخير ، كما قال بعض الشعراء :

يا من ألوذ به فيما أمله ويا من أعوذ به فيما أحاذره

وعزة الله تعالى صفته كما تقدم ، فالنبى – ﷺ – وهو أعلم الخلق بالله وأتقاهم له – يتعوذ بصفاته تعالى ، لأن ذلك من عبادة الله بل هو من أفضلها امتثالا لقوله – تعالى – : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) . ومثل الاستعاذة بصفات الله – تعالى – الحلف بها كما مر قريباً .

وقوله : « الذى لا إلٰه إلا أنت » أى أنت الإلٰه الحق ، الذى تجب عبادته على عباده وكل تأله لغيره فهو ضلال ، يوجب الشقاء الأبدى ، والخلود فى النار ، فلذلك لا أتوجه بتألهى إلا إليك يارب . فلا إله لى غيرك ، فبك أعوذ ، وإليك ألوذ .

« الذى لا يموت » أى فأنت ياإلهى الحي القيوم ، الذى لا تأخذه سنة ولانوم ، لا مبدأ لوجودك ولا منتهى لبقائك ، وأنت الغنى بذاتك عن كل ما سواك ، والخلق كلهم فقراء إليك ، وكانوا عدما قبل إيجادك إياهم ، وهم عرضة للأمراض ، والآفات والتغيرات والفناء ، وأنت يارب الباقى وحدك ، والخلق كلهم يموتون ، فلارب سواك يتصرف بالخلق كيف يشاء ، ويغير ولا يتغير جل وعلا .

قوله : « والجن والإنس يموتون » . المقصود بذكر الجن والإنس جنس الخلق ، والمعنى أن الخلق كلهم يموتون ، ولا يبقى إلا الحي القيوم كما قال تعالى : (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) (١) وسمى الجن جنا لاستتارهم عن أعين الناس . من الاجتنان ، كما قال تعالى : (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) (٢) وأما الإنس فسموا بذلك لأن بعضهم يأنس ببعض غالبا ، أو لأنهم يرون ويؤنسون أى يحس بهم ويشاهدون ، وذكر الجن والإنس لا ينفى عن الملائكة الموت ، لأن هذا خاص قصد به الجن والإنس ، أو على ما تقدم ذكر الجنس ، والمقصود عموم الخلق . وقد جاء ما يدل على هلاك عموم الخلق كقوله تعالى : (كل شئ هالك إلا وجهه) (٣)

وقد قيل : إن الملائكة يدخلون فى الجن ، لاجتنانهم واستنتارهم عن أعين الناس فالله اعلم .

* * *

---

(١) الآية ٢٦ و ٢٧ من سورة الرحمن .

(٢) الآية ٢٧ من سورة الأعراف .

(٣) آخر آية من سورة القصص .

١٤ ـــ قال : « حدثنا ابن أبى الأسود ، حدثنا حرمى ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن أنس ، عن النبى – ﷺ – قال : « يلقى فى النار . ح .

وقال لى خليفة : حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أنس ح .

وعن المعتمر ، سمعت أبى ، عن قتادة ، عن أنس ، عن النبى – ﷺ – قال : « لا يزال يلقى فيها ، وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع فيها رب العالمين قدمه فينزوى بعضها إلى بعض ، ثم تقول : قد قد ، بعزتك ، ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشئ الله خلقا ، فيسكنهم فضل الجنة » .

* * *

أنس هو ابن مالك بن النضر ، بن ضمضم ، الأنصارى ، الخزرجى ، خادم رسول الله – ﷺ – وأحد المكثرين من الرواية عنه ؛ قدم النبى – ﷺ – المدينة وهو ابن عشر سنين ، فأتت به أمه إلى رسول الله – ﷺ – وعرضت عليه أن يخدمه ، فقبل ذلك النبى – ﷺ – فلازم النبى فى السفر ، والحضر عشر سنوات ، ودعا له رسول الله – ﷺ – بأن يكثر ماله وولده ، وأن يدخله الجنة ، قال أنس « قد رأيت اثنتين ، وأنا أرجو الثالثة » توفى فى البصرة سنة ثلاث وتسعين ، وله مائة وثلاث سنوات ، وهو آخر من مات فى البصرة من الصحابة » (١)

---

(١) الإصابة جـ ١ ص ١٢٧ .

قوله : « لا يزال يلقى فيها » الضمير « فيها » يعود إلى جهنم ، والمعنى أنه يستمر إلقاء من يستحق النار فيها ، وهى تطلب الزيادة منهم ، قال الله تعالى : (يوم نقول لجهنم : هل امتلأتِ ؟ وتقول : هل من مزيد ؟) [(١)]

قال ابن كثير : يخبر تعالى : أنه يقول لجهنم : هل امتلأتِ ؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين . فهو سبحانه يأمر بمن يأمر به إليها ، ويلقى [فيها] وهى تقول : هل من مزيد ؟ أى هل بقى شئ تزيدنى ، هذا هو الظاهر من سياق الآية ، وعليه تدل الأحاديث » [(٢)] يقصد بالأحاديث مثل هذا الحديث ، فإن ظاهره أن الاستفهام لطلب الزيادة ، وهو الصحيح الذى يدل عليه ظاهر القرآن ، والأحاديث الصحيحة .

قوله : « حتى يضع فيها رب العالمين قدمه » فى رواية « حتى يضع رب العزة فيها قدمه » وهذه الرواية هى المناسبة لهذا الباب ، ولكن البخارى اكتفى بالإشارة إليها على عادته ، وفى رواية أبى هريرة : « يقال لجهنم : هل امتلأتِ ؟ وتقول : هل من مزيد ؟ فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها » ، وفى رواية « حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ » وفى أخرى « حتى يضع رجله ، فتقول قط قط » وهذه الروايات كلها فى البخارى واتفق معه مسلم عليها [(٣)]

وعند الدارقطنى فى الصفات : « فأما النار فليقى فيها ، وتقول : هل من مزيد – ثلاث مرات – حتى يأتيها تبارك وتعالى فيضع قدمه عليها ، فتنزوى ، وتقول فدنى فدنى » [(٤)] .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة ق .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٣٨١ .

(٣) انظر مسلم جـ ٤ ص ٢١٨٧ و ٢١٨٨ .

(٤) الصفات ص ١٤ و ١٧ .

وفى رواية « لا تزال جهنم يلقى فيها ، وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع الجبار تبارك وتعالى – فيها قدمه ، فهناك تنزوى » (١)

وأخرج حديث أنس هذا أبو نعيم فى المستخرج بلفظ « حتى يضع الله فيها قدمه » (٢) ففى مجموع هذه الروايات البيان الواضح بأن القدم والرجل – وكلاهما عبارة عن شئ واحد – صفة لله تعالى حقيقة على ما يليق بعظمته .

كما فيها إبطال تأويل المؤولة نحو قولهم : « إن القدم : عبارة عن إذلال جهنم إذا بلغت فى الطغيان ، وقولهم : إن المراد بالقدم ، الفرط السابق من المعذبين – أى يضع الله فيها ما قدمه لها من أهل العذاب ، وقولهم : المراد بالقدم : قدم بعض المخلوقين ، وقولهم : يجوز أن يكون مخلوقا اسمه القدم ، وقولهم المراد بالقدم الأخير من أهل النار ، وقولهم : إنه اسم مكان عصى الله فيه ، فيلقى فى النار .

وقول الداودى : إن المراد بالقدم ، قدم صدق ، وهو محمد – ﷺ – والإشارة بذلك إلى شفاعته ، وقال بعضهم : إن المراد بالقدم : قدم إبليس إلى غير ذلك من السخافات المضحكة ، الدالة على ضلال قائليها .

وزعم ابن الجوزى ، وابن فورك : أن لفظ الرجل محرف من بعض الرواة عن القدم وذهب مرة إلى التحريف المسمى بالتأويل ، فقال : يحتمل أن يراد بالرجل الجماعة » (٣) فهذه التأويلات الباردة يكفى العاقل المنصف مجرد ذكرها عن تكلف ردها بالدليل لظهور بطلانها ، فهى فى الحقيقة تحريف للكلام الواضح البين ، كتحريف اليهود حينما قيل لهم : « ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطّة » فدخلوا يزحفون على أعجازهم وقالوا : حبة حنطة .

---

(١) الصفات للدارقطنى ص ١٥ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٣٧٠ .
(٣) انظر الفتح فقد ذكر جميع هذه التأويلات وسكت عليها جـ ٨ ص ٥٩٦ .

فبطلان قول هؤلاء المعطلة ، الذين جعلوا صفات الله تعالى نوعا من المخلوقات ، وحاولوا إبطالها بالتأويلات البعيدة السخيفة - واضح وظاهر وذلك من وجوه :

« الأول : أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : حتى يضع ، ولم يقل حتى يلقى [فيها] كما فى قوله : « لا يزال يلقى فى النار » .

الثانى : أن قوله : « قدمه » لايفهم منه هذا [الذى قالوه » لا حقيقة ، ولا مجازا كما تدل عليه الإضافة .

الثالث : أن أولئك المؤخرين ، إن كانوا من الأصاغر المعذبين ، فلا وجه لانزوائها واكتفائها بهم ، فإن ذلك ، إنما يكون بأمر عظيم ، وإن كانوا من الأكابر المجرمين ، فهم فى الدرك الأسفل من النار ، وفى أول المعذبين ، لا فى أواخرهم .

الرابع : أن قوله : « فينزوى بعضها إلى بعض » دليل على أنها تنضم على من فيها فتضيق بهم ، من دون أن يلقى فيها شئ .

الخامس : أن قوله : « لا يزال يلقى فيها وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع فيها قدمه » جعل وضع القدم الغاية التى إليها ينتهى الإلقاء ، ويكون عند ذلك الانزواء ، فيقتضى أن تكون الغاية أعظم مما قبلها ، وليس فى قول [هؤلاء] المعطلة معنى للفظ [قدمه] إلا وقد اشترك فيه الأول والآخر ، والأول أحق به من الآخر » (١)

يضاف إلى ذلك : أن هذا الكلام الواضح البين الذى إذا سمعه السامع لم يتبادر إلى ذهنه إلا ظاهره اللائق بجلال الله تعالى ؛ فلو كان ظاهره غير مراد للمتكلم ، وأن المراد منه ما ذكره هؤلاء المحرفون ، لصار إلى الألغاز والتعمية أقرب ، ولا يكون المتكلم بذلك قد أدى ما وجب عليه من البلاغ والبيان ؛ وهذا

---

(١) مختصر الفتاوى المصرية ص ٦٤٧ .

من أبطل الباطل . وقد علم أن المتكلم بهذا الكلام أفصح الناس وأقدرهم على الإيضاح والبيان لما يريد ، وهو أيضا أنصحهم لأمته ، وأعلمهم بالله وبما يجب له ، وما يمتنع عليه ، وهو أيضا أحرصهم على إيصال الخير والنفع إلى الخلق ، ودفع الشر عنهم ، فيستحيل مع هذه الأمور أن يكون ظاهر كلامه باطلا يدل على الكفر والتشبيه – كما زعم المعطلة المؤولة (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) (١) فظهر بذلك بطلان قول المعطلة والحمد لله رب العالمين

قال أبو سعيد الدارمى : « وأما دعوى المعطل بأن القدم ، أهل الشقوة الذين تقدم فى علم الله أنهم يلقون فى جهنم ، واستدلاله بما روى عن ابن عباس ، فى قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم » (٢) قال : ماقدموا من أعمالهم .

فيقال : من المشهور عن ابن عباس ، أنه قال : « الكرسى موضع القدمين والعرش لايقدر قدره إلا الله » . وهذا صحيح مشهور عن ابن عباس . (٣) ودعوى المعطل أنها لاتمتلىء حتى يلقى الله فيها الأشقياء ، الذين هم قدم الجبار – عند أهل التأويل – دعوى باطلة ، وهل استزادت إلا بعد مصير الأشقياء إليها ؟ أفيلقيهم فيها ثانية ؟ أو أنه تعالى حبس عنها الأشقياء ، وألقى فيها السعداء ؟ فلما استزادت ألقى فيها أهل الشقوة ؟ .

وأما ردهم الحديث بقوله – تعالى : « لأملأنَّ جهنم من الجنة والناس

---

(١) الآية ٥ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٢ من سورة يونس عليه السلام .

(٣) رواه أبو سعيد الدارمى فى الرد المرسى ص ٤٢٥ مجموع عقائد السلف ، والحاكم فى المستدرك ، وقال : صحيح على شرط الشيخين . ووافقه الذهبى جـ ٢ ص ٢٨٢ وابن جرير فى التفسير جـ ٥ ص ٣٩٨ .

أجمعين » (١) قالوا : إن جهنم لاتمتلىء بغير الجن والإنس ، ومن زعم غير ذلك فقد كفر . فيقال : إن هذه الآية لاتخالف قوله : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » (٢) ؟ . ويصح فى الكلام أن يقال للمتلىء : استزاد ، كما يمتلىء الرجل من الطعام ، والشراب ، وهو يقدر أن يستزيد ، ويقال : امتلأ المسجد من الناس وفيه فضل وسعة ، وامتلأ الوادى ماءً ، وهو يحتمل أكثر مما فيه ، وكما فى الحديث « يخرج المهدى ، فيملأ الأرض قسطا وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلما » وفى الأرض سعة لأكثر من ذلك ، فكذلك جهنم تمتلىء بما يلقى الله فيها من الجن والإنس ، وتقول : هل من مزيد ؟ لفضل فيها ، غضباً لله – تعالى على الكفار ، حتى يفعل الجبار بها ماأخبر به رسوله ، من وضعه قدمه فيها كما يشاء ، وكما عنى رسول الله ، فحينئذ تقول : حسبى حسبى ، ولها خزنة يدخلونها غير معذبين بها ، وفيها حيات ، وعقارب .

وقال – تعالى : « عليها تسعة عشر ، وماجعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا » (٣) .

فقوله تعالى : « لأملأنَّ جهنم من الجنة والناس أجمعين » لايخالف هذه الآية ، كما أنه لايخالف قول الرسول – ﷺ : « يضع الجبار فيها قدمه ، وإذا كانت جهنم لاتضر الخزنة الذين يدخلونها ، ويقومون عليها فكيف يستنكر وضع رب العالمين عليها قدمه » (٤) .

وقد جاءت الأحاديث عن رسول الله – ﷺ – تدل على أن كلامها حقيقة ، فلا وجه للعدول عن ذلك ، كقوله ﷺ – : « تحاجت الجنة والنار ، فقالت الجنة : مالى لا يدخلنى إلا الضعفاء ، وقالت النار : مالى يدخلنى

---

(١) الآية ١١٩ من سورة هود عليه السلام .
(٢) الآية ٣٠ من سورة ق .
(٣) الآيتان ٣٠ ، ٣١ من سورة المدثر .
(٤) رد عثمان ابن سعيد على بشر المريسى ملخصا بتصرف .

الجبارون ، والمتكبرون » (١) أخرجاه فى الصحيحين .

وفى مسند الإمام أحمد بسند فيه عطية العوفى – وهو ضعيف – عن أبى سعيد عن النبى – ﷺ – « أنه قال : يخرج عنق من النار يتكلم يقول : وكلت اليوم بثلاثة ، بكل جبار ، وبمن جعل مع الله إلها آخر ، وبمن قتل نفسا بغير نفس ، فينطوى عليهم ، فيقذفهم فى غمرات جهنم » (٢)

وفيه أيضا من طريق ابن لهيعة – وفيه كلام معروف – عن عائشة رضى الله عنها عن النبى – ﷺ – أنه قال : « يخرج عنق من النار ، فينطوى عليهم ، ويتغيظ عليهم ، ويقول ذلك العنق : وكلت بثلاثة ، وكلت بمن دعا مع الله إلهاً آخر ، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، ووكلت بكل جبار عنيد ، فتنطوى عليهم وتطرحهم فى غمرات جهنم » (٣) وقد ذكر ابن رجب أحاديث بهذا المعنى (٤) وقد صح عن النبى – ﷺ – أن حجرا كان يسلم عليه (٥) ، كما صح أن الصحابة كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلونه ، ومن المشهور حنين الجذع الذى كان النبى ﷺ يخطب عليه حين تركه ، فكيف يستنكر كلام جهنم ؟ .

قوله : « فينزوى بعضها إلى بعض » أى يلتئم بعضها على بعض ، وتتضايق على من فيها ، فلا يبقى فيها متسع لغير من فيها .

---

(١) انظر البخارى مع الفتح ١٣ ص ٤٣٤ وجـ ٨ ص ٥٩٥ ، ومسلم جـ ٤ ص ٢١٨٦ .

(٢) المسند جـ ٣ ص ٤٠ .

(٣) المسند جـ ٦ ص ١١٠ .

(٤) انظر التخويف من النار ص ١٣٠ .

(٥) انظر فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٧١ .

قوله : « وتقول : قَدْ قَدْ » بفتح القاف ، وسكون الدال ، وفى رواية « قط قط » وهو اسم فعل ، ومعناه حسبى ، وكفانى ما ألقى فىّ ، فلا متسع لغيرهم أى قد امتلئت .

قوله : « بعزتك وكرمك » هذا محل الشاهد من الحديث لما ترجم به ، وهو قسم من النار بعزة الله وكرمه ، أنها قد امتلئت ، وأصبحت ليس فيها متسع . وقد تقرر عند المسلمين أن القسم بغير الله لا يجوز .

قوله : « لا يزال يلقى فيها ، وتقول » هذا القول من جهنم حقيقة ، فالله تعالى ينطقها بكلام مسموع منها ، كما ينطق جل وعلا الجوارح وغيرها . والله على كل شئ قدير ، وأمور الآخرة أعظمها على خلاف ما يعرفه الناس فى الدنيا ، والقسم بأسماء الله وصفاته قسم به – تعالى – والمقصود أن الله تعالى متصف بالصفات ، فأراد أن يبين ذلك بما ثبت منها فى كتاب الله تعالى ومنها العزة ، وبالأحاديث التى تبين ذلك وتوضحه ، وقد تقدم البحث فيها فى الباب الأول .

قال الحافظ : « يؤخذ منه مشروعية الحلف بكرم الله ، كما شرع الحلف بعزة الله » (١)

قوله : « ولا تزال الجنة تفضل ، حتى ينشئ الله لها خلقا ، فيسكنهم فضل الجنة »

أى أن أهل الجنة الذين يدخلونها ينتهون ، وفيها فضل مساكن لم يصبها أحد لعظم سعتها ، قال الله تعالى : (سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض) (٢) وقال تعالى : (سابقوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) (٣)

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٧١ .
(٢) الآية ١٣٣ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ٢١ من سورة الحديد .

وقد وعد الله تعالى : « الجنة والنار أن يملأهما من الجِنة والناس ، ومما يشاء فأما النار . فإن الله تعالى لايدخل فيها إلا من يستحقها ، ولا يظلم أحداً ، ولسعتها أيضا ينتهى أهلها دخولا فيها مع كثرتهم ، وهى تطلب الزيادة ، وتسأل الله وعده ، فعند ذلك يضع عليها تعالى قدمه . فتتضايق على أهلها . وينزوى بعضها إلى بعض – أى تجتمع – فتصبح ليس فيها موضع لأحد فيحصل بذلك ملئها .

وأما الجنة فإن الله تعالى يخلق لها خلقا جديدا فيسكنهم فضلها ، أى المساكن التى فضلت عمن دخلها ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، لا راد لفضله ، ولا مانع لعطائه .

★ ★ ★

قال : « باب قول الله تعالى : « وهو الذى خلق السماوات والأرض بالحق » [١]

* * *

قال القرطبى : « بالحق – أى بكلمة الحق – يعنى قوله كن » [٢]

ومثله قال القسطلانى ثم قال : « وقال ابن عادل فى لبابه ، قيل الباء بمعنى اللام أى إظهاراً للحق ، لأنه جعل صنعه دليلا على وحدانيته ، فهو نظير قوله تعالى :

(ما خلقنا هذا باطلا) [٣] .

وقال الخازن : « يعنى إظهاراً للحق ، فعلى هذا تكون الباء ، بمعنى اللام ، لأنه جعل صنعه دليلا على وحدانيته ، وقيل خلقها بكمال قدرته ، وشمول علمه ، وإتقان صنعه ، وكل ذلك حق .

وقيل خلقها بكلامه الحق ، وهو قول « كن » وفيه دليل على أن كلام الله تعالى ليس بمخلوق ، لأنه لا يخلق مخلوق بمخلوق » [٤]

---

(١) الآية ٧٣ من سورة الأنعام .

(٢) تفسير القرطبى جـ ٦ ص ١٩ .

(٣) هدى السارى جـ ١٠ ص ٣٦٩ .

(٤) تفسير الخازن جـ ٢ ص ١٤٧ .

وقال ابن الجوزى : « فيه أربعة أقوال :

أحدها : خلقهما للحق .

والثانى : خلقهما حقا .

والثالث : خلقهما بكلامه ، وهو الحق .

والرابع : خلقهما بالحكمة » [١] .

قلت هذه الأقوال ليس فيها اختلاف ، وهى داخلة فى معنى الآية ، إلا أن الطبرى جعل القول الثانى والرابع قولا واحدا كما سيأتى . وهو الأظهر .

وقال ابن جرير : « واختلف أهل التأويل فى قوله : « بالحق » .

فقال بعضهم : معنى ذلك : وهو الذى خلق السماوات والأرض حقا وصواباً ، لا باطلا وخطأً كما قال تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا) [٢] وأدخلت الباء والألف ، كما فى قولك : فلان يقول بالحق – يعنى – أنه يقول الحق ، أى يصيب فى قوله ، فالحق صفة للقول ، فخلق السماوات والأرض حكمة من حكم الله تعالى ، والله موصوف بالحكمة فى خلقهما ، وخلق ما سواهما من سائر الخلق .

وقال آخرون : معنى ذلك : خلق السماوات والأرض بكلامه ، وقوله لهما : (ائتيا طوعا أو كرها) [٣] فالحق فى هذا الموضع معنى به كلامه .

---

(١) زاد المسير جـ ٣ ص ٦٧ .

(٢) الآية ٢٧ من سورة ص .

(٣) جزء من الآية ١١ من سورة فصلت .

واستشهد لذلك بقوله : (ويوم يقول كن فيكون قوله الحق) (١) . فالحق هو قوله وكلامه ، فالله تعالى خلق الأشياء بكلامه وقوله ، فما خلق به الأشياء فهو غيرها ، فكلام الله - تعالى - الذى خلق به الخلق غير مخلوق » (٢) .

قلت : وبهذا يظهر مراد البخارى - رحمه الله تعالى - فقول الله تعالى حق ، وهو صفة له ، وما وجد بقوله فهو غير القول ، بل هو المفعول المخلوق ، فقوله تعالى الذى خلق به الأشياء ، لا يجوز أن يكون مماثلا لها ، فلا بد من التفريق بين قوله الذى هو صفته وبين مفعولاته التى وجدت بقوله ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى فى باب ما جاء فى تخليق السماوات والأرض .

وهو تعالى خلق السماوات والأرض وغيرهما بقوله لها : كونى كما قال تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين) (٣) .

قال الحافظ : « كأنه أشار بهذه الترجمة إلى ما ورد فى تفسير هذه الآية ، أن معنى قوله : « بالحق » أى بكلمة الحق ، وهو قوله : « كن » ويدل عليه ما فى أول الحديث - « وقولك الحق » فكأنه أشار إلى أن القول [فى الحديث] الكلمة ، وهى « كن » والله أعلم » (٤) .

وقال ابن المرتضى : « هذا إشارة من البخارى إلى مذهب أهل السنة فى إثبات الحكمة » (٥)

---

(١) جزء من الآية ٧٣ من سورة الأنعام .

(٢) تفسير الطبرى جـ ١١ ص ٤٥٨ - ٤٥٩ تحقيق محمود شاكر ملخصا .

(٣) الآية ١١ من سورة فصلت .

(٤) الفتح جـ ١٣ ص ٣٧١ .

(٥) إيثار الحق على الخلق ص ٢٠٥ .

قلت : هذا لاينافى ما ذكرنا ، فيجوز أن يقصد المعنيين ولكنه فى الأول أظهر وأليق بمراد البخارى ، لأن القول بنفى الحكمة فى خلق الله وفعله ظاهر البطلان .

قال البخارى : « الفعل إنما هو إحداث الشئ ، والمفعول ، هو الحدث . لقوله تعالى (خلق السماوات والأرض) (١)

قلت : يريد بذلك التفريق بين ما هو صفة لله تعالى ، وبين ما هو مفعول له مخلوق .

وقال الراغب : « أصل الحق : المطابقة والموافقة ، كمطابقة رجل الباب فى حقه لدورانه على استقامة ، والحق يقال على أوجه :

الأول : يقال لموجد الشئ بسبب ما تقتضيه الحكمة ، ولهذا قيل فى الله تعالى - هو الحق - قال تعالى - : (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) (٢) ، (فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون) (٣) .

الثانى : يقال لما وجد بمقتضى الحكمة ، ولهذا يقال : فعل الله تعالى - كله حق ، قال تعالى : (هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً ، وقدَّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق) (٤) .

الثالث : الاعتقاد المطابق لما عليه الشئ فى نفسه ، كما فى الحديث « ووعدك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق » قال الله تعالى : (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق) (٥) .

---

(١) خلق أفعال العباد ص ٢١٠ ضمن العقائد السلفية .
(٢) الآية ٦٢ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٣٢ من سورة يونس .
(٤) الآية ٥ من سورة يونس .
(٥) الآية ٢١٣ من سورة البقرة .

الرابع : الفعل والقول الواقع بحسب ما يجب ، وبقدر ما يجب ، وفى الوقت الذى يجب ، قال الله تعالى : (كذلك حقت كلمة ربك) [١] (حق القول منى لأملأن جهنم [٢]) [٣] .

قلت : يأتى أيضا موصوفا به دين الله وشرعه ، وأمره . كما فى قوله تعالى (ويستنبئونك أحق هو ؟ قل إى وربى إنه لحق ، وما أنتم بمعجزين) [٤] أى وعده أن يبعثكم ويجازيكم . وقال : – تعالى – (وتكتمون الحق) [٥] (الحق من ربك) [٦] (وإنه للحق من ربك) [٧]

قال الحليمى : « الحق » ما لايسع إنكاره ، ويلزم إثباته والاعتراف به .

ووجود البارى – تعالى – أولى مايجب الاعتراف به ، ولا يسع جحده ، إذ لامثبت تظاهرت عليه الدلائل البينة مثل ما تظاهرت على وجود البارى جل جلاله » [٨]

وقال أيضا : « الحق فى الأسماء الحسنى معناه : كما قال ابن برجان : الواجب الوجود بالبقاء الدائم ، الجامع للخير والمجد ، والمحامد كلها ، والثناء الحسن ، والأسماء الحسنى والصفات العلى »

---

(١) الآية ٦ من سورة غافر .

(٢) الآية ١٣ من سورة السجدة .

(٣) المفردات ص ١٢٥ بتصرف .

(٤) الآية ٥٣ من سورة يونس .

(٥) الآية ٧١ من آل عمران .

(٦) الآية ١٤٧ من سورة البقرة و ٦٠ من آل عمران .

(٧) الآية ١٤٩ من سورة البقرة .

(٨) المنهاج جـ ١ ص ١٨٨ .

ومعنى واجب الوجود : أنه اضطر جميع الموجودات إلى معرفة وجوده ، وهو الذى أوجدها ، قال تعالى : (ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحي الموتى وأنه على كل شئ قدير) [١] . ولما أظهر جملة المخلوقات التى خلقها بالحق وللحق قال تعالى : (خلق الله السماوات والأرض بالحق) [٢] .

فالله تعالى هو الحق المبين ، ووجوده الحق ، وقوله الحق ، وصفاته الحق ، وأسماؤه الحق » ا هـ [٣] .

★ ★ ★

(١) الآية ٦ من سورة الحج .
(٢) الآية ٣ من سورة النحل .
(٣) المنهاج جـ ١ ص ٣٦٩ .

١٥ ـــ قال : « حدثنا قبيصة ؛ حدثنا سفيان ، عن ابن جريج ، عن سليمان ، عن طاوس ، عن ابن عباس ، قال : كان النبى ﷺ يدعو من الليل : اللهم لك الحمد أنت رب السماوات والأرض ، لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن ، لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، قولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وأسررت ، وأعلنت ، أنت إلٰهى لا إلٰه لى غيرك ».

* * *

حدثنا ثابت بن محمد ، حدثنا سفيان بهذا وقال : « أنت الحق ، وقولك الحق » .

كان النبى ﷺ – يقول هذا الدعاء بعد أن يكبر تكبيرة الإحرام فى تهجده كما بينه ابن خزيمة حيث قال :

« باب ذكر الدليل على أن النبى – ﷺ – كان يحمد بهذا التحميد بعد أن يكبر . ثم ساق بالسند إلى ابن عباس ، قال : كان رسول الله – ﷺ – إذا قام للتهجد قال بعد ما يكبر : اللهم لك الحمد الخ » (١) .

قوله : « اللهم لك الحمد » . الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية و« ال » فيه للاستغراق ، والاستقصاء ، أى جميع الحمد واجب ، ومستحق لله تعالى . فهو المحمود على صفاته ، وأسمائه ، وعلى نعمه ، وأياديه ، وعلى خلقه وأفعاله ، وعلى أمره وحكمه ، وهو المحمود أولا وآخرا وظاهرا وباطنا .

---

(١) صحيح ابن خزيمة جـ ٢ ص ١٨٤ .

وأما الشكر : فلا يكون إلا على الصفات المتعدية ، ويكون بالقلب ، واللسان والجوارح ، قال تعالى : (اعملوا آل داود شكرا) (١) .

وقال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى ، والضمير المحجبا

قوله : « أنت رب السماوات والأرض » أى أنت مالكهما ومن فيهما ، والمتصرف بهما بمشيئتك ، وأنت موجدهما من العدم ، فالملك لك ، وليس لأحد معك اشتراك أو تدبير ، تباركت وتعاليت .

قوله : « لك الحمد أنت قيم السماوات ، والأرض ومن فيهن » أى أنت الذى أقمتهما من العدم ، والقائم عليهما بما يصلحهما ويقيمهما ، فأنت الخالق الرازق ، المالك المدبر ، المحي المميت ، الغنى عن كل شئ ، وكل من سواك فقير إليك ، ومصيره إليك ، كما أنك أنت الذى أوجدته ، فلك الحمد .

وفى رواية « قيام » ، وفى أخرى « قيوم » ، وكلها من أبنية المبالغة .

« والقيم معناه : القائم بأمور الخلق ، ومدبرهم ، ومدبر العالم فى جميع أحواله .

والقيوم : هو القائم بنفسه مطلقا ، لا بغيره ، ويقوم به كل موجود ، حتى لا يتصور وجود الشئ ولا دوام وجوده إلا به .

وقال النوربشتى : معناه : أنت الذى تقوم بحفظهما ، وحفظ من أحاطتا به واشتملتا عليه ، وقال « من » تغليبا للعقلاء على غيرهم » اهـ (٢)

قوله : « لك الحمد أنت نور السماوات والأرض » قال الحافظ : أى

---

(١) الآية ١٣ من سورة سبأ .

(٢) من القسطلانى جـ ١٠ ص ٣٦٩ .

منورهما ، وبك يهتدى من فيها » [١] .

وقال القاضى عياض : « معناه ذو النور أى خالقه »

وقيل : منور الدنيا بالشمس والقمر والنجوم .

وقيل : منور قلوب عباده المؤمنين بالهداية والمعرفة » [٢] .

قلت : هذا تأويل باطل كما سيأتى بيان بطلانه .

قال شيخ الإسلام : فى جواب من قال : إنه يجب تأويل قوله : « الله نور السماوات والأرض » قطعا . قال : « لانسلم أنه يجب تأويله ، ولا نسلم أن ذلك لو وجب قطعى ، بل جماهير المسلمين لايتأولون هذا الاسم ، وهذا مذهب السلفية وجمهور الصفاتية ، من أهل الكلام والفقهاء والصوفية وغيرهم ، وهو قول أبى سعيد بن كلاب ، ورد على الجهمية تأويلهم « اسم النور » وكذا الأشعرى » ا هـ [٣]

وقد نص الله تعالى فى كتابه أنه نور السماوات والأرض ، وزاد ذلك رسول الله ﷺ إيضاحا وبيانا كما فى هذا الحديث وغيره .

وقد أخبر تعالى : أن الأرض يوم القيامة تشرق بنوره ، وصحت النصوص عن رسول الله ﷺ بأنه يحتجب بالنور ، فاذا كانت الأرض تشرق من نوره ، فهو جل وعلى نور كما قاله رسوله « أنت نور السماوات والأرض »

وقال تعالى : (الله نور السموات والأرض) [٤] وقال تعالى : (وأشرقت

---

(١) الفتح جـ ٣ ص ٤ .

(٢) المشارق جـ ٢ ص ٣١ .

(٣) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٣٧٩ .

(٤) الآية ٣٥ من سورة النور .

الأرض بنور ربها) (١) .

وفى الحديث الذى رواه ابن إسحاق فى السيرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : فى دعائه « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة » (٢) .

وقال ابن مسعود : « إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه » (٣)

وفى حديث أبى ذر فى صحيح مسلم ، قال : سألت رسول الله ﷺ — هل رأيت ربك ؟ قال : « نورٌ أنَّى أراه » وفى رواية « رأيت نورا » (٤) .

وفى حديث أبى موسى فى صحيح مسلم قال : قام فينا رسول الله بخمس كلمات ، فقال : « إن الله لا ينام ، ولاينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سُبُحَات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » (٥) .

السبحات هى : نوره ، وبهاؤه وجلاله .

---

(١) الآية ٦٩ من سورة الزمر .

(٢) انظر مختصر السيرة لإبن هشام جـ ١ ص ٤٢٠ وقال شيخ الإسلام : رواه الطبرانى وغيره . انظر مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٣٨٧ .

(٣) رواه الدارمى فى الرد على بشر ص ٤٤٩ . وابن منده فى الرد على الجهمية ص ٩٩ ، قال ابن القيم رواه الطبرانى فى المعجم وفى السنة انظر اجتماع الجيوش ص ٦ .

(٤) انظر مسلم جـ ١ ص ١٦١ .

(٥) مسلم جـ ١ ص ١٦٢ .

فأخبر ﷺ أنه تعالى احتجب عن المخلوقات بحجابه النور ، وأنه لو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه ، ومعلوم أن بصره لا يفوته شئ ، ولا يستره ساتر ، ولايحول دونه حائل .

وفى الترمذى عن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، وألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل » (١) .

فقد جاءت النصوص « بتسمية الرب نورا ، وبأن له نورا مضافا إليه ، وبأنه نور السماوات والأرض ، وبأن حجابه النور ، فهذه أربعة أنواع :

فالأول : يطلق عليه تعالى اسما له ، فإنه النور الهادى .

والثانى يضاف إليه كما تضاف إليه حياته ، وسمعه وبصره ، وعزته وقدرته وعلمه ، ومرة يضاف إلى وجهه الكريم ، وأخرى يضاف إلى ذاته المقدسة . فإضافته إلى وجهه تعالى - كقوله ﷺ - : « أعوذ بنور وجهك » وقوله : « نور السماوات والأرض من نور وجهه » .

وإضافته إلى ذاته المقدسة كقوله تعالى : (وأشرقت الأرض بنور ربها) (٢) .

---

(١) انظر تحفة الأحوذى جـ ٧ ص ٤٠١ وقال : حسن ورواه أحمد بسند صحيح انظر المسند جـ ٢ ص ١٧٦ ، وانظر تحقيق أحمد شاكر جـ ١٠ ص ١٢٧ ، وأخرجه الحاكم وصححه الذهبى انظر المستدرك جـ ١ ص ١٠ ، وأخرجه ابن أبى عاصم فى السنة جـ ١ ص ١٠٧ .

(٢) الآية ٦٩ من سورة الزمر .

وكما فى حديث عبد الله بن عمرو : « أن الله خلق خلقه فى ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره » الحديث .

ويضاف نوره تعالى إلى السماوات والأرض ، كقوله : (الله نور السماوات والأرض) (١)

وقوله فى هذا الحديث : « أنت نور السماوات والأرض » .

وكذا حجابه النور كقوله : « حجابه النور – أو النار » كما فى حديث أبى موسى » اهـ (٢)

قلت : المضاف إلى السماوات والأرض ، ليس هو صفته تعالى ، وكذلك قوله تعالى : (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) على القول بأن الضمير يعود إلى الله تعالى .

قال ابن القيم : « إضافة النور الى الله تعالى على أحد وجهين :

إضافة صفة إلى موصوفها ، وإضافة مفعول إلى فاعله .

فالأول : كقوله – عز وجل : « وأشرقت الأرض بنور ربها » ، فهذا يكون يوم القيامة ، تشرق بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء بين عباده .

ومنه قوله فى الدعاء المشهور : « أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلنى لا إله إلا انت » . (٣)

وفى الأثر الآخر : « أعوذ بنور وجهك ، الذى أشرقت له الظلمات » (٤) .

---

(١) الآية ٣٥ من سورة النور .

(٢) من الصواعق ملخصا من ٣٥٩ .

(٣) هو الحديث المتقدم ذكره ص ١٧٢ قال فى الفتح الكبير : خرجه الطبرانى . انظر لفظه فيه جـ ١ ص ٢٣٥ .

(٤) تقدم تخريجه قبل قليل .

فأخبر – ﷺ – أن الظلمات أشرقت لنور وجهه ، كما أخبر الله تعالى أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره .

الوجه الثانى : ماذكر فى قوله تعالى : (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) ، وقد اختلف على من يعود الضمير فى « نوره » ، فقيل : على محمد – ﷺ – وقيل : على المؤمن ، والصحيح عوده على الله تعالى .

والمعنى : مثل نور الله فى قلب عبده المؤمن ، وأعظم عباده نصيبا من هذا النور رسوله – ﷺ – .

فهذا النور يضاف إلى الله تعالى على أنه معطيه لعبده ، وواهبه ، كما يضاف إلى العبد لأنه محله وقابله » اهـ (١) .

فالله تعالى سمى نفسه نورا ، وجعل كتابه نورا ، ورسوله نورا ، ودينه نورا ، واحتجب عن خلقه بالنور ، وجعل دار أوليائه فى الآخرة نورا يتلألأ . قال تعالى : (الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دُرِّىٌّ ، يوقد من شجرة مباركة ، زيتونة لا شرقية ، ولاغربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم) (٢) ، قال أُبى ابن كعب : بدأ الله بنور نفسه ، ثم ذكر نور المؤمن » (٣)

وفسر بكونه منور السماوات والأرض ، وبأنه هادى أهل السماوات والأرض ، وهذا لايمنع أنه – تعالى – فى نفسه نور ، فإن من عادة السلف فى تفسيرهم أن يذكروا بعض صفات المفسر – بضم الميم – من الأسماء ، أو بعض أنواع ذلك المفسر ، ولا ينافى ذلك ثبوت بقية الصفات له .

---

(١) اجتماع الجيوش بتلخيص وتصرف ص ٦ .
(٢) الآية ٣٥ من سورة النور .
(٣) رواه ابن جرير فى تفسيره جـ ١٨ ص ١٣٥ .

فبنوره اهتدى أهل السماوات والأرض ، وهذا إنما هو فعله ، وأما النور الذى هو وصفه فهو قائم به ، ومنه اشتق له اسم النور ، الذى هو أحد الأسماء الحسنى ، كما دلت على ذلك النصوص ، فلا يجوز تحريف ذلك بالتأويلات الباطلة .

وأما الأنوار القائمة بأعيان مشاهدة قائمة بأنفسها ، فلم تأت إضافتها إلى الله تعالى أبدا ، فلا يقال لأنوار المصابيح ، أو نور الشمس أو القمر أو الكواكب ، أنها نور الله .

والحديث تضمن ثلاثة أمور شاملة عامة للسماوات والأرض .

وهى : ربوبيتهما ، وقيوميتهما ، ونورهما .

فكونه سبحانه - رباً لهما ، وقيوما لهما ، ونوراً لهما أوصاف له تعالى ، وآثار هذه الأمور الثلاثة قائمة بهما .

فأثر الربوبية : الخلق والإيجاد ، وأثر القيومية : صلاحهما ، وانتظامهما . وأثر نوره - تعالى - استنارة السماوات ، وإشراق الأرض بنوره يوم القيامة .

وأما صفة الربوبية ، والقيومية ، والنور فهى قائمة به تعالى - كما أن صفة الرحمة ، والقدرة ، والإرادة ، والرضى ، والغضب قائمة به - تعالى - والرحمة الموجودة فى العالم ، والإحسان ، والخير ، والنعمة ، والعقوبة آثار تلك الصفات .

وهكذا علمه - تعالى - القائم به هو صفته ، وأما علوم عباده فمن آثار علمه ، وقدرتهم من آثار قدرته .

وبذلك يعلم أن قول المعطلة : « كل عاقل يعلم بالبديهة أن الله - سبحانه ليس هو هذا النور الفائض من جرم الشمس والقمر ، والمصابيح ، فلابد من حمل قوله : « أنت نور السماوات والأرض » على معنى أنه منور السماوات والأرض أو هادى أهل السماوات والأرض » يعلم أنه باطل من جنس تحريفاتهم لسائر صفات الله كما هو نهجهم .

ونحن نقول لهم أيضا : أسأتم الظن بكلام الله ، وكلام رسوله - ﷺ - حيث فهمتم أن حقيقته ومدلوله أنه سبحانه هو هذا النور الواقع على الحيطان ، وغيرها ، وهذا الفهم الفاسد هو الذى أوجب لكم إنكار حقيقة نوره - تعالى - وجحده .

فجمعتم بين الفهم الفاسد ، وإنكار المعنى الحق .

وليس ما ذكرتم هو نور الرب - تعالى - القائم به ، الذى هو صفته ، وإنما هو مخلوق له منفصل عنه ، فإن هذه الأنوار المخلوقة ، تكون فى محل دون محل ، فنور الشمس والقمر ينوِّر بعض الأرض لاجملتها ، ولا ينور السماوات .

فمن ادعى أن نور الشمس والقمر ونحوهما ، هو المراد بقوله - تعالى -: (الله نور السماوات والأرض) وقول الرسول - ﷺ - « أنت نور السماوات والأرض » فقد كذب على الله ورسوله . (١)

قوله : « وقولك الحق » أى أنت قلته حقا ، فهو صفتك . وما قاله الله تعالى - فهو صدق وحق ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، لا فى خبره ، ولا فى حكمه وتشريعه ، ولا فى وعده ووعيده .

وهذه الجملة هى محل الشاهد من الحديث ، حيث وصف قوله - تعالى - بأنه الحق ، فلا يجوز أن يكون مخلوقا كما تزعم الفرق الضالة من المعتزلة وغيرهم .

قال سفيان فى تفسيره : « إن كل شئ مخلوق ، والقرآن ليس بمخلوق ، وكلامه أعظم من خلقه ، لأنه يقول للشئ كن فيكون ، فلا يكون شئ أعظم مما يكون به الخلق ، والقرآن كلام الله » (٢)

وقال أبو ذر - رضى الله عنه :- قال رسول الله - ﷺ - : « قال الله تعالى

---

(١) هذا مقتبس من كلام شيخ الإسلام . انظر مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٣٧٤ .
(٢) خلق أفعال العباد للبخارى ص ١٢٤ مجموع عقائد السلف .

عطائى كلام ، وعذابى كلام ، وإذا أردت شيئا فإنما أقول له : كن فيكون » [١] .

والذين أراد البخارى – رحمه الله – الرد عليهم من الجهمية والمعتزلة ونحوهم ينكرون أن يكون لله – تعالى – كلام تكلم به يكون صفة له ، لأن هذا – بزعمهم يقتضى أن يكون جسما حادثا ، لأن الكلام – زعموا – من الصفات الدالة على حدوث من قام به ، لما فيه من الترتيب ، والتقديم والتأخير ، والتعاقب . ولما رأوا اتفاق الرسل على إثبات الكلام لله تعالى ، وأن القرآن مملوء بذلك ، قالوا : إن الله متكلم ، بمعنى أنه خالق الكلام .

ثم جاءت الأشعرية ، فقالوا : إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه . وليس لله كلام منطوق به ، مسموع منه ، كما سيأتى إن شاء الله تفصيل ذلك فى أبواب الكلام .

وهم بذلك يتفقون مع المعتزلة على إنكار ثبوت الكلام لله حقيقة ، كما أنهم يوافقونهم فى المعنى على أنه مخلوق ، وعلى هؤلاء جميعا اتجه الرد فيما قصده البخارى وغيره من أهل السنة .

ومعلوم « أن : الإيمان الذى جاءت به الرسل عن الله – تعالى – وجاء به خاتمهم مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، هو أن كلام الله صفة له غير مخلوق . وأن القرآن والتوراة ، والإنجيل ، وغيرهما من كتب الله هى كلامه .

وكلام الله لا يكون مخلوقا منفصلا عنه ، كما لا يكون كلام المتكلم منفصلا عنه ، فإن من أنكر ذلك فقد جحد كلام الله الذى هو رسالته ، وأنكر حقيقة ما أخبرت به الرسل ، وعلمته أممها ، والحد فى أسماء الله وآياته ، ومثله بالمعدوم ، والميت ، فإن الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والكلام ، ونحو ذلك صفات

---

(١) نفس المصدر ص ١٣١ .

كمال ، والله تعالى أحق بكل كمال ، فيمتنع أن يثبت للمخلوق كمال إلا والخالق أحق به ، كما يمتنع أن يتنزه المخلوق عن نقص إلا والخالق أحق بتنزهه منه ، لأنه هو الذى أعطى الكمال للكاملين .

ومن لم يتصف بصفات الكمال ، من الحياة ، والعلم ، والسمع ، والبصر ، والقدرة ، والكلام ، وغير ذلك .

فإما أن يكون قابلا للاتصاف بذلك ولم يتصف به .

أو غير قابل للاتصاف به .

فإن قبله ولم يتصف به ، كان موصوفا بصفات النقص ، كالموت والجهل ، والعمى والصمم ، والعجز ، والبكم .

فإن لم يقبل الإتصاف بهذه الصفات ، كان أنقص من القابل الذى لم يتصف بها .

فالحيوان الذى يكون تارة سميعا ، وتارة أصم ، وتارة بصيرا ، وتارة أعمى وتارة متكلما ، وتارة أخرس ، أكمل من الجماد الذى لا يقبل لا هذا ، ولاهذا . فمن لم يصف الله تعالى بصفات الكمال ، لزمه إما أن يصفه بهذه النقائض ، أو يكون أنقص ممن وصف بهذه النقائص » (١) .

قوله : « ووعدك الحق » أى لابد من وقوعه ، على ماوعدت ، فلا خلف فيه ولا تبديل .

« ولقاؤك حق » أى لابد للعباد من ملاقاتك، فتجازيهم على أعمالهم ، واللقاء يتضمن الرؤية ، والمعاينة ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

« والجنة حق ، والنار حق » أى ثابتتان ، موجودتان ، كما أخبرت بذلك أنهما معدتان لأهلهما ، فهما دار البقاء ، وإليهما مصير العباد .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٢ ص ٣٥٥ .

« والساعة حق » أى مجىء يوم القيامة حق لا مرية فيه ، فهو ثابت لابد منه ، وهى نهاية الدنيا ، ومبدأ الآخرة ، وفى ضمن هذه الأخبار – الأخبار عن إيمانه بما ذكر ، إيمانا لايتزعزع ، والساعة يعبر بها عن البعث ، أى الساعة التى يبعث الله فيها الموتى من قبورهم أحياء ، فيجمعهم بعد تفرق أجزائهم وتشتتها ، بل واستحالتها ترابا ، وهباء ، وغير ذلك .

فيجمعهم ، ويحييهم ، كما كانوا فى الدنيا ، ويجازيهم بعد حسابهم ، وحشرهم . وأدخلت الألف واللام فى الساعة ، لأنها معروفة المعنى عند المخاطبين بها ، وأنها مقصود بها قصد الساعة التى وصفت ، قاله الطبرى (١) .

« اللهم لك أسلمت » أى أذعنت لأمرك ، وانقدت له ، وخضعت لحكمك .

« وبك آمنت » أى صدقت ، وعملت بمقتضى ذلك ، بعد تحققى بالإيمان بك .

« وعليك توكلت » أى اعتمدت عليك ، ووكلت أمورى إليك ، راضيا بما قضيته لى ، بعد أن فعلت الأسباب التى جعلتها إلىّ ، دينية كانت ، أو دنيوية . فالتوكل : هو الاعتماد على الله تعالى ، والثقة به ، وفعل الأسباب التى رتبت عليها الأشياء ، والتى يستطيع العبد فعلها ، وهو من أفضل العبادة ، بل جاء مايدل على أنه شرط فى حصول الإيمان كما فى قوله تعالى : (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) (٢) .

---

(١) انظر تفسيره جـ ١١ ص ٣٢٤ ، ولكثرة ما أخبروا بها ووصفت لها ، وخوفوا بقربها صارت معلومة لهم ، فأدخلت عليها الألف واللام لذلك .

(٢) الآية ٢٣ من سورة المائدة .

« وإليك أنبت » أى رجعت إليك طائعا منقادا ، مذعنا ، خاضعا لك فى جميع أمورى .

« وإليك حاكمت » أى كل من أبى قبول الحق ، أو جحده ، حاكمته إليك وجعلتك الحكم بينى وبينه ، مجانبا بذلك حكم كل طاغوت ، من قانون وضعى ، أو كاهن أو غيره ، مما يتحاكم إليه البشر ، من الأوضاع الباطلة شرعا .

وقدم صلات هذه الأفعال كلها لإرادة التخصيص والحصر ، أى أخصك يارب وحدك فيما ذكر ، ولا أعدو ذلك بحال من الأحوال .

فى هذا الحديث قدم الثناء على الله – تعالى – بأن له الحمد ، وبما ذكر من صفاته ثم توسل إليه – تعالى – بإيمانه بأن قوله حق ، ووعده حق إلى آخر ماذكر ، وأنه مذعن لأمره ، منقاد لطاعته ، وأنه معتمد عليه ، وبه يخاصم وإليه يحاكم ، ثم بعد ذلك سأل حاجته ، وهى أن يغفر له ماقدم من خطأ ، أو تقصير ، وما أخر ، وما أسر ، وما أعلن .

ثم ختم ذلك بأنه لامفزع ، ولا ملجأ له غير ربه تعالى ، فهو إلهه الذى يعبده بما ذكر ، ويخاف عقابه ، ويؤمل فضله ونواله ، فقال : « أنت إلٰهى لا إلٰه لى غيرك » فلا أتوجه إلى سواك ، إذ كل مألوه غيرك باطل ودعوته ضلال ، وبال ، وهذا هو التوحيد الذى جاءت به رسل الله وفرضه تعالى على عباده .

قوله : « فاغفر لى ما قدمت ، وما أخرت ، وأسررت ، وأعلنت » .

أصل الغفر : الستر مع الوقاية ، ومنه المغفر ، لأنه يستر الرأس ويقيه من السلاح .

« ما قدمت » أى قبل وقتى هذا .

« وما أخرت » أى بعد وقتى هذا ، أى اغفر لى ماعملت من الذنوب ،

وماسأعمله وماظهر منها لأحد من خلقك ، وماخفى عنهم ، ولم يعلمه غيرك .

وقوله فى الرواية الأخرى : « أنت الحق ، وقولك الحق » فيها البيان بأن اسم الحق يقع على ذات الله – تعالى – اسما كما سبق بيانه ، ويقع على صفاته كما فى قوله « وقولك الحق » .

وفى هذا الحديث وأمثاله دليل على وقوع الذنوب من الأنبياء ، إذ لو لم يكن له ذنب كيف يسأل المغفرة ، وقد قص الله تعالى ما وقع لبعض الرسل من المخالفات ، وهذه مسألة مشهورة عند العلماء . وقد ألف فيها مؤلفات خاصة ، وقد اتفق أهل السنة على أن مايبلغونه من أمر الله وشرعه أنهم معصومون فيه من الخطأ ، وأما وقوع الذنوب منهم ففيه الخلاف . وقد بالغ بعض الناس ، وكفر من قال بوقوع الذنب منهم . وهذا جهل من قائله .



قال : « باب وكان الله سميعا بصيراً »

* * *

يريد بهذه الترجمة بيان أن هاتين الصفتين - السمع والبصر - ثابتتان لله بالكتاب والسنة ، وإجماع أتباع الرسل ، وبالعقل ، والفطر ، وبيان أن الله - تعالى - لم يزل بصفاته ، وبيان أن المنكر لهاتين الصفتين قد ضلَّ عن كتاب الله ، وسنة رسوله ، واتبع غير سبيل المؤمنين أتباع الرسل .

قال القسطلانى : « وقد علم بالضرورة من الدين ، وثبت فى الكتاب والسنة بحيث لايمكن إنكاره ، ولا تأويله أن البارى - تعالى - حى سميع بصير ، وانعقد إجماع أهل الأديان ، بل جميع العقلاء على ذلك » (١) .

« فالسمع والبصر ، والحياة ، والعلم ، والقدرة ، والكلام ، ونحوها صفات كمال لانقص فيها ، فمن اتصف بها أكمل ممن لا يتصف بها ، والنقص فى انتفائها لافى ثبوتها بإجماع العقلاء ، والقابل للاتصاف بها كالحيوان أكمل ، ممن لا يقبل الاتصاف بها كالجماد » (٢) .

قلت : الحامل على إنكار ذلك هو الجهل بالله - تعالى - والقياس الفاسد حيث قاسوا ذلك على مايعرفون من أنفسهم بأن السمع ينشأ عن وصول الهواء إلى عصب الصماخ ، والبصر عبارة عن وقوع أشعة الإبصار على جسم مقابل .

قالوا : هذا لا يكون إلا من جوارح وأجسام .

---

(١) إرشاد السارى جـ ١٠ ص ٣٧٠ .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٨٨ .

فيقال لهم : هذه صفة أسماعكم وأبصاركم ، أمارب العالمين فصفاته تابعة لذاته ، وذاته ليس لها نظير أو شبيه ، فكذلك صفاته تعالى .

وكيفية صفاته تعالى مجهولة للخلق ، ويكفينا أن نعلم أنه تعالى متصف بما وصف به نفسه ووصفته به رسله حقيقة ، وأنه فى ذلك ليس له مثل ، كما قال تعالى : (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير)

قال الحافظ : « قال ابن بطال : غرض البخارى فى هذا الباب الرد على من قال : إن معنى « سميع بصير » عليم ، قال : ويلزم من قال ذلك أن يسويه بالأعمى الذى يعلم أن السماء خضراء ، ولايراها ، والأصم الذى يعلم أن فى الناس أصواتا ، ولا يسمعها ، ولاشك أن من سمع ، وأبصر أدخل فى صفة الكمال ، ممن انفرد بأحدهما دون الآخر .

فصح أن كونه سميعا بصيرا يفيد قدراً زائداً على كونه عليما .

وكونه سميعا بصيراً يتضمن أنه يسمع بسمع ، ويبصر ببصر ، كما تضمن كونه عليما أنه يعلم بعلم ، ولا فرق بين إثبات كونه سميعا بصيرا ، وبين كونه ذا سمع وبصر ، وهذا قول أهل السنة قاطبة » (١)

وقال البيهقى : « السميع من له سمع يدرك به المسموعات ، والبصير من له بصر يدرك به المرئيات ، وكل منهما فى حق البارى صفة قائمة بذاته » (٢)

وقد تكاثرت الأدلة من كتاب الله – تعالى ومن سنة رسوله – ﷺ – على إثبات السمع والبصر صفتين لله – تعالى – حقيقيتن على مايليق بعظمته تعالى – قال الله تعالى : (إن الله كان سميعا بصيرا) (٣) ، (وكان الله

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٧٣ .

(٢) الاعتقاد ص ٥٨ .

(٣) الآية ٥٨ من سورة النساء .

سميعا بصيراً) [١] (ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، وأن الله سميع بصير) [٢] (إنه هو السميع البصير) [٣] ، (إن الله سميع بصير) [٤] ، (إن الله هو السميع البصير) [٥] ، (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) [٦] ، (فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير) [٧] ، (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) [٨] .

فى آيات كثيرة ، قد ذكر الله تعالى فى القرآن السمع والبصر واصفاً بهما نفسه فيما يقرب من مائة آية ، مرة يجمع بين السمع والبصر ، ومرة بين السمع والعلم ، ومرة يذكر البصر وحده متعلقا بعمل العباد كقوله : (بما تعملون بصير) ، (والله بصير بالعباد) .

وقد تقرر فى الفطر والعقول ، أن عدم السمع والبصر ، والأرجل والأيدى نقص وعيب يمتنع معه دعوة الفاقد لذلك ، لامتناع كونه إلهاً ، إذ الإلٰه يجب أن يكون سميعاً بصيراً حياً قادراً ، كاملاً ، لا نقص فيه ، ولا عيب ، قال تعالى : (إن الذين تدعون من دون الله ، عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا

---

(١) الآية ١٣٤ من سورة النساء .

(٢) الآية ٦١ من سورة الحج .

(٣) الآية ١ من سورة الإسراء .

(٤) الآية ٧٥ من سورة الحج .

(٥) الآية ٢٠ من سورة غافر .

(٦) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٧) الآية ٥٦ من سورة غافر .

(٨) الآية ١ من سورة المجادلة .

لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها) [١]

وقال تعالى عن خليله إبراهيم فى دعوته أبيه إلى الله تعالى : (يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا) [٢] .

وأما سنة رسول الله - ﷺ - فقد جاءت موافقة لما فى كتاب الله ومبينة له ، وهى كثيرة جداً ، نكتفى بذكر يسير منها بالإضافة إلى ماذكره البخارى فى الباب .

فمن ذلك مارواه أبو داود بسند على شرط مسلم ، عن أبى هريرة أنه قرأ قول الله تعالى : (وكان الله سميعا بصيراً) فوضع إبهامه على أذنه ، والتى تليها على عينه ، وقال : رأيت رسول الله ﷺ يقرأ ويضع إصبعيه » [٣]

قال البيهقى عقب روايته لهذا الحديث : « والمراد بالإشارة فى هذا الخبر تحقيق الوصف لله - عز وجل - بالسمع والبصر ، فأشار إلى محل السمع والبصر منا لإثبات صفة السمع والبصر لله - تعالى - ، وأفاد هذا الخبر أنه سميع بصير ، له سمع وبصر ، لا على معنى أنه عليم ، إذ لو كان بمعنى العلم لأشار فى تحقيقه إلى القلب ، لأنه محل العلوم منا » [٤] .

ثم ذكر البيهقى لحديث أبى هريرة هذا شاهدا ، من حديث عقبة بن عامر ، سمعت رسول الله - ﷺ - يقول على المنبر : « إن ربنا سميع بصير ،

---

(١) الآيتان من ١٩٤ - ١٩٥ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٤٢ من سورة مريم .

(٣) انظر سنن أبى داود جـ ٥ ص ٩٧ .

(٤) الأسماء والصفات من ١٧٩ ملخصا .

وأشار بيده إلى عينيه » [١] قال الحافظ : سنده حسن [٢] ، وروى اللالكائى عن ابن عباس أنه قرأ قوله تعالى (تجرى بأعيننا » فأشار بيده إلى عينيه » [٣]

قال ابن خزيمة : « نحن نقول : لربنا عينان يبصر بهما ما تحت الثرى ، وتحت الأرض السابعة السفلى ، وما فى السماوات ، وما بينهما من صغير وكبير ، لايخفى عليه خافية فهو تعالى يرى ما فى جوف البحار ، ولججها كما يرى عرشه الذى هو مستو عليه » [٤]

فالسمع والبصر من الصفات الثابتة لله – تعالى – بقوله عن نفسه ، وبقول رسوله – ﷺ – وبالعقل ، والفطرة ، وإجماع أهل العلم والإيمان ، ولم ينكر ذلك إلا شواذ الطوائف المارقة من الحق ، كالجهمية ، وإخوانهم من بعض المعتزلة ، وليس معهم على ذلك إلا التحذلق ، والكلام الفارغ ، من الحق والمعنى الصحيح أو التوهم بأن إثبات الصفات يقتضى التشبيه ، حيث توهموا أن صفات الله كصفات خلقه تعالى الله .

قوله تعالى : (وكان الله سميعا بصيرا) ، كان هنا تدل على الدوام ، والاستمرار الذى يعم جميع الأوقات ، كما قال علماء النحو : « إن كان تستعمل بمعنى : بقى على حاله ، واستمر شأنه ، وسيستمر من غير انقطاع ، ولا تقيد بزمن ، نحو : كان الله غفورا رحيما » [٥]

قال ابن جرير : « إن الله لم يزل سميعا بما تقولون ، وتنطقون ، وهو سميع لذلك منكم إذا حكمتم بين الناس ، ولما تحاورونهم به .

---

(١) هذا الحديث لم أجده فى الصفات المطبوع فيكون فى النسخة التى نقل منها الحافظ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٣٧٣ .

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة جـ ٢ ص ٤١١ .

(٤) كتاب التوحيد ص ٥٠ .

(٥) النحو الواضح جـ ١ ص ٥٤٩ ، وانظر المقتضب للمبرد جـ ٤ ص ١١٩ .

« بصيرا » بما تفعلون فيما ائتمنتم عليه من حقوق رعيتكم وأموالهم ، وماتقضون به بينهم من أحكامكم ، بعدل تحكمون أو جور ، لايخفى عليه شئ من ذلك حافظ ذلك كله ، حتى يجازى محسنكم بإحسانه ، ومسيئكم بإساءته ، أو يعفو بفضله » (١)

قوله : « قال الأعمش ، عن تميم ، عن عروة ، عن عائشة ، قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، فأنزل الله – تعالى – على النبى – ﷺ –: (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) .

هذا الحديث رواه أحمد فى المسند موصولا (٢) وابن ماجه فى السنن (٣) والنسائى (٤) . وكلهم يأتم مما ذكر البخارى .

ولفظهم : « أنها قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة – وللنسائى – خولة – إلى النبى – ﷺ – وأنا فى ناحية البيت ، وما أسمع ماتقول ، فأنزل الله : (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) إلى آخر الآية .

ورواه ابن ماجه فى كتاب الظهار من السنن بأتم مما هنا (٥) .

قال ابن عبد البر : « روينا من وجوه عن عمر بن الخطاب ، أنه خرج ومعه الناس فمرَّ بعجوز ، فاستوقفته ، فجعل يحدثها وتحدثه ، فقال له رجل : ياأمير المؤمنين حبست الناس على هذه العجوز ، فقال : ويلك ، أتدرى من هذه ؟

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٨ ص ٤٩٤ بتحقيق محمود شاكر .

(٢) انظر المسند جـ ٦ ص ٤٦ ، وانظر الفتح الربانى جـ ١٨ ص ٢٩٨ .

(٣) انظر سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٦٧ .

(٤) المجتبى جـ ٦ ص ١٦٨ .

(٥) انظر سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٦٦٦ .

هذه امرأة سمه الله شكواها من فوق سبع سموات ، هذه خولة بنت ثعلبة التى أنزل الله فيها : (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله) والله لو أنها وقفت إلى الليل ما فارقتها إلا الصلاة ، ثم أرجع إليها » [١]

قال ابن كثير : ورواه ابن أبى حاتم ، وساقه بسنده [٢] .

قوله : « وسع سمعه الأصوات » أى استوعبها وأدركها فلا يفوته منها شىء وإن خفى ، فحينما ذكرت المرأة قصتها لرسول الله - ﷺ - وقال لها : « قد حرمت عليه ، جعلت تقول : بصوت منخفض - يخفى على عائشة مع قربها منها - بعد ماكبرت سنى ظاهر منى ؟ إلى الله أشكو حال صبية إن ضممتهم إلىَّ جاعوا ، وإن تركتهم عنده ضاعوا ، فهذه مجادلتها لرسول الله - ﷺ - التى ذكرها الله تعالى - بقوله : (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) وهذا من أبلغ الأدلة على اتصاف الله تعالى بالسمع ، وهو أمر معلوم بالضرورة من الدين ، لاينكره إلا من ضلَّ عن الهدى .

وقول عائشة هذا يدل على أن الصحابة - رضى الله عنهم - آمنوا بالنصوص على ظاهرها الذى يتبادر إلى الفهم ، وأن هذا هو الذى أراده الله منهم ومن غيرهم من المكلفين ورسوله ، إذ لو كان هذا الذى آمنوا به واعتقدوه خطأً لم يقروا عليه ولبين لهم الصواب ، ولم يأت عن أحد منهم تأويل هذه النصوص عن ظواهرها ، لا من طريق صحيح ولا ضعيف ، مع توافر الدواعى على نقل ذلك مما يبين قطعا أن الذى أريد منهم ، ومن كل مؤمن هو ظاهر الخطاب ، وهذا واضح لمن تأمل النصوص ، وعرف حال الصحابة .

وبهذا يتبين بطلان التأويل ، وأنه سلوك غير سبيل الرسول - ﷺ - وصحابته ، والتابعين لهم إلى نهاية الدنيا .

---

(١) الاستيعاب جـ ٤ ص ١٨٣١ بتحقيق البجاوى .
(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٦٠ مطبعة الشعب .

١٦ ــ قال : « حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن أبى عثمان ، عن أبى موسى ، قال : كنا مع النبى – ﷺ – فى سفر ، فكنا إذا علونا كبرنا فقال : « اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لاتدعون أصم ولا غائبا ، تدعون سميعا بصيرا ، قريبا ، ثم أتى علىَّ ، وأنا أقول فى نفسى : لا حول ، ولا قوة إلا بالله . فقال : ياعبد الله بن قيس ، قل لا حول ، ولا قوة إلا بالله ، فإنها كنز من كنوز الجنة ، أو قال : ألا أدلك . به »

* * *

قوله : « كنا مع النبى – ﷺ – فى سفر ، فكنا إذا علونا كبرنا » هذا مما كان النبى ﷺ يفعله ، فكان يكبر إذا علا نشزا ، ويسبح إذا هبط فى منخفض من الأرض ، وقد بوب البخارى – رحمه الله – على الأمرين فى الجهاد والدعوات من صحيحه فقال : باب التسبيح إذا هبط وادياً وبعده باب التكبير إذ علا شرفا .

قال المهلب : « تكبيره ﷺ عند الارتفاع ، استشعار لكبرياء الله عز وجل ، وعندما يقع عليه العين من عظيم خلق الله أنه تعالى أكبر من كل شئ .

والتسبيح فى الأماكن المنخفضة استشعار بتنزيهه تعالى عن صفة السفل والانخفاض » (١) .

وفيه دليل على علو الله تعالى فوق كل شئ ، وأنه لا يجوز أن يكون شئ من خلقه فوقه تعالى وتقدس . وسيأتى البحث فيه إن شاء الله تعالى .

قوله : « فقال : « اربعوا على أنفسكم » أى ارفقوا بأنفسكم ، فلا تكلفوها

---

(١) فتح البارى جـ ٦ ص ١٣٦ .

برفع أصواتكم ، فإنه لاحاجة إلى ذلك ، فإن من تكبرونه ، وتسبحونه سميع بصير ، يسمع الأصوات الخفية كما يسمع الجهرية ، ويرى الأشياء وإن دقت ، فلا يخفى عليه شيء .

قوله : « فإنكم لا تدعون أصم ، ولا غائبا » قال صاحب القاموس : « الصمم انسداد الأذن ، وثقل السمع بحيث لا يسمع الأصوات إلا إذا كانت مرتفعة عالية » (١) .

وقيل : هو انسداد الأذن ، وذهاب سمعها .

قوله : « ولا غائبا » أى ليس بعيداً ومستور الرؤية والسمع عنكم ، فيحتاج إلى المناداة ورفع الأصوات ، كما قال تعالى : (وإذا سألك عبادى عنى ، فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) (٢)

ولهذا قال : « تدعون سميعا بصيرا قريبا » وهذه صيغ مبالغة ، لأن له تعالى تمام الكمال من هذه الصفات ، فلا يفوت سمعه أى حركة وإن خفية ، فيسمع دبيب النملة على الصفاة الصماء فى ظلمة الليل ، وأخفى من ذلك كما أنه – تعالى – لايحجب بصره شيء من الحوائل ، فهو يسمع نغماتكم وأصوات أنفاسكم وجميع ما تتلفظون به من كلمات ، ويبصر حركاتكم ، وهو معكم قريب من داعيه ، وهو أيضا مع جميع خلقه باطلاعه ، وإحاطته ، وهم فى قبضته ، ومع ذلك هو على عرشه عال فوق جميع مخلوقاته ، ولايخفى عليه خافية فى جميع مخلوقاته مهما كانت ، وسيأتى بيان ذلك إن شاء الله فى مكانه .

قوله : « قل لاحول ، ولاقوة إلا بالله ، فإنها كنز ، من كنوز الجنة » الكنز هو المال النفيس المحفوظ ، والجمع والادخار يسمى كنزاً .

---

(١) انظر القاموس جـ ٤ ص ١٤٠ .

(٢) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

وكنز الجنة : الأعمال الصالحة ، الفضيلة ، التى يقبلها الله ويرضاها فيحفظها ويدخرها لصاحبها ، فيكون سببا فى دخوله الجنة ورفع منزلته فيها ، وهو دليل على تفاضل الأعمال ، والأدلة على ذلك كثيرة جداً .

ومعنى هذه الكلمة : لاتحول من حالة إلى أخرى ، ولا انتقال من أمر إلى آخر ولا قوة على ذلك ، ولا قدرة إلا بالله ، فهو المعين عليه والمهيئ لأسبابه والموجد لها ، فهى استسلام لله ، وإذعان لقدرته وإرادته ، وإقرار بأنه لا يقع حركة أو سكون إلا بمشيئته جل وعلا .

* * *

١٧ ــ قال : « حدثنا يحي بن سليمان ، حدثنى ابن وهب ، أخبرنى عمرو ، عن يزيد ، عن أبى الخير ، سمع عبد الله بن عمرو ، أن أبا بكر الصديق – رضى الله عنه – قال للنبى – ﷺ : يارسول الله علِّمنى دعاء أدعو به فى صلاتى ؟ قال : قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى من عندك مغفرة ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

* * *

عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل القرشى ، السهمى ، أبو محمد أسلم قديما ، وكان من أفاضل الصحابة وعبادهم ، ومن العلماء المكثرين عن رسول الله ﷺ ، فقد ثبت عن حافظ الأمة أبى هريرة رضى الله عنه قوله : « ما كان أحد أكثر منى حديثا عن رسول الله ﷺ إلا عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب ولا أكتب » (١) .

ومع ذلك فالمروى عنه أقل بكثير من المروى عن أبى هريرة ، وقد قيل : إن السبب فى ذلك أن عبد الله سكن مصر والوارد إليها من الناس قليل ، وأبو هريرة سكن المدينة وهى مجمع الناس .

قيل : إنه توفى فى مصر ، وقيل فى الطائف ، وقيل فى مكة ، وقيل فى فلسطين سنة ثلاث وستين ، أو خمس وستين ، عن اثنتين وسبعين سنة ، رضى الله عنه ، وعن صحابة رسول الله ﷺ أجمعين .

وأما أبو بكر فهو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم بن مرة ، القرشى ، كان أبيض نحيفا خفيف العارضين ، وهو أفضل من صحب رسول الله ﷺ ، وهو أعلم الصحابة بالله ورسوله ، وهو أول من أسلم من الرجال ، ولسرعته إلى تصديق الرسول ﷺ وشدة قبوله لقوله سمى الصديق ، وهو رفيق رسول الله ﷺ فى الهجرة ، وصاحبه فى الغار ، كما قال الله

---

(١) رواه البخارى انظر الفتح جـ ١ ص ٢٠٦ .

تعالى : (إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا) (١) ، وقد أخبر النبى ﷺ أنه أمنَّ الناس عليه ، وأنه لو اتخذ من الناس خليلا لاتخذ أبا بكر خليلا ، كما ثبت فى الصحيحين ، وأخبر أنه أحب الناس إليه من الرجال ، وأن ابنته عائشة زوج رسول الله ﷺ أحب الناس إليه من النساء .

أمره رسول الله ﷺ أن يؤم الناس فى مرض موته ، ولما روجع فى ذلك غضب ، وقال : مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس .

وفضائله كثيرة ، وقد كتب فيه مؤلفات ، توفى رضى الله عنه سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، ودفن جوار رسول الله ﷺ (٢)

قوله : « إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا » الظلم هو : وضع الشئ فى غير موضعه .

« وهذا يدل على أن الإنسان لا ينفك عن الذنوب ، والتقصير فى حقوق الله كما فى الحديث : « كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » (٣) لأنه أطلق هذا الظلم ولم يقيده ، أو يخصصه بزمن دون آخر ، أو بحالة دون حالة ، فلو كان هناك حالة أو زمن من عمر الإنسان لا يكون فيه ظلم ماصح هذا الإطلاق ، ولاصار مطابقا للواقع » (٤) .

قوله : « ولا يغفر الذنوب إلا أنت » تقدم معنى الغفر فى اللغة ، والمقصود محو الذنوب ووقاية تبعاتها ، وهذا لجوء إلى التوحيد ، وأنه لا مفر ولا ملجأ يفزع

---

(١) جزء من الآية ٤٠ من سورة التوبة .

(٢) أسد الغابة جـ ٣ ص ٣٠٩ .

(٣) رواه ابن ماجه فى السنن الزهد جـ ٢ ص ١٤٢٠ الحديث رقم ٤٢٥١ ، والترمذى جـ ٤ ص ٧٠ ، وأحمد فى المسند جـ ٣ ص ٩٨ .

(٤) شرح العمدة لابن دقيق العيد جـ ٢ ص ٧٨ .

إليه فى غفران الذنوب ، ووقاية شرها إلا الله وحده ، ولاطريق يسلك لذلك إلا الانطراح بين يدى رب العالمين ، والافتقار إليه ، والتوجه بكلية العبد إليه ، وإخلاص الدعاء له وحده ، رغبة ورهبة . كما قال تعالى : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون) [١].

فعلم العبد بأنه لا يغفر الذنوب إلا الله يضطره إلى اللجوء إليه تعالى والإخلاص له ، وليس هناك طريق للنجاة إلا هذا الطريق ، ولهذا قيل : « إن التوحيد مفزع أولياء الله ، وأعداءه » أما أولياء الله فأمرهم ظاهر وأما أعداؤه ، فكانوا إذا وقعوا فى الشدائد أخلصوا الدعاء لله وحده ، كما ذكر الله عنهم فى القرآن ، ونظر العقل يؤدى إلى هذا دائما .

قوله : « فاغفر لى من عندك مغفرة » أى أنه لا حيلة لى ولا خلاص إلا بأن تمنَّ على أنت وحدك بالمغفرة ، فتستر ذنوبى ، وتعفو عنى ، وتقينى ما يترتب عليها من تبعات وشرور .

وقال : « من عندك » ليبين الاختصاص ، أى أن المغفرة منك وحدك تفضل بها علىَّ ، بدون استحقاق ، بل هى محض جودك وكرمك .

وقوله : « إنك أنت الغفور الرحيم » ختم هذا الدعاء ، بهذين الاسمين الكريمين ، لمناسبتهما للمطلوب ، فالغفور يناسب طلب المغفرة .

والرحيم يناسب طلب التفضل والجود ، وهو قريب من الأول . وهذا من معانى دعاء الله بأسمائه الحسنى .

« وقد جمع فى هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بين الاعتراف بحاله والتوسل إلى ربه – عز وجل – بفضله وجوده ، وأنه المنفرد بغفران الذنوب ، ثم

---

(١) الآية ١٣٥ من سورة آل عمران .

سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معا ، وهكذا أدب الدعاء ، وأدب العبودية » (١)

والمقصود من الحديث فى هذا الباب أن المدعو لابد أن يكون سميعا يسمع دعوة الداعى إذا دعاه ، بصيراً بحاله فيوصل إليه ماطلب بقدرته ، وإلا تكون دعوته ضلال وسدى ، ففى الدعاء واستجابة الله تعالى لعبده الداعى برهان على أنه سميع ، بصير ، قادر ، حى ، عليم ، وقد قال الله تعالى فيمن يدعو من لايسمع ، ولايبصر : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعاءهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين » (٢) .

وقال تعالى عن خليله إبراهيم فى دعوته لأبيه : (ياأبت لم تعبد مالايسمع ولا يبصر ولايغنى عنك شيئا » (٣)

« قد قال ابن عقيل : قدندب الله تعالى إلى الدعاء ، وفى ذلك معان .

أحدها : الوجود ، فإن من ليس بموجود لا يدعى .

الثانى : الغنى ، فإن الفقير لا يدعى .

الثالث : السمع ، فإن الأصم لا يدعى .

الرابع : الكرم ، فإن البخيل لا يدعى .

الخامس : الرحمة ، فإن القاسى لا يدعى .

السادس : القدرة ، فإن العاجز لا يدعى .

---

(١) الوابل الصيب ص ١١٨ .

(٢) الآيتان ٥ و ٦ من سورة الأحقاف .

(٣) الآية ٤٢ من سورة مريم .

ومن يقول بالطبائع ، يعلم أن النار ، لايقال لها كفى ، ولا النجم يقال له : أصلح مزاجى . لأن هذه عندهم مؤثرة طبعا لا اختيارا ، فشرع الدعاء ، وصلاة الاستسقاء ليبين كذب أهل الطبائع » [١]

و « فعل السمع يراد به أربعة معان :

أحدها : سمع إدراك ، ومتعلقه الأصوات .

الثانى : سمع فهم ، وعقل ، ومتعلقه المعانى .

الثالث : سمع إجابة وإعطاء ماسئل .

الرابع : سمع قبول ، وانقياد ، فمن الأول ، (سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) ، و (لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ، ونحن أغنياء) [٢] ، ومن الثانى : قوله : (لاتقولوا : راعنا ، وقولوا انظرنا واسمعوا) [٣] أى سمع فهم وعقل ، ومن الثالث : سمع الله لمن حمده ، ومن الرابع : قوله : سماعون للكذب ، أى قابلون له ، ومنقادون ، فسمع الإدراك يتعدى بنفسه ، وسمع القبول يتعدى باللام ، وبمن ، ولإجابته بمن » [٤] .

* * *

---

(١) شرح الطحاوية ص ٤٥٧ الطبعة الثالثة .

(٢) الآية ١٨١ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ١٠٤ من سورة البقرة .

(٤) بدائع الفوائد جـ ٢ ص ٧٥ .

١٨ ــ قال : « حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى يونس ، عن ابن شهاب ، حدثنى عروة ، أن عائشة – رضى الله عنها – حدثته ، قال النبى – ﷺ : « إن جبريل – عليه السلام – نادانى . قال : إن الله قد سمع قول قومك ، وما ردوا عليك » .

* * *

اختصر البخارى هذا الحديث هنا – فذكر الشاهد منه ، وقد ذكره بتمامه فى بدء الخلق ، ولفظه : « قالت للنبى – ﷺ – هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ .

قال : لقد لقيت من قومك مالقيت ، وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت فانطلقت – وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى ، فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت ، فإذا فيها جبريل فنادانى ، فقال – : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلّم على ، ثم قال : يامحمد – فقال : ذلك فيما شئت ، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين ، فقال : النبى – ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، ولا يشرك به شيئا » (١)

ففى هذا الحديث البيان الواضح فى أن الله – تعالى – يسمع أقوال عباده ، وأنه لايخفى عليه – تعالى – من ذلك شئ .

---

(١) انظر البخارى مع الفتح جـ ٦ ص ٣١٢ .

وصفة السمع والبصر من الصفات اللازمة لله – تعالى – وقد تقدم بيان ثبوت ذلك له – تعالى – عقلا ، وشرعا ، وفطرة ، وأن من أنكر ذلك عرف به وأعلم إن كان جاهلا ، وإلا حكم عليه بالكفر لإنكاره الحق الواضح ، الواجب اعتقاده والإيمان به ، لأنه أنكر ماثبت ، وتواترت عليه كتب الله ، وجاءت به جميع رسله ، فهو أمر ضرورى .

* * *

قال : « باب قول الله - تعالى - « قل هو القادر »

* * *

هذا الخطاب الكريم ، وأمثاله كثير فى كتاب الله - تعالى - عام شامل ، يجب أن يفهم على عمومه ، كما يجب أن يفهم مراد الله - تعالى - فيه ، وفى غيره من خطاباته - تعالى - .

« وقد اتفق المسلمون ، وسائر أهل الملل على أن الله - تعالى - على كل شئ قدير كما فى نصوص القرآن الكريم ، وغيره من كتب الله - تعالى - ، وما وجد من أفراد مسائل وقع الخلاف فيها ، فهو بسبب عدم فهم النصوص ، كقول من يدخل فى هذا العموم ، الممتنع لذاته ، مثل الجمع بين الضدين ، ككون الشخص ميتا ، حياً فى آن واحد ، والجمع بين الحركة ، والسكون ، والسواد والبياض وما أشبه ذلك .

وكذا من لا يدخل ذلك فى هذا العموم ، فلا يكون ذلك داخلا عندهم فى عموم القدرة .

والحق أن الممتنع لذاته ليس شيئا ، ولا وجود له فى الخارج ، بل لا يتصوره الفكر ثابتا فى خارج الذهن ، ويمتنع تحققه فى الأعيان وتصوره فى الأذهان ، إلا على وجه التمثيل ، فهو ليس بشئ ، لا فى الأعيان ، ولا فى الأذهان ، فلا يصلح أن يقال : إنه خارج من هذا العموم ، أو داخل فيه ، لأن هذا يجعل له وجودا ولو فى الفرض ، فيوقع فى الشبه والشكوك ، بل يقال : (إن الله على كل شئ قدير) وهذا ليس بشئ .

وأما المعدوم ، فليس بشئ أيضا فى الوجود الخارجى ، ولكنه شئ فى

التصور ، والذهن ، وما علم الله – تعالى – أنه سيكون ، فهو شئ فى التقدير ، والعلم والكتاب ، وإن لم يكن شيئا فى الخارج ، كما قال الله تعالى : (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون) [١] .

فلفظ الشيء فى الآية يتناول ماوجد ، وما يتصوره الذهن موجودا ولايستثنى من ذلك شيء ، لا أفعال العباد ، ولا أفعاله – تعالى – سواء المتعدية ، أو اللازمة ، كما قال تعالى : – (وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) » [٢] . فجمع فى الآية بين النوعين من الأفعال ، المتعدية واللازمة .

والقدرة تتعلق بكل ما تتعلق به المشيئة ، فإن ماشاء الله كان ، ولا يكون شئ إلا بقدرته – تعالى – : ولهذا قال – تعالى : (وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) [٣] (وهو على كل شئ قدير) [٤] .

والشئ فى الأصل ، مصدر شاء ، يشاء ، شيئا ، كنال ، ينال ، نيلا ، ثم وضعوا المصدر موضع المفعول ، فسموا « المشاء » شيئا ، كما سموا المنال نيلا ، فقالوا : نيل المعدن ، كما يسمى المقدور ، قدرة ، والمخلوق خلقا فقوله تعالى : (على كل شئ قدير) أى على كل مايشاء ، فمنه ماقد شاءه فوجد ، ومنه مالم يشأه [فلم يوجد] وهو شئ فى العلم ، بمعنى أنه قابل لأن يشاءه .

---

(١) الآية ٨٢ من سورة يس .

(٢) انتهى من مجموع الفتاوى ملخصا جـ ٨ ص ٧ – ١١ .

(٣) الآية ٢٩ من سورة الشورى .

(٤) المصدر السابق ص ٣٨٣ .

فهذا العموم يتناول ماكان شيئا فى الخارج ، والعلم ، وما كان فى العلم فقط ، بخلاف مالايجوز أن تتناوله المشيئة ، وهو الحق – تعالى – وصفاته ، أو الممتنع لنفسه ، فإنه غير داخل فى العموم ، ولهذا اتفق الناس على أن الممتنع لنفسه ليس بشىء » اهـ [١]

★ ★ ★

---

(١) المصدر السابق ص ٣٨٣ .

١٩ ــ قال – « حدثنى إبراهيم بن المنذر ، حدثنا معن بن عيسى ، حدثنى عبد الرحمن بن أبى الموالى ، قال : سمعت محمد بن المنكدر يحدث عبد الله بن الحسن ، يقول : – أخبرنى جابر بن عبد الله ، السلمى ، قال : كان رسول الله – ﷺ – يعلم أصحابه الاستخارة فى الأمور كلها ، كما يعلم السورة من القرآن ، يقول : إذا همَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم فإن كنت تعلم هذا الأمر – ثم يسميه بعينه – خيرا لى ، فى عاجل أمرى وآجله – قال : أو فى دينى ومعاشى ، وعاقَبة أمرى – فاقدره لى ويسِّره لى ، ثم بارك لى فيه ، اللهم إن كنت تعلم أنه شر لى فى دينى ومعاشى وعاقَبة أمرى – أو قال : فى عاجل أمرى وآجله – فاصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ، ثم رضنى به » .

* * *

جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرامِ الأنصارى الخزرجى ، من أكابر علماء الصحابة ، والحريصين على تحصيل العلم ، فقد ذكر له عدة رحلات فى طلب الحديث . منها أنه رحل من المدينة إلى مصر من أجل حديث واحد ، كما ذكره البخارى فى صحيحه معلقا ، وكان حافظا مكثرا عن رسول الله ﷺ . وهو مفتى المدينة فى زمانه . له مناقب كثيرة .

قال الواقدى : توفى سنة ثمان وسبعين ، وقال صاحب الحلية : سنة سبع وسبعين . قيل إنه عاش أربعا وتسعين سنة رضى الله عنه وعن سائر صحابة رسول

الله ﷺ (١)

قوله : « يعلمنا الاستخارة » أى صلاتها ودعاءها ، وهذا من تمام شفقته على أمته ، وحرصه على حصول الخير لهم ، ودفع كل شر عنهم ، وبمثل هذا يعلم أنه ﷺ . ما كان ليترك باب مايعتقدونه فى ربهم ، من الإيمان بأسماءه وصفاته ، ومايجب له ، ومايمتنع عليه ماكان ليترك ذلك بدون إيضاح وبيان لايحصل معه أى التباس أو اشتباه ، وهذا واضح جلى من دعوة الرسول ﷺ ، ومن حاله ، وهو موجب الرسالة ، ومن حالة أصحابه أيضا .

الاستخارة : طلب الخير من أحد الأمرين ، الفعل لما همَّ به ، أو الترك ، وهى مشروعة فى عامة الأمور ، كما يدل عليه هذا الحديث ، لايخرج من عموم ذلك إلا الواجب ، والمحرم ، أما المستحب والمكروه ، ففيهما تفصيل ، يذكر فى كتب الآداب الشرعية ، وكتب الفروع .

وقوله : « كما يعلمنا السورة من القرآن » بيان لشدة الاهتمام بها والاعتناء . وهذا من محاسن الإسلام الظاهرة لكل عاقل ، وقد كان العرب قبل ذلك إذا همَّ أحدهم بالأمر ذهب يستقسم بالأزلام ، أو ذهب يزجر الطير ليستدل بطيرانه أو نعابه على ماسيحصل له فى المستقبل ، أو ذهب إلى الكهنة وإخوان الشياطين ، وهذا كله رجم بالغيب ، وشرك بالله . فعوضه الإسلام عن ذلك بالفزع إلى من بيده أزمة الأمور كلها ، ومن يملك الخير ، والشر ، فيقدمون بين يدى ذلك ركعتين ، لتكونا وسيلة بين يدى الطلب ، ثم يتوجهون إلى ربهم بهذا الدعاء ، الذى فيه التوسل إليه تعالى بأسماءه وصفاته ، وتوحيد الطلب ، والنية والقصد .

وقوله : « ليركع » أمر بالركوع ، ويحمل على الندب للأدلة الدالة على عدم الوجوب .

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء جـ ٣ ص ١٨٩ ، والإصابة جـ ١ ص ٢١٣ ، وأسد الغابة جـ ١ ص ٢٥٦ ، والاستيعاب جـ ١ ص ٢١٩ .

قوله : « من غير الفريضة » يدل على عدم حصول سنة الاستخارة بالدعاء عقب صلاة الفرض ، بل لابد أن تكون بركعتين غير الفريضة ، ثم يدعو بهذا الدعاء .

قوله : « اللهم إنى أستخيرك » أى أطلب منك بيان ماهو خير لى .

قوله : « بعلمك » أى أسألك ، وأتوسل إليك بصفتك ، صفة العلم أن ترشدنى إلى الخير فيما أريد ، فإنك عالم به لا يخفى عليك شئ .

وهذا صريح فى إثبات صفة العلم لله – تعالى – ودعاءه به ، والأدلة عليه لا حصر لها كما سبقت الإشارة إليه .

وقوله : « وأستقدرك » أى أسألك أن تجعلنى قادراً على فعل ما أريد ، وتهيئ أسباب ذلك لى .

وقوله : « بقدرتك » وهذا سؤال لله تعالى بصفته التى هى القدرة – أى أنت القادر الذى لا يعجزه شئ ، فأسألك بهذه القدرة العظيمة أن تنيلنى ماأريد ، وهذا هو محل الشاهد من الحديث للباب كما هو ظاهر .

ثم عاد إلى التوسل بهاتين الصفتين ، بقوله : « فإنك تقدر ، ولا أقدر » الخ . يعنى – لك القدرة الكاملة الشاملة ، فأسألك بها ، كما أنى أسألك بفقرى إليك وعجزى ، فليس لى قدرة على شئ حتى تجعلنى قادراً عليه ، وتيسر لى أسبابه ، وأنت تعلم عواقب الأمور ، وما تؤول إليه ، بل لايخفى عليك شئ فى الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، فعلمك شامل لكل شئ ولا علم لى بشئ من ذلك إلا ماعلَّمتنى .

وقوله : « وأنت علام الغيوب » أى ذلك خاص بك لا يعلمه سواك .

قوله : « ثم يسميه بعينه » ظاهر فى أنه يتلفظ به معينا له باسمه ، ليكون بذلك أقوى على اجتماع العزم على طلبه .

« فى عاجل أمرى وآجله » أى فى دنياى ، وآخرتى .

« أو فى دينى ، ومعاشى ، وعاقبة أمرى » شك من الراوى هل قال الأول أو الثانى ، والمعنى واحد .

وقوله : « فاقدره لى ، ويسِّره لى » أى اقض به لى ، واجعلنى قادراً على الحصول عليه ، وسهل لى أسبابه بحيث أناله بلا مشقة وكلفة . وفى هذا ، أنه لايحصل شئ إلا بسبب .

« ثم بارك لى فيه » أجعل فيه بركة تنميه وتزيده ، وفيما يترتب عليه .

« اللهم إن كنت تعلم أنه شرٌّلى ، فى دينى ، ومعاشى ، وعاقبة أمرى – أو قال : عاجل أمرى ، وآجله فاصرفنى عنه » أى هيئ الأسباب التى تصرف قلبى وتثنى عزمى عن فعله .

« وقدر لى الخير حيث كان » أى قدر لى فعل ما فيه خير لدينى ودنياى فى أى مكان ، وفى أى وقت .

« ثم رضنى به » أى اجعلنى رضيا به ، قانعاً . ناعم البال ، مستغنيا عن خلقك مستعينا به على طاعتك ، وشاكرا لك منقادا لأمرك .

ومراد البخارى إثبات صفة القدرة لله تعالى ، وأن قدرته تعالى عامة لكل مقدور ، والرد على القدرية نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم الذين يقيدون قدرة الله تعالى بما اخترعوه من عند أنفسهم ، ولهذا اقتصر على هذا القدر من الآية أى القادر على كل شئ .

فالله تعالى يفعل مايشاء ، ويحكم مايريد ، لا مانع له ، ولايقدر غيره أن يمنعه مراده « فهو قادر على كل مقدور » .

وكل ممكن يكون مقدورا له ، فما من ممكن فى نفسه إلا والله قادر عليه . وأما الممتنع لنفسه ، فإنه ليس بشئ عند جميع العقلاء وإن تنازعوا فى المعدوم

الممكن مثل إيمان الكافر هل هو شئ أولا ؟

فأما الممتنع لنفسه فلم يقل أحد أنه شئ فى الخارج ، والممتنع هو ما لايمكن وجوده فى خارج الذهن ، مثل كون الشئ موجودا معدوما (١) فإنه لايعقل ثبوت ذلك ، وكذا كون الشئ أسود كله وأبيض كله وكون الجسم الواحد بعينه فى الوقت الواحد فى مكانين ، والممتنع يراد به الممتنع لنفسه مثل هذه الأمور ، ويراد به الممتنع لغيره مثل ماعلم الله أنه لا يكون ، وأخبر أنه لا يكون ، وكتب ذلك فهذا ممتنع لأنه لو كان للزم أن يكون علم الله متخلف عن معلومه ، وخبره بخلاف الواقع تعالى عن ذلك ، ولكن هو ممكن بنفسه والله قادر عليه ، كما قال تعالى : (بلى قادرين على أن نسوى بنانه) (٢) وقال تعالى : (وإنا على ذهاب به لقادرون) (٣) ، وقال تعالى : (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) (٤) (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) (٥) .

وأمثال ذلك مما يخبر تعالى أنه لو شاء لفعله ، فإن هذه الأمور التى أخبر أنه لو شاء لفعلها يلزم أنها ممكنة مقدورة له ، فإيمان من علم الله أنه لا يؤمن مقدور له ممكن ، لكنه لا يقع ، وقد علم الله أنه لا يؤمن ، مع كونه مستطيع الإيمان ، كمن علم أنه لا يحج مع استطاعته الحج .

---

(١) ومن ذلك قول بعض الملاحدة : هل يقدر الله أن يخلق مثل نفسه ، فهذا ممتنع لنفسه ، وإنما يورده جاهل لايتصور مايقول ، أو ملبس معاند يريد إفساد عقائد عوام المؤمنين أو التشكيك فى قدرة الله تعالى .

(٢) الآية ٤ من سورة القيامة .

(٣) الآية ١٨ من سورة المؤمنون .

(٤) الآية ١٣ من سورة السجدة .

(٥) الآية ١١٨ من سورة هود عليه السلام .

قال الله تعالى : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) [١] .

وحقيقة الأمر هو ما أخبر الله به فى غير موضع من كتابه أنه على كل شئ قدير ، وهذا هو ما يعتقده أهل السنة المثبتون للقدر » [٢]

★ ★ ★

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الأنعام .

(٢) منهاج السنة جـ ٢ ص ١١٨ – ١٢٢ ملخصا ببعض التصرف .

قال : « باب مقلب القلوب »

وقول الله – تعالى – : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) (١)

* * *

قال الراغب : « تقليب الشيء : تغييره من حال إلى حال ، والتقليب التصرف – وتقليب الله القلوب والبصائر : صرفها من رأى إلى رأى » (٢) .

قال ابن عباس : « لما جحد المشركون ما أنزل الله ، لم تثبت قلوبهم على شيء ، وردت عن كل أمر » (٣) .

وقال مجاهد : « وتحول بينهم وبين الإيمان ، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون ، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة » (٤) .

قال الحافظ : « المراد بتقليب القلوب : تقليب أعراضها ، وأحوالها ، لاتقليب ذات القلب » (٥) .

أخبر – تعالى – أنه يعاقب من لايقبل الحق ، أو يرده أول مايبلغه بتقليب القلب ، وتركه يعمه فى ضلاله وغيه ، كما فى هذه الآية المذكورة فى الباب وكما فى قوله تعالى – : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) (٦) وفى هذا بيان أن الله تعالى إذا منع فضله الإنسان ، بالهداية ، أنه يكون منحرفا ضالا .

---

(١) الآية ١١٠ من سورة الأنعام .

(٢) المفردات ص ٤١١ .

(٣) رواه الطبرى انظر التفسير جـ ١٢ ص ٤١ ، ٤٣ .

(٤) المصدر نفسه جـ ١٢ ص ٤٤ .

(٥) الفتح جـ ١١ ص ٥٢٧ .

ومراد البخارى – رحمه الله – وصف الله – تعالى – بأنه المنفرد بالتصرف فى خلقه حتى قلوب العباد التى تنطوى على آراءهم ، ونياتهم ، وما يخططون لمستقبلهم حيث يرى كثير منهم أو أكثرهم فى الظاهر أنهم أحرار فى أفكارهم ، وما يريدونه ، والواقع أن الله تعالى هو الذى يصرفهم فى ذلك ، فلا قدرة لهم إلا بعد مشيئتة ، وبهذا يشير البخارى رحمه الله إلى تمام قدرة الله التى سبق ذكرها فى الباب قبل هذا ، حيث بين بهذا أن الله هو المتصرف بالقلوب ، فإن شاء جعلها مريدة للخير ، وإن شاء جعلها مريدة للشر . وبذلك يعلم أنه لاقدرة لأحد على شئ إلا بعد أن يجعله الله قادرا عليه ، خلافا لما يقوله الضالون عن الحق ، من أهل البدع ، والانحراف .

٢٠ ــ قال : « حدثنا سعيد بن سليمان ، عن ابن المبارك ، عن موسى ابن عقبة ، عن سالم ، عن عبد الله ، قال : « أكثر ما كان النبى - ﷺ - يحلف : لا ، ومقلب القلوب »

* * *

ذكر البخارى رحمه الله - هذا الحديث فى كتاب القدر ، بلفظ : « كثيرا ماكان النبى ﷺ - يحلف ، لا ، ومقلب القلوب » (١) .

وذكر عن ابن عمر - أيضا - « كانت يمين النبى ﷺ : لا ومقلب القلوب » (٢)

وفى رواية ابن ماجه : « كان أكثر أيمان رسول الله - ﷺ : لا ومصرف القلوب » (٣) .

قال الحافظ : « فى هذا الحديث ، دليل على أن أعمال القلب ، من الإرادات ، والدواعى وسائر الأعراض ، بخلق الله - تعالى - وفيه جواز تسمية الله تعالى بما ثبت من صفاته على الوجه الذى يليق به » (٤) .

ففى هذا الحديث ، وماهو نحوه من الدلائل أن الله تعالى هو الذى يتولى قلوب العباد يصرفها كيف يشاء ، وهذا من تمام ملكه ، فلا ينازعه أحد فى التدبير والتصرف ، ولا يقع فى الوجود إلا ما أراده ، وبهذا يعلم مدى حاجة العبد إلى ربه ، وأنه لاغنى له عنه طرفة عين ، فلا بد له من هدايته ، وتوفيقه وإلا ضل

---

(١) انظر البخارى مع الفتح جـ ١١ ص ٥١٣ .

(٢) انظر المرجع المذكور ص ٥٢٣ .

(٣) انظر سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٦٧٧ رقم ٢٠٩٢ .

(٤) فتح البارى جـ ١١ ص ٥٢٧ .

وتاه فى مهامه نهايتها الهلاك ، والعذاب المؤبد ، وهذا لا ينافى تكليف العباد ، بالأعمال التى يترتب عليها الجزاء ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى فى موضعه .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ، أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : « إن قلوب بنى آدم كلها بين إصبعين ، من أصابع الرحمن ، كقلب واحد ، يصرفه كيف يشاء ، ثم قال رسول الله - ﷺ - : اللهم مصرف القلوب ، صرِّف قلوبنا على طاعتك » (١) .

---

(١) انظر مسلم كتاب القدر جـ ٤ ص ٢٠٤٥ رقم الحديث ٢٦٥٤ .

قال : « باب إن لله مائة اسم إلا واحدة »

* * *

مراده بهذا الباب وجوب إثبات أسماء الله – تعالى – على ماورد فى كتاب الله ، وعن رسوله ، وأن ذلك من التوحيد الذى بينه الرسول – ﷺ – ودعا أمته إلى الإيمان به ، ووجوب اعتقاده ، قال الله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ماكانوا يعملون) (١) وقال جل وعلا : (قل ادعوا الله أو ادعو الرحمن أياًّما تدعوا فله الأسماء الحسنى) (٢) . وقال تبارك وتعالى : (هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى) (٣) .

فهذه الآيات وغيرها مما فى معناها ، تدل على وجوب الإيمان بما لله تعالى من الأسماء الحسنى ، الدالة على عظيم جلاله ، وسعة أوصافه . فكل اسم من أسمائه دال على كمال عظمته ، وبذلك كانت حسنى ، أما الأسماء التى لاتدل على صفات الكمال ، فليست بحسنى ، وكذلك إذا اشتركت دلالتها بين الكمال والنقص ، أو دلت على مجرد عَلَمٍ محض ، مثل إبراهيم ، وزيد . فلا تكون حسنى حتى تدل على كمال الصفة التى اشتقت منها الاسم ، مثل « العليم » فإنه يدل على أن له علماً عاماً محيطاً بجميع الأشياء ، لايخرج عنه مثقال ذرة فى السماوات والأرض ، ومثل « القدير » الدال على قدرته التى لايعجزها شىء ، و « الرحيم » الدال على رحمته العظيمة التى وسعت كل شىء .

---

(١) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٢٤ من سورة الحشر .

وهكذا كل أسمائه جل وعلا ، وهذا تفصيل ، وبيان للباب الثانى من الكتاب ولكونها حسنى أوجب على عباده ، دعاءه بها ، كما يأتى فى الباب بعد هذا ، ونوعد الملحدين بها .

فيدعى بكل مطلوب بما يناسبه منها ، فيقال : اللهم اغفر لى وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم ، وتب عليّ إنك عفو كريم ، والطف بى يالطيف ، وارزقنى يارزاق ، وهكذا .

« قوله : « إن لله مائة اسم إلا واحدة » التأنيث فى لفظة « واحد » نظراً إلى التسمية أو الكلمة ، كما يقول النحاة : « الكلمة اسم أو فعل أو حرف » .

وقال ابن مالك : أنث باعتبار معنى التسمية ، أو الصفة ، أو الكلمة » (١)

وفى بعض رواياته « إلا واحداً » .

قال ابن عباس : « ذو الجلال ، العظمة ، البر اللطيف » .

فى رواية : « ذو الجلال ، العظيم » ، فيكون « العظيم » تفسيراً « لذو » ، وعلى الأولى تفسيراً « للجلال » .

فذو الجلال ، صاحب العظمة ، الذى لاتقاس عظمته بشئ من خلقه جل وعلا .

وأما « البر » فهو المحسن غاية الإحسان إلى خلقه ، من غير استحقاق ولا مقابل ، فهو بليغ الإحسان إلى خلقه ، وإحسانه شامل لهم .

وأما اللطيف . فهو العالم بالخفيات ، ودقائق الأمور ، وغوامضها ، والله أعلم .

---

(١) فتح البارى جـ ١١ ص ٢١٩ .

وقال الزجاج : « اللطيف » المحسن إلى عباده فى خفاء ، وستر من حيث يعلمون » [١] .

★ ★ ★

(١) تفسير الأسماء الحسنى ص ٤٤ .

٢١ ــ قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، أن رسول الله – ﷺ – قال : « إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة » .

« أحصيناه » حفظناه .

* * *

« قال جماعة من العلماء : الحكمة فى قوله : « مائة إلا واحدا » بعد قوله : « تسعة وتسعين » أن يقرر ذلك فى نفس السامع ، جمعا بين جهتى الإجمال والتفصيل ، أو دفعا للتصحيف الخطى ، أو اللفظى » (١)

قوله : « إن لله تسعة وتسعين اسما » هذا لايقصد به حصر أسماء الله تعالى فى هذا العدد المذكور ، وإنما قصد الإخبار عن ما يترتب على إحصائها وجزائه كما تقول : عندى مائة كتاب أعددتها للإعارة . فلا ينفى أن يكون عندك كتب غيرها ، فالتقييد بهذا العدد عائد إلى الأسماء الموصوفة بهذه الصفة وهى قوله : « من أحصاها دخل الجنة » فهذه الجملة محلها النصب صفة « لتسعة وتسعين » ، ويجوز أن تكون فى محل رفع على الابتداء ، والمعنى « إن لله أسماء بقدر هذا العدد ، من أحصاها دخل الجنة » .

فأسماء الله تعالى ، لاتدخل تحت حصر ، ولا تحد بعدد ، بدليل ما رواه الإمام أحمد فى المسند ، حدثنا يزيد ، أنبأنا ابن مرزوق ، حدثنا أبو سلمة الجهنى (٢) ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عبد الله ، قال : قال

---

(١) الفتح جـ ١١ ص ٢١٩ .

(٢) يزيد ، هو ابن هارون إمام حافظ مشهور ، وابن مرزوق ، هو فضيل بن مرزوق الأغر الرقاشى الكوفى من رجال مسلم ، وأبو سلمة هو موسى بن عبد الله أو ابن عبد الرحمن .

رسول الله ﷺ - : « ما أصاب أحداً قط همٌّ ، ولاحزن ، فقال : اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماضٍ في حكمك ، عدل فى قضاءك ، أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أو علَّمته أحداً من خلقك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى ، إلا أذهب الله همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرحا » (١) سنده صحيح .

قال ابن كثير : « وأخرجه الإمام أبو حاتم ابن حبان فى صحيحه بمثله » (٢)

فهذا يدل على أن لله أسماء غير التسع والتسعين .

وقوله فى هذا الحديث : « أو استأثرت به فى علم الغيب عندك » ، معناه انفردت بعلمه فلم تطلع عليه أحداً ، لا ملكا مقربا ، ولا نبياً مرسلا .

وقسم أسماء الله تعالى فى هذا الحديث ثلاثة أقسام :

أحدها : ماسمى به نفسه ، فأظهره لمن شاء ، من ملائكته أو غيرهم ولم ينزله فى كتبه .

والثانى : أنزله فى كتبه ، أو فى بعضها ، فتعرف به إلى عباده .

والثالث : استأثر به فى علم الغيب عنده ، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه ، ولهذا قال : « أو استأثرت به فى علم الغيب عندك » أى جعلته من الغيب الذى لا يعلمه غيرك ، وليس المراد أنه - تعالى - انفرد بالتسمى به لأن هذا الانفراد ثابت فى الأسماء التى أنزلها فى كتبه .

---

(١) المسند جـ ١ ص ٣٩١ ، ٤٥٢ ، وانظر الفتح الربانى جـ ١٤ ص ٢٦٢ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥١٧ ط الشعب .

ومن الأدلة على عدم حصرها فيما ذكر ، قوله : – ﷺ – فى حديث الشفاعة « فيفتح عليَّ من محامده مالا أحسنه الآن » وتلك المحامد ، هى الثناء عليه – تعالى – بماله من أسماء حسنى وصفات عليا .

ومن الأدلة أيضا قوله – ﷺ – : « لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » (١) وأحسن الثناء ما كان بأسماءه الحسنى وصفاته العلية .

وبهذا يتبين أن الأسماء الحسنى غير محصورة فى العدد المذكور ، وإنما خص ذكر هذا العدد لما رتب عليه من الحكم ، وهو من أحصاها دخل الجنة ، فليس فى الحديث حصر أسماء الله تعالى ، ولا يدل على أنه ليس لله اسم غير هذه التسع والتسعين ، وإنما أريد به الإخبار بدخول الجنة لمن أحصاها ، لا الإخبار بحصرها ، وإلى هذا ذهب جمهور العلماء ، كما ذكره الحافظ ، ونقل النووى الاتفاق على ذلك . (٢)

قال شيخ الإسلام : « والصواب الذى عليه جمهور العلماء ، أن قول النبى – ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسما ، من أحصاها دخل الجنة » معناه أن من أحصى التسعة والتسعين ، من أسمائه دخل الجنة ، ليس مراده أنه ليس له إلا تسعة وتسعون اسما ، فإن فى الحديث الآخر الذى رواه أحمد وأبو حاتم فى صحيحه « أسألك بكل اسم هو لك » الحديث . وفى الصحيحين : « لا أحصى ثناء عليك » ولو أحصى جميع أسمائه ، لأحصى صفاته فكان يحصى الثناء عليه ، لأن صفاته يعبر عنها بأسمائه » (٣)

قوله : « من أحصاها دخل الجنة » اختلف فى المقصود من الإحصاء ، وربما فهم من صنيع البخارى أنه يرى أن إحصاءها هو حفظ ألفاظها ، كما فهم

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الصلاة جـ ١ ص ٣٥٢ ، وأبو داود فى الوتر جـ ٢ ص ١٣٤ وغيرهما .

(٢) انظر فتح البارى جـ ١١ ص ٢٢٠ .

(٣) درء تعارض العقل والنقل جـ ٣ ص ٣٣٢ .

ذلك الحافظ ابن حجر ، وعندى فيه نظر ، وذلك أن عادة البخارى التى سار عليها فى كتابه هذا ، أنه إذا جاء لفظ فى الحديث ، وفى القرآن لفظ يوافقه فى اللفظ والاشتقاق ، أنه يذكره وإن كان لايوافقه فى المعنى ، وأمثلة ذلك كثيرة . فهو فى قوله : « أحصيناه حفظناه » يشير إلى قوله تعالى : (وكل شئ أحصيناه فى إمام مبين) قال الأصيلي : « إحصاءها العمل بها ، لاعدّها وحفظها ، لأن ذلك قد يقع للكافر والمنافق ، كما فى حديث الخوارج : « يقرؤن القرآن لايجاوز حناجرهم » (١)

وذكر العلامة ابن القيم – رحمه الله تعالى – لإحصاءها ثلاث مراتب :

الأولى : إحصاء ألفاظها ، وعددها .

الثانية : فهم معانيها ومدلولها .

الثالثة : دعاؤه – تعالى – بها كما قال : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها)

والدعاء نوعان : دعاء ثناء وعبادة .

ودعاء مسألة وطلب ، وكلا النوعين ورد بهما القرآن بكثرة .

فلا يثنى عليه تعالى إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، كما لا يسأل إلا بها ، ويسأل بها فى كل مطلوب بما يناسبه ، ويقتضيه من الأسماء الحسنى ، والصفات العلية الكريمة ، كما تقدمت الإشارة إليه .

وهذا من أعظم الوسائل إلى الله تعالى ، وأنفعها ، ولهذا جاءت أدعية الرسل مطابقة لذلك » (٢)

---

(١) فتح البارى جـ ١١ ص ٢٢٦ .

(٢) انظر بدائع الفوائد جـ ١ ص ١٦٤ .

وبهذا يتبين أن إحصاءها الموعود عليه دخول الجنة ، يتضمن حفظها وفهمها ، ودعاء الله بها ، والله أعلم .

قال أبو عمر الطلمنكى : « من تمام المعرفة بأسماء الله – تعالى – وصفاته التى يستحق بها الداعى والحافظ ما قال رسول الله – ﷺ – المعرفة بالأسماء والصفات ، وما تتضمنه من الفوائد ، وتدل عليه من الحقائق ، ومن لم يعلم ذلك لم يكن عالما لمعانى الأسماء ولا مستفيداً بذكرها ماتدل عليه من المعانى »[(١)]

★ ★ ★

(١) فتح البارى جـ ١١ ص ٢٢٦ .

قال : « باب السؤال بأسماء الله تعالى ، والاستعاذة بها »

* * *

السؤال : هو الطلب بذل وخضوع وافتقار ، والاستعاذه هي : العوذ والاحتماء بمن يدفع المكروه ، ويرفع البلاء بعد نزوله . وهما من أفضل أنواع العبادة ، فالبخارى رحمه الله – أراد بهذا الباب أن يبين معنى دعاء الله تعالى بأسماءه الذى أمر الله به ، وأن الرسول – ﷺ – قد بينه .

قال ابن بطال : « مقصوده بهذه الترجمة ، تصحيح القول بأن الاسم هو المسمى ، فلذلك صحت الاستعاذة بالاسم ، كما تصح بالذات » (١)

قلت : هذا بعيد عن مقصود البخارى ، وإنما مقصوده بيان كيفية دعاء الله وعبادته بأسماءه التى أمر أن يدعى بها ، ويعبد بقوله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) ، وبين ذلك الرسول ﷺ بفعله ، وأمره ، كما فى الأحاديث التى ذكرت فى هذا الباب وغيرها .

وأما مسألة : هل الاسم هو المسمى ، أو غيره ؟ فهى من بدع الكلام ، التى حدثت بعد القرون المفضلة ، والتى اختلط فيها الحق بالباطل .

والبخارى – رحمه الله – من أبعد الناس عن مثل ذلك .

قال ابن جرير الطبرى – رحمه الله : « وأما القول . فى الاسم أهو المسمى أم هو غيره ؟ فإنه من الحماقات الحادثة ، التى لا أثر فيها فيتبع ، ولا قول من إمام فيستمع ، فالخوض فيه شين ، والصمت عنه زين . وحسب امرىء من العلم به والقول أن ينتهى إلى قوله جل ثناؤه الصادق وهو قوله : – تعالى – (قل ادعوا

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٧٩ .

الله ، أو ادعوا الرحمن ، أيًّا مًّا تدعوا فله الأسماء الحسنى) (١) وقوله : « ولله الأسماء الحسنى » (٢) .

« وكان سبب حدوث هذه المسألة ، أن الجهمية قالوا : إن الاسم غير المسمى وأسماء الله غيره ، وما كان غيره فهو مخلوق ، لأن الله - تعالى - وحده هو الخالق ، وماسواه مخلوق ، فإذا كانت أسماءه غيره ، فهى مخلوقة . فرد عليهم السلف ، واشتد نكيرهم عليهم ، لأن أسماء الله من كلامه ، وكلام الله غير مخلوق ، فهو الذى سمى نفسه بهذه الأسماء .

فكان مراد الذين يقولون الاسم غير المسمى [من أهل السنة] هو هذا .

ولهذا روى عن الشافعى ، والأصمعى ، وغيرهما أنهم قالوا : إذا سمعت الرجل يقول : الاسم غير المسمى ، فاشهد عليه بالزندقة » (٣)

وللناس فى هذه المسألة ثلاثة أقوال :

أحدها : ماذكره ابن بطال ، وإليه ذهب كثير من المنتسبين إلى السنة كأبى القاسم الطبرى اللالكائى ، والبغوى ، وغيرهما .

قال البغوى : « والاسم هو المسمى ، وعينه ، وذاته ، قال الله تعالى : (إنا نبشرك بغلام اسمه يحي) (٤)

فأخبر أن اسمه يحيى ، ثم نادى الاسم ، فقال : (يايحيى خذ الكتاب بقوة) (٥) .

---

(١) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

(٢) عقيدة الطبرى ص ١٢ .

(٣) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ١٨٧ .

(٤) الآية ٧ من سورة مريم .

(٥) الآية ١٢ من سورة مريم .

وقال تعالى : (ماتعبدون من دونه ، إلا أسماء سميتموها) [١] وأراد الأشخاص المعبودة ، لأنهم كانوا يعبدون المسميات .

وقال تعالى : (سبح اسم ربك الأعلى) ، وقال : (تبارك اسم ربك) .

والقول الثانى : أن الاسم غير المسمى .

والثالث : أن الاسم للمسمى ، وهذا القول دل عليه الكتاب ، والسنة قال تعالى - (ولله الأسماء الحسنى) [٢] وقال : (أيًّا مَّا تدعوا فله الأسماء الحسنى) [٣] وقال تعالى : (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى) [٤] وقال تعالى : (هو الله الخالق البارئ المصور ، له الأسماء الحسنى) [٥] .

ومن السنة هذا الحديث : « إن لله تسعة وتسعين اسماً » .

وقوله - ﷺ - : « إن لى خمسة أسماء ، أنا محمد ، وأحمد ، والماحى ، والحاشر ، والعاقب » [٦] .

هذا مذهب أكثر أهل السنة .

فلا يطلقون بأنه المسمى ، ولاغيره ، بل يفصلون ، حتى يزول اللبس . فإذا قيل لهم : أهو المسمى أم غيره ؟ قالوا : ليس هو نفس المسمى ، ولكن يراد به المسمى .

---

(١) الآية ٤٠ من سورة يوسف .

(٢) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ١١٠ من سورة الإسراء ،

(٤) الآية ٨ من سورة طه .

(٥) الآية ٢٤ من سورة الحشر .

(٦) رواه البخارى ، انظره مع الفتح فى التفسير جـ ٨ ص ٦٤٠ ، وفى المناقب جـ ٦ ص ٥٥٤ ، ومسلم فى الفضائل جـ ٤ ص ١٨٢٨ رقم ٢٣٥٤ ورقم ٢٣٥٥ .

وإن أريد بأنه غيره ، كونه بائناً عنه ، فهو باطل ، لأن أسماء الله من كلامه وكلامه صفة له ، قائمة به ، لاتكون غيره .

واسم الله – تعالى – فى مثل إذا قيل : « الحمد لله » أو « بسم الله » يتناول ذاته وصفاته ، لا ذاتاً مجردة عن الصفات ، ولا صفات مجردة عن الذات . وقد نص الأئمة على أن صفاته ، داخلة فى مسمى أسمائه ، فلا يقال : إن علمه وقدرته ، زائدة عليه .

ومن قال من أهل السنة : إن الصفات ، زائدة على الذات .

فمراده : أنها زائدة على ما أثبته أهل التعطيل ، الذين أثبتوا ذاتاً مجردة عن الصفات ، لأنه ليس فى الوجود ، ذات مجردة عن الصفات ، كما لايمكن وجود صفات بلا ذات ، تقوم بها ، فتخيل وجود أحدهما دون الآخر من الهوس .

ثم إن الذين قالوا : إن الاسم هو المسمى ، ليس مرادهم ، أن مجرد اللفظ هو الذات ، التى وضع لها هذا الاسم ، فإن هذا لايقوله عاقل .

كما أن الذين قالوا : إن الاسم غير المسمى ، لم يريدوا أن مجرد اللفظ غير الذات ، فإن هذا لاجدال فيه .

وما ذكره البغوى – رحمه الله – محتجاً به على أن الاسم هو المسمى ، فهو لايدل على ما قاله .

فقوله – تعالى – : (وإنا نبشرك بغلام اسمه يحي) ثم قال : (يايحي خذ الكتاب) فاللفظ الذى هو « الياء والحاء والياء » ليس هو ذات المسمى به ، فمن زعم ذلك فقد كابر .

فالمقصود نداء المسمى لانداء اللفظ ، والمتكلم لايمكنه نداء من يريد مناداته إلا ذكر اسمه ، إلا أن يكون ذلك بالإشارة .

وأما قوله – تعالى : (ماتعبدون من دونه ، إلا أسماء سميتموها ، أنتم وآباؤكم (١)

فليس المراد : أنكم تعبدون الأوثان المسماة ، فهم معترفون بذلك .

بل المراد : نفى ماكانوا يعتقدونه فيها من الإلهية ، والواقع أنه ليس فيها شئ من ذلك .

فإذا عبدوها ، معتقدين ثبوت إلاهيتها ، مسمينها آلهة ، لم يكونوا فى حقيقة الأمر عبدوا إلا أسماء ابتدعوها ، ما أنزل الله بها من سلطان ، وليس فيها من معنى الإلهية شيء ، فعبادتهم لما تصوروه فى أنفسهم من معنى الإلهية وعبروا عنه بألسنتهم .

وهذا التصور خيالى ، لاحقيقة له ، فهم لم يعبدوا فى الحقيقة إلا ذلك الخيال الفاسد ، الذى تصوروه ، وسموه إلهاً ، فكان مجرد تسمية فقط ، ليس له من معنى الإلهية شيء .

وأما قوله تعالى : (سبح اسم ربك الأعلى) . فالمراد به ، تسبيحه تعالى وتنزيهه عما لا يليق به ، معتقداً ذلك بقلبه ، متلفظاً باسمه بلسانه ، قائلا : « سبحان ربى الأعلى » ، والمراد المسمى بهذا الاسم ، فتسبيح الاسم هو تسبيح المسمى .

ومن قال : المراد بتسبيح الاسم ، أنك لاتسمى به غير الله ، ولا تلحد فى أسمائه . فهذا المعنى مما يستحقه اسم الله تعالى ، وهو داخل فى المراد بالآية ، ولكن المقصود المعنى الأول . والله أعلم .

وأما قوله – تعالى : (تبارك اسم ربك) فالمعنى : أن البركة تكتسب ، وتنال بذكر اسمه .

---

(١) الآية ٤٠ من سورة يوسف .

ولو كان لفظ الاسم يراد به المسمى ، لكفى قوله : تبارك ربك ، لأن نفس الاسم عندهم هو الرب ، فيكون بذكر الاسم تكرار .

وبهذا يتبين أن الشبهة التى دعت كثيراً من العلماء إلى القول بأن الاسم هو المسمى أنها باطلة ، وهى : أن الله – تعالى – وحده هو الخالق ، وما سواه مخلوق ، فإذا قيل : إن أسماء الله غيره ، لزم أن تكون مخلوقة (١) .

★ ★ ★

---

(١) هذا البحث من أول صفحة ١٦١ كله مقتبس من رسالة شيخ الإسلام فى الموضوع المثبتة فى المجلد السادس من الفتاوى ، انظر ص ١٨٥ .

٢٢ ـــ قال : « حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنى مالك ، عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ - قال : « إذا جاء أحدكم فراشه ، فلينفضه بصنفة ثوبه ثلاث مرات ، وليقل : باسمك ربى وضعت جنبى ، وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فاغفر لها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » .

* * *

العبد الصادق العبودية ، لاينفك عن عبادة ربه ، فى أمور حياته كلها ، فى خروجه من بيته ، وفى دخوله ، وفى أكله وشربه ، وفى نومه ويقظته ، وفى مقارنته لأهله ، ومعاملته للناس ، ولذلك أرشد الرسول ﷺ إلى هذا النوع من العبادة ، فى هذا الحديث وغيره عند النوم ، والاستيقاظ منه ، وهو من عبادة الله ودعاءه بأسماءه .

قوله : « فلينفضه بصنفة ثوبه ثلاث مرات » صنفة الثوب طرفه من الداخل ، لما فى الرواية الأخرى : « داخلة إزاره » . ولو فعل ذلك بغير طرف ثوبه حصل المقصود ، والحكمة فى ذلك إزالة مالعله يكون فيه مما يؤذيه ، وأمر بأن يكون ذلك ثلاث مرات ، للمبالغة ، وليكون ذلك وترا إذ الوتر معتبر فى الشرع .

« وليقل : باسمك ربى وضعت جنبى ، وبك أرفعه » لما كان النوم نوعاً من الموت ، وقد يموت فيه حقيقة ، لجأ إلى ربه ، بذكر اسمه داعيا ، ومتبركا به ، وسائلا به المغفرة ، وهى ستر الذنوب ، والعفو عنها إن أمسك نفسه - أى قبضها فى النوم - فلم يردها إلى بدنها .

قال تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى ، إلى أجل مسمى ، إن فى ذلك

لآيات لقوم يتفكرون » [١] .

« وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » أى إن رددتها إلى بدنها ، فاحفظها من الشياطين ، والضلال ، والمؤذيات ، بحفظك وحمايتك ، التى تحمى بها أولياءك الذين تتولى حفظهم من كل مضر ومؤذى .

ففى هذا الحديث مشروعية ذكر الله تعالى عند النوم ، ليكون موته الأصغر على اسمه ، فيدخل بذلك فى العمل بقوله تعالى : (قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) [٢] .

وفيه الاستسلام لله ، والافتقار إليه ، وسؤاله ما لا غنى له عنه ، وهذا كله من عبادة الله تعالى ودعاءه بأسمائه ، فهو تفسير لقوله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) [٣] . وهذا هو وجه ذكر البخارى له ولما يأتى من الأحاديث .

* * *

---

(١) الآية ٤٢ من سورة الزمر .

(٢) الآية ١٦٢ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

٢٣ ــ قال : « حدثنا مسلم ، حدثنا شعبة ، عن عبد الملك ، عن ربعى ، عن حذيفة رضى الله عنه : « كان النبى ﷺ – إذا آوى إلى فراشه ، قال : « اللهم باسمك أحيا وأموت ، وإذا أصبح قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا ، وإليه النشور »

* * *

حذيفة هو ابن اليمان ، واسم اليمان حسل أو حسيل ، وهو عبسى .

كان من كبار أصحاب رسول الله ﷺ ، ومن الفقهاء النجباء أهل الفتوى ، وصح عنه أنه قال : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر – مخافة أن أقع فيه – ولهذا اختص بمعرفة الفتن ، كما أنه عرف بصاحب السر ، حيث أسرَّ إليه رسول الله ﷺ أسماء المنافقين ، وأمره أن يكتم ذلك وسأله رجل عن أشد الفتن فقال : أن يعرض عليك الخير والشر فلا تدرى أيهما تختار ، توفى رضى الله عنه سنة ست وثلاثين (١)

« إذا آوى إلى فراشه » أى رجع إليه بعد عمل النهار .

« اللهم باسمك أحيا ، وأموت » أى ذاكرا اسمك فى حياتى ، مطمئنا به قلبى إذ لا راحة لى ، ولا اطمئنان إلا بذكر اسمك ، ولاحياة نافعة إلا بذلك . وعلى ذكر اسمك يارب أموت ، متوسلا به إليك أن تتولانى ، وتحفظنى فى جميع أحوالى .

« وإذا أصبح قال : « الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا ، وإليه النشور »

النوم نوع من الموت ، واليقظة حياة ، وهو نعمة من الله على عباده حتى

---

(١) انظر الاستيعاب جـ ١ ص ٣٣٤ ، الرياض المستطابة ص ٤٩ .

ترتاح أبدانهم ، وأفكارهم ، وقد ينام الإنسان فلا ترجع إليه روحه ، فإذا استيقظ سالماً ، قد رجع إليه نشاطه وقوته ، استوجب ذلك شكر الله – تعالى – والثناء عليه ، فناسب قوله بعد يقظته « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا » أى أرجع إلينا أرواحنا بفضله ومنته .

والنشور : هو البعث بعد الموتة الكبرى ، فمصيرنا إلى ربنا ، حتى يجازينا على أعمالنا كما وعدنا .

ففى هذا الحديث كالذى قبله ، ذكر اسم الله – تعالى – عند النوم ، والتوسل به ، والثناء عليه بأن له الحمد ، وهذا من الدعاء بأسماء الله الحسنى .

* * *

٢٤ ــ قال : « حدثنا سعد بن حفص ، حدثنا شيبان ، عن منصور ، عن ربعى بن خراش ، عن خرشة بن الحر ، عن أبى ذر – رضى الله عنه – قال : كان النبى – ﷺ – إذا أخذ مضجعه من الليل قال : باسمك نموت ونحيا ، فإذا استيقظ قال : الحمد لله ، الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور »

* * *

أبو ذر الغفارى اختلف فى اسمه ، واسم أبيه ، وصحح الحفاظ أنه جندب ابن جنادة ، كان من السابقين الأولين إلى الإسلام ، غير أنه ذهب إلى قومه فتأخرت هجرته ، ففاتته غزوات الرسول – ﷺ – الأولى ، وكان عازفاً عن الدنيا ، راغباً بما عند الله ، وقصة إسلامه فى الصحيحين وكان من الحنفاء قبل أن يسلم ، له أخبار كثيرة ، ومناقب شهيرة . توفى فى الربذة سنة اثنتين وثلاثين رضى الله عنه (١)

هذا الحديث ليس فيه زيادة على الذى قبله ، إلا قوله : « من الليل » والأول يدخل فيه نوم الليل ، والنهار .

★ ★ ★

---

(١) انظر الاستيعاب جـ ١ ص ٢٥٢ ، والرياض المستطابة ص ٢٧٢ .

٢٥ ــ قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا جرير ، عن منصور ، عن سالم ، عن كريب ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله – ﷺ – : « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله . فقال : بسم الله ، واللهم جنِّبنا الشيطان ، وجنِّب الشيطان مارزقتنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره شيطان أبداً »

* * *

هذا نوع آخر من الدعاء بأسماء الله – تعالى – .

« بسم الله » أى أفعل ذلك ، ذاكراً اسم الله ، عابداً ربى بهذا الذكر ، ومتبركا به .

« اللهم جنِّبنا الشيطان » أى أبعدنا عنه ، فلا يشاركنا ، ولايحضرنا .

« وجنب الشيطان مارزقتنا » أى أبعد الشيطان عن الرزق الذى تقدره لنا من الولد ، فى هذا الاتصال .

ولابد من الصدق فى ذلك من القلب ، والرغبة ، والإيمان ، والثقة بما قاله الرسول – ﷺ – حتى يحصل الموعود ، وهو عدم مضرة الشيطان للمولود .

والمقصود ، ذكر الله – تعالى – عند مقاربة الزوجة ، والاستعاذة به من الشيطان ، أن يشاركه ، أو يحضره ، أو يضر المولود بحال من الأحوال.

وهذا كما تقدم من بيان معنى قوله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) .

* * *

٢٦ ــ قال : « حدثنا عبد الله بن مسلمة ، حدثنا فضيل ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن همام ، عن عدى بن حاتم – رضى الله عنه – سألت النبى ﷺ – قلت : أرسل كلابى المعلمة ؟ قال : « إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله ، فأمسكن فكل ، وإذا رميت بالمعراضْ فخزق فكل »

* * *

عدى بن حاتم : هو أبو طريف ، الجواد بن الجواد ، قدم على رسول الله ﷺ فى شعبان سنة تسع ، بسبب كتابة أخته ، فأسلم ، وقد فرح رسول الله ﷺ بإسلامه ، وهو ممن ثبت الله قومه على الإسلام ، حين ارتد الناس بسببه ، شهد فتوح العراق ، وساهم فيها .

وكان شريفا فاضلا ، جواداً عابدا ، روى عنه أنه يقول : مادخل علىَّ وقت صلاة إلا وأنا مشتاق إليها ، ومن أقواله : « كثرة الكلام أوضع شيء لمقادير الرجال ، وأمضى الأشياء عندى رد السؤال بغير نوال » له أخبار كثيرة وفضائل ، توفى فى الكوفة سنة ثمان وستين ، وقيل غير ذلك ، وكان عمَّر طويلا ، قيل : كان عمره لما مات مائة وعشرون سنة رضى الله عنه (١)

وأما الحديث . فيدل على نوع آخر من أنواع عبادة الله تعالى بذكر اسمه على الصيد . والكلاب المعلمة . هى التى تقبل التعليم ، فإذا أمرت فعلت ، وإذا نهيت انتهت ، فإذا أرسلها صاحبها أمسكت الصيد له ، وليس لنفسها فلا تأكل منه .

ومفهوم الحديث أنه إذا لم يذكر اسم الله – تعالى – عند الإرسال أنه

---

(١) الاستيعاب جـ ٣ ص ١٠٥٧ ، وأسد الغابة جـ ٣ ص ٣٩٢ ، الإصابة جـ ٢ ص ٤٦٨ .

لايأكل مما أمسكت الكلاب المعلمة ، وكذا إذا لم يخزق المعراض – وهو السهم – أى لم يجرح ، ولم يصب الصيد بحده ، بأن أصابه بعرضه فإنه لايأكل . لأن الصيد حينئذ يكون وقيذة .

* * *

٢٧ ــ قال : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، قال : سمعت هشام بن عروة يحدث ، عن أبيه ، عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : قالوا : يارسول الله إن هنا أقواما حديثا عهدهم بشرك ، يأتونا بلحمان ، لاندرى يذكرون اسم الله عليها أم لا ؟ قال : « اذكروا أنتم اسم الله وكلوا » .

* * *

فى هذا الحديث أن ذكر اسم الله على الذبيحة شرط فى حل الأكل منها . وأنه إذا كان ظاهر الذابح الإسلام ، لايلتفت إلى الاحتمال بأنه ذبحها على غير اسم الله ، أو أنه لايعرف الحكم ، وما أشبه ذلك .

وقوله ﷺ : « اذكروا أنتم اسم الله وكلوا » ليس معناه أن ذكر اسم الله – تعالى – عند الأكل يجعلها حلالا إذا كانت قد ذبحت على غير اسم الله تعالى ، ولكن أمرهم بذكر اسم الله عند الأكل لأنه الذى يلزمهم ، ومطيبا بذلك قلوبهم ، ومشيراً بذلك إلى اطراح الشك ، إذ الأصل خلافه ، وهو أن ظاهر الذابح الإسلام .

وهذا الحديث يدل على نوع آخر من عبادة الله – تعالى – بذكر اسمه على الذبيحة ، وعلى الأكل فهو من جنس ما تقدم .

★ ★ ★

٢٨ ــ قال : « حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن أنس رضى الله عنه قال : « ضحى النبى ﷺ بكبشين ، يسمّى ويكبّر »

* * *

الأضحية هى : النسك الذى يذبح تقرباً إلى الله تعالى ، فى الوقت المحدد له .

والكبش : هو الذكر من الضأن .

و « قوله : « يسمى ويكبر » يعنى عند الذبح ، يقول : بسم الله ، والله أكبر أى أذبح بسم الله متقرباً إليه عبادة له .

فهذا أيضا من عبادة الله تعالى ودعاءه بذكر اسمه تعالى . فى النسك الذى هو من أفضل القرب إلى الله تعالى .

★ ★ ★

٢٩ ــ قال : « حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا شعبة ، عن الأسود بن قيس ، عن جندب ، أنه شهد النبى – ﷺ – يوم النحر ، صلى ثم خطب ، فقال : « من ذبح قبل أن يصلى ، فليذبح مكانها أخرى ، ومن لم يذبح فليذبح باسم الله »

* * *

جندب ، هو : جندب بن عبد الله بن سفيان البجلى العلقى ، نسبة إلى علقة بن عبقر بن أنمار ، سكن الكوفة ، ثم البصرة ، وتوفى بعد الستين رضى الله عنه [١]

المراد من الحديث قوله : « فليذبح باسم الله » أى ذاكراً اسم الله على الذبيحة ، عبادة له بذكر اسمه وبالذبح له ، متقربا إليه بذلك ، كما أمر الله تعالى عباده ، بأن يخلصوا ذلك له وحده (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له ، وبذلك أمرت) [٢]

وقال تعالى (فصل لربك وانحر) [٣] .

★ ★ ★

---

(١) انظر الاستيعاب جـ ١ ص ٢٥٦ ، والرياض المستطابة ص ٤٦ .

(٢) الآيتان ١٦٢ و ١٦٣ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٢ من سورة الكوثر .

٣٠ ـــ قال : « حدثنا أبو نعيم ، حدثنا ورقاء ، عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : قال النبى – ﷺ – : « لاتحلفوا بآبائكم ، ومن كان حالفاً فليحلف بالله »

* * *

المقصود بالحلف ، تأكيد الخبر بذكر اسم العظيم ، الذى يوقع بالكاذب العقوبة ، ففى ضمن ذلك ، أن المحلوف به مطلع على حقيقة الأمر ، ولذلك صار الحلف بغير الله شركا ، لما فى الحديث الذى رواه الترمذى ، « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » (١)

ومراد البخارى من هذا الحديث أن ذكر اسم الله – تعالى – أو صفته لتأكيد الخبر مشروع فى الجملة ، وأنه لا يجوز ذلك لغير الله ، فيكون ذلك من العبادة بأسماء الله تعالى .

★ ★ ★

---

(١) انظر سنن الترمذى جـ ٣ ص ٤٥ ، وقال بعد ذكره : هذا حديث حسن ، وفيه أن ابن عمر سمع رجلا يحلف بالكعبة ، فقال : لايحلف بغير الله . ثم ذكره .

ورواه أحمد فى المسند جـ ٢ ص ١٢٥ وهو صحيح .

ورواه الحاكم فى المستدرك جـ ٤ ص ٢٩٧ . وقال : حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

ورمز له فى حاشية الذهبى خ م يعنى عند البخارى ومسلم ، وليس كذلك .

ورواه البيهقى فى السنن الكبرى جـ ١٠ ص ٢٩ .

قال : « باب مايذكر فى الذات ، والنعوت ، وأسامى الله عز وجل »

* * *

قال الحافظ : « أى مايذكر فى ذات الله ونعوته ، من تجويز إطلاق ذلك عليه ، كإطلاق أسمائه عليه ، أو منعه ، لعدم ورود النص » (١)

وقال عياض : « ذات الشيء وحقيقته ، وقد استعمل أهل الكلام الذات ، بالألف واللام ، وغلطهم أكثر النحاة ، وجوزه بعضهم ، لأنها ترد بمعنى النفس وحقيقة الشيء ، واستعمال البخارى لها على أنها حقيقة الشيء على ما استعملها المتكلمون فى حق الله – تعالى – ولهذا قال : ماجاء فى الذات والنعوت ، ففرق بينهما على طريقة المتكلمين » (٢)

وقال الراغب : « ذات تأنيث « ذو » ، وهى كلمة يتوصل بها إلى الوصف بأسماء الأجناس ، والأنواع ، ولا يستعمل شيء منها إلا مضافا ، وقد استعاروا الذات ، فجعلوها عبارة عن عين الشيء ، جوهراً كان أو عرضاً واستعملوها مفردة ، ومضافة ، [وأدخلوا عليها] الألف واللام . وأجروها مجرى النفس ، والخاصة ، وليس ذلك من كلام العرب » (٣)

وقال ابن برهان : « إطلاق المتكلمين الذات فى حق الله تعالى من جهلهم ، لأن ذات تأنيث ذو ، وهو جلت عظمته لايصح له إلحاق تاء

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٨١ .

(٢) مشارق الأنوار جـ ١ ص ٢٧٣ ملخصا .

(٣) المفردات ص ١٨٢ بتصرف .

التأنيث . وقولهم : الصفات الذاتية ، جهل منهم أيضا لأن النسب إلى ذات ، ذوى » [١]

وقال الكندى : « ذات بمعنى صاحبة ، تأنيث ذو ، وليس لها فى اللغة مدلول غير ذلك ، وإطلاق المتكلمين وغيرهم الذات بمعنى النفس خطأ عند المحققين » [٢] .

قال الحافظ : « وتعقب بأن الممتنع استعمالها بمعنى صاحبة ، أما إذا قطعت عن هذا المعنى ، واستعملت بمعنى الاسمية ، فلا محذور ، لقوله تعالى : (إنه عليم بذات الصدور) [٣] أى بنفس الصدور .

وقد حكى المطريزى كل ذات ، شىء ، وليس كل شىء ، ذات ، وأنشد ابن فارس :

فنعم ابن عم القوم فى ذات ماله إذا كان بعض القوم فى ماله وفر [٤]

وقال النووى : « مرادهم بالذات الحقيقة ، وهذا اصطلاح للمتكلمين ، وقد أنكره بعض الأدباء عليهم ، وقال : لا يعرف ذات ، فى لغة العرب بمعنى حقيقة ، وإنما ذات ، بمعنى صاحبة ، وهذا الإنكار ، منكر ، بل الذى قاله الفقهاء ، والمتكلمون صحيح ، وقد قال الإمام أبو الحسن الواحدى ، فى أول سورة الأنفال فى قوله تعالى : (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) : [٥]

قال أبو العباس أحمد بن يحي ، ثعلب : معنى ذات بينكم – أى الحالة التى بينكم ، فالتأنيث عنده للحالة ، وهو قول الكوفيين .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٨٢ .
(٢) نفس المرجع .
(٣) المرجع المذكور .
(٤) الفتح جـ ١٣ ص ٣٨٢ .
(٥) الآية الأولى من سورة الأنفال .

قال : وقال الزجاج : معنى ذات بينكم ، حقيقة وصلكم ، والبين الوصل .

قال الواحدى : فذات عنده بمعنى النفس ، كما يقال : ذات الشيء ونفسه » (١)

قلت : وهذا الذى ذكره النووى هو مايقصده البخارى رحمه الله — ولهذا قال : « فذكر الذات باسمه تعالى » أى أقام الذات ، مقام اسمه تعالى .

قال الحافظ : « واستعمال — البخارى — لها ، دال على أن المراد بها نفس الشيء على طريقة المتكلمين — فى حق الله تعالى — ، ففرق بين النعوت ، والذات » (٢)

وقال شيخ الإسلام : « لفظ ذات تأنيث ذو ، وذلك لايستعمل إلا فيما كان مضافا إلى غيره ، فهم يقولون : فلان ذو علم ، وذو قدرة ، ونفسٌ ذات علم وقدرة ، وحيث جاء فى القرآن أو لغة العرب ، لفظ « ذو » ولفظ « ذات » لم يجىء إلا مقرونا بالإضافة ، كقوله تعالى : (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم »

وقوله : (عليم بذات الصدور) ، وقول خبيب : وذلك فى ذات الإله » ونحو ذلك .

لكن لما صار النظار ، يتكلمون فى هذا الباب ، قالوا : إنه يقال : إنها ذات علم وقدرة ، ثم إنهم قطعوا هذا اللفظ عن الإضافة ، وعرفوه ، فقالوا : « الذات » وهو لفظ مولد ، ليس من لفظ العرب العرباء ، ولهذا أنكره طائفة من أهل العلم ، كأبى الفتح ابن برهان ، وابن الدهان ، وغيرهما ، وقالوا : ليست هذه اللفظة عربية .

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات جـ ٢ ص ١١٣ القسم الثانى .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٣٨٢ .

ورد عليهم آخرون ، كالقاضى ، وابن عقيل ، وغيرهما .

وفصل الخطاب : أنها ليست من العربية العرباء ، بل من المولد ، كلفظ الموجود ، والماهية ، والكيفية ونحو ذلك .

فهذا اللفظ ، يقتضى وجود صفات ، تضاف الذات إليها ، فيقال : ذات علم ، وذات قدرة ، وذات كلام ، فإنه لايمكن وجود شىء قائم بنفسه فى الخارج ، لايتصف بصفة ثبوتية أصلا » (١) .

وقال ابن القيم : « وأصل هذه اللفظة ، هو تأنيث « ذو » ، بمعنى صاحب فذات كذا ، صاحبة كذا ، فى الأصل .

ولهذا لا يقال : ذات الشىء ، إلا لماله صفات ، ونعوت تضاف إليه ، فكأنه يقول : صاحبة هذه الصفات ، والنعوت .

ولهذا أنكر جماعة من النحاة ، على الأصوليين قولهم : « الذات » ، وقالوا : لامدخل للألف واللام هنا ، كما لايقال : « الذو » فى ذو ، وهذا إنكار صحيح .

والاعتذار عنهم : أن لفظة الذات فى اصطلاحهم ، قد صارت عبارة عن نفس الشىء ، وحقيقته ، وعينه .

فلما استعملوها استعمال النفس ، والحقيقة ، عرفوها باللام ، وجردوها من الإضافة ، وهذا أمر اصطلاحى ، لا لغوى .

فإن هذا اللفظ يقال لما هو منسوب إليه ، أو من جهته ، كجنب الشىء

فإذا قالوا : هذا فى جنب الله ، لا يريدون إلا ما ينسب إليه ، وفى سبيله ، ومرضاته وطاعته ، لا يريدون غير هذا .

فلما اصطلح المتكلمون على إطلاق الذات ، على النفس ، والحقيقة ، ظن من ظن أن هذا هو المراد بمثل قوله : « ثلاث كذبات فى ذات الله » ،

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٩٨ – ٩٩ .

وقوله : « وذلك فى ذات الإله » ، وهذا غلط ، بل الذات هنا كالجنب ، فى قوله : « ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله » ، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقال : فرطت فى نفس الله ، وحقيقته ويحسن أن يقال : فرط فى ذات الله ، كما يقال : قتل فى ذات الله ، وصبر فى ذات الله » (١)

وبهذا يتبين أن هذا الاستعمال صحيح لا ينكر ، لأنه أمر اصطلاحى على معنى مفهوم معين .

وبعض الناس يظن أن إطلاق الذات على الله – تعالى – كإطلاق الصفات ، أى أنه وصف له ، فينكر ذلك بناء على هذا الظن ، ويقول : هذا ماورد . وليس الأمر كذلك ، وإنما المراد التفرقة بين الصفة ، والموصوف .

وقد تبين مراد الذين يطلقون هذا اللفظ ، أنهم يريدون ، نفس الموصوف وحقيقته ، فلا إنكار عليهم فى ذلك ، كما وضحه كلام شيخ الإسلام ، وتلميذه ابن القيم .

قال القسطلانى : « والظاهر جواز إطلاق لفظ ذات ، لابالمعنى الذى أحدثه المتكلمون ، ولكنه غير مردود ، إذا عرف أن المراد النفس ، لثبوت لفظ النفس فى القرآن » (٢)

وأما « النعوت » فهو جمع نعت ، وهو الوصف ، يقال : نعت فلانا نعتا ، أى وصفه وصفاً ، وزنه ومعناه واحد ، ومنه الحديث « لاتباشر المرأة المرأة ، فتنعتها لزوجها ، كأنه يراها » (٣) .

---

(١) بدائع الفوائد جـ ٢ ص ٧ ببعض التصرف .

(٢) رشاد السارى جـ ١٠ ص ٣٧٩ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب النكاح ، انظر البخارى مع الفتح جـ ٩ ص ٣٣٨ .

وأما الأسامى ، فهى جمع اسم ، وتجمع أيضا على أسماء .

قوله : « فذكر الذات باسمه تعالى » أى ذكر الله بلفظ الذات ، وسمعه النبى ﷺ فلم ينكره ، فصار دليلا على جواز ذلك .

واعترض على استدلال البخارى بذلك ، لأن خبيباً لم يرد الحقيقة ، والنفس . وإنما يعنى بقوله : « وذلك فى ذات الإله » أى فى سبيله ، وطاعته .

والجواب : أن إطلاق لفظ الذات على الله تعالى جائز فى الجملة ، لورود الآثار ، فيكون ذلك أصلا للجواز ، ففى الحديث الصحيح المتفق عليه ، « أن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات ، اثنتين فى ذات الله » (١)

وفى حديث ابن عباس : « تفكروا فى كل شىء ، ولاتفكروا فى ذات الله » (٢)

قال الحافظ سنده جيد .

وقال ابن الدرداء : « لاتفقه كل الفقه ، حتى تمقت الناس فى ذات الله »

قال الحافظ إسناده ثقات ، إلا أنه منقطع (٣)

وقد تقدمت الإشارة إلى الفرق بين الأسماء والصفات فى الباب الأول .

وقد ذكر البخارى – رحمه الله – قصة خبيب وأصحابه فى كتاب المغازى ، وهى مشهورة ، فنكتفى بنص ماذكره البخارى هنا .

★ ★ ★

---

(١) رواه البخارى ، انظره مع الفتح جـ ٤ ص ٤١٠ و جـ ٥ ص ٢٤٦ ، ومواضع أخر عدة ، ومسلم فى الفضائل .

(٢) قال فى كشف الخفا : رواه أبو نعيم فى الحلة ، وابن أبى شية فى العرش ص ٣١١ جـ ٤ ص ١٨٤٠ .

(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٣٨٣ .

٣١ – قال « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، عن الزهرى ، أخبرنى عمرو بن أبى سفيان بن أسيد بن جارية ، الثقفى – حليف لبنى زهرة – وكان من أصحاب أبى هريرة أن أبا هريرة قال : بعث رسول الله – ﷺ – عشرة منهم خبيب الأنصارى ، فأخبرنى عبيد الله بن عياض ، أن ابنة الحارث أخبرته ، أنهم حين اجتمعوا ، استعار منها موسى يستحد بها ، فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه قال خبيب الأنصارى :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً   على أى شق كان لله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ   يبارك على أوصال شلو ممزع

فقتله ابن الحارث ، فأخبر النبى ﷺ أصحابه خبرهم يوم أصيبوا »

★ ★ ★

قال : « باب قول الله تعالى : « ويحذركم الله نفسه » وقوله – جل ذكره : « تعلم مافى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسك »

* * *

المراد بالنفس فى هذا الله تعالى ، المتصف بصفاته ، ولايقصد بذلك ذاتا منفكة عن الصفات ، كما لايراد به صفة الذات كما قاله بعض الناس ، وسيأتى بيان ذلك من كلام السلف .

قال ابن جرير – رحمه الله تعالى –: « ويحذركم الله نفسه » أن تسخطوها عليكم بركوبكم مايسخطه عليكم ، فتوافونه يوم (تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا) وهو عليكم ساخط فينالكم من أليم عقابه مالا قبل لكم به » (١) .

وقال : « ويخوفكم الله من نفسه ، أن تركبوا معاصيه ، أو توالوا أعداءه ، فإن إلى الله مرجعكم ، فاتقوه واحذروا أن ينالكم عقابه ، فإنه شديد العقاب » (٢)

وقال ابن خزيمة : « أول ما نبدأ به من ذكر صفات خالقنا ذكر نفسه جل ربنا عن أن تكون نفسه ، كنفس خلقه ، وعز عن أن يكون عدماً لانفس له » (٣)

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٦ ص ٣٢١ بتحقيق محمود شاكر .

(٢) المرجع المذكور جـ ٦ ص ٣١٧ .

(٣) كتاب التوحيد ص ٥ .

ثم ذكر بعض النصوص فى ذلك كقوله تعالى : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وقوله تعالى : (واصطنعتك لنفسى) ثم ذكر ما رواه البخارى فى هذا الباب . وحديث ابن عباس : « أن النبى – ﷺ – حين خرج إلى صلاة الصبح وجويرية جالسة فى المسجد رجع حين تعالى النهار ، قال : لم تزالى جالسة بعدى ؟ قالت : نعم . قال : قد قلت بعدك : أربع كلمات ، لو وزنت بهن لوزنتهن [١] : سبحان الله العظيم وبحمده ، عدد خلقه ، ومداد كلماته ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه » [٢]

وذكر أيضا حديث محاجة موسى لآدم ، وفيه : « قال آدم لموسى : أنت الذى اصطفاك الله برسالاته ، واصطنعك لنفسه » [٣] . ثم قال : « فالله جل وعلا أثبت فى آى من كتابه أن له نفساً ، وكذلك قد بين على لسان نبيه – ﷺ – أن له نفساً » [٤]

وفى صحيح مسلم فى حديث أبى ذر ، الطويل : « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرَّماً ، فلا تظالموا » [٥] .

وفى السنن عن علي – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – كان يقول فى آخر وتره : « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من

---

(١) يعنى لو وزنت هذه الأربع بماقلتيه منذ فارقتك لوزنتهن ، رواه مسلم فى كتاب الذكر .

(٢) كتاب التوحيد ص ٧ ، رواه مسلم كتاب الذكر رقم ٢٧٢٦ جـ ٤ ص ٢٠٩٠ .

(٣) كتاب التوحيد ص ٩ وهو فى الصحيحين ، انظر الفتح جـ ٦ ص ٤٤١ و ٨ ص ٤٣٤ . وجـ ١١ ص ٥٠٥ ، ومسلم جـ ٤ ص ٢٠٤٣ و ٢٠٤٤ .

(٤) كتاب التوحيد ص ٨ .

(٥) صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٩٩٤ .

عقوبتك ، وأعوذ بك ، منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » [(١)] .

وتقدم ذكر حديث ابن مسعود فى المسند مرفوعا : « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك » [(٢)]

فهذه النصوص واضحة فى أن المراد بالنفس هو الله تعالى كما قلنا .

ولا يخالف ذلك ما قاله ابن خزيمة والأئمة ، لأن مقصودهم إثبات ما أثبته الله من غير تعرض له بتأويل أو تمثيل ، تعالى الله عن الأمثال والأنداد ، والتمسك بالنصوص التى قالها الله ، ورسوله ، مع الإعراض عما يقوله أهل التأويل ، وأصحاب الوساوس الشيطانية ، التى تعود على النصوص بالإبطال ، وحسب المسلم أن يسعه ما وسع السلف الصالح من الصحابة ، ومن سلك طريقهم .

وليس معنى ذلك الإعراض عن معانى النصوص ، كما يتوهمه بعض الناس من مذهب السلف ، ويعبرون عنه بالتفويض .

بل المقصود إثبات ما أثبته الله لنفسه ، أو أثبته له رسوله مع فقه المعنى اللائق بعظمة الله تعالى ، وفهمه ، على مادل عليه قوله تعالى : (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) . ونحوها من الآيات المحكمات ، والأمر فى هذا واضح لمن تمسك بالكتاب والسنة .

روى ابن جرير ، عن مجاهد ، فى قوله تعالى : (إن الساعة آتية أكاد أخفيها) [(٣)]

---

(١) سنن أبى داود جـ ٢ ص ١٣٤ ، والترمذى جـ ٥ ص ١٨٧ رقم ٣٥٦٢ ، والنسائى جـ ٣ ص ٢٤٩ ، وابن ماجه جـ ١ ص ٣٧٣ رقم ١١٧٩ ، ورواه مسلم فى صحيحه جـ ١ ص ٣٥٢ رقم ٢٢٢ .

(٢) المسند جـ ٥ ص ٢٦٧ و جـ ٦ ص ١٥٣ تحقيق أحمد شاكر .

(٣) الآية ١٥ من سورة طه .

قال : من نفسى . وأصله عن ابن عباس .

وروى عن أبى صالح : « أكاد أخفيها » ، قال : يخفيها من نفسه .

وعن قتادة ، « أكاد أخفيها » . وهى فى بعض القراءات « أخفيها من نفسى » (١) لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين ، ومن الأنبياء المرسلين » (٢)

وقال ابن كثير : « أكاد أخفيها » قال الضحاك : عن ابن عباس أنه كان يقرؤها : « أكاد أخفيها من نفسى » ، يقول : لأنها لاتخفى من نفس الله أبداً ، وقال سعيد بن جبير : عن ابن عباس ، « من نفسه » ، وكذا قال مجاهد وأبو صالح ، ويحى بن رافع .

وقال السدى : ليس أحد من أهل السماوات والأرض ، إلا وقد أخفى الله عنه علم الساعة ، وهى فى قراءة ابن مسعود : « إنى أكاد أخفيها من نفسى » . (٣)

وقال ابن جرير فى قوله تعالى : (تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) . يقول : أنك يارب لا يخفى عليك ما أضمرته نفسى مما لم أنطق به ولم أظهره بجوارحى ، فكيف بما نطقت به وأظهرته بجوارحى ، لو كنت قد قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » كنت قد علمته ، لأنك تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به ، فكيف بما نطقت به « ولا أعلم ما فى نفسك » يقول : ولا أعلم أناما أخفيته عنى فلم تطلعنى عليه ، لأنى إنما أعلم من الأشياء ما علمتنيه » (٤) .

---

(١) هى قراءة ابن مسعود كما سيأتى عن ابن كثير وابن عباس .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٦ ص ١٤٩ طبعة الحلبى .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٧٢ طبعة الشعب .

(٤) تفسير ابن الطبرى جـ ١١ ص ٢٣٨ تحقيق محمود شاكر .

وقال فى قوله تعالى : (واصطنعتك لنفسى) أنعمت عليك ياموسى هذه النعم ، ومننت عليك ، هذه المنن اجتباءً منى لك ، واختبارا لرسالاتى ، والبلاغ عنى ، والقيام بأمرى ونهيى » (١) .

وقال ابن كثير : « أى اصطفيتك واجتبيتك رسولا لنفسى ، أى كما أريد وأشاء » (٢) .

وقال أبو سعيد الدارمى : « وادعى المعارض : أن الله لا يوصف بالضمير ، والضمير منفى عن الله ، وهى كلمة خبيثة قديمة ، من كلام جهم ، عارض بها جهم قول الله تعالى : (تعلم مافى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك) ، يدفع بذلك أن يكون الله تعالى سبق له علم فى نفسه ، من الخلق وأعمالهم قبل أن يخلقهم .

فرد عليه بعض العلماء ، وقالوا : كفرت بها من ثلاثة أوجه :

الأول : أنك نفيت عن الله العلم السابق فى نفسه قبل حدوث الخلق .

الثانى : أنك استجهلت المسيح ابن مريم – عليه السلام – بأنه وصف ربه بأن له خفايا علم فى نفسه ، إذ يقول : « ولا أعلم ما فى نفسك » .

الثالث : أنك طعنت به على محمد – ﷺ – إذا جاء به مصدقاً لعيسى .

قال أبو سعيد : وقول جهم هذا أصل كبير فى تعطيل النفس والعلم السابق ويرد عليه بقوله : « تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك » ، فذكر المسيح أن لله علماً سابقاً فى نفسه ، يعلمه الله ، ولا يعلمه هو .

ثم روى عن أبى البحترى أنه قال : « لايقولن أحدكم : اللهم أدخلنى مستقر رحمتك ، فإن مستقر رحمته نفسه » (٣) .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٦ ص ١٦٨ مطبعة الحلبى .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٨٧ طبعة الشعب .

(٣) نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسى ص ٥٥٠ عقائد السلف ملخصا بتصرف .

وقال الراغب : « نفسه ، ذاته ، وهذا وإن كان قد حصل من حيث اللفظ مضاف ، ومضاف إليه ، يقتضى المغايرة ، وإثبات شيئين من حيث العبارة ، فلا شيء ، من حيث المعنى سواه – سبحانه – عن الاثنوية من كل وجه » (١)

قال الحافظ : قال البيهقى : والنفس فى كلام العرب على أوجه .

منها الحقيقة ، كما يقولون فى نفس الأمر ، وليس للأمر نفس منفوسة .

ومنها الذات ، قال : وقد قيل فى قوله تعالى : (تعلم مافى نفسى ، ولا أعلم مافى نفسك) أن معناه : تعلم ماأكنه ، وما أسره ، ولا أعلم ماتسره عنى » (٢) « وقال أبو إسحاق الزجاج فى قوله تعالى : (ويحذركم الله نفسه) أى إياه .

وحكى صاحب المطالع فى قوله تعالى : (ولا أعلم مافى نفسك) ثلاثة أقوال :

أحدها : لا أعلم ذاتك .

ثانيها : لا أعلم مافى غيبك .

ثالثها : لا أعلم ماعندك ، وهو بمعنى قول غيره : لا أعلم معلومك أو إرادتك ، أو سرك ، أو مايكون منك » (٣)

قال ابن بطال : فى هذه الآيات والأحاديث ، إثبات النفس لله تعالى . وللنفس معانٍ ، والمراد بنفس الله تعالى ذاته ، وليس بأمر مزيد عليه فوجب أن يكون هو » (٤) .

---

(١) المفردات ص ٥١١ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٣٨٤ ، ذكر الحافظ كلام البيهقى بالمعنى ، فصار أحسن من كلام البيهقى ولهذا آثرته وهو فى الأسماء . والصفات ص ٢٨٦

(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٣٨٤ .

(٤) المرجع نفسه .

وقال شيخ الإسلام : « ونفسه هى ذاته المقدسة » [١]

وقال أيضا : « ويراد بنفس الشيء ذاته ، وعينه ، كما يقال : رأيت زيدا نفسه ، وعينه ، وقد قال تعالى : (تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك)

وقال : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وقال : (ويحذِّركم الله نفسه) وفى الحديث : « سبحان الله رضا نفسه » ، وفى الآخر : « إن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى » .

فهذه المواضع المراد فيها بلفظ النفس عند جمهور العلماء ، الله نفسه التى هى ذاته ، المتصفة بصفاته ، ليس المراد بها ذاتاً منفكة عن الصفات ولا المراد بها صفة للذات .

وطائفة من الناس يجعلونها من باب الصفات .

كما يظن طائفة ، أنها الذات المجردة عن الصفات ، وكلا القولين خطأ » [٢]

★ ★ ★

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٤ ص ١٩٦ .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٩ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ باختصار قليل .

٣٢ - قال : « حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله ، عن النبى ﷺ قال : مامن أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرَّم الفواحش ، ومامن أحد أحبّ إليه المدح من الله »

* * *

هذا الحديث ذكره البخارى فى مواضع متعددة ، فتقدم فى تفسير سورة الأنعام . وفيه : « ولا شيء أحب إليه المدح ، من الله ، ولذلك مدح نفسه » (١) « فذكر النفس ثابت فى هذا الحديث ، وإن كان لم يقع فى هذه الطريق ، لكنه أشار إليه ، كعادته ، فإنه - رحمه الله - كثيراً مايترجم ببعض ماورد فى طرق الحديث الذى يورده » (٢) .

قلت : وهذه الجملة من الحديث المذكورة فى التفسير هى محل الشاهد ، فهو يشير إليها .

وسيأتى الكلام إن شاء الله فى الغيرة بعد أربعة أبواب غير هذا ، وتقدم الكلام فى النفس ، مافيه كفاية .

قوله : « من أجل ذلك حرَّم الفواحش » . الحرام هو الممنوع ، وتحريم الله تعالى - للشيء ، هو منعه منه شرعا ، أو قدراً ، فالشرع نحو مافى هذا الحديث وهو كثير جدا - أى أمثلته .

وأما القدر فكقوله - تعالى : (وحرام على قرية أهلكناها أنهم

---

(١) انظر الفتح جـ ٨ ص ٢٩٥ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٣٨٥ .

لايرجعون) [١] وقوله : (وحرمنا عليه المراضع من قبل) [٢]

والفواحش : جمع فاحشة ، وهى : ماعظم قبحه من الأفعال ، والأقوال فى الشرع ، أو فى العقل أو فى العرف .

قوله : « وما أحد أحبّ إليه المدح من الله » كلمة « أحد » لا يوصف بها فى الإثبات شيء من الأعيان إلا الله تعالى ، ولكنها تستعمل فى غير الله ، فى النفى وما فى معناه ، كالشرط ، والاستفهام ، وتستعمل فى أول العدد ، كأحد اثنين وأحد عشر ، ولهذا لم يجىء فى القرآن استعمالها لغير الله ، إلا فى غير الموجب ، أو فى الإضافة ، كقوله تعالى : (فابعثوا أحدكم) .

قال أهل اللغة : تقول : لا أحد فى الدار ، ولاتقل : فيها أحد » [٣]

والمدح : هو الثناء الحسن ، قال الجوهرى : « المدح : الثناء الحسن ، وقد مدحه وامتدحه ، بمعنى ، وكذلك المدحة ، والمديح ، والأمدوحة » [٤]

وفى كليات أبى البقاء ، بعد ماذكر قول الجوهرى قال : « وقيل المدح الثناء باللسان على الجميل مطلقًا ، سواء كان من الفواضل ، أو من الفضائل ، وسواء كان اختياريا ، أو غير اختيارى ، ولايكون إلا قبل النعمة » [٥] .

فالمدح ذكر محاسن الممدوح ، والإخبار عنها على سبيل الثناء ، والتعظيم بذلك ، فإن اقترن بالحب ، والإرادة ، فهو حمد ، لأن الحمد هو ذكر محاسن المحمود ، والإخبار عنها مع حبه ، وإجلاله ، وتعظيمه ، فهو خبر يتضمن الإنشاء » [٦] .

---

(١) الآية ٩٥ من سورة الأنبياء .
(٢) الآية ١٢ من سورة القصص .
(٣) مجموع الفتاوى جـ ١٧ ص ١٣٧ .
(٤) انظر الصحاح جـ ١ ص ٤٠٣ .
(٥) الكليات جـ ٤ ص ٢٧٧ .
(٦) بدائع الفوائد جـ ٢ ص ٩٣ .

ومدح الإنسان نفسه نقص يلام عليه ، وكذلك طلبه من الناس ، وتكلفه لذلك ، يدل على نقصه ، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بالنهى عن المدح ولاسيما فى الوجه ، لأن ذلك مظنة الفتنة والاغترار ، وقد يكون المدح بالكذب ، وربما حمله المدح على ظلم من لم يمدحه .

وفى صحيح مسلم عن همام بن الحارث أن رجلا جعل يمدح عثمان ، فعمد المقداد فجثا على ركبتيه ، وكان رجلا ضخما - فجعل يحثو فى وجهه الحصباء ، فقال له عثمان : ما شأنك ؟ فقال : إن رسول الله - ﷺ - قال : « إذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب » (١)

وروى ابن ماجه ، عن معاوية قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إياكم والتمادح فإنه الذبح » (٢) وسنده حسن ، وفى ذلك أحاديث كثيرة .

قال النووى : « قال العلماء : الجمع بين هذه الأحاديث وماجاء دالا على الجواز أن النهى محمول على المجازفة فى المدح ، والزيادة فى الأوصاف أو على من يخاف عليه الفتنة ، من إعجاب ونحوه إذا سمع المدح ، وأما من لايخاف عليه ذلك لكمال تقواه ، ورسوخ عقله ، ومعرفته ، فلا نهى فى مدحه فى وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة » (٣) .

أما الله - تعالى - فلكماله المطلق مدح نفسه ، لأنه أهل المدح والثناء ولأن الخلق لايقدرون على مدحه بما يستحق ، كما قال الرسول - ﷺ - : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (٤) .

---

(١) مسلم جـ ٤ ص ١٢٩٧ ، وابن ماجه جـ ٢ ص ١٢٣٢ رقم ٣٧٤٢ .
(٢) السنن جـ ٢ ص ١٢٣٢ رقم ٣٧٤٣ .
(٣) شرح مسلم جـ ١٨ ص ١٢٦ .
(٤) سبق تخرجه قريبا .

قال النووى : « حقيقة مدح العباد لله تعالى : هو مصلحة للعباد ، لأنهم يثنون عليه سبحانه فيثيبهم ، فينتفعون ، وهو سبحانه غنى عن العالمين ، لا ينفعه مدحهم ، ولا يضره تركهم ذلك ، وفيه تنبيه على فضل الثناء عليه سبحانه وتسبيحه ، وتهليله ، وتحميده ، وتكبيره ، وسائر الأذكار » (١)

★ ★ ★

---

(١) شرح مسلم جـ ١٥ ص ٧٧ .

٣٣ – قال : « حدثنا عبدان ، عن أبى جمرة ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : قال : « لما خلق الله الخلق ، كنت فى كتابه – وهو يكتب على نفسه ، وهو وضع عنده على العرش – إن رحمتى تغلب غضبى »

* * *

قوله : « لما قضى الله الخلق » قضى : يأتى بمعنى حكم ، وأمر ، وقدر ، وفرغ وأمضى ، وأتقن ، ومعناه هنا : فرغ من خلق الخلق ، فهو نحو قوله تعالى : (فقضاهن سبع سماوات) أو فرغ من تقدير الخلق ، ويدل لذلك الرواية الآتية فى آخر الكتاب « قبل أن يخلق الخلق » .

قوله : « كتب فى كتابه » يجوز أن يكون المعنى : أمر القلم أن يكتب ، كما قال الحافظ . ويجوز أن يكون على ظاهره بأن كتب تعالى بدون واسطة ، ويجوز أن يكون قال : « كن » فكانت الكتابة ، ولا محذور فى ذلك كله ، وقد ثبت فى سنن الترمذى ، وابن ماجه فى هذا الحديث : « أن الله عز وجل لماخلق الخلق كتب بيده على نفسه أن رحمتى تغلب غضبى » (١)

ولايصح أن يراد بالكتابة : الحكم الذى قضاه ، نظير قوله تعالى : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) لقوله : (فهو عنده فوق العرش) .

وكتابته تعالى ذلك . لتأكيد هذا الحكم ، وإخبار عباده به حتى يؤمنوا به ويعملوا على مقتضاه ، أو لحكمة الله أعلم بها ، وليس خوفا من النسيان – تعالى الله .

قوله : « وهو يكتب على نفسه » جملة حالية يقصد بها بيان أن كتابته

---

(١) انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٢١٠ ، وابن ماجه جـ ٢ ص ١٤٣٥ الحديث رقم ٤٢٩٥ .

تعالى لم يحمله عليها أحد ، وإنما وقعت بمحض إرادته ، تفضلا منه ، وجوداً على خلقه كتبه على نفسه ، كما قال – تعالى – (كتب ربكم على نفسه الرحمة)

وقوله : « وهو وضع عنده على العرش » وضع : بفتح الواو ، وسكون الضاد ، أى موضوع ، وكذا جاء فى الجمع بين الصحيحين للحميدى [١] ، وضبط أيضا بفتح الضاد ، على أنه فعل ماضى ، وبضم الضاد أيضا ، والأول أظهر وأشهر .

وقوله : « عنده على العرش » أى أنه تعالى وضع الكتاب عنده فوق عرشه وسيأتى فى باب « وكان عرشه على الماء » بهذا اللفظ « عنده فوق عرشه » . وذلك للإهتمام به ، حيث وضعه معه على عرشه الذى استوى عليه .

كما يدل على أن الله على العرش ، مستوٍ عليه كما قال – تعالى – عن نفسه فى مواضع كثيرة من كتابه ، وأخبرت به رسله ، ويدل على علوه تعالى . وسيأتى ذكر ذلك مستوفًى إن شاء الله فى موضعه .

وما نقله الحافظ – عفا الله عنا وعنه – عن شراح كتاب البخارى من تأويل هاتين اللفظتين بالتأويلات الباطلة ، المبنية على فساد العقيدة سيأتى ردها إن شاء الله هناك بالبراهين .

قوله : « إن رحمتى تغلب غضبى » . الرحمة ، والغضب كلاهما من أوصاف الله تعالى ، ولكن الرحمة أوسع وأشمل ، فرحمته تعالى وسعت كل شيء ، كما قال عن حملة العرش ، ومن حوله من الملائكة فى دعوتهم للمؤمنين . أنهم يقولون (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما) [٢] ، وقال تعالى : (ورحمتى وسعت كل شيء) [٣] وهذا هو معنى غلبها للغضب .

---

(١) قاله الحافظ ابن حجر فى الفتح جـ ١٣ ص ٣٨٥ .

(٢) الآية ٧ من سورة غافر .

(٣) الآية ١٥٦ من سورة الأعراف .

وفى هذه النصوص ونحوها كثير أبلغ دليل على ثبوت صفة الرحمة لله تعالى ، وكذا صفة الغضب ، وبذلك يتبين بطلان قول أهل التأويل فى هذه الصفة الكريمة ، من صفات ربنا تبارك وتعالى – وقولهم : « إن الرحمة رقة القلب وهى تدل على الضعف والخور فى طبيعة الراحم ، وتألمه على المرحوم » وهذا قول باطل بالنسبة إلى صفة الله تعالى ، وبيان ذلك من وجوه :

الأول : أن هذا وصف رحمة بعض المخلوقين . من النساء ونحوهن .

وقد علم التفاوت العظيم بين الخالق – تعالى – والمخلوق بالشرع ، والعقل والإجماع وقد تقرر أن الصفة تتبع الموصوف فى الكمال ، وضده – كما تقدم .

الثانى : أن الضعف ، والخور مذموم ، وهو نقص ، وأما الرحمة فممدوحة كما قال تعالى : (وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة) [١] . مع نهيه – تعالى – عباده عن الوهن ، والحزن ، قال تعالى : (ولا تهنوا ، ولا تحزنوا) [٢] وحثهم على الرحمة ، وقد تقدم ذكر بعض الأحاديث فى ذلك ، كقوله ﷺ : « من لايَرْحم لايُرْحم » ، وقوله : « لاتنزع الرحمة إلا من شقى » ، وقوله : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من الأرض يرحمكم من فى السماء » .

ومستحيل أن يقول : لاينزع الضعف ، والخور ، إلا من شقى .

ولما كانت الرحمة فى حق كثير من الناس ، تقارن الضعف ، والخور ، ظن من غلط فى ذلك أنها كذلك مطلقا .

الثالث : أن أسماء الله تعالى حسنى ، لايلحقها نقص بوجه من الوجوه ، وصفاته عليا عن النقص أيضا ، والله تعالى قد تمدح بهذه الأسماء ، والصفات ، لأنها تدل على الكمال ، فمن المحال أن يلحقها مايلحق رحمة المخلوق .

★ ★ ★

---

(١) الآية ١٧ من سورة البلد .
(٢) الآية ١٣٩ من سورة آل عمران .

٣٤ - قال : « حدثنا عمر بن حفص ، حدثنا أبى ، حدثنا الأعمش ، سمعت أبا صالح ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال النبى ﷺ -: يقول الله - تعالى -: أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبرا ، تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى ، أتيته هرولة » .

* * *

هذا الحديث من الأحاديث القدسية : وهى مايذكره الرسول - ﷺ - مضافا إلى الله - تعالى - أنه قاله ، ولكنه غير متعبد بتلاوته ، ولا هو معجز متحدى به كالقرآن .

والظن يأتى بمعنى العلم ، واليقين ، كقوله تعالى : (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) (١)

ويأتى واسطة بين الشك والعلم ، أو بمعنى الشك كقوله تعالى عن الكفار (وظنوا أنهم إلينا لايرجعون) (٢) . والقرائن تبين ذلك وتحدده .

قوله : « أنا عند ظن عبدى بى » ، قال صاحب المرعاة : « يجوز أن يكون على ظاهره . والمعنى : أنا أعامله على حسب ظنه بى ، وأفعل به مايتوقعه منى ، من خير أو شر ، والمراد الحث على تغليب الرجاء على الخوف ، وحسن الظن بالله تعالى على مادل عليه قوله - ﷺ : « لايموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله »

---

(١) الآية ٤٦ من سورة البقرة .

(٢) المرعاة جـ ٢ ص ٤١٤ الطبعة الحجرية .

ويجوز أن يكون المراد بالظن : العلم الموقن ، ويكون المعنى : أنا عند علمه بى ويقينه بأن مصيره إلي ، وحسابه علي ، وأن ماقضيت به له ، أو عليه من خير أو شر ، لا مرد له ، لا معطى لما منعت ولا مانع لما أعطيت » [(١)] .

وقال الحافظ : « أنا عند ظن عبدى بى » أى قادر على أن أعمل به ما ظن أن أعامله به ، وقال الكرمانى : وفى السياق إشارة إلى ترجيح جانب الرجاء على الخوف ، وكأنه أخذه من أن العاقل يختار لنفسه وقوع الخير ، وهو مقيد بالمحتضر ، لما فى الحديث « لايموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » [(٢)] .

قلت : قول الحافظ هذا خلاف ظاهر الحديث ، إذ هو خبر عن الله تعالى أنه عند ظن عبده به ، يعنى أنه - تعالى - يفعل بعبده ماظنه العبد أنه يفعله به ، وقد جاءت أحاديث مصرحة بذلك كما فى المسند من حديث واثلة بن الأسقع ، سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « قال الله : أنا عند ظن عبدى بى ، إن ظن خيراً فله ، وإن ظن شراً فله » [(٣)] ورواه ابن حبان ، وهذا لفظه ، وفى هذا أحاديث كثيرة .

وقال فى المفهم : « معنى : « أنا عند ظن عبدى بى » . ظن الإجابة عند الدعاء ، والقبول عند التوبة ، والمغفرة عند الاستغفار ، والإثابة على العمل ، إيمانا بوعده - تعالى - لما فى الحديث « ادعوا الله ، وأنتم موقنون بالإجابة » [(٤)]

ولذلك ينبغى للمرأ أن يجتهد فى العمل ، موقنا بأن الله يقبله ، ويغفر له لأنه وعد بذلك ، وهو لايخلف وعده .

---

(١) المرعاةجـ ٢ ص ٤١٤ الطبعة الحجرية .

(٢) فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٣) انظر المسند جـ ٣ ص ٤٩١ و جـ ٤ ص ١٠٦ ، وانظر موارد الظمآن ص ١٨٤ .

(٤) رواه الترمذى ، وقال : هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه ، انظر السنن جـ ٥ ص ١٨٠ .
قلت : هو ضعيف لأن فى سنده صالح المرى .

هذا إذا أتى بالعبادة بشروطها ، فإن اعتقد أن الله لا يقبلها ، وأنها لاتنفعه فهذا هو اليأس ، وهو من الكبائر ، وأما ظن المغفرة مع الإصرار على الذنوب ، فهو محض الجهل ، والغرور [١] .

والحديث معناه واضح كما تقدم ، وما ذكره صاحب المفهم من معناه ووراء ذلك معنى أدق وهو قرب الله من عبده المنيب إليه ، وخير مايفسر به كلام الرسول ﷺ كلامه ، ولكن لايعارض النصوص الكثيرة ، المحذرة من عذاب الله تعالى ، وعقابه فالأمر كما قال تعالى : (نبأ عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الأليم) [٢] ، وحسن الظن يكون مع حسن العمل . وقد تشعر الإضافة فى قوله : « عبدى » بحسن العمل ، أى أنه عبد الله ، وليس للشيطان أو للدنيا أو غيرها . والله أعلم .

قوله : « وأنا معه إذا ذكرنى » أى معه بالإجابة ، والتوفيق ، وبسماع كلامه واثابته عليه أو بحسب ماقصد فى ذكره ، مالم يكن إثماً أو قطيعة رحم ، فهذه المعية هى المعية الخاصة المذكورة فى مثل قوله تعالى : (إننى معكما أسمع وأرى) [٣]

ومعية الله تعالى بالنسبة لعباده نوعان : معية عامة للخلق كلهم ، كما قال تعالى : (مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولاخمسة إلا هو سادسهم ولاأدنى من ذلك ولاأكثر إلا هو معهم أينما كانوا) [٤]

وقال تعالى : (يعلم مايلج فى الأرض ، ومايخرج منها وماينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم) [٥] ومن مقتضى هذه المعية اطلاعه تعالى

---

(١) من الفتح جـ ١٣ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .
(٢) الآيتان ٤٩ و ٥٠ من سورة الحجر .
(٣) الآية ٤٦ من سورة طه .
(٤) الآية ٧ من سورة المجادلة .
(٥) الآية ٤ من سورة الحديد .

وعلمه بكل شيء ، ومراقبته ، وشهوده أفعال عباده ، فتفيد الخوف منه تعالى .

والنوع الثانى : المعية الخاصة ، وهى المذكورة فى هذا الحديث ، ونحوه كقوله تعالى : (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) (١) وقوله : (إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا) (٢) ومن مقتضى هذه المعية النصر والتأييد والهداية ، والحماية .

« ومعيته تعالى لخلقه ، لاتخالف علوه ، واستوائه على عرشه ، فكل ذلك حق على ظاهره ، وذلك أن الله معنا حقيقة ، وهو فوق عرشه حقيقة كما جمع بينهما فى قوله تعالى : (هو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، يعلم مايلج فى الأرض ، ومايخرج منها ، وماينزل من السماء ، ومايعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) (٣) . فأخبر تعالى أنه فوق العرش يعلم كل شيء ، وهو معنا أينما كنا ، كما قال النبى ﷺ فى حديث الأوعال (والله فوق العرش ، وهو يعلم ما أنتم عليه) (٤)

وذلك أن كلمة مع فى اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها فى اللغة إلا المقارنة المطلقة ، من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال .

فإذا قيدت بمعنى من المعانى دلت على المقارنة فى ذلك المعنى ، فإنه يقال : مازلنا نسير والقمر معنا ، ويقال : هذا المتاع معى لمجامعته لك ، وإن كان فوق رأسك .

فالله مع خلقه حقيقة ، وهو فوق عرشه حقيقة .

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة النحل .

(٢) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٤) رواه أبو داود فى باب فى الجهمية جـ ٥ ص ٥٣ ، والترمذى جـ ٥ ص ٩٧ ، وابن ماجه جـ ١ ص ٦٩ الحديث رقم ١٩٣ ، وقد صححه ابن القيم ، وأبطل حجج المضعفين له ، انظر تهذيب السنن جـ ٧ ص ٩١ .

ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد ، فقوله : (وهو معكم أينما كنتم) [١] دل ظاهر الخطاب أن حكم هذه المعية ومقتضاها ، أنه مطلع عليكم شهيد عليكم ومهيمن عالم بكم ، وهذا معنى قول السلف أنه معهم بعلمه ، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته .

وقوله : (لاتحزن إن الله معنا) [٢] حق على ظاهره ، ودلت الحال على أن حكم هذه المعية الاطلاع والنصر والتأييد ، ومثل ذلك قوله : (إننى معكما أسمع وأرى) [٣] وقوله : (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) [٤] » [٥] وسيأتى لذلك بقية .

قوله : « فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى » أى إن ذكر ربه سراً فى نفسه ، فإن الله تعالى يذكره سراً فى نفسه ، من غير اطلاع أحد من خلقه على ذلك .

وهذا هو محل الشاهد من الحديث ، حيث أثبت النفس لله – تعالى – على ماسبق توضيحه .

قوله « وإن ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ ، خير منهم » الملأ ، الجماعة ، والمعنى أن العبد إذا ذكر ربه ظاهرا فى جماعة يسمعون ذكره لربه ، فإن الله تعالى يذكره ويثنى عليه فى جماعة أفضل من الجماعة الذين ذكر العبد ربه فيهم ، لأن الذين يذكر الله عبده فيهم فى الملأ الأعلى عباد مكرمون ، لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون .

---

(١) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٢) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٤٦ من سورة طه .

(٤) الآية ١٢٨ من سورة النحل .

(٥) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ١٠٢ – ١٠٤ ملخصا .

وهذا من أقوى أدلة القائلين بتفضيل الملائكة على صالحى بنى آدم . وهى مسألة مشهورة ، والراجح فيها أن الأنبياء ، والصديقين والشهداء ، والصالحين أفضل من الملائكة ، وتفضيل فرد من النوع لايلزم منه تفضيل النوع كله على الآخر . والله أعلم .

قوله : « وإن تقرب إلي شبرا ، تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » .

قرب الله – تعالى – من عابده ، وداعيه ثبت فى نصوص كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ وإذا سألكَ عبادى عَنِّى ، فإنى قَرِيبٌ أجيبُ دعوة الداعِ إذا دعانِ ﴾ (١) .

وقوله ﷺ : « أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد » (٢)

فالعبد إذا قرب إلى الله تعالى بالتوجه والمحبة ، وإخلاص العمل ، والصدق فى ذلك ، فإن الله – تعالى – يقرب إليه أكثر من قربه ، فكلما زاد قرب العبد إلى ربه بالطاعة والإنابة والحب والإخلاص . زاد قرب الله إليه حتى يكون قلب العبد بين يدى ربه ، كأنه يشاهده بعينيه ، وهو جل وعلا على عرشه .

قال شيخ الإسلام : « فكلما تقرب العبد باختياره قدر شبر ، زاده الرب قربا إليه ، حتى يكون كالمتقرب إليه بذراع ، فكذلك قرب الرب من قلب العابد ، وهو مايحصل فى قلب العبد من معرفة الرب ، والإيمان به ، وهو المثل الأعلى » (٣)

وبهذا يتبين أن معنى قوله « إذا تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا » أن العبد إذا تقرب إلى ربه بطاعته والإقبال عليه ، أن الرب تعالى يزيده قربا إليه ، جزاءً من جنس عمله ، وأكثر من قرب العبد الذى حصل باختياره .

---

(١) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

(٢) رواه مسلم انظر جـ ١ ص ٣٥٠ ، وأبو داود جـ ١ ص ٥٤٥ ، والنسائى جـ ٢ ص ٢٢٦ .

(٣) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٥١٠ .

وقال : « فإذا قرب العبد من ربه بالإنابة إليه ، قرب الرب إليه ، فيدنو قلبه من ربه ، وإن كان بدنه على الأرض ، ومتى قرب أحد الشيئين من الآخر ، صار الآخر إليه قريبا بالضرورة ، وإن قدر أنه لم يصدر من الآخر تحرك بذاته ، كما أن من قرب من مكة ، قربت مكة إليه » (١)

وقال أيضا : « ومن الناس من غلط فظن أن قربه – تعالى – من جنس حركة بدن الإنسان إذا مال الى جهة انصرف عن الأخرى .

والإنسان يجد عمل روحه يخالف عمل بدنه ، فيجد نفسه تقرب من نفوس كثير من الناس ، من غير أن ينصرف عمن هى قريبة منه ، وكذلك يجد نفسه تبعد بعيدا عن بعض النفوس بعداً غير مايقوم بالبدن » (٢) .

وقال أيضا : « وليس بين الرب والعبد إلا محض العبودية ، فكلما كمل العبد عبودية ربه قرب إليه – تعالى – لأنه سبحانه – بَرٌّ ، جواد ، محسن ، يعطى العبد مايناسبه فكلما عظم فقره إليه ، كان أغنى له ، وكلما عظم ذله له ، كان أعز له ، فإن النفس – لما فيها من أهوائها المتنوعة – وتسويل الشيطان لها – تبعد عن الله – تعالى – حتى تصير ملعونة بعيدة من الرحمة ، واللعنة هى البعد عن الله ورحمته .

ومن أعظم ذنوب العبد علوه فى الأرض ، ونسيانه ربه ، ولهذا لما كان السجود هو غاية سفول النفس – صار أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد وكذلك الذكر المتضمن للإقبال على الله ، والخضوع له » (٣) .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٥٠٩ .

(٢) المرجع ببعض التصرف ص ٢٤٧ .

(٣) المرجع المذكور بتصرف ص ٢٣٨ .

« وقوله : من تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا الخ » هذا قربه تعالى من عابده . وأما قربه من داعيه فكما فى الآية : (وإذا سألك عبادى عنى ، فإنى قريبٌ أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ) [١] ، وقربه تعالى من عابد ، وداعيه قرب خاص ، أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة ، الذى لم يثبت أكثر المتكلمين سواه » [٢]

« فالداعى ، والساجد تتوجه روحه إلى الله تعالى » والروح لها عروج يناسبها فتقرب من الله – تعالى – بلا ريب بحسب تخلصها من الشوائب ، فيكون الله – عز وجل – منها قريبا ، قرباً يلزم منه قربها .

ويكون منه قرب آخر ، كقربه عشية عرفة ، وفى جوف الليل ، وإلى من تقرب منه شبرا ، تقرب منه ذراعا » [٣] .

قلت : وبهذا يتبين أن قربه – تعالى – من عباده نوعان :

أولهما : قربه – تعالى – من قلوب المؤمنين ، وقرب قلوبهم منه ، وهذا أمر معروف لايجهل ، فإن القلوب تصعد إليه على قدر ما فيها من الإيمان والمعرفة به تعالى ، وذكره ، وخشيته ، والتوكل عليه ، وهذا متفق عليه بين الناس لم ينكره منهم أحد .

والثانى : مادل عليه هذا الحديث – الذى نحن بصدد شرحه – ونحوه ، مثل قربه عشية عرفة ، وقربه آخر الليل ، كما ثبتت بذلك النصوص ، وهذا القرب ينكره أكثر المتكلمين ، من الجهمية ، والمعتزلة ، والأشعرية ، وإنكاره منكر .

---

(١) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

(٢) بدائع الفوائد جـ ٣ ص ٨ ملخصا .

(٣) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٢٤١ .

قال شيخ الإسلام : « وقربه – سبحانه – ودنوُّه من بعض مخلوقاته ، لايستلزم أن تخلو ذاته من فوق العرش ، بل هو فوق العرش ويقرب من خلقه كيف شاء ، كما قال ذلك من قاله من السلف . وهذا كقربه إلى موسى لما كلمه من الشجرة ، قال – تعالى –: (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً) [(١)] .

والذين يثبتون تقريبه العباد إلى ذاته ، وهو القول المعروف للسلف ، والأئمة وهو قول الأشعرى ، وغيره من الكلابية ، فإنهم يثبتون قرب العباد إلى ذاته . وأما دنوه نفسه ، وتقربه من بعض عباده ، فهذا يثبته من يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه ، وهو مذهب أئمة السلف ، وأئمة الإسلام المشهورين ، وأهل الحديث ، والنقل عنهم بذلك متواتر » [(٢)]

وقوله : « وإن أتانى يمشى أتيته هرولة » . الهرولة السرعة فى المشى ، بين المشى والعدو . وهو تمثيل لكرم الله وجوده على عبده ، وأنه أقبل إليه ، فهو – سبحانه – أسرع إقبالا وتفضلا على عبده ، من غير مقابل يناله من العبد ، بل هو الغنى بذاته عن كل ماسواه ، وكل ماسواه فقير إليه . ويؤخذ من الحديث : عظم فضل الله وكرمه ، وعظم فضل الذكر .

* * *

(١) الآية ٥٢ من سورة مريم .

(٢) مجموع الفتاوى باختصار جـ ٥ ص ٤٦٠ – ٤٦٦ .

قال : « باب قول الله تعالى : (كل شئ هالك إلا وجهه)

* * *

أراد البخارى بهذا الباب إثبات صفة الوجه لله – تعالى – وهو ثابت لله تعالى فى آيات وأحاديث كثيرة . سيأتى ذكر شىء منها .

قال ابن كثير : (كل شىء هالك إلا وجهه) إخبار بأنه الدائم الباقى ، الحى القيوم الذى تموت الخلائق ولايموت ، كما قال : (كل من عليها فانٍ ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) (١) ، فعبرَّ بالوجه عن الذات ، وهكذا قوله هاهنا : (كل شىء هالك إلا وجهه) ، أى إلا إياه » (٢) .

قلت : قوله : « فعبر بالوجه عن الذات ، لايقصد نفى صفة الوجه عن الله تعالى ، وإنما مراده : أن الذات تابعة للوجه ، فاكتفى تعالى بذلك .

وقد ذكر البخارى – رحمه الله – هذه الآية فى التفسير ، وأعقبها بقوله : « إلا ملكه ويقال : إلا ماأريد به وجهه » (٣) . ولم يذكر غير هذا ، فقد يقال : إن هذا تأويل سلك البخارى فيه طريق أهل التأويل ، وليس الأمر كذلك .

قال الحافظ : « فى رواية النسفى (٤) ، وقال معمر : فذكره ، ومعمر هذا هو أبو عبيدة [معمر] بن المثنى ، وهذا كلامه فى مجاز القرآن ، لكنه بلفظ :

---

(١) الآيتان ٢٦ و ٢٧ من سورة الرحمن .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٧٢ .

(٣) انظر الفتح جـ ٨ ص ٥٠٥ .

(٤) النسفى من رواة الصحيح عن البخارى .

إلا هو ، وكذا نقله الطبرى عن بعض أهل العربية ، وكذا ذكره الفراء » [١]

قلت : الذى فى كتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة يخالف ما ذكره البخارى ، وزعم الحافظ أنه كلامه . فإنه قال على الآية : (كل شىء هالك إلا وجهه) مجازه : إلا هو ، وما استثنوه من جميع فهو منصوب » [٢] ، وكذا ماذكره الفراء فى معانى القرآن فإنه قال : (كل شىء هالك إلا وجهه) إلا هو قال الشاعر :

أستغفر الله ذنباً لست محصيه ‏ ‏ ‏ ‏ رب العباد إليه الوجه والعمل

أى « إليه أوجه عملى » [٣]

وبهذا يتبين أن الأمر ليس كما قال الحافظ ، لأن ماذكره البخارى يختلف عما ذكره الفراء ، وأبو عبيدة لفظاً ومعنى .

قال الحافظ : « قال ابن التين : قال أبو عبيدة : إلا وجهه إلا جلاله ، وقيل إلا إياه . تقول : أكرم الله وجهك ، أى أكرمك الله .

وقوله : ويقال « إلا ما أريد به وجهه » نقله الطبرى – أيضا – عن بعض أهل العربية ، ووصله ابن أبى حاتم من طريق خصيف ، عن مجاهد – مثله . ومن طريق سفيان الثورى قال : إلا ما ابتغى به وجه الله من الأعمال الصالحة » اهـ [٤]

وفى الدر المنثور : « وأخرج عبد بن حميد ، عن ابن عباس : (كل شىء هالك إلا وجهه) إلا ما أريد به وجهه

---

(١) الفتح جـ ٨ ص ٥٠٥ .

(٢) مجاز القرآن جـ ٢ ص ١١٢ .

(٣) معانى القرآن جـ ٢ ص ٣١٤ .

(٤) الفتح جـ ٨ ص ٥٠٥ .

وأخرج ابن أبى حاتم ، عن مجاهد (كل شىء هالك إلا وجهه) . قال : إلا ما أريد به وجهه .

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان ، عن سفيان : (كل شىء هالك إلا وجهه) قال : « إلا ما أريد به وجهه من الأعمال الصالحة » (١)

« قوله : (كل شىء هالك إلا وجهه) بعد قوله : (فلا تكونن ظهيرا للكافرين ، ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أُنزلت إليك ، وادع إلى ربك ، ولاتكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون » (٢)

فإن ذكر ذلك بعد نهيه عن الإشراك ، وأن يدعو معه إلها آخر ، وقوله : لا إله إلا هو . يقتضى فى أظهر الوجهين ، وهو أن كل شىء هالك إلا ما كان لوجهه من الأعيان ، والأعمال .

روى عن أبى العالية قال : إلا ما أريد به وجهه .

وعن جعفر الصادق : « إلا دينه – ومعناهما واحد » (٣)

قال ابن كثير : « وقال مجاهد ، والثورى فى قوله : « كل شىء هالك إلا وجهه » أى : إلا ماأريد به وجهه ، وحكاه البخارى فى صحيحه كالمقرر له .

وهذا القول لاينافى القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ماأريد به وجه الله – عز وجل – من الأعمال الصالحة ، المطابقة .

والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وهالكة ، وزائلة إلا ذاته تعالى – فإنه الأول ، والآخر الذى هو قبل كل شىء وبعد كل شىء » (٤)

---

(١) الدر المنثور جـ ٦ ص ٤٤٧ .

(٢) الآيات ٨٦ إلى ٨٨ من سورة القصص .

(٣) مجموع الفتاوى جـ ٢ ص ٤٢٧ .

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٢٧٢ .

والقول الأول هو ماذكرناه عنه فى أول الباب .

فعلى هذا لا يكون قوله « ماأريد به وجهه » تأويلا للوجه الذى هو صفة لله – تعالى – بل هو من المعانى المستنبطة من الآية ، كما يشير إليه سياق الآية ، فإنه تعالى – يقول : (ولايصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ، ولاتكونن من المشركين ، ولاتدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون) [١]

وأما قوله « إلا ملكه » فهذا تأويل بعيد ، وهو مخالف . لصنعه هنا حيث ذكر الآية ، ثم أتبعها بحديث جابر ، وفيه قوله – ﷺ – : « أعوذ بوجهك » . فهذا ظاهر جدا فى أنه أراد إثبات الوجه صفة لله تعالى .

ومما يدل على بطلان ذلك أن الأشياء كلها ملك الله تعالى ، فهل يجوز أن يقال : كل شيء هالك إلا كل شيء ؟ بخلاف قوله : إلا ما أريد به وجهه ، فإن هذا مما تدل عليه الآية عن طريق المفهوم مع بقاءها نصا فى إثبات الوجه لله – تعالى – والله أعلم .

* * *

---

(١) الآتيان ٨٧ و ٨٨ من سورة القصص .

٣٥ – قال : « حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عمرو ، عن جابر بن عبد الله ، قال : لما نزلت هذه الآية : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) (١) قال النبى – ﷺ –: أعوذ بوجهك ، فقال : « أو من تحت أرجلكم » فقال النبى ﷺ : أعوذ بوجهك ، قال : « أو يلبسكم شيعا » فقال النبى – ﷺ – هذا أيسر »

* * *

يخوف الله – تعالى – عباده إن لم يطيعوه ، ويعبدوه وحده لاشريك له ، ويتبعوا رسوله . بأنه قادر على أن يرسل عليهم عذاباً من السماء ، كما أرسل على قوم لوط وقوم شعيب ، وغيرهم ، أو نوعا آخر مما يشاء .

وهو كذلك قادر بأن يبعث العذاب من تحتهم ، إما بخسف أو زلازل، وبراكين أو غير ذلك مما يشاء ، كما قال تعالى : (ءَأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ، أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير » (٢) وعندما سمع الرسول – ﷺ وهذا التهديد من الله تعالى – عاذ بوجه ربه الكريم أن يكون ذلك .

قال الحافظ : « وقد روى ابن مردويه ، من حديث ابن عباس ، مايفسر به حديث جابر ، ولفظه : « عن النبى – ﷺ – قال : « دعوت الله أن يرفع عن أمتى أربعا ، فرفع عنهم اثنين ، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين :– دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء ، والخسف من الأرض ، وأن لايلبسهم شيعا ، ولايذيق بعضهم بأس بعض . فرفع عنهم الخسف ، والرجم ، وأبى أن يرفع عنهم الأخريين » .

---

(١) الآية ٦٥ من سورة الأنعام .

(٢) الآيتان ١٦ و ١٧ من سورة تبارك الذى بيده الملك .

فيستفاد من هذه الرواية ، المراد بقوله : « من فوقكم ، أو من تحت أرجلكم » . ويستأنس له بقوله تعالى : (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ، أو يرسل عليكم حاصبا) [(١)] . وقد وقع أصرح من ذلك ، عند ابن مردويه ، من حديث أُبى بن كعب ، قال : فى قوله – تعالى –: (عذابا من فوقكم) قال : الرجم ، (أو من تحت أرجلكم) قال : الخسف .

وروى ابن أبى حاتم ، من طريق السدى ، عن شيوخه . أن المراد بالعذاب من فوق : الرجم ، ومن تحت : الخسف .

وأخرج عن ابن عباس : « أن المراد بالفوق . أئمة السوء ، وبالتحت ، خدام السوء » انتهى [(٢)] .

وذكر ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية أحاديث ، وآثاراً كثيرة .

قلت : فى هذه الآية الكريمة التى ترجم بها البخارى ، والحديث الذى ذكره – دليل واضح على وجوب الإيمان بوجه الله الكريم ، وقد جاءت نصوص كثيرة من كتاب الله وسنة رسوله تثبت ذلك ، ولم يزل أهل العلم والإيمان يسألون ربهم بوجهه الكريم ، ويدعونه بأن يرزقهم النظر إليه فى الجنة .

ولم ينكر ذلك إلا الجهمية ، ومن شايعهم على مذهبهم الفاسد .

قال الله تعالى –: (كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) [(٣)]

و « ذو » فى الآية . وصف للوجه ، فوصف – تعالى – وجهه الكريم بأنه ذو الجلال والإكرام . وهذا يبطل دعوى أن المراد بالوجه الذات ، كما يبطل دعوى كونه زائدا فى الكلام .

---

(١) الآية ٦٨ من سورة الإسراء .

(٢) الفتح جـ ٨ ص ٢٩٢ .

(٣) الآيتان ٢٦ و ٢٧ من سورة الرحمن .

وفى صحيح مسلم ، عن أبى موسى الأشعرى . قال : قام فينا رسول الله – ﷺ – بخمس كلمات ، فقال : « إن الله لا ينام ، ولاينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » (١) سبحات وجهه هى نوره ، وبهاؤه ، وجلاله .

وقال أبو سعيد الدارمى – رحمه الله –: « حدثنا سليمان بن حرب ، عن حماد بن زيد ، عن عطاء بن السائب ، عن أبيه ، عن عمار بن ياسر ، أن رسول الله – ﷺ كان يدعو : « اللهم إنى أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم » .

حدثنا موسى بن إسماعيل ، وغيره ، عن حماد بن سلمة ، عن ثابت البنانى ، عن عبد الرحمن ابن أبى ليلى ، عن صهيب ، عن النبى – ﷺ – « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » قال : النظر إلى وجه الله تعالى (٢) .

حدثنا أحمد بن يونس ، عن أبى شهاب الحناط ، عن خالد بن دينار ، عن حماد بن جعفر ، عن ابن عمر ، رفعه الى النبى – ﷺ – « أن أهل الجنة إذا بلغ النعيم منهم كل مبلغ ، وظنوا أن لانعيم أفضل منه ، تجلى لهم الرب ، فنظروا إلى وجه الرحمن ، فنسوا كل نعيم عاينوه ، حين نظروا إلى وجه الرحمن » .

وذكر بن إسحاق فى السيرة حديثا طويلا – فيه – « أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السماوات والأرض ، وكشفت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين » (٣) .

---

(١) انظر مسلم جـ ١ ص ١٦٢ رقم ٢٩٣ .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه بلفظ : « النظر الى الله تعالى » ، انظر جـ ١ ص ١٦٣ الحديث رقم ١٨٠ .

(٣) ذكره ابن كثير فى تاريخه جـ ٣ ص ١٩٦ .

قال أبو سعيد : وعلى تصديق هذه الآثار ، والإيمان بها ، أدركنا أهل الفقه والعلم » (١) وذكر أحاديث فى ذلك .

وقد تكاثرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بالاستعاذة بوجه الله تعالى كما فى هذا الحديث الذى ذكره البخارى ، وكما فى الموطأ ، ومسند أحمد أنه - ﷺ - كان يقول : « أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات » (٢) وفى هذا أحاديث كثيرة .

وكذلك صح عنه - ﷺ - سؤاله لذة النظر إلى وجه الله الكريم كما فى الحديث السابق وغيره .

وبهذا يتبين أن إثبات الوجه والإيمان به متعين ، وأنه داخل فى الإيمان بالله تعالى - وهو كسائر صفات الله الثابتة ، يجب معرفتها والإيمان بها بدون تأويل ، أو تشبيه ، بل على مايجب لله من الإجلال والتعظيم ليس كمثله شئ لافى ذاته ولافى أسمائه وصفاته ، ولافى أفعاله تعالى وتقدس . عن ظنون أهل الانحراف والزيغ من المؤولين والمعطلين الذين جعلوا أنفسهم هى الأصل فقاسوا عليها ماأخبر الله به عن نفسه ، وأخبر عنه رسوله فحرفوا وعطلوا .

★ ★ ★

---

(١) الرد على بشر المريسى ص ٥١٨ عقائد السلف .

(٢) الموطأ جـ ٢ ص ٩٥٠ - ٩٥١ مرسل ، والمسند موصولا جـ ٢ ص ٤١٩ وهو حسن .

قال : « باب قول الله تعالى : (ولتصنع على عينى) [١] – تغذى – وقوله – جل ذكره : (تجرى بأعيننا) [٢]

* * *

قد دل كتاب الله – تعالى – ، وسنة رسوله – ﷺ – صراحة ، وإجماع أهل العلم بالله والإيمان به ، على أن الله – تعالى – موصوف بأن له عينين ، حقيقة على مايليق بجلاله ، وعظمته .

وقد جاء ذكر العين وصفا لله – تعالى – فى القرآن مفردة ، مضافة إلى الضمير المفرد ، كما جاءت مجموعة ، مضافة إلى ضمير الجمع ، كما فى هاتين الآيتين اللتين ذكرهما البخارى .

ولم يأت ذكر العين وصفاً لله – تعالى – فى القرآن مثناة ، ولكن جاء ذلك فى الحديث عن رسول الله ﷺ ، والحديث إذا صح عن الرسول – ﷺ – وجب الإيمان بما دل عليه ، والعمل به .

قال ابن القيم : « ذكر العين مفردة ، لايدل على أنها عين واحدة ، ليس إلا كقولك : افعل هذا على عينى ، لايريد أن له عيناً واحدة .

ولما أضيفت العين إلى اسم الجمع ظاهرا ، أو مضمرا حسن جمعها مشاكلة للفظ كقوله تعالى –: (تجرى بأعيننا) [٢] وقوله تعالى : (واصنع الفلك بأعيننا) [٣] .

---

(١) جزء من الآية ٣٩ من سورة طه .

(٢) جزء من الآية ١٤ من سورة اقتربت الساعة .

(٣) جزء من الآية ٣٧ من سورة هود .

وهذا نظير لفظ اليد المضافة إلى المفرد ، كقوله : (بيده الملك) [(١)] و (بيدك الخير) [(٢)] ولما أضيفت إلى ضمير الجمع جمعت ، كقوله : تعالى - (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما) [(٣)] .

وقد جاء فى كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - ﷺ - ذكر العين مضافة إلى الله - تعالى - مفردة ، ومجموعة .

وجاءت السنة بإضافتها إليه تعالى مثناة ، كما قال عطاء : عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ - : « إن العبد إذا قام فى الصلاة ، قام بين عينى الرحمن ، فإذا التفت قال له ربه : إلى من تلتفت ؟ إلى خير لك منى » .

وقوله - ﷺ : « إن ربكم ليس بأعور » صريح بأنه ليس المراد إثبات عين واحدة ، فإن ذلك عور ظاهر ، تعالى الله عنه .

وهل يفهم من قول الداعى : اللهم احرسنا بعينك التى لاتنام ، أنها عين واحدة ليس إلا ، إلا ذهن أقلف ، وقلب أغلف ؟

وقد استدل السلف على إثبات العينين لله - تعالى - بقوله جل وعلا : (تجرى بأعيننا) ، وممن صرح بذلك أبو الحسن الأشعرى فى الإبانة ، والموجز ، والمقالات » [(٤)]

قوله : تعالى : (ولتصنع على عينى) فسر البخارى « تصنع » بتغذى ، من التغذية يقال صنعت الفرس إذا أحسنت القيام عليه » [(٥)] .

---

(١) جزء من الآية مفتتح سورة تبارك الذى بيده الملك .

(٢) جزء من الآية ٢٦ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٧١ من سورة يس .

(٤) مختصر الصواعق ص ٢٤ ط الإمام .

(٥) الفتح جـ ١٣ ص ٣٨٩ .

قال ابن كثير : (ولتصنع على عينى) قال أبو عمران الجونى : تربى بعين الله تعالى .

وقال قتادة : تغذى على عينى .

وقال معمر بن المثنى : (ولتصنع على عينى) بحيث أرى .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : « يعنى أجعله فى بيت الملك ، ينعم ويترف غذاؤه عندهم غذاء الملك ، فتلك الصنعة » (١)

وأسند ابن جرير هذه الأقوال ، وروى عن ابن جريج : أنت بعينى إذ جعلتك أمك فى التابوت ، ثم فى البحر . واختار قول قتادة .

وقال : « وعنى بقوله : « على عينى » بمرأى منى ، ومحبة ، وإرادة » (٢) .

قوله « تجرى بأعيننا » قال ابن جرير : « يقول - جل ثناؤه : تجرى السفينة التى حملنا نوحا فيها ، بمرأى منا ، ومنظر » (٣)

قلت : وكذا قال غيره من المفسرين ، ومن لازم الرؤية والنظر وجود العين ففى هاتين الآيتين ، وغيرهما من نصوص كتاب الله وحديث رسوله كثير . إثبات العينين لله تعالى اللتين ينظر بهما إلى مايريد ، ولايحجب نظره حاجب . وقد تقدم وجه الجمع والإفراد فى ذلك .

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٢٧٨ ط الشعب .

(٢) تفسير الطبرى جـ ١٦ ص ١٦٢ - ١٦٣ ط الحلبى .

(٣) المرجع جـ ٢٧ ص ٦٤ .

٣٦ – قال : « حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا جويرة ، عن نافع ، عن عبد الله ، قال : ذكر الدجال عند النبى ﷺ – فقال : « إن الله لايخفى عليكم ، إن الله ليس بأعور ، وأشار بيده إلى عينه ، وأن المسيح الدجال أعور عين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية »

* * *

الدجال : الكذاب ، ودجله ، سحره وكذبه ، لأنه يدجل الحق بالباطل – أى يغطيه ، وهو رجل من اليهود ، يخرج فى آخر هذه الأمة كما جاءت الأحاديث بذلك عن النبى ﷺ .

قال أبو على القالى : عن ابن دريد : « كل شيء غطيته فقد دجلته ، ومنه اشتقاق دجلة ، كأنها غطت الأرض إذ فاضت عليها .

والدجال من هذا الاشتقاق ، لأنه يغطى الحق بالباطل .

وقال قوم : سمى بذلك لأنه يغطى الأرض بكثرة جموعه .

وقال آخرون : « يغطى على الناس بكفره » (١) .

وقال الحافظ : الدجال : فعال بفتح أوله ، والتشديد ، من الدجل ، وهو التغطية وسمى الكذاب دجالا لأنه يغطى الحق بباطله .

وقال ثعلب : « الدجال : المموه » (٢) .

قوله : (إن الله لايخفى عليكم) المؤمن بالله وبأوصافه التى تعرف بها إلى عباده لايخفى عليه رب العالمين ، فهو تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ليس له كفؤ ولانِدّ ، فلا يمكن أن يشابه المخلوق الضعيف ، المحتاج

---

(١) البارع ص ٣٥ .

(٢) الفتح ١٣ ص ٩١ .

الناقص ، وكل مخلوق له صفة الضعف والحاجة والنقصان ، ولا بد ، تعالى عن مشابهة خلقه علوا كبيرا .

قوله : « إن الله ليس بأعور » هذه الجملة هى المقصودة من الحديث فى هذا الباب . فهذا يدل على أن لله عينين حقيقة ، لأن العور فقد أحد العينين ، أو ذهاب نورها .

قال فى القاموس : « العور ذهاب حسن إحدى العينين ، والردىء من كل شىء . والضعيف الجبان البليد الذى لايدل ، ولايندل ، ولاخير فيه » (١)

وعلى كل العور نقص وعيب فى الاتفاق ، والمقصود أنه فى اللغة هو ذهاب ضوء إحدى العينين .

ولهذا صار هذا الحديث من الأدلة الواضحة على إثبات تثنية العين لله تعالى ويزيد ذلك وضوحا ، إشارته ﷺ إلى عينه لتحقيق الوصف . يعنى أن لله عينين سالمتين من كل عيب كاملتين ، بخلاف الدجال الفاقد لإحدى عينيه ، وذلك من أعظم الأدلة على كذبه .

قال ابن المنير : « وجه دلالة الحديث على إثبات العين لله ، من حديث الدجال من قوله : « إن الله ليس بأعور » من جهة أن العور عرفا عدم العين ، وضد العور ثبوت العين ، فلما نزعت هذه النقيصة لزم ثبوت الكمال بضدها وهو وجود العين » (٢) .

قلت : الحديث فيه إثبات العينين لله تعالى ، لا عين واحدة كما قد يوهمه كلامه .

وقوله : « عرفا » بل هو لغة قبل العرف .

---

(١) القاموس جـ ٢ ص ٩٧ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٣٩٠ .

« وقال شهاب الدين السهروردى فى كتاب العقيدة له : أخبر الله فى كتابه وثبت عن رسوله ، الاستواء ، والنزول ، والنفس ، واليد ، والعين ، فلا يتصرف فيها بتشبيه ، ولاتعطيل ، إذ لولا إخبار الله ورسوله ، ماتجاسر عقل أن يحوم حول ذلك الحمى » .

« قال الطيبى : هذا هو المذهب المعتمد ، وبه يقول السلف الصالح » .

وقال غيره : لم ينقل عن النبى ﷺ . ولا عن أحد من أصحابه من طريق صحيح التصريح بوجوب تأويل شىء من ذلك ، ولا المنع من ذكره .

ومن المحال أن يأمر الله نبيه بتبليغ ما أنزل إليه من ربه ، وينزل عليه (اليوم أكملت لكم دينكم) ثم يترك هذا الباب ، فلا يميز مايجوز نسبته إليه مما لا يجوز ، مع حضه على التبليغ عنه بقوله : « ليبلغ الشاهد الغائب » حتى نقلوا أقواله ، وأفعاله ، وأحواله ، وصفاته ، ومافعل بحضرته .

فدل على أنهم اتفقوا على الإيمان بها ، على الوجه الذى أراده الله منها .

ووجب تنزيهه عن مشابهة المخلوقات ، بقوله : تعالى - (ليس كمثله شىء) فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم ، فقد خالف سبيلهم ، وبالله التوفيق » انتهى (١)

قال الإمام ابن خزيمة : « بيَّن النبى - ﷺ - أن لله عينين ، فكان بيانه موافقا لبيان محكم التنزيل » .

ثم ذكر بسنده حديث أبى هريرة ، وقرأ قوله تعالى -: (إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا) . رأيت رسول الله - ﷺ - يضع إبهامه على أذنه ، وإصبعه التى تليها على عينه » (٢) .

---

(١) المرجع المذكور .
(٢) كتاب التوحيد\ص ٤٢ ، ٤٣ .

قوله : « كأن عينه ، عينة طافية » أى قد ذهب ماءها ، فهى ضامرة ، ملتوية ولهذا جاءت الأحاديث بوصفه ، بأنه ممسوح العين ، كما فى سنن أبى داود ، عن عبادة بن الصامت ، أن رسول الله – ﷺ – قال : « إنى قد حدثتكم عن الدجال ، حتى خشيت أن لاتعقلوا إن مسيح الدجال رجل قصير ، أفحج ، جعد ، أعور ، مطموس العين ، ليست بناتئة ، وجحراء ، فإن لبس عليكم فاعلموا أن ربكم ليس بأعور » (١)

فى هذا بيان أن عينه – قبحه الله – قد ذهب ماءها ، فضمرت ، وبقيت سادة مكانها ، لم تكن غائرة ، ولاناتئة ، مرتفعة ، وهذا هو وصف العنبة إذا ذهب ماؤها .

* * *

---

(١) سنن أبى داود جـ ٤ ص ٤٩٦ .

٣٧ – قال : « حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا شعبة ، أخبرنا قتادة ، قال : سمعت أنسا – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال : « مامن نبى إلا أنذر قومه ، الأعور الكذاب أنه أعور ، وأن ربكم ليس بأعور ، مكتوب بين عينه كافر » .

* * *

الإنذار : هو الإخبار مع التخويف ، وفى قوله : « مامن نبى » عموم يشمل جميع النبيين ، وهو يدل على عظم فتنته ، وخطره .

وقوله : « الأعور الكذاب » تقدم أن الأعور ، من عميت إحدى عينيه بآفة ، فأصبح لا يرى إلا بعين واحدة .

ووصف بأنه الكذاب لعظم كذبه ، حيث زعم أنه رب الناس ، مع ظهور كذبه وهو يتدرج فى كذبه ، فأولا : يدعى أنه مصلح ، ثم يدعى أنه نبى ، ثم يدعى أنه إله ، وهذا أعظم الكذب ، وأبينه .

وقد عين رسول الله – ﷺ – عينه العوراء ، أنها اليمنى ، كما فى حديث عبد الله بن عمر ، الذى قبل هذا وغيره .

واعلم أن المتكلمين من المعتزلة ، والأشعرية ، ونحوهم ، يزعمون أن من أثبت لله عينين ، ويدين ، ووجه ، ونحو ذلك مما جاءت به النصوص ، من أثبت ذلك على ظاهر اللفظ . أنه يثبت جوارح ، تشبه جوارح الخلق على حد زعمهم ، تعالى الله وتقدس عن زعمهم ، وظنهم السيء فى الله ورسوله ، حيث ظنوا أن ظاهر وصف الله نفسه ، وظاهر وصف رسوله إياه يقتضى التشبيه ، ولهذا تجد الذين تلقوا هذا الفكر ، وتأثروا به ، من الذين يشتغلون بالحديث إذا جاء ذكر ذلك قالوا : مثلا إثبات صفة اليد لامن حيث الجارحة ، إثبات صفة الوجه ، لا من حيث الجارحة ونحو ذلك كما يقوله البيهقى فى كتابه الأسماء

والصفات ، وسائر شراح الحديث الذين لايجرؤون على رد النصوص ، فهم عند مايتكلمون على مثل هذه النصوص يبادرون إلى نفى الجارحة ، كما قال بعض زعماءهم مايلى :

« زعم قوم ، أن لله عينا ، يريدون كجارحة العين ، من الإنسان ، وأرادوا التركيب ، واحتجوا بقوله تعالى -: (ولتصنع على عينى) [١] ، (واصنع الفلك بأعيننا) [٢] (واصبر لحكم ربك ، فإنك بأعيننا) [٣] .

قال أبو سعيد الدارمى - رحمه الله - تعالى - فى الرد عليه : « أما ما ادعيت أن قوما يزعمون أن لله عينا ، فإنا نقوله ، لأن الله - تعالى قاله ، ورسوله .

وأما زعمك أنهم يثبتون جارحة كجارحة العين ، من الإنسان ، على التركيب . فهذا كذب ، ادعيته علينا عمداً ، وأنت تعلم أن أحداً لم يقله ، ولكنك تريد التشنيع ، ليكون هنالك مقبولا لدى الجهال ، والكذب لايصلح منه جد ولاهزل ، فمن الذى قال : إنها جارح مركب ؟ اذكره ، فإن قائله كافر .

وكم تشنع بما تقرر ، من قولك : جسم مركب ، وجوارح ، وأجزاء ، وأبعاض تريد أن يكف المؤمنون ، عن وصف الله - تعالى - بما وصف به نفسه ، فى كتابه وما وصفه به رسوله .

ونحن لم نصف الله بجسم كأجسام المخلوقين ، ولا بعضو ، ولا بجارحة . لكنا نصفه بما يغيضك من هذه الصفات ، التى أنت ودعاتك لها منكرون فنقول : إنه الواحد الأحد ، الفرد ، الصمد ، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، ذو الوجه الكريم ، والسمع السميع ، والبصير البصير » [٤] .

---

(١) جزء من الآية ٣٩ من سورة طه .

(٢) جزء من الآية ٣٧ من سورة هود .

(٣) الآية ٤٨ من سورة الطور .

(٤) نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسى بتصرف ص ٥٤٥ - ٥٤٦ عقائد السلف .

وقوله : « إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور » اشتملت هذه الجملة على تأكيد وصف الدجال ، الكذاب ، بأنه أعور العين ، أى أنه ناقص ، معيب ، قد لحقه الضر لفقد إحدى عينيه ، فمثله محال أن يكون إلهاً ، لأنه فقير محتاج إلى غيره ، بالإضافة إلى النقص والعيب الذى فيه ، وقد جاء بأعظم الكذب والبهتان ، حيث ادعى أنه إله ، يتوجه إليه ، بطلب الإسعاد ، وصرف الشقاء .

كما اشتملت هذه الجملة من الحديث ، على وصف الله تعالى بكمال العينين . ولهذا قال – ﷺ –: « وإن ربكم ليس بأعور » .

فهذا بيان واضح بوصف الله – تعالى – بأن له عينين كاملتين ، على ما يليق بعظمته .

قال النووى : « هذه علامة بينة تدل على كذب الدجال ، دلالة قطعية ، بديهية ، يدركها كل أحد » (١)

قوله : « مكتوب بين عينيه كافر » وفى رواية « يقرأه كل مؤمن ، كاتب ، وغيره كاتب »

قال النووى : « والصحيح الذى عليه المحققون أن هذه الكتابة على ظاهرها ، وأنها كتابة حقيقية ، جعلها الله آية ، وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره ، وكذبه وإبطاله ، يظهرها الله – تعالى – لكل مسلم كاتب ، وغير كاتب ، ويخفيها عمن أراد شقاوته وفتنته ولا امتناع فى ذلك » (١) .

وهذا من رحمة الله بعباده ، حيث أظهر علامات كذبه ، إظهاراً لايخفى إلا على من أريد فتنته ، وعمى قلبه ، واشرب بحب الباطل ، نسأل العافية فى الدنيا والآخرة .

★ ★ ★

---

(١) شرح مسلم جـ ١٨ ص ٦٠ .

قال : « باب قول الله تعالى : « هو الله الخالق البارىء المصور »

* * *

قال ابن جرير : يقول – تعالى ذكره – : هو المعبود الخالق ، الذى لا معبود تصلح له العباده غيره ، ولاخالق سواه ، البارىء الذى برأ الخلق فأوجدهم بقدرته ، المصور خلقه كيف شاء ، وكيف يشاء » [1]

ومراد البخارى بهذا بيان أن الله – تعالى – متصف بأنه الخالق ، البارىء ، المصور فى الأزل ، والأبد ، فهو الخالق قبل وجود المخلوق ، وهو البارىء قبل وجود المبرى ، وهو المصور قبل وجود المصور ، فهو تعالى لم يزل بصفاته ولا يزال ، كما يريد أيضا بيان أن الخلق الذى هو وصفه تعالى غير المخلوق ، خلافا لأهل البدع الذين يشير بهذا إلى الرد عليهم .

قال الزجاج : « أصل الخلق فى الكلام : التقدير ، يقال : خلقت الشىء خلقا ، إذا قدرته ، كما قال زهير :

لأنت تفرى ماخلقت وبعـــ ـــض القوم يخلق ثم لايفرى

يعنى : أنك إذا قدرت الأمر مضيت فى عزمك وفعلته ، ولست ممن يقدر الأمر ثم لايعزم على فعله ، بل ينثنى عن ذلك .

فالخلق فى اسم الله – تعالى – هو ابتداء تقدير النشء .

فالله تعالى خالقها ، ومنشئها ، وهو متممها ، ومدبرها ، فتبارك الله أحسن الخالقين

« البارىء » يقال : برأ الله الخلق إذا فطرهم .

والبرء خلق على صفة ، فكل مبروء . مخلوق ، وليس كل مخلوق مبروء ، لأن البرء من تبرئة الشىء من الشىء ، كما يقال برأت من المرض ، ومن الدين .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٨ ص ٥٦ .

فإذا فصل بعض الخلق من بعض ، سمى فاعله بارئاً .

فهو المعنى الذى به انفصلت الصورة بعضها من بعض ، فصورة زيد مفارقة لصورة عمرو ، وصورة حمار مفارقة لصورة فرس ، فتبارك الله خالقاً بارئاً .

« المصور » أى مصور كل صورة ، لا على مثال احتذاه ، ولارسم ارتسمه « تعالى عن ذلك علوا كبيرا » (١) أى أنه لم يتقدمه أحد فعل ذلك ، لاتقديرا ، ولا إظهاراً ، وإيجادا .

وقال الحافظ : « قال الطيبى : قيل : الألفاظ الثلاثة مترادفة ، وهو وهم .

فإن الخالق : من الخلق ، وأصله التقدير المستقيم ، ويطلق على الإبداع ، وهو إيجاد الشيء على غير مثال ، كقوله تعالى : (خلق السماوات والأرض) .

وعلى التكوين ، كقوله – تعالى :– (خلق الإنسان من نطفة) .

و « البارىء » من البرء ، وأصله خلوص الشيء عن غيره ، إما على سبيل الخلوص منه ، كبرء الرجل من مرضه ، والمديون من دينه .

أو على سبيل الإنشاء كبرء الله النسمة .

و « المصور » مبدع صور المخترعات ، ومرتبها على حسب مقتضى الحكمة ، فالله – تعالى – خالق كل شيء بمعنى أنه موجده من أصل ، ومن غير أصل ، وبارئه ، بحسب ماتقتضيه الحكمة ، من غير تفاوت ، ولا اختلال ، ومصوره فى صورة يترتب عليها خواصه ويتم بها كماله .

فالتقدير يقع أولا ، ثم الأحداث على الوجه المقدر يقع ثانيا ، ثم التصوير بالتسوية يقع ثالثا » (٢) .

---

(١) تفسير أسماء الله الحسنى ببعض التصرف ص ٢٦ – ٢٧ .

(٢) فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٩١ ملخصا .

وبهذا يتبين الفرق بين هذه الأسماء الثلاثة : فالخالق : مبدع الأشياء على غير مثال سابق ، والبارىء ، موجد الأشياء ، ومظهرها إلى الوجود ، من أصل ومن غير أصل ، والمصور : الذى خص كل مخلوق بما يميزه عن الآخر ، وما تحصل به مصلحته ، كما قال تعالى : (الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) [1] ويظهر أن « البارىء » أخص من « الخالق » كما تقدم فى كلام الزجاج ما يشير إلى ذلك ، وإذا أضيف الخلق إلى الإنسان ، فمعناه التقدير ، ويأتى بمعنى الكذب .

★ ★ ★

(١) الآية ٥٠ من سورة طه .

٣٨ – قال « حدثنا إسحاق ، حدثنا عفان ، حدثنا وهيب ، حدثنا موسى – هو ابن عقبة – حدثنى محمد بن يحي بن حبان ، عن ابن محيريز ، عن أبى سعيد الخدرى ، فى غروة بنى المصطلق ، أنهم أصابوا سبايا ، فأرادوا أن يستمتعوا بهن ، ولايحملن ، فسألوا النبى ﷺ – عن العزل ، فقال : ماعليكم أن لاتفعلوا ، فإن الله قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة ، وقال مجاهد : عن فزعة ، سمعت أباسعيد ، فقال : قال النبى ﷺ : « ليست نفس مخلوقة ، إلا الله خالقها » .

* * *

« العزل » : هو إنزال الماء خارج فرج المرأة ، خوفا أن تحمل .

قال الحافظ : « هو النزع بعد الإيلاج لينزل خارج الفرج » (١) .

« قوله : ماعليكم أن لاتفعلوا » أى لايضركم عدم العزل ، لأن ماقدره الله – تعالى – من الخلق ، فلابد من وجوده ، عزل الإنسان أو لم يعزل ، يوضحه مافى رؤية مسلم فقال : « لاعليكم أن لاتفعلوا ، ماكتب خلق نسمة هى كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون » (٢) .

وفى قصة الرجل الذى سأل عن العزل ، عن جاريته ، فقال رسول الله – ﷺ : « إن ذلك لن يمنع شيئا أراده الله » (٢)

قال الحافظ : وفى رواية « لا عليكم أن لاتفعلوا » أى لاحرج عليكم أن لاتفعلوا العزل . ففيه نفى الحرج عن عدم الفعل ، فأفهم ثبوت الحرج فى فعل العزل .

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٣٠٥ .

(٢) مسلم مع النووى جـ ١٠ ص ١٠ .

ولو أراد نفى الحرج عن العزل لقال : « لا عليكم أن تفعلوا »[١] .

وفى مسلم لما ذكر هذا الحديث « قال محمد : وقوله : « لاعليكم » أقرب إلى النهى . ومحمد هذا هو ابن حاتم . وفيه أيضا وقال ابن عون : فحدثت به الحسن . فقال : والله لكأن هذا زجر »[٢] .

وقوله : « فإن الله قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة » . هذا يبين عدم فائدة العزل ، لأن كل نفس قدر الله – تعالى – خلقها ، لا بد أن يخلقها ، عزلتم أم لا ، ومالم يشأ خلقها ، لا يقع ولو لم يعزلوا ، فإن كان الله أراد أن يخلق فى تلك المقارنة وذلك الوقت ، فلابد من وجود ذلك ولو حرصتم كل الحرص على عدم الإنزال فى الرحم ، فلا غالب على أمره ، وهو الخالق وحده .

وهذا هو وجه استدلال البخارى فى الحديث ، فإن الله تعالى هو الخالق البارىء المصور وحده ، وأن كلا من الأب والأم ، لادخل لهما فى ذلك ، بل الله تعالى ، هو الذى يقدّر خلق هذا المخلوق شاء الناس ذلك أو لم يشاؤوا وأنه تعالى – هو بارىء النسمة من الذكر والأنثى ، أو مما يشاء ، والخلق كلهم لا يستطيعون فعل شىء من ذلك .

وهو تعالى ، المصور لهذا الإنسان ، السوى ، من نطفة متساوية الأجزاء لو اجتمع عليها أمهر الأطباء ، بكل ماأوتوا من علوم ، وآلات ، وإمكانيات لم يستطيعوا أن يصوروا منها شيئا حياً ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

فإن قيل : قد يتحكم الإنسان بالحمل إما بالعقاقير أو بوسائل أخرى . فجوابه أن ذلك من تقدير الله تعالى ، ولا يمكن أن يكون شىء خارجا عن مشيئته وتقديره ، وإذا أراد أن يخلق مخلوقاً فلا بد من وجوده ، وإن استعملت الوسائل المانعة لذلك .

---

(١) الفتح جـ ٩ ص ٣٠٧ .

(٢) مسلم مع النووى جـ ١٠ ص ١١ .

« قال ابن بطال : الخالق فى هذا الباب ، يراد به المبدع المنشىء لأعيان المخلوقين ، وهو معنى ، لايشارك الله فيه أحد » .

« وقال الكرمانى : « معنى قوله : إلا وهى مخلوقة ، أى مقدرة الخلق ، أو معلومة الخلق عند الله - تعالى - لابد من إبرازها إلى الوجود » [١] .

قال شيخ الإسلام : « والذى عليه جماهير المسلمين من السلف ، والخلق : أن الخلق غير المخلوق ، فالخلق فعل الخالق ، والمخلوق مفعوله ، ولهذا كان النبى ﷺ يستعيذ بأفعال الرب وصفاته ، كما فى قوله ﷺ :- « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك ، لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » [٢] فاستعاذ بمعافاته كما استعاذ برضاه .

وقد استدل أئمة السنة كأحمد وغيره ، على أن كلام الله غير مخلوق ، بأنه استعاذ به ، فكذلك معافاته ورضاه غير مخلوقة ، لأنه استعاذ بهما ، والعافية القائمة ببدن الإنسان مخلوقة ، فإنها نتيجة معافاته » [٣] .

وسيأتى إن شاء الله تعالى بسط ذلك وإيضاحه فى محله .

* * *

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٩٢ .
(٢) تقدم تخريجه .
(٣) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

قال : باب قول الله – تعالى –: « لما خلقت بيدى »

* * *

أراد رحمه الله – بهذه الترجمة بيان ما أثبته الله – تعالى – لنفسه ، من صفة اليدين ، وأثبته له رسوله – ﷺ – على ظاهر مانطقت به النصوص ، المتنوعة الدلالة فى ذلك ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

قال الله تعالى : (وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غُلَّت أيديهم ولُعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » [١] .

وقال – تعالى : (وماقدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) [٢] .

وقال تعالى : (يد الله فوق أيديهم) [٣] (بيدك الملك) [٤] (بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) [٥] فى آيات كثيرة ، وقد ذكر البخارى فى ذلك عدة أحاديث .

★ ★ ★

---

(١) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

(٣) جزء من الآية ١٠ من سورة الفتح .

(٤) فاتحة سورة الملك .

(٥) جزء من الآية ٢٦ من سورة آل عمران .

٣٩ – قال : « حدثنى معاذ بن فضالة ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن أنس ، أن النبى ﷺ – قال : « يجمع الله المؤمنين يوم القيامة ، كذلك ، فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ، حتى يريحنا من مكاننا هذا .

فيأتون آدم ، فيقولون : ياآدم ، أما ترى الناس ؟ خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلَّمك أسماء كل شيء ، اشفع لنا إلى ربنا ، حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول : لست هناك ، ويذكر خطيئته التى أصاب ، ولكن ائتوا نوحا ، فإنه أول رسول بعثه الله ، إلى أهل الأرض ، فيأتون نوحا ، فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته التى أصاب ، ولكن ائتوا إبراهيم – خليل الرحمن – ، فيأتون إبراهيم فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطاياه التى أصاب ، ولكن ائتوا موسى ، عبدا آتاه التوراة وكلمه تكليما ، فيأتون موسى ، فيقول : لست هناكم ، ويذكر لهم خطيئته التى أصاب ولكن أئتوا عيسى – عبد الله ورسوله – وكلمته ، وروحه .

فيأتون عيسى ، فيقول : لست هناكم ، ولكن ائتوا محمداً ، عبداً غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ، فيأتونى ، فأنطلق ، فأستأذن على ربى ، فيؤذن لى ، فإذا رأيت ربى وقعت له ساجداً ، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى .

ثم يقال لى : ارفع محمد ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع .

فأحمد ربى بمحامد علمنيها ، ثم أشفع ، فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة ، ثم أرجع فإذا رأيت ربى وقعت ساجدا ، فيدعنى ماشاء الله أن

يدعنى ، ثم يقال : ارفع محمد ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأحمد ربى بمحامد علمنيها ربى ، ثم أشفع ، فيحد لى حداً ، فأدخلهم الجنة .

ثم أرجع فإذا رأيت ربى وقعت ساجداً ، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ثم يقال : ارفع محمد ، قل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأحمد ربى بمحامد علمنيها ، ثم أشفع ، فيحد لى حداً ، فأدخلهم الجنة .

ثم أرجع فأقول : ياربى مابقى فى النار إلا من حبسه القرآن ، ووجب عليه الخلود .

قال النبى – ﷺ –: يخرج من النار من قال : لاإله إلا الله ، وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة .

ثم يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان فى قلبه من الخير مايزن برة .

ثم يخرج من النار ، من قال : لا إله إلا الله ، وكان فى قلبه ، مايزن من الخير ذرة »

* * *

هذا حديث الشفاعة المشهور ، وقد ذكره البخارى فى أماكن متعددة من جامعه . والمقصود منه هنا ، قوله : « خلقك الله بيده » حيث جعل ذلك ميزة لآدم من بين الخلق ، فدل على أن اليد هنا على ظاهرها ، يد ، حقيقة ، ولو كانت كما يقول أهل التأويل : أنها القدرة ، لم يكن لآدم اختصاص بذلك ، إذ الخلق كلهم مخلوقون بقدرة الله تعالى .

قوله : « يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك » قال الحافظ : « هكذا للجميع ، وأظن أول هذه الكلمة لام – أى لذلك – والإشارة ليوم القيامة ، أو لما يذكر بعد .

وعند مسلم : « يجمع الله المؤمنين ، يوم القيامة ، فيهتمون لذلك – وفى رواية « يلهمون لذلك » (١)

ومعنى : يهتمون ، ويلهمون متقارب – أى أنهم يعنون بسؤال الشفاعة وإزالة الكرب ، الذى هم فيه ، أو أن الله تعالى يلهمهم سؤال ذلك ، والإلهام : أن يلقى الله – تعالى – فى النفس أمراً يحمل على فعل الشىء أو تركه » (٢) .

قوله : « فيقولون : لو استشفعنا إلى ربنا ، حتى يريحنا من مكاننا هذا » هذا هو الذى يهتمون له – أو يلهمونه – أى لو طلبنا ممن هو موجود معنا من الرسل الذين لهم مقام عند الله من يشفع لنا عند ربنا ، ليريحنا من عناء هذا الموقف وكرباته ، فيحاسبنا ربنا ، ويجزينا بأعمالنا ، ومانستحق ، ثم نصير إلى منازلنا .

قوله : فيأتون آدم » إلى عيسى ، وكلهم يعتذر ، ويذكر لهم ذنبه .

فآدم عليه السلام يقول : نهانى عن الأكل من الشجرة فعصيته ، ونوح – عليه السلام يقول : دعوت على قومى ، فأغرقوا ، وسألت ما ليس لى به علم ، وإبراهيم عليه السلام يقول : كذبت ثلاث كذبات ، مع أنهن فى سبيل الله ، وهن : قوله : (بل فعله كبيرهم هذا) وقوله : (إنى سقيم) وقوله : للظالم العنيد لما سأله عن زوجته ، قال إنها أختى ، لأنها أخته فى الإسلام ، ولو قال : إنها زوجته لأخذها منه ذلك الظالم .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٣٩٤ .

(٢) النووى على مسلم جـ ٣ ص ٥٣ .

وموسى – عليه السلام – يقول : قتلت نفسا بغير حق ، ولم يذكر لعيسى عليه السلام ذنباً ، وهذا كله مع قوله عيسى عليه السلام « ولكن ائتوا محمداً عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه ، وما تأخر » يدل على وقوع الذنوب من الأنبياء ، وهؤلاء المذكورون هم أفضل الأنبياء ، وهى مسألة مشهورة ، ولا خلاف أن الكفر بعد النبوة غير واقع منهم ، كما أنه لا خلاف فى عصمتهم فيما يبلغونه عن طريق القول . وأما الفعل ، فقد يقع منهم السهو أو النسيان ، أو الخطأ الذى لايقرون عليه كما أنهم محفوظون من الذنوب ، التى تزرى بفاعلها ، وتسقط مروءته .

وأما الصغائر فجائز وقوعها منهم ، كما دل عليه هذا الحديث فى الجملة ، وغيره من النصوص الكثيرة . والله أعلم . وقد تطرف بعض شراح الكتاب وزعم أن من قال بهذا أنه كافر .

ويدل على عظم الأمر ، كيف اعتذر من هم أفضل البشر عن الشفاعة معتلين بذنوب ، أكثر الخلق لايعدها ذنوبا ، وهم قد تابوا منها ، واستغفروا ربهم فغفر لهم . وهذا يدل على عظم الله وعظيم قدره فى قلوبهم ، وعلى صعوبة الموقوف بين يدى الله وشدته ، فهل يفهم هذا من يهرع إلى قبور الموتى يطلبون منهم مالايطلبه أولوا العزم من الرسل .

وقول كل واحد منهم : « لست هناكم » أى لست كما تظنون أنى أستطيع أن أشفع لكم ، فليس ذلك عندى .

قوله : « فأنطلق ، فاستأذن على ربى ، فيؤذن لى عليه » يدل على أنه – ﷺ – يقصد مكانا معينا ، يرى فيه ربه ، وسيأتى فى باب الرؤية فى هذا الحديث « فأستأذن على ربى فى داره » وقد قيل : إن المراد بداره هنا الجنة . فالله أعلم .

قوله : « فإذا رأيت ربى وقعت له ساجداً » صريح فى أن الرسول – ﷺ – يرى ربه عيانا فى ذلك الموقف ، وسيأتى ذلك إن شاء الله تعالى .

قوله : « فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ، ثم يقال لى : ارفع محمد ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع » أى أن الله تعالى يمهل له فى السجود ، فيبقى ساجدا وقتا طويلا ، يسبح ربه ، ويمجده ، ويثنى عليه ، ويحمده ، فلا يرفع رأسه من سجوده حتى يأمره الله تعالى برفعه ، ثم يأذن له – تعالى – بأن يطلب من ربه مراده وقد علم الله مقصده ، ولهذا قال له : واشفع تشفع ، وهذا كله من رحمته تعالى . فهو الذى ألهم عباده طلب الشفاعة من الأنبياء ، وهو الذى أذن فى الشفاعة وقبلها ، وحقيقة الأمر هو إرادة الله تعالى رحمة الخلق وإراحتهم من عناء الموقف ، وإظهار كرامة محمد ﷺ للخلق فى ذلك الموقف العظيم ، وإلا فالشفاعة كلها لله .

قوله : « فأحمد ربى بمحامد علَّمنيها » قد تقدم أن هذا يدل على عدم حصر أسماء الله الحسنى ، فى تسع وتسعين ، لأن هذه المحامد بأسمائه الحسنى وصفاته العليا . وقد جاء فى الرواية الأخرى : « فيفتح الله عليّ من المحامد والثناء مالا أحسنه الآن » .

قوله : « ثم أشفع ، فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة » أى أن الله تعالى يعين له من يشفع فيهم ، وهذا من الأدلة الواضحة على أن الرسول – ﷺ – لا يشفع فيمن يريد ، بل لمن يأذن الله له فى الشفاعة فيهم ، وبذلك يتبين أن الشفاعة لله جميعا ، كما صرحت بذلك آيات من كتاب الله تعالى : قال تعالى : (أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لايملكون شيئا ولا يعقلون . قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ثم إليه ترجعون) (١) .

وقال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ، ولا فى الأرض ، ومالهم فيهما من شرك ، وماله منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا من أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا

---

(١) الآيتان ٤٣ و ٤٤ من سورة الزمر .

الحق وهو العلى الكبير) [١] .

بهذه الآية يتبين أن المدعو يجب أن يكون مالكا لما يدعى من أجله ، وإلا كانت دعوته ضلالاً مبينا ، فإن لم يكن مالكا يكون مشاركا للمالك ، فإن انتفى الأمران ، يكون معاونا ، وظهيرا مساعدا للمالك فإن لم يكن ذلك ، فلا أقل من أن يكون شافعا مقبول الشفاعة عند من يملك المطلوب ، فنفى الله – تعالى – عن المدعوين من دونه هذه الأمور الأربعة ، وبين أن الشفاعة لا تنفع إلا بعد إذنه ، وهو جل وعلا ، لا يأذن فى الشفاعة إلا لمن رضى عمله ، وهم أهل الإخلاص ، ومتابعة الرسول . وهو تعالى لا يرضى عن المشرك ، الذى يدعو غير الله تعالى .

فيجب على العاقل الذى تعز عليه نفسه أن لايغتر بما اغتر به كثير من الناس الذين يعتمدون على الشفاعة ، مع ماهم فيهم من المعاصى ، فأفضل الشفعاء يحد الله له حدا ، يقول : هؤلاء اشفع فيهم .

قوله : « فأقول : يارب مابقى إلا من حبسه القرآن ، ووجب عليه الخلود » – أى أن أهل التوحيد الذين استحقوا دخول النار بذنوبهم قد خرجوا منها بالشفاعة التى حقيقتها رحمة الله إياهم ، بواسطة الشفاعة ليظهر كرامة الشافع كما تقدم ، وبقى من نص القرآن على أنه من أهل النار ، الذين لا تنالهم شفاعة الشافعين .

قوله : « يخرج من النار من قال : لاإله إلا الله ، وكان فى قلبه من الخير مايزن شعيرة إلى قوله – مايزن برة » يدل على أن مجرد قول لا إله إلا الله ، من دون أن يقوم فى القلب شىء من الإيمان ، لا ينفع ، ولا يخرج من النار ، فالمقصود بالخير ، الإيمان الذى يقوم فى القلب ، وإن قلّ .

كما أنه يدل دلالة واضحة على تفاوت الإيمان وتفاضله ، وأن أهل الكبائر من المؤمنين يدخل من يدخل منهم النار ثم يخرجون منها . والله أعلم .

★ ★ ★

---

(١) الآيتان ٢٢ و ٢٣ من سورة سبأ .

٤٠ – قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « يد الله ملآى ، لايغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، وقال : أرأيتم ماأنفق منذ خلق السماوات والأرض ، فإنه لم يغض مافى يده .

وقال : عرشه على الماء ، وبيده الأخرى الميزان ، يخفض ، ويرفع » .

* * *

جاء فى أول هذا الحديث فى تفسير سورة هود (أنفق أنفق عليك) (١)

وسيأتى كذلك ، فى باب قوله تعالى : (يريدون أن يبدلوا كلام الله) .

وهو عند مسلم بلفظ « أن الله قال لى : أنفق أنفق عليك – وقال رسول الله ﷺ –: « يمين الله ملآى » إلى آخره (٢) .

وسيأتى فى باب « وكان عرشه على الماء » . بلفظ : « إن يمين الله ملآى ، لايغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ماأنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم ينقص مافى يمينه ، وعرشه على الماء ، وبيده الأخرى الفيض – أو القبض يرفع ويخفض » وهو أبلغ فى الدلالة على إثبات اليدين لله تعالى من ماهاهنا .

وقد اضطرب أهل التأويل فى تأويلهم اليد اضطرابا يدل على أنهم على باطل .

والعاقل المنصف يعجب إذا رأى ماكتبه ابن حجر فى شرحه لهذا الباب ،

---

(١) انظره مع الفتح جـ ٨ ص ٣٥٢ .

(٢) انظر مسلم جـ ٢ ص ٦٩١ الحديث رقم ٣٧ ، وص ٦٩٠ الحديث رقم ٣٦ .

فإنه ذكر بعض أقوال أئمة الأشعرية ، ثم قال : « واليد فى اللغة تطلق لمعان كثيرة ، اجتمع لنا منها خمسة وعشرون معنى » [١] . والنصوص فى هذا الباب جاءت معينة معنى واحدا لاغير هو يدا الله الكريمتين ، وماعدا ذلك فهو بهتان عظيم .

قوله : « يد الله ملآى » ذكرنا أنها عند مسلم ، وعند البخارى فى مواضع غير هذا بلفظ « يمين الله » بدل : يد الله ، قال الحافظ : « يتعقب بهذه الرواية على من فسر اليد بالنعمة ، وأبعد منه من فسرها بالخزائن » [٢]

قلت : هذا التفسير باطل ، ولا يصح أن يسمى تفسيرا ، وإنما هو تحريف للكلام عن مواضعه ، كفعل اليهود ، كما سيأتى بيان ذلك إن شاء الله تعالى .

و « ملآى » بفتح الميم ، وسكون اللام ، وهمزة ، مع القصر ، أى أنها شديدة الامتلاء بالخير .

قوله : « لايغيضها » أى لا ينقصها ، يقال غاض الماء ، يغيض إذا نقص .

قوله : « سحاء » بفتح السين والحاء المشددة ، ممدودا ، أى دائمة الصب .

« الليل والنهار » منصوبان على الظرفية – أى يد الله دائمة السح فى الليل والنهار .

قوله : « أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض » ؟ استدلال ، وإيضاح لكثرة نفقته تعالى . وتنبيه لمن له بصيرة إلى ذلك .

قوله : « فإنه لم يغض مافى يده » . أى هذا الإنفاق الهائل ، المستمر الدائم بدون توقف ، لم ينقص مافى يده – تعالى – لأن بيده الخير كله ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لمن منعه ، وإذا أراد شيئا قال له : كن ، فيكون .

قوله : « وعرشه على الماء » . قال الحافظ : « مناسبة ذكر العرش هنا ، أن

---

(١) انظر فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٩٤ .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٣٩٥ .

السامع يتطلع من قوله « منذ خلق السماوات والأرض » ماذا كان قبل ذلك ؟ فذكر أن عرشه قبل خلق السماوات والأرض ، كان على الماء » (١)

قوله : « وبيده الأخرى ، الميزان ، يخفض ، ويرفع » . الميزان : العدل ، الذى به يرفع من يكون أهلا لأن يرفع ، ومن هو موضع له . فيتفضل عليه برفعه بالإيمان وقبول الحق ، بأن يحبب إليه الإيمان ، ويزينه فى قلبه ، ويكره إليه الكفر والفسوق ، والعصيان ، ويجعله من الراشدين ، وهذا أعظم الرفع . ويخفض من ليس أهلا لذلك ، بأن يمنع فضله عنه ، ويكله إلى نفسه ، فيضل ويتولاه عدوه ، فيصبح خاسرا ، وهذا أعظم الخفض ، لأنه يصير إلى أسفل سافلين ، فى جهنم . نعوذ بوجه الله منها ، وأمور الدنيا تبع لذلك .

« قال الطيبى : يجوز أن يكون « ملآى » و « لايغيضها » و « سحاء » و « أرأيتم » أخبار مترادفة ليد الله ، ويجوز أن تكون الثلاثة أوصافا « لملآى » ويجوز أن يكون « أرأيتم » استئنافا ، فيه معنى الترق ، كأنه لما قيل : « ملآى » [خشى] إيهام جواز النقصان ، فأزيل بقوله : « لايغيضها » ، وقد يمتلىء الشيء ولايغيض ، فقيل : « سحاء » إشارة إلى الفيض ، وهو كثرة العطاء — وقرنه بما يدل على الاستمرار ، من ذكر الليل والنهار ، ثم أتبعه بما يدل على أن ذلك ظاهر غير خافٍ على ذى بصرٍ وبصيرة ، بقوله : « أرأيتم ماأنفق منذ خلق السماوات والأرض » وهذا الكلام إذا أخذته بجملته أبان عن زيادة الغنى ، وكمال السعة والجود ، والبسط فى العطاء » (٢) .

قلت : الاستدلال بهذا الحديث على ثبوت اليدين لله تعالى ، حقيقة ظاهر جدا . وسيأتى تقرير ذلك إن شاء الله فى آخر الباب .

★ ★ ★

---

(١) المصدر المذكور .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٣٩٥ .

٤١ – قال : « حدثنا مقدم بن محمد ، قال : حدثنى عمى ، القاسم ابن يحي ، عن عبيد الله ، عن نافع ، عن ابن عمر – رضى الله عنهما – عن رسول الله – ﷺ – أنه قال : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرض ، وتكون السماوات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك » . رواه سعيد عن مالك .

* * *

القبض : « إمساك الشيء بجميع كف اليد ، فقبض اليد على الشيء جمعها بعد تناوله » (١) فقبض الشيء هو جمعه فى الكف .

فقوله : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرض » أى يجمعها بيده ، فتكون فى قبضته كما قال تعالى : (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) .

وقوله : « وتكون السماوات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك » أى أنه تعالى يطوى السماوات بيده اليمنى ، والأرض مقبوضة بيده الأخرى ، وأنه يهزهن ثم يقول :– يعظم نفسه – أنا الملك – أى الذى يتصرف فى كل شيء كيف يشاء ، لايشاركه فى ذلك أحد ، ولهذا جاء فيه : أنه – تعالى – إذا قبضهن ، يهزهن ، ويقول : أنا الملك أنا الملك ، أين ملوك الدنيا » ؟

وهذا الحديث مطابق لقوله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) (٢)

وفيه الدليل الواضح على ثبوت اليدين لله – تعالى – وهو نص لا يقبل تأويلا . ولهذا صارت تأويلات المعطلين ليدى رب العالمين ، شبه اللعب فى كلام الله وكلام رسوله ، الذى يترفع عنه العقلاء ، فضلا عن أهل التقى .

★ ★ ★

---

(١) انظر المفردات للراغب ص ٣٩١ .

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

٤٢ – قال : « وقال أبو اليمان : أخبرنا شعيب ، عن الزهرى ، أخبرنى أبو سلمة ، أن أبا هريرة قال : قال رسول الله – ﷺ : « يقبض الله الأرض »

* * *

تقدم تفسير القبض . وهذا الحديث مر فى باب قوله تعالى : (ملك الناس) .

★ ★ ★

٤٣ – قال : « حدثنا مسدد ، سمع يحي بن سعيد ، عن سفيان ، حدثنى منصور ، وسليمان عن إبراهيم ، عن عبيدة ، عن عبد الله ، أن يهوديا جاء إلى النبى – ﷺ – فقال : يامحمد ، إن الله يمسك السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر على إصبع ، والخلائق على إصبع ، ثم يقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله – ﷺ – حتى بدت نواجذه ، ثم قرأ (وماقدروا الله حق قدره) [١] » .

وقال يحي بن سعيد : وزاد فيه فضيل بن عياض ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن عبيدة ، عن عبد الله : « فضحك رسول الله – ﷺ – تعجبا وتصديقا له »

* * *

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

٤٤ – قال : « حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبى ، حدثنا الأعمش ، سمعت إبراهيم قال : سمعت علقمة يقول : قال عبد الله : جاء رجل إلى النبى – ﷺ – من أهل الكتاب ، فقال : ياأبا القاسم ، إن الله يمسك السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر والثرى على إصبع ، والخلائق على إصبع ، ثم يقول : أنا الملك ، أنا الملك ، فرأيت النبى – ﷺ – ضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قرأ : (وما قدروا الله حق قدره) [(١)] .

* * *

هذا الحديث يدل على عظمة الله – تعالى – حيث يضع السموات كلها على إصبع من أصابع يده ، الكريمة العظيمة ، وعدَّد المخلوقات المعروفة للخلق بالكبر والعظمة ، وأخبر أن كل نوع منها يضعه – تعالى – على إصبع ، تعالى – لوضع السموات والأرضين ومن فيهن على إصبع واحدة من أصابع يده – جل وعلا – .

وهذا من العلم الموروث عن الأنبياء المتلقى عن الوحى من الله – تعالى – ، ولهذا صدقه رسول الله – ﷺ – بل وأعجبه ذلك وسُرَّ به ، ولهذا ضحك حتى بدت نواجذه ، تصديقاً له ، كما قال عبد الله بن مسعود ، ولا التفات إلى قول من تبنى التعطيل ، وصار نصيبه من معرفة هذه الأوصاف الكريمة العظيمة ، التى تعرف الله بها إلى عباده – هو مايعرفونه من أنفسهم . فحملهم ذلك على تعطيل الله – تعالى – من هذه الأوصاف ، مرة برد هذه النصوص ، والطعن فى رواتها بلا حجة سوى روايتهم لها ، ومرة بتأويلها التأويل الباطل ، الذى يخرجها عن مراد المتكلم بها . « قل أأنتم أعلم أم الله » .

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

هذا وقد تنوعت النصوص من كتاب الله – تعالى – وسنة رسوله – ﷺ – على إثبات اليدين لله – تعالى – وإثبات الأصابع لهما ، وإثبات القبض بهما وتثنيتهما ، وأن إحداهما يمين كما مر ، وفى نصوص كثيرة – والأخرى شمال كما فى صحيح مسلم (١) ، وأنه – تعالى – يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، وبالنهار ليتوب مسىء الليل (٢) ، وأنه – تعالى – يتقبل الصدقة من الكسب الطيب بيمينه فيربيها لصاحبها (٣) وأن المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين (٤) ، وغير ذلك مما هو ثابت عن الله ورسوله . وسأذكر شيئاً يسيراً من ذلك إن شاء الله . وبعضه يكفى المؤمن المريد للحق .

وهذا الذى أشرت إليه كله يمنع تأويل اليدين بالنعمة أو القوة ، أو الخزائن ، أو القدرة ، أو غير ذلك ، ويجعل التأويل فى حكم التحريف ، بل هو تحريف .

وقد آمن المسلمون بهذه النصوص ، على ظاهرها ، وقبلوها ، ولم يتعرضوا لها بتأويل تبعاً لرسول الله – ﷺ – وصحابته ، وأئمة الهدى ، بل وكل من قبل ماجاءت به الرسل ، وآمن به .

قال الإمام ابن خزيمة معلقاً على هذا الحديث : « معناه أن الله – جل وعلا – يمسك ماذكر فى الخبر على أصابعه ، على مافى الخبر سواء ، قبل تبديل الله الأرض غير الأرض ، لأن الإمساك على الأصابع غير القبض على الشىء ، وهو مفهوم فى اللغة التى خوطبنا بها ، لأن الإمساك على الشىء بالأصابع ، غير القبض

---

(١) سيأتى ذكره بعد قليل .

(٢) سيأتى تخرجه .

(٣) سيأتى ذكره بعد قليل .

(٤) سيأتى ذكره فى هذا الباب .

على الشيء » (١) قال الحافظ فى شرحه لهذا الحديث : « زاد ابن خزيمة ، عن محمد ابن خلاد ، عن يحيى بن سعيد القطان ، عن الأعمش ، فذكر الحديث ، قال محمد : عدها علينا يحيى بأصابعه وكذا أخرجه أحمد فى السنة ، عن يحيى بن سعيد ، وقال : وجعل يحيى يشير بأصبعه يضع إصبعا على أصبع ، حتى أتى على آخرها ، قال :

ورواه الخلال فى كتاب السنة ، عن أبى بكر المروزى ، عن أحمد . وقال : ورأيت أبا عبد الله يشير بإصبعٍ إصبع » (٢)

قلت : تبعوا فى ذلك ماوقع من الحبر الذى حدث رسول الله - ﷺ - حيث كان يشير بأصابعه ولم ينكر عليه رسول الله - ﷺ - بل أقره ، وصدقه .

فهذه النقول عن هؤلاء المذكورين من السلف ، تدل على أنهم فهموها على ظاهرها ، وأنها أصابع حقيقة .

قال عبد الله بن الإمام أحمد : « قال أبى : قال يحيى : قال فضيل بن عياض ... فضحك رسول الله تعجباً وتصديقاً ، سمعت أبى يقول : حدثنى يحيى ابن سعيد ، بحديث سفيان ، عن الأعمش ، ومنصور ، عن إبراهيم ، عن عبيدة ، عن عبد الله ، عن النبى - ﷺ - : « إن الله يمسك السموات على إصبع » .

قال أبى : وجعل يحيى يشير بأصابعه ، وأرانى أبى كيف جعل يحيى يشير بأصابعه . يضع إصبعا إصبعا حتى أتى على آخرها » (٣) .

وفى الترمذى عن ابن عباس ، قال : مرَّ يهودى بالنبى - ﷺ - فقال له - النبى - ﷺ -: يايهودى حدثنا ، فقال : كيف تقول ياأبا القاسم : إذا

---

(١) كتاب التوحيد ص ٧٩ .

(٢) فتح البارى جـ ١٣ ص ٣٩٧ .

(٣) كتاب السنة ص ٥٤ .

وضع الله السموات على ذه والأراضين ، على ذه ، والماء على ذه ، والجبال على ذه ، وسائر الخلق على ذه ؟

وأشار محمد بن الصلت – أبو جعفر – بخنصره أولاً ، ثم تابع حتى بلغ الإبهام فأنزل الله : (وماقدروا الله حق قدره) وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح » (١)

ورواه ابن جرير فى تفسيره . وسنده حسن (٢) .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : « حدثنى أبى ، حدثنا حسين بن حسن ، حدثنا أبو كريبة ، عن عطاء ، عن أبى الضحى ، عن ابن عباس ، قال : مَرَّ يهودى برسول الله – ﷺ – وهو جالس ، قال : كيف تقول ياأبا القاسم : يوم يجعل الله السماء على ذه – وأشار بالسبابة – والأرضين على ذه ، والماء على ذه ، والجبال على ذه ، وسائر الخلائق على ذه – وجعل يشير بأصابعه – فأنزل الله : (وماقدروا الله حق قدره) .

حدثنى عبد الله بن عمر ، حدثنا عمران بن عيينة ، عن عطاء بن السائب ، عن أبى الضحى ، عن ابن عباس ، قال : مَرَّ يهودى على النبى – ﷺ – فقال له النبى – ﷺ –: يايهودى خوِّفنا ، فقال : ياأبا القاسم كيف بيوم تكون الأرضون على هذه ، والسموات على هذه ، والماء على هذه ، والخلق على هذه – يعنى أصابعه ، ثم قرأ رسول الله – ﷺ – (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه) (٣) .

فمثل هذه الأحاديث هى مسند السلف فى الإشارة بالأصابع ، تحقيقاً لإثبات أصابع الرحمن – جل وعلا – ، وقدوتهم رسول الله – ﷺ – .

---

(١) سنن الترمذى جـ ٥ ص ٤٩ .

(٢) انظر تفسير الطبرى جـ ٢٤ ص ٢٦ .

(٣) كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد ص ٥٥ .

وهذه النصوص التى فيها ذكر الأصابع تدل دلالة قاطعة – عند المؤمنين الذين يحكمون الشرع – على ثبوت اليدين لله – تعالى – ، وقد تنوعت الدلائل على ذلك – كما أشرنا إليه آنفا – من ذكر الأصابع ، والقبض ، والبسط ، والتثنية ، وذكر اليمين والشمال .

ففى الموطأ ، والترمذى ، وسنن أبى داود : أن رسول الله – ﷺ – قال : « إن الله – تبارك وتعالى – خلق آدم ، ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذريته » (١) ورواه أحمد

وفى الترمذى وسنن أبى داود مرفوعا « أن الله – تبارك وتعالى – خلق آدم من قبضة ، قبضها من جميع الأرض » (٢) .

وفيه أيضا من حديث أبى هريرة مرفوعا ، فى حديث طويل فى خلق آدم ، وفيه : « فقال الله له : ويداه مقبوضتان ، اختر أيهما شئت ، قال : اخترت يمين ربى ، وكلتا يدى ربى يمين ، مباركة ، ثم بسطها ، فإذا فيها ذريته » (٣)

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر ، قال : قال رسول الله – ﷺ – : « يطوى الله – عز وجل – السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » (٤) .

وفيه أيضا عنه مرفوعا ، « قال : يأخذ الله – عز وجل – سماواته ، وأرضيه

---

(١) الموطأ جـ ٢ ص ٨٩٨ – ٨٩٩ ، والترمذى فى التفسير رقم ٣٠٧٧ ، وسنن أبى داود فى السنة رقم ٤٧٠٣ ، والمسند جـ ١ ص ٣٢٤ .

(٢) الترمذى رقم ٢٩٤٨ فى التفسير ، وأبو داود فى السنة فى القدر رقم ٤٦٩٣ .

(٣) سنن الترمذى فى التفسير فى باب من سورة المعوذتين رقم ٣٣٦٥ . وابن خزيمة فى التوحيد ص ٦٧ .

(٤) مسلم جـ ٤ ص ٢١٤٨ رقم ٢٧٨٨ .

بيديه فيقول : أنا الله ، ويقبض أصابعه ، ويبسطها - أنا الملك ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه ، حتى إنى لأقول أساقط هو برسول الله - ﷺ - » (١) ورواه أحمد .

وفيه أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله - ﷺ -: « إن المقسطين عند الله ، على منابر من نور ، عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حكمهم ، وأهليهم ، وما ولوا » (٢) .

وفيه أيضاً من حديث أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ -: « وماتصدق أحد بصدقة ، من طيب ، ولايقبل الله إلا الطيب ، إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة ، فتربو فى كف الرحمن ، حتى تكون أعظم من الجبل ، كما يربى أحدكم فلوه ، أو فصيله » (٣) .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة ، قال : قال رسول الله - - ﷺ : « من تصدق بعدل تمرة ، من كسب طيب ، ولايقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبها ، كما يربى أحدكم فلوه ، حتى تكون مثل الجبل » (٤) .

وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة ، قال رسول الله - ﷺ - : « ينزل الله فى السماء الدنيا ، لشطر الليل ، أو لثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ أو يسألنى فأعطيه ؟ ثم يبسط يديه - تبارك وتعالى - يقول : من يقرض غير عدوم ، ولاظلوم » (٥) .

---

(١) صحيح مسلم الموضع المذكور وانظر المسند جـ ٢ ص ٧٢ ، ٨٧ ، ٨٨ .
(٢) مسلم جـ ٣ ص ١٤٥٨ رقم ١٨٢٧ .
(٣) مسلم جـ ٢ ص ٧٠٢ رقم ١٠١٤ .
(٤) انظر البخارى مع الفتح جـ ٣ ص ٢٧٨ و جـ ١٣ ص ٤١٥ ، ومسلم جـ ٢ ص ٧٠٢ ، وابن خزيمة فى التوحيد ص ٦١ - ٦٣ .
(٥) مسلم جـ ١ ص ١٧٦ ، وابن خزيمة فى التوحيد عن عبد الله بن مسعود ص ٥٨ .

وفيه من حديث المغيرة بن شعبة فى سؤال موسى ربه ، عن أدنى أهل الجنة منزلة . قال : « رب فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدى ، وختمت عليها ، فلم ترعين ، ولم تسمع أذن » (١)

وفى الصحيحين مرفوعا من حديث أبى سعيد الخدرى . قال النبى - ﷺ - : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة ، يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته فى السفر ، نزلا لأهل الجنة » (٢) .

وفيهما من حديث أبى هريرة ، قال رسول الله - ﷺ -: « واحتج آدم وموسى فقال موسى : ياآدم أنت أبونا ، خيبتنا ، وأخرجتنا من الجنة . فقال آدم : أنت موسى ، اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك بيده ، أتلومنى على أمر قدره الله على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة » (٣) .

وفى رواية لمسلم « احتج آدم وموسى عند ربهما ، فحج آدم موسى ، قال موسى : أنت آدم الذى خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته » (٤)

وروى البيهقى فى الأسماء والصفات بسنده « أن النبى - ﷺ - قال : « لماخلق الله - تعالى - آدم وذريته ، قالت الملائكة : يارب خلقتهم يأكلون ويشربون ، وينكحون ، ويركبون ، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة ، فقال الله - تعالى - : لاأجعل من خلقته بيدى ، ونفخت فيه من روحى كمن قلت له : كن فيكون » (٥) .

---

(١) مسلم جـ ١ ص ١٧٦ ، وابن خزيمة فى التوحيد ص ٦٩ - ٧٠ .

(٢) البخارى مع الفتح جـ ١١ ص ٣٧٢ ، ومسلم جـ ٤ ص ٢١٥١ رقم ٢٧٩٢ .

(٣) البخارى مع الفتح جـ ١١ ص ٥٠٥ ، ومسلم جـ ٤ ص ٢٠٤٢ .

(٤) مسلم جـ ٤ ص ٢٠٤٣ .

(٥) الأسماء والصفات ص ٣١٧ .

وروى بسند حسن، عن أنس ، قال : قال رسول الله - ﷺ -: « خلق الله - تعالى - جنة عدن ، وغرس أشجارها بيده ، فقال لها : تكلمى ، فقالت : قد أفلح المؤمنون » (١) .

ورواه ابن جرير موقوفا (٢) ، وذكره الحافظ ابن كثير ، عن ابن أبى الدنيا مرفوعا (٣)

وقال ابن جرير فى قوله - تعالى - : (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) يقول - تعالى ذكره - والأرض كلها قبضته فى يوم القيامة ، والسموات كلها « مطويات بيمينه » ثم روى عن ابن عباس ، قال : « ماالسموات السبع ، والأرضون السبع فى يد الله إلا كخردلة فى يد أحدكم » .

وروى عن ربيعة الجرشى قال : « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » قال : ويده الأخرى خلو ليس فيها شىء .

وعن ابن عباس ، قوله : (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) يقول : قد قبض الأرضين ، والسموات جميعا بيمينه ، ألم تسمع أنه قال : « مطويات بيمينه » يعنى الأرض والسموات جميعا ، قال ابن عباس : وإنما يستعين بشماله المشغولة يمينه » .

وعن الحسن : « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة » قال : كأنها جوزة بقضها وقضيضها »

حدثنا الربيع ، قال حدثنا ابن وهب ، قال : أخبرنى أسامة بن زيد ، عن أبى حازم ، عن عبد الله بن عمر ، أنه رأى رسول الله - ﷺ - على المنبر ، يخطب الناس فمر بهذه الآية : (وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم

---

(١) المصدر المذكور ص ٣١٨ .
(٢) تفسير الطبرى مفتتح الجزء ١٨ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٤٥٥ ط الشعب .

القيامة) فقال رسول الله – ﷺ -: « يأخذ السموات ، والأرضين السبع فيجعلها فى كفه ، ثم يقول بهما ، كما يقول الغلام بالكرة ، أنا الله الواحد ، أنا الله العزيز ، حتى لقد رأينا المنبر ، وإنه ليكاد أن يسقط به » (١)

وذكر أحاديث ، وآثاراً فى هذا .

والأحاديث ، والآثار عن السلف فى ذلك كثيرة .

وروى ابن ماجه ، قال فى الزوائد وسنده صحيح ، والإمام أحمد ، عن النواس بن سمعان ، قال : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : مامن قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه » (٢) .

وبهذا وغيره كثير لم نذكره ، يعلم خطأ الخطابى ، وفريق أهل التأويل قطعا حيث يقول : « لم يقع ذكر الإصبع فى القرآن ، ولا فى حديث مقطوع به .

وقد تقرر أن اليد ليست بجارحة ، حتى يتوهم من ثبوتها ثبوت الأصابع ، بل هو توقيف ، أطلقه الشارع ، فلا يكيف ، ولا يشبه ، ولعل ذكر الأصابع من تخليط اليهودى ، وأما ضحكه – ﷺ – من قول الحبر ، فيحتمل الرضا والإنكار ، وأما قول الراوى : « تصديقا له » فظن منه وحسبان » (٢) .

ونحن نجيبه بما أجاب به عبد الله بن مسعود ، لما قيل له : إن المنع من تعليق التميمة ليس فى كتاب الله .

فنقول : بلى إن ذكر الأصابع قد وقع فى القرآن ، لأن الله – تعالى – : يقول فيه : (وما آتاكم الرسول فخذوه) . وقد أتانا – ﷺ – بذكر الأصابع ،

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢٤ ص ٢٧ – ٢٨ .

(٢) سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٧٢ رقم ١٩٩ ، والمسند جـ ٤ ص ١٨٢ ، والآجرى فى الشريعة ص ٣١٧ ، والحاكم جـ ٤ ص ٣٢١ ، وابن أبى عاصم فى السنة جـ ١ ص ٩٨ ، وذكر عدداً من الأحاديث بهذا اللفظ .

(٣) من الفتح جـ ١٣ ص ٣٩٨ .

وذكر الكف ، وذكر اليمين ، والشمال ، واليدين مرة مثناة ، ومرة منصوص على واحدة أنه يفعل بها كذا وكذا ، وأن الأخرى فيها كذا ، كما تقدمت النصوص بذلك . وهو تبع لأهل الكلام - المذموم - ينكر وصف الله - تعالى - باليدين حقيقة ، مع أن القرآن قد جاء بذلك صراحة ، كما قال- تعالى - : (ياإبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) [١] (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه) [٢] (بل يداه مبسوطتان) [٣] . وهو مع ذلك لايقبله ، لأنه على خلاف ما تلقاه عن أهل البدع ، ولهذا نراه - عفاالله عنا وعنه - يحاول رد النصوص بدون حجة ، وكل مايمكن أن يعتمد عليه هو - وكل من سلك مسلكه - من أهل التأويل ادعاؤهم أن العقل بخلاف ذلك وأنه محال فى العقل - وهو أمر غير منضبط ، كما سنشير إليه - إن شاء الله - ودعوى بدون برهان .

قوله : « ولا حديث مقطوع به » . هذا عجيب من الخطابى - الذى كثر اشتغاله بالحديث تأليفا ، ورواية ، وشرحا لمتونه ، وأسانيده ، ثم يقول هذا القول ، الذى هو عنوان لأهل البدع ، فهم كلما ألجأتهم الحجج إلى المضائق رموها بهذه الدعوى - « أنها أدلة غير مقطوع بها » - .

فإذا كانت أحاديث الرسول - ﷺ - مع ثبوت أسانيدها غير مقطوع بها ، فماهى الحجج المقطوع بها فى نظر هؤلاء ؟ هل هى أقوال أقوام متهمين على الدين الإسلامى ؟ - وتحوم حولهم شكوك كثيرة ؟ كالجعد بن درهم ، وجهم ابن صفوان ، وبشر المريسى ، وأحمد بن أبى دؤاد ، وابن الثلجى ونحوهم ، فإن هؤلاء هم سلف متأخرى الأشعرية فى تأويلاتهم .

وإننا نربأ بالخطابى أن يسلك هذا المسلك المنحرف عن الهدى .

---

(١) الآية ٧٥ من سورة ص .

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

(٣) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

وهذا دليل على ضعف مسلك التأويل فى هذه النصوص ، وأنه غير مقنع . ثم هو يقصد بقوله : غير مقطوع به . عدم التواتر ، لأنه لايقبل من الحديث فى باب الصفات إلا ماكان فى القرآن ، أو تواتر عن الرسول - ﷺ - كما ذكر ذلك عنه شيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد علم أن القرآن جاء بصفة اليدين لله صراحة .

ومعلوم أن الصحابة ومن سلك نهجهم لم يفرقوا بين أصول الدين وفروعه فى الثبوت ، ومعظم الدين الإسلامى ثبت بأخبار الآحاد .

وهذه الصفات التى ينكرها هؤلاء ، قد ثبتت فى أحاديث مقطوع بصحتها عند أهل العلم ، وإذا صح الحديث وجب قبوله ، والعمل به ، والإيمان بما دل عليه وحرمت مخالفته .

ولا فرق بين كونها فى العمليات ، أو الاعتقادات ، خلافا لأهل البدع الذين يفرقون بين ذلك .

ومعلوم أن الذى جاء بهذه النصوص - فى الصفات - هو الذى جاء بالأمر بعبادة الله ، وتحريم الشرك ، وبيان عدد ركعات الصلوات الخمس ، وأنصباء الزكاة ، وبيان واجبات كثيرة ، ومحرمات كثيرة لم يأت تفصيلها فى القرآن ، ولا فى أخبار متواترة ، فلماذا يقبل هذا ، ويرد ذاك ؟ إن هذا التفريق فعل الذين جعلوا دينهم شيعا ، وآمنوا ببعض ، وكفروا ببعض .

وقد تقدم ما فيه كفاية لمن قصده الحق من ذكر النصوص فى هذه المسألة وغيرها من مسائل الصفات نظيرها ، وقد يكون أوضح منها دليلا كما سيأتى بعض ذلك .

وقوله : « وقد تقرر أن اليد ليست بجارحة ، حتى يتوهم من ثبوتها ثبوت الأصابع » حقيقة هذا الكلام : أن اليد ليست يدا ، حتى يلزم ثبوت الأصابع . ومعلوم أن الله - تعالى - خاطبنا باللغة العربية ، وبألفاظ معلومة المعانى للمخاطبين فالمخاطبون بهذه النصوص ، علموا أن المراد بها مادلت عليه بظاهرها .

وكذلك المخاطب أراد منهم ذلك ، ولهذا لم يأت عنه – ﷺ – ولا من طريق ضعيف أنه قال : لاتعتقدوا ظاهرها ، ولاسيما وظاهرها عند الخطابى وفريقه كفر وتشبيه .

فهل يعقل أن الله ورسوله يخاطبان العباد بما ظاهره الكفر ، ثم لايبين ذلك لهم ، ويحذرهم من اعتقاده ؟ ولو كان لهذه النصوص معنى عند رسول الله غير ظاهرها لبينه ، لأنه واجب عليه بمقتضى الرسالة .

والصحابة سمعوا هذه النصوص ، ورووها ، ولم يسألوا عن معان لها غير ظاهرها ، فلما سكتوا دل ذلك على أنهم علموا أن المراد بها هو الظاهر ، فوجب علينا أن نسكت حيث سكتوا ، وأن نقبل ونسلم كما قبلوا وسلموا لها بدون تأويل . ونحن نسأل هؤلاء من ، من المسلمين الذين يعتد بقولهم ، قال : إن يد الله جارحة ؟ وهل جاء ذلك . ولو بحديث ضعيف ؟ إن هذا لاوجود له ، ولكنها الأوهام . والاتجاهات الفاسدة ، وإرادة التشنيع على اتباع الرسل .

ونحن بحمد الله وله المنة ، وكل من تلقى عن رسول الله – ﷺ – بالقبول والتسليم ، وفهم المراد – نعتقد مطمئنين أن لله يدين حقيقيتين لهما أصابع يضع عليها السموات والأرض ، وماشاء يوم القيامة ، وإن رغمت أنوف الأشعرية وإمامنا فى ذلك رسولنا محمد بن عبد الله – صلوات الله وسلامه عليه – . وأصحابه ، وأتباعه إلى يوم القيامة ، وهو معلم الخير والهدى .

قال الإمام أحمد : « الحديث عندنا على ظاهره ، كما جاء عن النبى – ﷺ – والكلام فيه بدعة ، ولكن نؤمن به كما جاء على ظاهره » [1] .

---

(١) طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٤٢ .

ويقصد بالكلام فيه : التأويل الذى يخرجه عن ظاهره .

وقال البربهارى (١) : « إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار ، ولايقبلها ، أو ينكر شيئاً من أخبار رسول الله – ﷺ – فاتهمه على الإسلام ، لأنا إنما عرفنا الله ورسوله ، وعرفنا القرآن ، والخير ، والشر بالآثار » (٢) .

وقال : « واعلم أنها لم تكن زندقة ، ولا كفر ، ولاشكوك ، ولابدعة ، ولاضلالة ، ولاحيرة فى الدين إلا من الكلام وأهل الكلام ، والجدل ، والمراء ، والخصومة . وكيف يجترىء الرجل على المراء ، والخصومة ، والجدال ، والله يقول : (مايجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا) (٣) .

وقال أيضا : « واعلم أنما جاء هلاك الجهمية . من أنهم فكروا فى الرب – عز وجل – فأدخلوا ، لم ، وكيف ، وتركوا الأثر ، ووضعوا القياس ، وقاسوا الدين على رأيهم ، فجاؤوا بالكفر عيانا ، لايخفى أنهم كفروا ، وكفروا الخلق ، واضطرهم الأمر إلى أن قالوا بالتعطيل » (٤) .

وقال : « إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار ، أو يردها ، ويريد غيرها ، فاتهمه على الإسلام ، ولاتشك أنه صاحب هوى مبتدع » (٥)

وقال القاضى ، أبو الحسين محمد بن أبى يعلى : « قرأت على المبارك ، عن على بن عمر البرمكى ، قال أخبرنا أحمد بن عبد الله المالكى ، حدثنا أبى ،

---

(١) هو شيخ الحنابلة فى وقته الحسن بن على بن خلف ، كان شديد الإنكار على أهل البدع ، وكان حافظا ثقة ، وأصوليا متقنا له تصانيف كثيرة مفقودة توفى سنة ٣٢٩ شذرات الذهب جـ ٢ ص ٣١٩ .

(٢) طبقات الحنابلة جـ ٢ ص ٢٥ .

(٣) المرجع المذكور ص ٢٧ .

(٤) المرجع المذكور ص ٣٠ .

(٥) المرجع المذكور ص ٣٦ .

حدثنا محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن يعقوب بن زوران – لفظا – حدثنا أبو العباس أحمد بن جعفر بن يعقوب بن عبد الله الفارسى ، الاصطخرى ، قال : قال أبو عبد الله ، أحمد بن محمد بن حنبل ، وذكر العقيدة – إلى أن قال : « وقلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن ، يقلبها كيف يشاء ، ويوعيها ماأراد ، وخلق آدم بيده ، على صورته ، والسموات ، والأرض يوم القيامة فى كفه ، ويضع قدمه فى النار ، فتنزوى » وذكر عقيدة طويلة جامعة (١)

وقال الحسن بن على بن خلف البربهارى : « وكل ماسمعت من الآثار شيئا لم يبلغه عقلك ، نحو قول رسول الله – ﷺ – قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن – وقوله : « إن الله ينزل إلى سماء الدنيا ، وينزل يوم عرفة وينزل يوم القيامة ، وأن جهنم لايزال يطرح فيها ، حتى يضع عليها قدمه – وقوله للعبد : إن مشيت إلىَّ ، هرولت إليك » وقوله : خلق الله آدم على صورته ، وقول الرسول – ﷺ –: رأيت ربى فى أحسن صورة » (٢) – وأشباه هذه الأحاديث ، فعليك بالتسليم ، والتصديق ، والتفويض (٣) والرضا ، ولاتفسر شيئا من هذه بهواك (٤) ، فإن الإيمان بهذا واجب . فمن فسر شيئا من هذا بهواه ، أو رده ، فهو جهمى » (٥) .

وهذا الذى ذكره الإمام أحمد ، والبربهارى هو مذهب السلف ، الذين تلقوا عن الرسول – ﷺ – ولم يزل السلف يوصى بعضهم بعضا بالتمسك به ، والتحذير ممن يخالفه ، لأنه الذى دلت عليه نصوص الكتاب والسنة .

---

(١) طبقات الحنابلة جـ ١ ص ٢٤ – ٢٩ .

(٢) هذه رؤية منام كما هو مصرح به فى الرواية .

(٣) المقصود بالتفويض : تفويض الحقيقة ، والكيف ، فهو يوكل إلى الله – تعالى – فإن الخلق لاعلم لهم بذلك .

(٤) مراده بالتفسير : التأويل ، وتعيين معنى لايدل عليه اللفظ إلا بتكلف أو بغرابة .

(٥) طبقات الحنابلة جـ ٢ ص ٢٣ .

وقوله : « بل هو توقيف أطلقه الشارع ، فلا يكيف ، ولايشبه » – يعنى أن لفظ اليد الثابت بكتاب الله ، وبالسنة توقيف أطلقه الشارع ، فلا يوقف له على معنى فهو عنده – لايدل على ماوضعت له كلمة « يد » فى اللغة ، ومضمون ذلك أن آيات الصفات ، وأحاديثها لايعلم لها معانى تطابق ألفاظها ، وتؤخذ منها ويلزم على هذا أن الشارع خاطب الناس بما ظاهره غير مقصود ، ولا مطلوب منهم الإيمان بظاهره ، بل قد يكون ظاهره باطلا وكفراً ، فمعنى قوله : « لايكيف ، ولايشبه » أى لايثبت لها معنى مطابقا للفظها فى وضع اللغة ، فلا يوصف الله – تعالى – باليد الحقيقية التى أثبتها لنفسه ، وأثبتها له رسوله – ﷺ – لأن هذا تشبيه ، فهذه النصوص فى هذا الباب ونحوه فيها تشبيه –لله تعالى – عند هؤلاء ، ولهذا صار تأويلها متعينا .

فضاعت النصوص التى تعرف الله بها إلى عباده بين مردود [1] ومؤول .

وقوله : « ولعل ذكر الأصابع من تخليط اليهودى » . وجواب ذلك أنه قد تقدم من ذكر بعض النصوص التى تبطل هذا الهرى ، والقول الجائر . إن الخطابى – عفا الله عنا وعنه – بهذا القول إنما يشنع فى الحقيقة على رسول الله – ﷺ – . والله المستعان .

وقوله : « فإن اليهود مشبهة ، وفيما يدعونه من التوراة ألفاظ . تدخل فى باب التشبيه ، ولاتدخل فى مذاهب المسلمين » . ونحن لانبرىء اليهود من الباطل ، ولكن نقول : إن الحق يجب أن يقبل ممن قاله ، سواء كان من اليهود أو من غيرهم .

وهو لم يبين هذه الألفاظ التى تدخل فى باب التشبيه على حد قوله .

---

(١) القاعدة عند الخطابى : أن الأحاديث الموافقة للقرآن ، أو المتواترة هى التى تقبل فى الصفات ، أما ماعدا ذلك ، فإنه لايثبت به صفة لله – تعالى – وهذه القاعدة أخذت من كلامه كما سبق قوله فى الأصابع أنه لم يثبت فيه حديث .

ولكن نعلم من طريقته ، أن كل من أثبت لله من الصفاتماينكره هو ومن سلك نهجه ، أنهم يسمونه مشبها ، ولو كان متمسكا بالكتاب والسنة فعنده من أثبت لله يداً حقيقة فهو مشبه ، وكذلك الوجه ، والرجل ، والأصابع والعينين ، ونحو ذلك .

وقوله : « وأما ضحكه – ﷺ – من قول الحبر ، فيحتمل الرضا ، والإنكار »

فجوابه : أن الحق الذى لانشك فيه أنه لايحتمل إلا الرضا ، والموافقة ، لأن الرسول – ﷺ – لايضحك من الباطل ، والكفر الذى هو تشبيه رب العالمين بالخلق ، كما هو مقتضى مذهب الخطابى .

ومقتضى الإيمان بالرسول – ﷺ – يمنع من أن يكون ضحكه من أجل التشبيه الذى يقوله اليهودى – كما زعم الخطابى – عفا الله عنا وعنه .

إن مايقوله هؤلاء فى الحقيقة قلب للحقائق ، حتى تسلم عقيدة الأشعرية من معاول النصوص ، التى تأتى على أسسها بالاقتلاع ، [١] ولو استطاع كثير منهم الرد على الله ، ورسوله لفعلوا ، ولكن كما يقول الله – تعالى – : (بل نقذف بالحق على الباطل ، فيدمغه ، فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون) [٢].

وأما قوله : « وأما قول الراوى : « تصدقا له ، فظن وحسبان » يعنى أن عبد الله بن مسعود ظن ظناً أخطأ الحق ، وأبعد عن الصواب حيث خالق عقيدة أهل الكلام ، فيرد قوله .

---

(١) قال ابن خزيمة : « وقد أجل الله قدر نبيه ، عن أن يوصف البارى بحضرته بماليس من صفاته ، فيسمعه فيضحك عنده ، ويجعل بدل وجوب النكير والغضب على المتكلم به ضحكا حتى تبدو نواجذه . تصديقا وتعجبا لقائله ، لايصف النبى – ﷺ – بهذه الصفة مؤمن مصدق برسالته » كتاب التوحيد ص ٧٦ .

(٢) الآية ١٨ من سورة الأنبياء .

ونحن نقول : أيهما أولى عند الله ، وعند المؤمنين بالفهم عن رسول الله — ﷺ — صحابته الذين عايشوه ، وتربوا بين يديه ، ونقلوا لنا ديننا عنه ، أم الخطابى وذويه ؟ ولو سلم ذلك لأمكن كل مبطل أن يقول فى أى نص جاء عن الرسول — ﷺ — وصحابته كقولك هذا : أنه ظن وحسبان ، وأن الصواب خلافه فتبطل الشريعة كلها . تقدم ذكر بعض الآيات الدالة صراحة على وصف الله — تعالى — باليدين .

« وقد تواتر فى السنة مجىء اليد — وصفاً — لله تعالى — فعلم من ذلك أن لله — تعالى — يدين مختصتان به ، ذاتيتان له ، كما يليق بجلاله ، وأنه — تعالى — خلق آدم بيده دون الملائكة ، وإبليس ، وأنه سبحانه يقبض الأرض ، ويطوى السموات بيده اليمنى ، وأن « يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء » .[1]

ومعنى بسطهما : بذل الجود ، وسعة العطاء ، لأن العطاء ، والجود فى الغالب يكون ببسط اليد ومدها .

فإذا قيل : هو مبسوط اليد فهم منه يد حقيقة ، وكان ظاهره الجود والبذل . وقد اعتمد أهل التأويل ، فى تأويلهم اليد ، أنها النعمة والعطية ، تسمية للشىء باسم سببه ، كما يسمى المطر والنبات سماء ، ومن ذلك قولهم : لفلان عندى أياد ، وقول أبى طالب لما فقد النبى — ﷺ —:

يارب رد راكبى محمداً ردّه علي ، واصطنع عندى يدا

وقول عروة بن مسعود ، لأبى بكر يوم الحديبية : لولا يدٌلك عندى ، لم أجزك بها لأجبتك .

وقد تكون اليد بمعنى القدرة ، تسمية للشىء باسم مسببه ، لأن القدرة هى تحرك اليد ، يقال : فلان له يد فى كذا وكذا ، أى له قدرة ، ومنه قول زياد

---

(١) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

لمعاوية : إنى قد أمسكت العراق بإحدى يدى ، والأخرى فارغة ، يريد نصف قدرته . وقد يضاف الفعل إلى اليد إضافته إلى الشخص نفسه ، لأن غالب الأفعال تكون بها . فصار ذكر اليد إشارة إلى أنه فعل بنفسه ، كما قال – تعالى – : (ذلك بما قدمت أيديكم) [١] .

وتقول العرب : « يداك أوكتا ، وفوك نفخ » توبيخاً لكل من جرَّ إلى نفسه شرا ، لأن أول من قيل له ذلك ، فعل بيديه وفمه .

ولذلك قالوا فى مثل قوله – تعالى –: (بل يداه مبسوطتان) أى نعمته فى الدنيا والآخرة . واللفظ كناية عن نفس الجود ، من غير أن يكون هناك يد حقيقة ، بل هذه اللفظة صارت حقيقة فى العطاء والجود .

وقالوا فى قوله – تعالى –: (لما خلقت بيدى) [٢] أى خلقته أنا ، وليس هناك يد حقيقية – ونحو هذه التأويلات .

والجواب : أننا لاننكر لغة العرب التى نزل بها القرآن ، وأن ماذكر معروف فى اللغة ، ولكن ننكر تحريف الكلم عن مواضعه ، والإلحاد فى أسماء الله وصفاته .

فإن لفظ « اليدين » بصيغة التثنية ، لم يستعمل فى النعمة ، ولا فى القدرة . لأن من لغة العرب استعمال الواحد فى الجمع ، كقوله – تعالى –: (إن الإنسان لفى خسر)

ولفظ الجمع فى الواحد كقوله – تعالى – : (الذين قال لهم الناس إن الناس) [٣] والقائل واحد .

ولفظ الجمع فى الاثنين كقوله – تعالى – (فقد صغت قلوبكما) [٤].

---

(١) الآية ١٨٢ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٧٥ من سورة ص .
(٣) الآية ١٧٣ من سورة آل عمران .
(٤) الآية ٤ من سورة التحريم .

أما استعمال لفظ الواحد فى الاثنين ، والاثنين فى الواحد ، فلا أصل له فى اللغة . لأن هذه الألفاظ عدد ، وهى نصوص فى معناها ، لايتجوز بها ، فلا يجوز أن تقول : عندى رجل ، وأنت تريد اثنين ، ولاعندى رجلان وأنت تريد واحدا ، ولاعندى رجلان وأنت تريد الجنس ، لأن اسم الواحد يدل على الجنس ، والجنس فيه شياع وكذلك اسم الجمع فيه معنى الجنس ، والجنس يحصل بحصول الواحد .

فقوله – تعالى – : (لما خلقت بيدى) لايجوز أن يراد به القدرة ، لأن القدرة صفة واحدة ، ولايجوز أن يعبر بالاثنين عن الواحد .

ولا يجوز أن يراد به النعمة ، لأن نعم الله لاتحصى ، فلا يجوز أن يعبر عن النعم التى لاتحصى بصيغة التثنية .

ولايجوز أن يكون كما قالوا : لما خلقت أنا ، لأن العرب إذا أرادوا ذلك أضافوا الفعل إلى اليد ، فتكون إضافته إلى اليد إضافة له إلى الفاعل .

كقوله : (بما قدمت يداك) (١) (ذلك بما قدمت أيديكم) (٢) ، ومن هذا قوله – تعالى – : (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما) (٣) .

أما إذا أضيف الفعل إلى الفاعل ، وعدى الفعل إلى اليد بحرف الجر كقوله – تعالى – : (لما خلقت بيدى) فإنه يكون نصا فى أنه فعل ذلك بيديه .

ولهذا لايجوز لمن تكلم ، أو مشى أن يقول : فعلت ذلك بيدى ، ولكن يقال : فعلته يداك ، لأن مجرد قوله : « فعلت » كافٍ فى الإضافة إلى الفاعل . فلو لم يرد أنه فعله باليد حقيقة كان قوله : « بيدى » زيادة لافائدة فيها . ولاتجد فى كلام العرب أن فصيحا يقول : فعلت هذا بيدى ، إلا وأنه فعله بيديه حقيقة ، ولايجوز أن يقول ذلك وهو ليس له يد » (٤)

---

(١) الآية ١٠ سورة الحج .

(٢) الآية ١٨٢ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٧١ من سورة يس .

(٤) مجموع الفتاوى جـ ٦ ص ٣٦٣ – ٣٦٦ .

وأما تعليله لإنكاره إثبات اليد لله – تعالى – والأصابع . بأن اليد المتعارف عليها هى الجارحة ، وذلك ممتنع على الله – تعالى – .

فالجواب أن هذا ممتنع لو كانت اليد التى أثبتها الله لنفسه من جنس أيدى المخلوقين ، أما إذا كانت يدا تناسب ذاته وتليق بعظمته ، فما هو المانع من ذلك فى العقل والشرع ، وماهو الموجب لتلك التمحلات .

وكل مايذكر أهل التأويل إنما يدل على امتناع وصفه – تعالى – بما يستحقه المخلوق ، وخصائص المخلوقين منفية عنه – تعالى – . وكل ما أثبت لله – تعالى – من الصفات فهى كمال ، وفقدها نقص – تعالى – عنه .

ثم هل يجوز مع كثرة مافى كتاب الله ، وسنة رسوله من ذكر اليد دالاً على الحقيقة ، مثل ذكر خلق آدم بيديه ، وأنهما مبسوطتان ، وأن الأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، وأن السموات مطويات بيمينه ، وأن بيده الملك .

وفى السنة مالا يحصى إلا بمشقة مثل ذكر الأصابع ، والقبض ، والبسط ، واليمين ، والشمال ، وأن يديه كلتاهما يمين ، ثم لايبين الرسول – ﷺ – أن هذا غير مراد منه الظاهر والحقيقة ، مع حضه لنا على الفهم . وهل يجوز أن يفهم صحابته ، والتابعون لهم من هذه النصوص غير الحق المراد منها ، ولا يعرف الحق فيها إلا جهم بن صفوان – بعد انقراض عهد الصحابة – وبشر بن غياث ، وأشباههما ممن هو مغموص عليه فى النفاق ، مع أن الرسول – ﷺ – قد علم أمته كيف يقضون الحاجة ، وكيف يأكلون ويشربون ، وينامون ، ويدخلون بيوتهم ويخرجون . حتى أنزل الله – تعالى – عليه فى آخر ماأنزل : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى) [1] والرسول – ﷺ – يقول : « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لايزيغ عنها إلا هالك » [2] .

---

(١) الآية ٣ من سورة المائدة .

(٢) تقدم تخرجه .

هل يجوز مع هذا كله وغيره أن يترك الكتاب المنزل عليه ، وسنته الغراء ، مملوءان بما يزعم أهل التأويل أن ظاهره تشبيه وتجسيم ومن اعتقد ظاهره – بزعمهم – فهو ضال مشبه لله ومجسم ، ثم لايبين ذلك ولا يوضحه ، بل يكثر من ذكر مايؤيد الظاهر بكل صراحة . إنه لايعتقد ذلك ويقوله ، إلا ضال فى دينه لم يعرف ماأنزل الله على رسوله ، ولم يعرف الرسول حق المعرفة .

قال ابن القيم : « واطراد لفظ اليد فى موارد استعمالها ، وتنوع ذلك يوجب أن تكون اليد حقيقة كقوله – تعالى – : (لما خلقت بيدى) [١] (بل يداه مبسوطتان) [٢] (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه) [٣] .

فلو كان المراد القدرة ، أو النعمة لم يستعمل منه لفظ يمين ، كما فى الحديث « المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين » [٤] ، فلا يصح أن تكون يد القدرة ، والنعمة ، وقوله : « يقبض الله سماواته بيده ، والأرض باليد الأخرى ، ثم يهزهن ، ثم يقول : أنا الملك » [٥] فالهز والقبض ، وذكر اليدين يمنع ذلك .

ولما ذكر ذلك رسول الله – ﷺ – جعل يقبض يديه ويبسطهما ، تحقيقاً للصفة لاتشبيها لها ، كما أنه – ﷺ – لما قرأ قوله – تعالى – : (وكان الله سميعا بصيرا) [٦] وضع إصبعه على عينه والأخرى على أذنه تحقيقا لصفة السمع والبصر .

---

(١) الآية ٧٥ من سورة ص .

(٢) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

(٤) تقدم تخريجه .

(٥) تقدم تخريجه ص ٢٢١ .

(٦) الآية ١٣٤ من سورة النساء والآية ٥٨ منها .

وقوله - ﷺ - : « لما خلق الله آدم قبض بيديه ، وقال : اختر ، فقال : اخترت يمين ربى ، وكلتا يديه يمين ، ففتحها ، فإذا فيها أهل اليمين من ذريته » (١)

وقوله - ﷺ - : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » (٢) اهـ .

وقد تقدمت الإشارة إلى بعض النصوص فى ذلك .

فاقتران الطى والقبض ، والإمساك باليد جعل تأويلها بالقدرة ، والنعمة تحريفا باطلا .

قال الإمام ابن خزيمة : « نحن نقول : الله - جل وعلا - له يدان ، كما أعلمنا البارى فى محكم تنزيله ، وعلى لسان نبيه المصطفى - ﷺ - ونقول : كلتا يدى ربنا يمين ، على ما أخبر النبى - ﷺ - ونقول : إن الله - عز وجل - يقبض الأرض بإحدى يديه ويطوى السماء بيده الأخرى » (٣) .

فمن أثبت لله - تعالى - يدين ، وأثبت لهما أصابع على ماجاء فى النصوص الصحيحة لايكون مشبها ، بل يكون متبعا لكتاب الله وسنة رسوله ، مطيعا لله ورسوله فى ذلك ، لأنه أثبت لله ما أثبته لنفسه ، وأثبته له رسوله - ﷺ - .

والله - تعالى - ليس كمثله شيء لافى ذاته ولا فى أوصافه ، لأن الوصف تابع للموصوف .

وقال البغوى : « الإصبع المذكورة فى الحديث صفة ، من صفات الله - عز وجل - وكذلك كل ماجاء به الكتاب ، أو السنة من هذا القبيل ، فى صفات الله - تعالى - ، كالنفس ، والوجه والعين ، واليد ، والرجل ، والإتيان ، والمجيء ،

---

(١) مضى تخريجه ص ٢٢١ .
(٢) مختصر الصواعق ص ٣٣٧ .
(٣) كتاب التوحيد ص ٨٣ .

والنزول إلى السماء الدنيا ، والاستواء على العرش ، والضحك ، والفرح .

قال الله – تعالى – لموسى : (واصطنعتك لنفسى) [١] ، وقال – عز وجل –: (ولتصنع على عينى) [٢] وقال – سبحانه وتعالى – : (كل شىء هالك إلا وجهه) [٣] ، وقال – عز وجل – (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) [٤] وقال – تعالى – : « بل يداه مبسوطتان » [٥] ، وقال – جل وعلا – : (ياإبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) [٦] وقال – تعالى – : (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه) [٧] ، وقال – تعالى – : (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام) [٨] ، وقال – سبحانه وتعالى – : (وجاء ربك والملك صفا صفا) [٩] وقال – تعالى – : (الرحمن على العرش استوى) [١٠] ، وقال – تعالى – : (ثم استوى على العرش الرحمن) [١١] وقال رسول الله – ﷺ –: « ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر » [١٢] وروى أنس ، عن النبى – ﷺ – قال : « لاتزال جهنم يلقى فيها ، وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع

---

(١) الآية ٤١ من سورة طه .
(٢) الآية ٣٩ من سورة طه .
(٣) الآية ٨٨ من سورة القصص .
(٤) الآية ٢٧ من سورة الرحمن .
(٥) الآية ٦٤ من سورة المائدة .
(٦) الآية ٧٥ من سورة ص .
(٧) الآية ٦٧ من سورة الزمر .
(٨) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .
(٩) الآية ٢٢ من سورة الفجر .
(١٠) الآية ٥ من سورة طه .
(١١) الآية ٥٩ من سورة الفرقان .
(١٢) سيأتى شرحه إن شاء الله .

رب العزة فيها قدمه » ، وفى رواية أبى هريرة : « حتى يضع الله رجله » [١] . وفى حديث أبى هريرة فى آخر من يخرج من النار : « فيضحك الله منه ، ثم يأذن له فى دخول الجنة » [٢] وفى حديث جابر : « فيتجلى لهم يضحك » [٣] ، وفى حديث أنس وغيره : « الله أفرح بتوبة عبده ، من أحدكم يسقط على بعيره ، وقد أضله فى أرض فلاة » [٤] .

فهذه ونظائرها صفات لله – تعالى – ، ورد بها السمع ، يجب الإيمان بها ، وإمرارها على ظاهرها ، معرضا فيها عن التأويل ، مجتنبا عن التشبيه ، معتقدا أن البارى – سبحانه وتعالى – لايشبه شىء من صفاته صفات خلقه ، كما لاتشبه ذاته ذوات خلقه ، قال – تعالى – : (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) [٥] .

وعلى هذا مضى سلف الأمة ، وعلماء السنة ، تلقوها جميعا بالإيمان والقبول ، وتجنبوا فيها عن التمثيل والتأويل ، ووكلوا العلم فيها إلى الله – عز وجل – .

قال سفيان بن عيينة : كل ماوصف الله – تعالى – به نفسه فى كتابه ، فتفسيره قراءته ، والسكوت عليه ، ليس لأحد أن يفسره إلا الله – تعالى – ورسوله .

وقال الزهرى : على الله البيان ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم .

وقال بعض السلف : « قدم الإسلام لاتثبت إلا على قنطرة التسليم » [٦] ومراده بقوله : « ووكلوا العلم فيها إلى الله » علم الكيفية ، وأما مايفهم منها فى الوضع اللغوى فهو ظاهر ، ومعلوم ، وكذا ماذكره عن سفيان أنها لاتفسر أى تؤول ، وتطلب معرفة كيفيتها .

---

(١) تقدم وهو فى مسلم رقم ٢٨٤٨ .
(٢) متفق عليه وسيأتى إن شاء الله .
(٣) رواه مسلم فى الإيمان رقم ١٩١ .
(٤) انظره فى مسلم جـ ٤ ص ٢١٠٤ رقم ٢٧٤٧ .
(٥) الآية ١١ من سورة الشورى .
(٦) شرح السنة جـ ١ ص ١٦٨ – ١٧١ .

وهذا كثير فى أقوال العلماء والسلف من أهل السنة .

وقال ابن القيم : « ورد لفظ اليد فى القرآن ، والسنة ، وكلام الصحابة ، والتابعين ، فى أكثر من مائة موضع ، وروداً متنوعا ، متصرفا فيه ، مقرونا بما يدل على أنها يد حقيقية ، من الإمساك ، والطى ، والقبض ، والبسط ، والمصافحة ، والحثيات ، والنضح باليد ، والخلق باليدين ، والمباشرة بهما ، وكتب التوراة بيده ، وغرس جنة عدن بيده ، وتخمير طينة آدم بيده ، ووقوف العبد بين يديه ، وكون المقسطين عن يمينه ، وقيام رسول الله – ﷺ – يوم القيامة عن يمينه ، وتخيير آدم بين مافى يديه ، فقال : أخترت يمين ربى ، وأخذ الصدقة بيمينه ، يربيها لصاحبها ، وكتابته بيده على نفسه ، أن رحمته تغلب غضبه ، وأنه مسح ظهر آدم بيده ، ثم قال له : ويداه مقبوضتان : اختر ، فقال : اخترت يمين ربى ، وكلتا يديه يمين مباركة ، وأن يمينه ملآى لا يغيضها نفقة سحاء الليل ، والنهار ، وبيده الأخرى القسط ، يرفع ويخفض وأنه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، وأنه يطوى السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يطوى الأرض باليد الأخرى ، وأنه خط الألواح التى كتبها لموسى بيده » (١) .

* * *

---

(١) مختصر الصواعق ص ٣٤٨ .

قال : « باب قول النبى – ﷺ – : « لاشخص أغير من الله »

* * *

الغيرة بفتح الغين ، وإسكان الياء ، وهى فى اللغة مأخوذة من التغير الحاصل من الأنفة ، والحمية .

والشخص : هو ماشخص وبان عن غيره .

ومقصد البخارى أن هذين الاسمين يطلقان على الله – تعالى – وصفا له ، لأن الرسول – ﷺ – أثبتها لله ، وهو أعلم الخلق بالله – تعالى – .

قال النووى : « قال العلماء : الغيرة بفتح العين ، وأصلها المنع ، والرجل غيور على أهله ، أى يمنعهم من التعلق بأجنبى بنظر ، أو حديث ، أو غيره . والغيرة صفة كمال » (١) .

قال الحافظ : « وقد فسر الرسول – ﷺ – غيرة الله فى قوله : « إن الله يغار ، وغيرة الله أن يأتى المؤمن ماحرم الله » (٢) .

ومعناه أن الله يغار إذا انتهكت محارمه ، وليس انتهاك المحارم هو غيرة الله لأن انتهاك المحارم فعل العبد ، ووقوع ذلك من المؤمن أعظم من وقوعه من غيره .

وغيرة الله – تعالى – من جنس صفاته التي يختص بها ، فهى ليست مماثلة لغيرة المخلوق ، بل هى صفة تليق بعظمته ، مثل الغضب ، والرضا ونحو ذلك من خصائصه التى لايشاركه الخلق فيها .

---

(١) شرح مسلم جـ ١٠ ص ١٣٢ .

(٢) الفتح جـ ٩ ص ٣١٩ .

وقد تقرر أنه – تعالى – ليس كمثله شيء فى ذاته ، فكذلك فى صفاته ، وأفعاله ، ولكن لابد من الاشتراك فى ألفاظ الأسماء التى تضاف إلى الله صفات له ، وبين ألفاظ الأسماء التى يوصف بها العباد ، لأنه لايمكن معرفة ماغاب عنا إلا بمعرفة ما شهدناه ، فنعتبر بعقولنا الغائب بالشاهد .

فلولا أنا نجد من أنفسنا جوعا ، وعطشا ، وشبعاً ، وريًّا ، وحباً ، وبغضا ، ولذة ، وألماً ، ورضى ، وسخطا ، لم نعرف حقيقة مانخاطب به إذا وصف لنا ذلك وأخبرنا به عن غيرنا .

ولو لم نعلم مافى المشاهد من الحياة ، والقدرة ، والعلم ، والكلام ، لم نفهم مانخاطب به من ذلك فى الغائب .

فلابد فيما شهدناه ، وما غاب عنا من قدر مشترك ، هو مسمى اللفظ .

وقد أخبرنا عن نعيم الآخرة ، وعذابها مما يؤكل ، ويشرب ، ويفرح ، ويحزن ، وينعم ، ويؤلم ، فلولا معرفتنا بما يشبه ذلك فى الدنيا ، لم نفهم ما وعدنا به من ذلك ، مع علمنا أن حقائق ما فى الآخرة ليست كحقائق ما فى الدنيا ، كما قال ابن عباس فى تفسير قوله – تعالى – : (وأُتوا به متشابها) ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء » (١) ولكن بين ما فى الدنيا ، وما فى الآخرة مشابهة واشتراك من بعض الوجوه . وبذلك نفهم المراد ، فنحب النعيم ، ونرغب فيه ، ونكره المؤلم ، وننفر عنه ، فنعرف معنى العسل ، واللبن ، والحرير ، والذهب ، ونفرق بينهما ، لما عرفناه من نظيرها فى الشاهد ، وإن كانت حقائقها فيما هى عليه لايعلمها إلا الله – تعالى – كما قال – جل وعلا – : (فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين) (٢) .

---

(١) رواه ابن جرير فى تفسيره انظر جـ ١ ص ٣٩٣ – ٣٩٤ بتحقيق محمود شاكر .

(٢) الآية ١٧ من سورة السجدة .

فإذا كان هذا فى صفات المخلوق ، فكيف فى صفات الخالق – جل وعز – فإنها أشد مباينة مثال ذلك : إذا قال نفاة الصفات : النزول ، والاستواء ، من صفات الأجسام ، فإنه لايعقل إلا لجسم مركب ، والله منزه عن ذلك .

فيقال لهم : وكذلك الحياة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والعلم ، والقدرة ، والكلام هى من صفات الأجسام ، فإنه لايعقل من يسمع ، ويبصر ، ويريد ، ويعلم ويقدر ، ويتكلم ، ويكون حياً ، إلا الجسم .

فإن قالوا : سمعه ليس كسمعنا ، وعلمه ليس كعلمنا ، وبصره ليس كبصرنا ، وكذا البقية .

قيل : فكذلك نزوله ، واستواؤه ، وغضبه ، وفرحه ، وحبه ، وغيرته ، وسائر صفاته ، والذين يؤولون النصوص فى ذلك ، مخالفون لها ، ومتناقضون .

قوله : « وقال عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الملك : « لاشخص أغير من الله » قال الحافظ : « يعنى أن عبيد الله بن عمرو ، روى الحديث المذكور ، عن عبد الملك ، بالسند المذكور فقال : « لاشخص » بدل كلمة « لا أحد » وقد وصله الدارمى ، ثم ذكر سنده ، وساقه أبو عوانة – يعقوب الإسفرائينى – فى صحيحه ، عن محمد بن عيسى العطار ، عن زكريا بتمامه ، وقال فى المواضع الثلاثة : « لاشخص » .

قال الإسماعيلى – بعد أن أخرجه – من طريق عبيد الله بن عمرو القواريرى ، وأبى كامل – فضيل بن حسين الجحدرى – ومحمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب ، ثلاثتهم عن أبى عوانة – الوضاح البصرى – بالسند الذى أخرجه [به] البخارى ، ولكن قال فى المواضع الثلاثة : « لاشخص » بدل « لاأحد » .

ثم ساقه من طريق زائدة بن قدامة عن عبد الملك كذلك .

فكأن هذه اللفظة لم تقع فى رواية البخارى فى حديث أبى عوانة ، عن

عبد الملك ، فلذلك علقها عن عبيد الله بن عمرو ، قلت : وقد أخرجه مسلم ، عن القواريرى ، وأبى كامل ، كذلك » ا هـ (١) .

ولفظ مسلم ، بعد ذكر السند : « قال سعد بن عبادة : لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح عنه ، فبلغ ذلك رسول الله – ﷺ – فقال : « أتعجبون من غيرة سعد ؟ فوالله لأنا أغير منه ، والله أغير منى ، من أجل غيرة الله حَرَّم الفواحش ماظهر منها ومابطن ، ولا شخص أغير من الله . ولا شخص أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشرين ومنذرين ، ولا شخص أحب إليه المدحة من الله ، من أجل ذلك وعد الله الجنة » (٢) .

ورواه الإمام أحمد فى المسند بهذا اللفظ (٣) قال عبد الله بن الإمام أحمد بعد ذكره ، قال عبيد الله القواريرى : ليس حديث أشد على الجهمية من هذا الحديث .

وبهذا يتبين خطأ ابن بطال فى قوله : « أجمعت الأمة على أن الله – تعالى – لايجوز أن يوصف بأنه شخص ، لأن التوقيف لم يرد به » ا هـ ذكره الحافظ (٤) .

وهذه مجازفة ، ودعوى عارية من الدليل ، فأين هذا الإجماع المزعوم ومن قاله ؟ سوى المتأثرين ببدع أهل الكلام ، كالخطاب ، وابن فورك ، وابن بطال – عفا الله عنا وعنهم – .

وقوله : لأن التوقيف لم يرد به » يبطله ماتقدم من ذكر ثبوت هذا اللفظ عن رسول الله – ﷺ – بطرق صحيحة لامطعن فيها .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٠ .
(٢) صحيح مسلم جـ ٢ ص ١١٣٦ رقم ١٤٩٩ .
(٣) المسند جـ ٤ ص ٢٤٨ ورواه الدارمى فى سننه جـ ٢ ص ٧٣ .
(٤) انظر الفتح جـ ١٣ ص ٤٠ .

وإذا صح الحديث عن رسول الله – ﷺ – وجب العمل به ، والقول بموجبه سواء كان فى مسائل الاعتقاد ، أو فى العمليات ، وقد صح عنه – ﷺ – إطلاق هذا الاسم – أعنى الشخص – على الله تعالى – فيجب اتباعه فى ذلك على من يؤمن بأنه رسول الله . وهو – ﷺ – أعلم بربه وبما يجب له ومايمتنع عليه – تعالى – من غيره من سائر البشر .

وتقدم أن الشخص فى اللغة : ماشخص ، وارتفع ، وظهر .

قال فى اللسان : « الشخص كل جسم له ارتفاع وظهور » [١] .

والله – تعالى – أظهر من كل شيء ، وأعظم ، وأكبر ، وليس فى إطلاق الشخص عليه محذور على أصل أهل السنة الذين يتقيدون بما قاله الله ورسوله .

★ ★ ★

---

(١) انظر لسان العرب جـ ٢ ص ٢٨١ المرتب .

٤٥ – قال : « حدثنا موسى بن إسماعيل التبوذكى ، حدثنا أبو عوانة ، حدثنا عبد الملك عن وراد ، كاتب المغيرة ، عن المغيرة ، قال : قال سعد بن عبادة : لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح ، فبلغ ذلك رسول الله – ﷺ – فقال : « تعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه ، والله أغير منى ، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ماظهر منها ومابطن ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين ، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله ، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة » .

* * *

نكتفى بما تقدم من الكلام على معنى الحديث ، ونذكر موجزا من الكلام مما فيه فائدة ، وتقدم معنى الغيرة ، وأنها صفة كمال ، كما تقدم أنا لايمكن أن نفهم ماخوطبنا به إلا بواسطة المعلوم كذا فى الشاهد ، المشارك له فى المعنى فى الجملة ، وإن كان البون شاسعاً .

قال النووى : « أخبر – ﷺ – أن سعدا غيور ، وأنه أغير منه ، وأن الله أغير منه ، وأنه من أجل ذلك حَرَّم الفواحش ، فهذا تفسير لمعنى غيرة الله – تعالى – ، أى أنها منعه – سبحانه وتعالى – الناس من الفواحش » [(١)] .

قلت : ليس هذا هو غيرة الله – تعالى – ولكنه مقتضى الغيرة ، كما يوضحه قوله : « ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش » فبين أن تحريم الفواحش ، والمنع منها ليس هو الغيرة وإنما هو من آثارها .

قوله : « لورأيت رجلا مع امرأتى ، لضربته بالسيف غير مصفح » أى

---

(١) شرح مسلم جـ ١٠ ص ١٣٢ .

لضربته بحد السيف لابصفحه ، يعنى لقتله بدون توقف ، وقد أقره رسول الله - ﷺ - على ذلك ، وأخبر أنه أغير من سعد ، وأن الله أغير منه ، وأما قول القرطبى وغيره : أن قوله : « ولا أحد أحب إليه العذر من الله » إشارة إلى الإنكار على سعد فغير صحيح ، بل مدلول الحديث خلافه ، ولابد من الغيرة ، والذى لاغيرة له ديوث ، والديوث لايدخل الجنة كما فى سنن النسائى [1] وغيرها .

ولهذا قال - ﷺ - : « تعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه ، والله أغير منى » الخ .

قوله : « ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ، ماظهر منها ، ومابطن » أى من أثر غيرة الله منع عباده من قربان الفواحش ، - وهى ماعظم وفحش فى النفوس الزاكية والعقول السليمة مثل الزنا . والظاهر يشمل مافعل علناً ، وماباشرته الجوارح وإن كان سرا .

والباطن يشمل مافى السر ، وما انطويت عليه القلوب .

قوله « ولأحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين »

العذر : هو طلب العفو عن فعل سابق مع الاعتراف بالذنب والندم على وقوعه منه ، ويراد به الأعذار . وهو إقامة البينات ، والحجج ، وإيضاح طريق الخير والشر ، وكلاهما يدخل فيما ذكر ، والمبشرون ، والمنذرون هم الرسل ، وفى رواية مسلم « بعث المرسلين مبشرين ومنذرين » وفى رواية له أيضا « ولذلك أنزل الكتب ، والرسل »

قال عياض : « المعنى بعث المرسلين للأعذار ، والإنذار لخلقه . قبل

---

(١) المجتبى جـ ٥ ص ٨٠ رواه أحمد فى المسند جـ ٢ ص ١٣٤ وفى سنده عبد الله ابن يسار ، روى له النسائى ، وذكره ابن حبان فى الثقاة ، وبقية رجاله ثقاة مشهورون .

أخذهم بالعقوبة وهو كقوله – تعالى – : (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) (١)

قوله : « ولا أحد أحب إليه المدحة من الله ، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة » هذا لكماله المطلق ، فهو – تعالى – يحب من عباده أن يثنوا عليه ويمدحوه على فضله وجوده ، ومن أجل ذلك جاد عليهم بكل نعمة يتمتعون بها ، ويرضى عنهم إذا حمدوه عليها .

ومهما أثنوا عليه ومدحوه لايمكن أن يصلوا إلى مايستحقه من المدح والثناء . ولهذا مدح نفسه كما تقدم ، فوعد الجنة ليكثر سؤاله ، والثناء عليه من عباده ، ومدحه ويجهدوا فى ذلك غاية مايستطيعون لأن الجنة هى منتهى الإنعام .

* * *

---

(١) من الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٠ .

قال : باب « قل أى شيء أكبر شهادة ؟ قل الله »

* * *

« فسمى الله – تعالى – نفسه شيئا ، وسمى النبى – ﷺ -: القرآن شيئا ، وهو صفة من صفات الله ، وقال : « كل شيء هالك إلا وجهه »

يريد بهذا أنه يطلق على الله – تعالى – أنه شيء ، وكذلك صفاته ، وليس معنى ذلك أن « الشيء » من أسماء الله الحسنى . ولكن يخبر عنه – تعالى – بانه شيء ، وكذا يخبر عن صفاته بأنها شيء ، لأن كل موجود يصح أن يقال : إنه شيء .

قال الحافظ : « الشيء يساوى الموجود ، لغة ، وعرفا . وأما قولهم : فلان ليس بشيء ، فهو على طريق المبالغة فى الذم ، فلذلك وصف بصفة العدم » (١)

وقال : « أى إذا جاءت استفهامية ، اقتضى الظاهر أن تسمى باسم ماتضاف إليه ، فعلى هذا صح الاستدلال بها على تسمية الله – تعالى – شيئا .

واسم الجلالة خبر مبتدأ محذوف ، أى ذلك الشيء هو الله .

ويصح أن يكون مبتدأ ، محذوف الخبر ، والتقدير : الله أكبر شهادة . والله أعلم » (٢) وقوله – تعالى – : « كل شيء هالك إلا وجهه » قال الحافظ : الاستدلال بهذه الآية للمطلوب ، ينبنى على أن الاستثناء متصل ، فإنه يقتضى اندراج المستثنى فى المستثنى منه ، وهو الراجح . على أن لفظ شيء يطلق على الله – تعالى – وهو الراجح أيضا » (٣)

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٢ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر .

قال الإمام عبد العزيز الكنانى ، فى محاجته لبشر المريسى ، لما سأله بشر عن القرآن ، أهو شيء أم ليس بشيء ؟ قال : « فقلت : لبشر : سألت عن القرآن ، هو شيء أم غير شيء فإن كنت تريد أنه شيء ، إثباتا للوجود ، ونفيا للعدم ، فنعم هو شيء .

وإن كنت تريد أن الشيء اسم له ، وأنه كالأشياء ، فلا .

فإن الله أجرى كلامه على ماأجراه على نفسه ، إذ كان كلامه من ذاته ، ومن صفاته ، فلم يتسم بالشيء ، ولم يحمل الشيء اسماً من أسمائه ، ولكنه دل على نفسه أنه شيء ، وأنه أكبر الأشياء ، إثباتا للوجود ، ونفيا للعدم ، وتكذيبا للزنادقة ، ومن تقدمهم ممن جحد معرفته ، وأنكر ربوبيته ، من سائر الأمم ، فقال لنبيه - ﷺ -: (قل أى شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بينى وبينكم) (١) فدل على نفسه أنه شيء ، لا كالأشياء ، وأنزل فى ذلك خبرا خاصا مفردا لعلمه السابق أن جهما وبشراً ، ومن قال بقولهما سيلحدون فى أسمائه وصفاته ، ويشبهون على خلقه ، ويدخلونه وكلامه فى الأشياء المخلوقة ، فقال - عز وجل - : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (٢) فأخرج نفسه ، وكلامه وصفاته من الأشياء المخلوقة بهذا الخبر ، تكذيبا لمن ألحد فى كتابه ، وافترى عليه ، وشبهه بخلقه . وعدد أسمائه فى كتابه ، ولم يتسم بالشيء ، ولم يجعل الشيء اسما من أسمائه » (٣)

ونقل الحافظ عن ابن بطال : « أن الآيات والآثار المذكورة فى هذا الباب ترد على من زعم أنه لايجوز أن يطلق على الله - تعالى - أنه شيء ، كما صرح به

---

(١) الآية ١٩ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٣) الحيدة ص ٢٤ - ٢٥ مطابع القصيم .

عبد الله الناشىء المتكلم [١] وغيره .

كما ترد على من زعم أن المعدوم شيء ، وقد أطبق العقلاء على أن لفظ شيء يقتضى إثبات موجود ، وعلى أن لفظ « لاشيء » يقتضى نفى موجود إلا ماتقدم من إطلاقهم « ليس بشيء فى الذم » [٢] .

وهذا الذى ذكره الحافظ عن ابن بطال واضح ، وقد تقدم مايدل عليه .

★ ★ ★

---

(١) هو أبو العباس عبد الله بن محمد الناشى الشاعر المتكلم يعرف بابن شرشير ، أصله من الأنبار وأقام ببغداد مدة طويلة ، ثم خرج إلى مصر وتوفى بها سنة ثلاث وتسعين ومائتين . الشذرات جـ ٢ ص ٢١٤ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٢ – ٤٠٣ .

٤٦ – قال : « حدثنا عبد الله بن يوسف ، أخبرنا مالك عن أبى حازم ، عن سهل بن سعد ، قال : قال النبى – ﷺ –: لرجل « أمعك شيء من القرآن ؟ قال : نعم سورة كذا ، وسورة كذا ، لسور سماها » .

* * *

سهل بن سعيد بن مالك بن خالد بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن ساعدة الأنصارى ، من مشاهير الصحابة ، ذكر ابن حبان أن اسمه حزن ، فغيَّر رسول الله – ﷺ – اسمه ، توفى رسول الله – ﷺ – وهو ابن خمس عشرة سنة وعمَّر طويلا ، فكان آخر من مات فى المدينة من الصحابة على أحد الأقوال ، رضوان الله عليهم أجمعين ، وله أحاديث كثيرة فى كتب الحديث ، مات سنة إحدى وتسعين من الهجرة [١] .

هذا الحديث مختصر من قصة الواهبة نفسها للنبى – ﷺ – لما قال له رجل من أصحابه : إن لم يكن لك بها حاجة ، فزوجنيها يارسول الله ، قال له – ﷺ – : « أمعك شيء تعطيها إياه ؟ قال : لا ، قال : التمس ولو خاتما من حديد ، فلما لم يجد ، قال له : هل معك شيء من القرآن ؟ أى هل تحفظ شيئا منه ؟ قال : نعم سورة كذا ، وسورة كذا ، لسور سماها . فقال النبى – ﷺ – : زوجتكها على مامعك من القرآن » أى يكون تعليمه لها مامعه من سور القرآن صداقا لها .

والمقصود هنا أنه أطلق الشيء على القرآن ، بقوله : « أمعك شيء من القرآن » وهو صفة من صفات الله – تعالى – والصفة لها حكم الموصوف ، فيصح إطلاق ذلك على الله – تعالى – .

وقد تقدم فى كلام عبد العزيز الكنانى « أن لفظ الشيء يطلق على القرآن

---

(١) الإصابة جـ ٢ ص ٨٧ ، الاستيعاب جـ ٢ ص ٩٤ .

إثباتا لوجوده ، وحقيقته ، ونفيا لعدمه ، وليس لفظ الشيء اسما له . كما أنه يطلق على الله - تعالى - كذلك .

وأن الله أجرى كلامه على ما أجراه على نفسه ، إذ كان كلامه من ذاته ، ومن صفاته ، فلم يتسم بالشيء ، ولم يجعل الشيء اسما من أسمائه ، ولكنه دل على نفسه أنه شيء ، وأنه أكبر الأشياء إثباتا للوجود ، ونفياً للعدم ، وتكذيبا للزنادقة ومن تقدمهم ، ممن جحد معرفته ، وأنكر ربوبيته من سائر الأمم » (١)

* * *

(١) انظر الحيدة ص ٢٤ .

قال : « باب : « وكان عرشه على الماء ، وهو رب العرش العظيم »

* * *

قال الأزهرى : « العرش فى كلام العرب : سرير الملك ، يدلك على ذلك سرير ملكة سبأ ، سماه الله – جل وعز – عرشا ، فقال : (إنى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم » (١) .

قلت : والعرش فى كلام العرب – أيضا – سقف البيت ، وجمعه عروش ، ومنه قول الله – جل وعز – : (أو كالذى مَرَّ على قرية ، وهى خاوية على عروشها) (٢)

قال الكسائى « على عروشها » على أركانها ، وقال غيره من أهل اللغة : على سقوفها أراد أن حيطانها قائمة ، وقد تهدمت سقوفها ، فصارت فى قرارها ، وانقعرت الحيطان من قواعدها ، فتساقطت على السقوف المتهدمة قبلها » (٣) .

« وقال الليث : العرش : السرير للملك ، والعرش ، والعريش : مايستظل به .

قال : وعرش الرجل : قوام أمره ، فإذا زال قوام أمره ، قيل : « ثل عرشه » (٤) .

وقال الجوهرى : « العرش سرير الملك ، وعرش البيت سقفه ، والعرش ،

---

(١) الآية ٢٣ من سورة النمل .
(٢) الآية ٢٥٨ من سورة البقرة .
(٣) تهذيب اللغة جـ ١ ص ٤١٣ .
(٤) المصدر نفسه جـ ١ ص ٤١٥ .

والعريش مايستظل به ، وعرش القدم : مانتأ فى ظهرها . وفيه الأصابع ، وعرش البئر : طيها بالخشب ، بعد أن يطوى أسفلها بالحجارة قدر قامة ، فذلك الخشب هو العرش والجمع عروش .

وعرش ، يعْرُش ويَعْرِش عرشاً ، أى بنى بناء من خشب » (١) .

ويظهر مما ذكره أهل اللغة : أن العرش اسم للسرير المرتفع العظيم ، الذى يجلس عليه الملك ، ويطلق على السقف ، وعرش الرب جل وعلا له المعنيان فهو محل استوائه تعالى ، وهو سقف المخلوقات .

قوله : (وكان عرشه على الماء) (٢) قال ابن جرير : « يقول – تعالى – وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض ، ومافيهن « .

ثم روى عن مجاهد : وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق شيئا .

وروى بسنده عن قتادة « وكان عرشه على الماء » ينبئكم ربكم – تبارك وتعالى – كيف كان بدء خلقه ، قبل أن يخلق السموات والأرض .

ثم روى حديث أبى رزين العقيلى : « قلت : يارسول الله أين كان ربنا ، قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : « كان فى عماء ، مافوقه هواء ، وماتحته هواء ، ثم خلق عرشه على الماء » .

وفى رواية : « قلت : يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض » الخ (٣)

---

(١) الصحاح جـ ٣ ص ١٠١٠ .

(٢) الآية ٧ من سورة هود .

(٣) رواه الإمام أحمد فى المسند جـ ٤ ص ١١ و ١٢ ، والترمذى فى التفسير من سننه جـ ٤ ص ٣٥١ وقال : هذا حديث حسن ، وابن ماجه فى السنن جـ ١ ص ٦٤ رقم ١٨٢ ، والطبرى أيضا فى التاريخ جـ ١ ص ١٩ .

ثم روى عن ابن عباس ، أنه سئل : « وكان عرشه على الماء ، على أى شيء كان الماء ؟ قال : على متن الريح » [١] .

وقال الترمذى : « حدثنا أحمد بن منيع ، أخبرنا يزيد بن هارون ، أخبرنا حماد بن سلمة ، عن يعلى بن عطاء ، عن وكيع بن حدس [٢] ، عن عمه أبى رزين ، قال : قلت : يارسول الله أين كان ربنا ، قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان فى عماء ، ماتحته هواء ،وما فوقه هواء ، وخلق عرشه على الماء » ، قال أحمد : « قال يزيد : العماء ، أى ليس معه شيء » [٣] .

قال أبو عبيد : « العماء فى كلام العرب ، السحاب الأبيض »، قال الأصمعى ، وغيره : هو ممدود

وقال الحارث بن حلزة اليشكرى :

وكأن المنون تردى بنا أعـ ـصم ينجاب عنه العماء

يقول : هو فى ارتفاعه ، قد بلغ السحاب ينشف عنه ، يقول : نحن فى عزنا مثل الأعصم ، فالمنون إذا أرادتنا ، فكأنما تريد أعصم .

وإنما تأولنا هذا الحديث . على كلام العرب المعقول عنهم ، ولاندرى كيف كان ذلك العماء ، ومامبلغه ، والله أعلم .

وأما العمى فى البصر ، فإنه مقصور ، وليس هو من معنى الحديث فى شيء » اهـ [٤] نقل هذا الكلام الأزهرى ، ثم قال : « قلت : وقد بلغنى ، عن أبى الهيثم ، ولم يعزه لى ، إلى ثقة – أنه قال فى تفسير هذا الحديث ، ولفظه : أنه كان فى عمى مقصور ، قال : وكل أمر لاتدركه القلوب بالعقول ، فهو عمى ، والمعنى : أنه كان حيث لاتدركه عقول بنى آدم ، ولايبلغ كنهه وصف .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١٥ ص ٢٤٥ – ٢٤٩ بتحقيق محمود شاكر .

(٢) قال الترمذى : هكذا يقول حماد بن سلمة : وكيع بن حدس .

(٣) سنن الترمذى جـ ٤ ص ٣٥١ .

(٤) الغريب جـ ٢ ص ٨ – ٩ .

قلت أنا [١] : والقول عندى ، ماقاله أبو عبيد ، أنه العماء ، ممدود ، وهو السحاب ولايدرى كيف ذلك العماء ، بصفة تحصره ، ولانعت يحده ، ويقوى هذا القول قول الله – جل وعز – (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل [٢] من الغمام) [٣] فالغمام معروف فى كلام العرب .

إلا أنا لاندرى ، كيف الغمام الذى يأتى الله – عز وجل – يوم القيامة فى ظلل منه فنحن نؤمن به ، ولانكيف صفته ، وكذلك سائر صفات الله عز وجل » اهـ [٤] .

فعلى ماذكره يزيد بن هارون ، وأقره الترمذى ، يكون المعنى : ليس مع الله شىء ، فيدل على أن الله – تعالى – كان ، ولم يكن معه شىء ، كما سيأتى فى حديث عمران إن شاء الله تعالى .

وعلى قول من فسر العماء بالسحاب الرقيق ، ورجحه الأزهرى ، لا يدل على قول الفلاسفة الدهرية ، القائلين بقدم العالم ، وتبنى مذهبهم الماديون اليوم وذلك أن الله – تعالى – أخبرنا فى كتابه ، بابتداء الخلق ، وإعادته كما قال تعالى : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده) [٥] ، كما أخبر بخلق السماوات ، والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، فى مواضع كثيرة من كتابه – تعالى [٦] .

---

(١) القائل هو الأزهرى .

(٢) فيه « ظل » وهو خطأ مطبعى .

(٣) الآية ٢١٠ من سورة البقرة .

(٤) تهذيب اللغة جـ ٣ ص ٢٤٦ .

(٥) الآية ٢٧ من سورة الروم .

(٦) انظر نقض تأسيس الجهمية جـ ١ ص ١٥٤ .

وقوله : (وهو رب العرش العظيم) [١] أى هو تعالى المالك للعرش ، الذى هو أكبر المخلوقات ، وأعظمها ، وهو المتصرف فيه ، وهو عرشه الذى استوى عليه ، فاختاره لذلك .

فالإضافة تقتضى اختصاصا للعرش من بين المخلوقات ، فهو تعالى رب كل مخلوق . فإضافة العرش إليه – تعالى – ووصفه بأنه عظيم ، يدل على خصوصية للعرش ، ليست لغيره من سائر المخلوقات ، كما يدل على أنه – تعالى – مالك لكل مادون العرش بطريق الأولى ، والمتصرف فيه كيف يشاء .

قال ابن جرير : « وإنما عنى بوصفه – جل ثناؤه – نفسه بأنه « رب العرش العظيم » الخبر عن جميع مادونه ، أنهم عبيده ، وفى ملكه وسلطانه ، لأن العرش إنما يكون للملوك ، فوصف نفسه بأنه ذو العرش ، دون سائر خلقه ، وأنه الملك العظيم ، دون غيره ، وأن من دونه ، فى سلطانه وملكه، جارٍ عليه حكمه وقضاؤه » [٢] .

وقال ابن كثير : « وهو رب العرش العظيم » أى هو مالك كل شىء ، وخالقه ، لأنه رب العرش العظيم ، الذى هو سق المخلوقات ، وجميع المخلوقات ، من السموات والأرضين ، ومافيهما ، ومابينهما تحت العرش ، مقهورون بقدرة الله – تعالى – وعلمه محيط بكل شىء ، وقدره نافذ فى كل شىء ، وهو على كل شىء وكيل » [٣] . « قال – جل وعلا –: (ذو العرش المجيد) [٤] ، وقال – جلت عظمته –: (وترى الملائكة حافين من حول العرش) [٥] ، وقال – تعالى –: (الذين يحملون العرش ، ومن حوله ، يسبحون بحمد ربهم) [٦] ، وقال

---

(١) آخر آية من سورة التوبة .
(٢) تفسير الطبرى جـ ١٤ ص ٥٨٧ بتحقيق محمود شاكر .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٧٩ – ١٨٠ ط الشعب .
(٤) الآية ١٥ من سورة البروج .
(٥) الآية ٧٥ من سورة الزمر .
(٦) الآية ٧ من سورة غافر .

تعالى : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) [١] .

وأقوال أهل التفسير [متفقة] على أن العرش هو السرير ، وأنه جسم مجسم خلقه الله وأمر ملائكته بحمله ، وتعبدهم بتعظيمه ، والطواف به ، كما خلق فى الأرض بيتا ، وأمر بنى آدم بالطواف به ، واستقباله فى الصلاة .

وفى الآيات المتقدمة دلالة على صحة ماذهبوا إليه» ا هـ [٢] .

والأخبار عن رسول الله – ﷺ – والصحابة ، والتابعين لهم فى ذكر العرش ووصفه ، وأن الله تعالى مستوٍ عليه كثيرة جدا ، وسيأتى طرف يسير منها إن شاء الله تعالى .

ففى الصحيحين عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله – ﷺ – :« لقد اهتز عرش الرحمن لموت سعد » [٣]

« وقال ابن مسعود فى قوله : « ثم استوى على العرش » قال العرش على الماء ، والله فوق العرش ، وهو يعلم ما أنتم عليه » [٤]

وقال سليمان التيمى : لو سئلت ، أين الله ؟ لقلت فى السماء ، فإن قال : أين كان عرشه قبل السماء ؟ لقلت : على الماء ، فإن قال : فأين كان عرشه قبل خلق الماء ؟ لقلت : لا أعلم .

قال البخارى : وذلك لقوله – تعالى – : (ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء) « يعنى إلا بما بين » [٥]

---

(١) الآية ١٧ من سورة الحاقة .

(٢) الأسماء والصفات للبيهقى ص ٣٩٢ . والمفروض أن يقول : خلقه الله واستوى عليه وأمر ملائكته الخ . ولكن أبى عليه المذهب ذلك .

(٣) البخارى مع الفتح .ج ٧ ص ١٢٣ ، ومسلم جـ ٤ ص ١٩١٥ .

(٤) خلق أفعال العباد ص ٤٣ .

(٥) المصدر نفسه ص ٣٧ .

وقال أبو نصر السجزى فى الإبانة : « وأئمتنا كسفيان ، ومالك ، والحمادين ، وابن عيينة ، والفضيل ، وابن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق ، متفقون على أن الله – سبحانه – فوق العرش ، وعلمه بكل مكان ، وأنه ينزل إلى سماء الدنيا ، وأنه يغضب ، ويرضى ويتكلم بما يشاء » (١)

والنصوص فى ذكر العرش ، وأن الله – تعالى مستوٍ عليه ، كثيرة جدا .

وآمن الصحابة وأتباعهم بذلك ، على مادلت النصوص عليه ظاهرا ، دون تأويل أو تحريف ، وبلا تشبيه ، ولا تمثيل ، كما سيأتى بعض ذلك إن شاء الله تعالى .

قوله : « قال أبو العالية : « استوى إلى السماء » أى ارتفع ، « فسواهن » خلقهن . وقال مجاهد : « استوى : علا على العرش » .

هذا الذى ذكره البخارى عن أبى العالية ، ومجاهد ، هو الذى يقوله ، ويعتقده عامة السلف من الصحابة وأتباعهم إلى اليوم .

وهو الحق الذى دلت عليه النصوص ، وجاءت تعبيراتهم فى ذلك فى أربعة ألفاظ ماذكره البخارى هنا ، وثالثها « صعد » ، ورابعها « استقر » . وسوف أذكرها مع أسانيدها إليهم .

قال ابن جرير : « حدثت ، عن عمار بن الحسن ، قال : حدثنا عبد الله ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : « ثم استوى إلى السماء » يقول : ارتفع إلى السماء » (٢) .

وروى اللالكائى بسنده ، عن بشر بن عمر ، قال : سمعت غير واحد من المفسرين يقولون : « الرحمٰن على العرش استوى : ارتفع » (٣) .

---

(١) نقلا عن سير أعلام النبلاء جـ ١٧ ص ٦٥٠ .
(٢) تفسير الطبرى جـ ١ ص ٤٢٩ بتحقيق محمود شاكر .
(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة جـ .

قال ابن عبد البر : « الاستواء : الاستقرار فى العلو ، وبهذا خاطبنا الله عز وجل – فقال : (لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه) [(١)] ، وقال : (واستوت على الجودى) [(٢)] وقال : (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك) [(٣)] . وقال الشاعر :

فأوردتهم ماء بفيفاء قفرة   وقد حلق النجم اليمانى فاستوى

وهذا لايجوز أن يتأول فيه أحد ، استولى ، لأن النجم لا يستولى .

وقد ذكر النضر بن شميل [(٤)] . وكان ثقة مأمونا ، جليلا فى علم الديانة ، واللغة .

قال : حدثنى الخليل – وحسبك بالخليل – قال : أتيت أبا ربيعة الأعرابى ، وكان من أعلم من رأيت ، فإذا هو على سطح ، فسلمنا ، فرد علينا السلام ، وقال لنا : استووا فبقينا متحيرين ، ولم ندر ماقال ؟ قال : فقال لنا أعرابى إلى جنبه : إنه أمركم أن ترتفعوا . قال الخليل : هو من قول الله – عز وجل –: (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) [(٥)] فصعدنا إليه ، فقال : هل لكم فى خبز فطير ، ولبن هجير ، وماء نمير ؟ فقلنا : الساعة فارقناه ، فقال : سلاما ، فلم ندر ماقال ، فقال الأعرابى : إنه سألكم متاركة لا خير فيها ، ولا شر ، قال الخليل :

---

(١) الآية ١٣ من سورة الزخرف .

(٢) جزء من الآية ٤٤ من سورة هود .

(٣) الآية ٢٨ من سورة (قد أفلح المؤمنون) .

(٤) النضر بن شميل بن خرشة المازنى ، كان إماما حافظا جليل الشأن ، صاحب سنة . كان رأسا فى الحديث ، وفى اللغة والنحو ضاقت به معيشته فى البصرة ، فخرج منها إلى مرو ، ونشر بها السنة ، توفى سنة ٢٠٣ هـ ، انظر الشذرات جـ ٢ ص ٧ .

(٥) الآية ١١ من سورة فصلت .

هو من قول الله – عز وجل –: (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) [١]
ا هـ [٢] .

قال البغوى : « ثم استوى على العرش » قال الكلبى ، ومقاتل : استقر .

وقال أبو عبيدة : صعد .

ثم قال : « وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء ، وأما أهل السنة ، فيقولون الاستواء على العرش ، صفة لله تعالى بلا كيف ، يجب على العبد الإيمان به ، ويكل العلم فيه إلى الله عز وجل » [٣] .

وقال البخارى : « حدثت عن يزيد بن هارون ، قال : من زعم أن الرحمن على العرش استوى ، على خلاف مايقر فى قلوب العامة ، فهو جهمى » [٤]

ومراده أن الاستواء من الأمور الواضحة ، التى يفهمها عامة المسلمين إذا كانوا من أهل اللغة العربية .

كما أن مراد البغوى فى قوله : « ويكل العلم فيه إلى الله – عز وجل – » علم الكيفية . وأما معناه فى اللغة ، فهو معلوم ظاهر ، كما يأتى فى كلام الإمام مالك ، وشيخه ربيعة ، وأم سلمة .

قال ابن جرير : الاستواء فى كلام العرب يأتى على وجوه :

منها انتهاء شباب الرجل ، وقوته ، فيقال إذا صار كذلك : قد استوى الرجل . ومنها استقامة ماكان فيه أود ، من الأمور ، والأسباب ، يقال منه : استوى لفلان أمره ، إذا استقام بعد أود ، ومنه قول الطرماح بن حكيم :

طال على رسم مهدد أبده ... وعفا ، واستوى به بلده

---

(١) الآية ٦٣ من سورة الفرقان .
(٢) التمهيد جـ ٧ ص ١٣١ ، ١٣٢ .
(٣) تفسير البغوى جـ ٢ ص ٢٣٧ .
(٤) خلق أفعال العباد ص ١٢٧ مجموعة عقائد السلف .

يعنى استقام به .

ومنها : الإقبال على الشيء ، يقال : استوى فلان ، على فلان بما يكرهه ، ويسوءه بعد الإحسان إليه .

ومنها الاحتياز ، والاستيلاء ، كقولهم : استوى على المملكة ، بمعنى احتوى عليها ، وحازها

ومنها العلو ، والارتفاع ، كقول القائل : « استوى فلان على سريره ، يعنى به علوه عليه » [١]

قلت : قد أنكر أهل اللغة المعنى الثالث ، والرابع مما ذكره ابن جرير فى الاستواء المعدى بعلى .

قال ابن القيم : ولفظ الاستواء فى كلام العرب الذى خاطبنا الله به ، وأنزل به كلامه نوعان ، مطلق ، ومقيد .

فالمطلق ، مالم يوصل معناه بحرف ، مثل قوله : (ولما بلغ أشده واستوى) . وهذا معناه : كمل ، وتم ، يقال : استوى الزرع ، واستوى الطعام .

وأما المقيد فثلاثة أضرب :

أحدها مقيد بإلى ، كقوله : (ثم استوى إلى السماء) [٢] ، واستوى فلان إلى السطح وقد ذكر تبارك – وتعالى – هذا المعدى بإلى فى موضعين من كتابه فى البقرة فى قوله – تعالى – : (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء) [٢] .

والثانى فى سورة حم السجدة ، قوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) [٢] ، وهذا بمعنى العلو ، والارتفاع بإجماع السلف .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١ ص ٤٢٩ بتحقيق محمود شاكر .
(٢) الآية ٢٩ من سورة البقرة ، والآية ١١ من سورة فصلت .

الثانى مقيد بعلى ، كقوله تعالى : (لتستووا على ظهوره) [١] ، وقوله : (واستوت على الجودى) [٢] وقوله : (فاستوى على سوقه) [٣] وهذا معناه أيضا العلو ، والارتفاع والاعتدال ، بإجماع أهل اللغة .

الثالث : المقرون بواو المعية ، التى تعدى الفعل إلى المفعول معه ، نحو : استوى الماء والخشية . بمعنى ساواها .

فهذه معانى الاستواء المعقولة فى كلامهم ، ليس فيها استولى ألبتة ، ولانقله أحد من أئمة اللغة ، الذين يعتمد قولهم ، وإنما قاله متأخرو النحاة ، ممن سلك طريق المعتزلة ، والجهمية .

والذين قالوه ، لم يقولوه نقلا ، فإن ذلك مجاهرة بالكذب ، ولكن قالوه استنباطا وحملا منهم للفظة استوى ، على استولى ، ولذلك لما سمع أهل اللغة ذلك أنكروه ، غاية الإنكار .

قال ابن الأعرابى – وقد سئل هل يصح أن يكون استوى بمعنى استولى ؟ .

فقال : « لاتعرف العرب ذلك ، وهو من أكابر أئمة اللغة » ا هـ [٤] .

قال ابن جرير : « وأولى المعان بقول الله – جل ثناؤه – : (ثم استوى إلى السماء فسواهن) . علا عليهن ، وارتفع ، فدبرهن بقدرته ، وخلقهن سبع سماوات .

والعجب ممن أنكر المعنى المفهوم ، من كلام العرب ، فى تأويل قول الله تعالى : (ثم استوى إلى السماء) . الذى هو بمعنى العلو ، والارتفاع ، هربا عند نفسه من أن يلزمه بزعمه – إذا تأوله بمعناه المفهوم كذلك – أن يكون إنما علا ،

---

(١) الآية ١٣ من سورة الزخرف .
(٢) الآية ٤٤ من سورة هود .
(٣) الآية ٢٩ من سورة الفتح .
(٤) مختصر الصواعق ص ٣٢٠ ببعض التصرف .

وارتفع بعد أن كان تحتها – إلى تأويله بالمجهول ، المستكره ، ثم لم ينج مما هرب منه . فيقال له : زعمت أن تأويل قوله : « استوى » . أقبل ، أفكان مدبرا عن السماء فأقبل إليها ؟ فإن زعم أن ذلك ليس بإقبال فعل ، ولكنه إقبال تدبير . قيل له : فكذلك فقل : علا عليها ، علو ملك ، وسلطان ، لا علو انتقال وزوال ، ثم لن يقول : فى شىء من ذلك ، قولا ، إلا لزم فى الآخر مثله » (١)

قوله : « فقل : علا عليها علو ملك وسلطان ، لاعلو انتقال وزوال » هو من جنس كلام أهل البدع ، فلا ينبغى ، وهو خلاف الظاهر من النصوص ، بل هو من التأويل الباطل .

قال ابن القيم : « نقل معنى الاستواء ، كنقل لفظه ، بل أبلغ ، فإن الأمة كلها تعلم بالضرورة أن الرسول – ﷺ – أخبر عن ربه بأنه استوى على عرشه ، من يحفظ القرآن منهم ، ومن لا يحفظه ، كما قال مالك ، وأئمة السنة : الاستواء معلوم ، غير مجهول ، كما أن معنى السمع ، والبصر ، والقدرة ، والحياة ، والإرادة ، وسائر ماأخبر به – تعالى – عن نفسه معلوم ، وإن كانت كيفيته غير معلومة للبشر ، فإنهم لم يخاطبوا بالكيفية ، ولم يرد منهم العلم بها .

فإخراج الاستواء عن حقيقته المعلومة ، كإنكار لفظه ، بل أبلغ ، وهذا مما يعلم أنه مناقض لما أخبر الله به ورسوله ، فإن فهم معنى اللفظ هو المراد منه ، وهو المقصود بالذات ، لا اللفظ ، فإن اللفظ مقصود قصد الوسائل للتعريف بالمراد ، فإذا التقى المعنى ، وكانت إرادته محال – كما زعموا – لم يبق لذكر اللفظ فائدة ، بل كان تركه أنفع من الإتيان به ، فإن الإتيان به يحصل منه إيهام التشبيه ، ويوقع الأمة فى اعتقاد الباطل – على حد زعمهم – ولا ريب أن هذا إذا نسب إلى آحاد الناس كان ذمه أولى من مدحه ، فكيف يجوز أن ينسب إلى من فى كلامه الهدى ، والشفاء . ومن المتفق عليه أنه لا يجوز أن يتكلم الله ورسوله

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١ ص ٤٣٠ بتحقيق محمود شاكر .

بالشيء ويريد خلاف ظاهره » [١] .

وقال أيضا - « وظاهر الاستواء العلو ، والارتفاع ، كما نص عليه جميع أهل اللغة ، وأهل التفسير المقبول ، فلا يحتمل استواء الرب تبارك وتعالى على عرشه ، المعدى بعلى ، المعلق بالعرش ، المعرف بالألف واللام ، المعطوف على خلق السماوات والأرض بثم مطرداً فى موارده ، بهذا الأسلوب - لا يحتمل إلا معنى واحدا ، لامعنيين ، ولا كما يقول صاحب القواصم والعواصم : [٢]

إذا قال لك المجسم : (الرحمٰن على العرش استوى) [٣] ، فقل : استوى على العرش يستعمل على خمسة عشر وجها ، فأيها تريد ؟ .

فيقال له : كلا والذى استوى على العرش ، لايحتمل هذا اللفظ معنيين ألبتة . والمدعى للاحتمال عليه الدليل ، والأصل عدم الاشتراك والمجاز ، ولم تذكر على دعواك دليلا ، ولم تبين الوجوه المحتملة ، مع ذكر الدليل عليه .

والمقصود أن استواء الرب - تعالى - على عرشه ، المختص به الموصول بأداة على نص فى معناه ، لايحتمل سواه » ا هـ [٤] .

وقال الحافظ : « نقل أبو إسماعيل الهروى ، فى كتابه الفاروق ، بسنده إلى داود بن على بن خلف ، قال : كنا عند أبى عبد الله بن الأعرابى - يعنى يحي بن زياد اللغوى فقال له رجل : (الرحمٰن على العرش استوى) [٥] ، فقال : هو على العرش كما أخبر قال : ياأبا عبد الله ، إنما معناه : استولى ، فقال : أسكت ، لا يقال : استولى على شيء إلا أن يكون له مضاد .

---

(١) مختصر الصواعق ص ٣٣١ - ٣٣٢ .
(٢) هو ابن العربى المالكى .
(٣) الآية ٥ من سورة طه .
(٤) مختصر الصواعق ملخصا ص ٣٣٢ - ٣٣٤ .
(٥) الآية ٥ من سورة طه .

ومن طريق محمد بن أحمد بن النضر ، الأزدى ، سمعت ابن الأعرابى يقول : أرادنى أحمد بن أبى دؤاد ، أن أجد له فى لغة العرب ، (الرحمٰن على العرش استوى) [١] بمعنى استولى ، فقلت : والله ماأصبت هذا [٢] .

وقال غيره : لو كان بمعنى استولى لم يختص بالعرش ، لأنه غالب على جميع المخلوقات » ا هـ [٣] .

وروى اللالكائى بسنده من طريق الحسن ، عن أمه ، عن أم سلمة ، فى قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) [١] ، قالت : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإقرار به إيمان ، والجحود به كفر .

وروى عن مالك ، جاء إليه رجل ، فقال : ياأبا عبد الله ، (الرحمٰن على العرش استوى) [١] كيف استوى ؟ قال : فما رأيت مالكا وجد من شيء ، كموجدته من مقالته ، وعلاه الرحضا - يعنى العرق - قال : وأطرق القوم ، وجعلوا ينظرون مايأتى منه فيه ، فسرى عن مالك ، فقال : الكيف غير معقول ، والاستوى منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فإنى أخاف أن تكون ضالا ، وأمر به فأخرج [٤]

وذكر بسنده ابن عينية ، قال : سئل ربيعة ، عن قوله « الرحمن على العرش استوى » [١] كيف استوى ؟ قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق » [٥]

---

(١) الآية ٥ من سورة طه .

(٢) ورواه اللالكائى فى شرح أصول السنة جـ ٢ ص ٣٩٩ .

(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٦ وذكر آثارا كثيرة بهذا المعنى فليراجع .

(٤) شرح أصول السنة اللالكائى ص ٣٩٨ .

(٥) شرح أصول السنة جـ ٢ ص ٣٩٨ .

وذكر البيهقى بسنده ، عن الأوزاعى ، قال : كنا والتابعون متوافرون ، نقول : إن الله فوق عرشه ، ونؤمن بما وردت به السنة ، من صفاته [1] .

قال الحافظ : سنده جيد [2] .

وقال : « وأخرج الثعلبى ، من وجه آخر ، عن الأوزاعى ، أنه سئل عن قوله تعالى : (الرحمٰن على العرش استوى) [3] . فقال : هو كما وصف نفسه » [4]

« قال أبو بكر الأثرم ، فى كتاب السنة : حدثنا إبراهيم بن الحارث – يعنى العبادى – حدثنى الليث بن يحي ، سمعت إبراهيم بن الأشعث ، قال أبو بكر – هو صاحب الفضيل – سمعت الفضيل بن عياض ، يقول : ليس لنا أن نتوهم فى الله كيف وكيف ، لأن الله وصف نفسه فأبلغ ، فقال : « قل هو الله أحد الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » فلا صفة أبلغ مما وصف الله – عز وجل – نفسه وكل هذا النزول ، والضحك ، وهذه المباهاة ، وهذا الاطلاع ، كما شاء أن ينزل وكما شاء أن يباهى ، وكما شاء أن يطلع ، وكما شاء أن يضحك ، فليس لنا أن نتوهم فيه كيف ، وكيف ، وإذا قال لك الجهمى : أنا أكفر برب يزول عن مكانه ، فقل أنت : أنا أؤمن برب يفعل مايشاء .

وقال الخلال : وأنبأنا محمد بن على الورَّاق ، حدثنا أبو بكر الأثرم ، حدثنى محمد بن إبراهيم القيسى ، قال : قلت لأحمد بن حنبل : يحكى عن ابن المبارك ، قيل له : كيف نعرف ربنا ؟ قال : فى السماء السابعة على عرشه بحد ، فقال أحمد : هكذا هو عندنا .

---

(١) الأسماء والصفات ص ٤٠٨ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٦ .

(٣) الآية ٥ من سورة طه .

(٤) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٦ .

وأخبرنى حرب بن إسماعيل ، قال : قلت لإسحاق – يعنى ابن إبراهيم – هو على العرش بحد ؟ قال : نعم بحد .

وذكر عن ابن المبارك ، قال : هو على عرشه ، بائن من خلقه ، بحد .

وأخبرنا المروزى ، قال : قال إسحاق بن إبراهيم بن راهويه : قال الله – تعالى (الرحمٰن على العرش استوى) (١) ، إجماع أهل العلم أنه فوق العرش ، استوى ويعلم كل شيء ، فى أسفل الأرض السابعة ، وفى قعور البحار ، ورؤوسالآكام وبطون الأودية ، وفى كل موضع ، كما يعلم علم مافوق السماوات السبع ، وما فوق العرش ، أحاط بكل شيء علما ، فلا تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات البر ، والبحر ، ولا رطب ، ولا يابس إلا قد عرف ذلك كله وأحصاه ، فلا تعجزه معرفة شيء عن معرفة غيره » (١)

ومعنى قولهم : « بحد » أنه – تعالى – بائن من خلقه ، غير حال فيهم ، ولا مخالط لهم – تعالى وتقدس – وقد قيدوا الحد ، بأنه لا يعلمه إلا هو – تعالى – وهو قريب من قول الإمام مالك وغيره : « الاستوى معلوم ، والكيف مجهول » ، فبين أن كيفية استوائه – تعالى – على العرش مجهولة للعباد ، ولكنه لم ينف ثبوت ذلك فى نفس الأمر فكذلك قولهم : له حد لا يعلمه إلا هو ، والله أعلم .

قال الإمام عثمان ابن سعيد الدارمى – رحمه الله تعالى – فى رده على بشر المريسى : « والله – تعالى – له حد ، لا يعلمه غيره ، ولا يجوز أن يتوهم لحده غاية فى نفسه ، ولكن نؤمن بالحد ، ونكل علم ذلك إلى الله – تعالى – .

ولمكانه حد ، وهو على عرشه ، فوق سماواته ، فهذان حدان » (٢) .

وقال عبد العزيز بن يحي المكى الكنانى ، صاحب الحيدة فى الرد على الزنادقة ، والجهمية : « زعمت الجهمية فى قوله تعالى : (الرحمٰن على العرش

---

(١) درء تعارض العقل والنقل جـ ٢ ص ٢٤ و ٣٤ – ٣٥ .
(٢) رد عثمان بن سعيد على بشر المريسى ص ٣٨٢ مجموع عقائد السلف .

استوى) [١] إنما المعنى استولى كقول العرب : استولى فلان على مصر ، استولى فلان على الشام ، يريد استولى عليها .

فيقال له : هل يكون خلق من خلق الله أتت عليه مدة ليس الله بمستول عليه ؟ فإذا قال : لا .

قيل له : فمن زعم ذلك ؟ فمن قوله : من زعم ذلك ، فهو كافر .

يقال له : يلزمك أن تقول : إن العرش قد أتت عليه مدة ليس الله بمستول عليه ، وذلك أن الله – تبارك وتعالى – أخبر أنه خلق العرش قبل خلق السموات والأرض ، ثم استوى عليه بعد خلق السماوات والأرض .

قال – تعالى – : (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء) [٢] فأخبر أن العرش كان على الماء قبل خلق السموات والأرض وقال – تعالى – : (خلق السماوات والأرض ، وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) [٣] وقال : (ثم استوى إلى السماء فسواهن) [٤] .

فأخبر أنه استوى على العرش ، فيلزمك أن تقول : المدة التى كان على العرش فيها ، قبل خلق السموات ، والأرض ، ليس الله بمستول عليه ، إذ كان استوى على العرش معناه عندك : استولى .

فإنما استولى بزعمك فى ذلك الوقت لاقبله » – ثم ذكر حديث عمران الآتى وحديث أبى رزين المتقدم ، ثم قال :

« فقال الجهمى : أخبرنى كيف استوى على العرش ؟ أهو كما يقال : استوى فلان على السرير ، فيكون السرير قد حوى فلانا وحده إذا كان عليه ، لأنا لا نعقل الشيء على الشيء إلا هكذا .

---

(١) الآية ٥ من سورة طه .
(٢) الآية ٧ من سورة هود .
(٣) الآية ٤ من سورة الم السجدة .
(٤) الآية ٢٩ من سورة البقرة .

فيقال له : أما قولك : كيف استوى ؟ فإن الله لايجرى عليه كيف ، وقد أخبرنا أنه استوى على العرش ، ولم يخبرنا كيف استوى ، فوجب على المؤمنين أن يصدقوا ربهم ، باستوائه على العرش ، وحرم عليهم أن يصفوا كيف استوى ، لأنه لم يخبرهم كيف ذلك ، ولم تره العيون فى الدنيا فتصفه بما رأت ، وحرم عليهم أن يقولوا عليه من حيث لا يعلمون .

فآمنوا بخبره عن الاستواء ، ثم ردوا علم كيف استوى إلى الله .

ولكن يلزمك أيها الجهمى أن تقول : إن الله محدود ، وقد حوته الأماكن ، إذا زعمت فى دعواك ، أنه فى الأماكن ، لأنه لا يعقل شىء فى مكان ، إلا والمكان قد حواه ، كما تقول العرب : فلان فى البيت ، والماء فى الجب ، فالبيت قد حوى فلانا ، والجب قد حوى الماء .

ويلزمك أشنع من ذلك ، لأنك قلت : أفظع مما قالت به النصارى ، وذلك أنهم قالوا : إن الله – عز وجل – فى عيسى ، وعيسى بدن إنسان واحد ، وكفروا بذلك وأنتم تقولون : إنه فى كل مكان ، وفى بطون النساء كلهن ، و[فى] بدن عيسى ، وأبدان الناس كلهم .

ويلزمك أيضا أن تقول : إنه فى أجواف الكلاب ، والخنازير ، لأنها أماكن وعندك ، أن الله فى كل مكان – تعالى الله – عن ذلك علوا كبيرا » [1] .

وقال أبو الحسن الأشعرى فى الإبانة : « إن قال قائل : ما تقولون فى الاستواء ؟ قيل : نقول : إن الله عز وجل – مستوٍ على عرشه ، كما قال : (الرحمٰن على العرش استوى) [2] وقال – تعالى –: (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض) [3] ، فالسموات فوقها العرش ، فلما كان

---

(١) درء تعارض العقل والنقل جـ ٦ ص ١١٥ – ١١٨ .
(٢) الآية ٥ من سورة طه .
(٣) الآية ١٦ من سورة الملك .

العرش فوق السموات قال : « أأمنتم من فى السماء » لأنه مستوٍ على العرش ، الذى فوق السموات ، وكل ماعلا فهو سماء ، فالعرش أعلى السموات وليس إذا قال : « أأمنتم من فى السماء » يعنى جميع السموات ، وإنما أراد العرش ، الذى هو أعلى السموات ، ألا ترى أن الله – عز وجل – ذكر السموات ، فقال : (وجعل القمر فيهن نورا) (١) ، ولم يرد أن القمر يملأهن جميعا ، وأنه فيهن جميعا .

ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم إذا دعوا ، نحو السماء ، لأن الله – عز وجل – مستو على العرش ، الذى هو فوق السماوات ، كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض .

ولو كان كما تقوله المعتزلة ، والجهمية ، أن معناه : استولى ، وملك ، وقهر ، لم يكن هناك فرق بين العرش ، والأرض السابعة ، ولكان مستويا على العرش ، وعلى الأرض ، وعلى السماء ، وعلى الحشوش ، والأقذار » (٢) تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وقال الباقلانى – وهو من أئمة الأشاعرة –: « فإن قال قائل : أتقولون : إنه فى كل مكان ؟ قيل : معاذ الله ، بل هو مستوٍ على عرشه ، كما أخبر فى كتابه ، فقال : (الرحمٰن على العرش استوى) (٣) وقال : (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) (٤) وقال : (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض) (٥) .

---

(١) الآية ١٦ من سورة نوح عليه السلام .

(٢) الإبانة ص ٨٥ – ٨٧ ملخصا.

(٣) الآية ٥ من سورة طه .

(٤) الآية ١٠ من سورة فاطر .

(٥) الآية ١٦ من سورة الملك .

ولو كان فى كل مكان ، لكان فى بطن الإنسان ، وفمه ، وفى الحشوش ، والمواضع التى نرغب عن ذكرها ، ولوجب أن يزيد بزيادة الأمكنة ، إذا خلق منها مالم يكن خلقه وينقص بنقصانها إذا بطل منها ماكان ، ولصح أن يرغب إليه إلى نحو الأرض ، وإلى خلفنا ، وإلى يميننا ، وشمائلنا ، وهذا قد أجمع المسلمون على خلافه ، وتخطئة قائله » [١] .

وقال شيخ الإسلام : « وإذا كان المسلمون يكفرون من يقول : إن السموات تقله ، أو تظله ، لما فى ذلك من احتياجه إلى مخلوقاته ، فمن قال : إنه فى استوائه على العرش محتاج إليه ، كاحتياج المحمول ، إلى حامله ، فإنه كافر ، لأن الله غنى ، عن العالمين حي ، قيوم ، الغنى المطلق ، وماسواه فقير إليه .

مع أن أصل الاستواء على العرش ، ثابت بالكتاب ، والسنة ، واتفاق سلف الأمة ، وأئمة السنة ، بل ثابت فى كل كتاب ، أنزل على كل نبى أرسل » [٢] .

وذكر عن أبى عمر الطلمنكى : أنه قال : « قال أهل السنة ، فى قوله – تعالى – : (الرحمٰن على العرش استوى) [٣] : أن الاستواء من الله على عرشه المجيد ، على الحقيقة لا على المجاز » [٤] .

وقال ابن عبد البر فى شرح حديث النزول : « وفيه دليل على أن الله فى السماء ، على العرش من فوق سبع سموات ، كما قالت الجماعة ، وهو من حجتهم على المعتزلة ، فى قولهم : إن الله فى كل مكان ، وليس على العرش .

---

(١) التمهيد ص ٢٦٠ .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٢ ص ١٨٨ .

(٣) الآية ٥ من سورة طه .

(٤) مجموع الفتاوى جـ ٣ ص ٢٦١ .

ومن الدليل على صحة ماقاله أهل الحق ، قول الله – تعالى – : (الرحمن على العرش استوى) (١)

قال شيخ الإسلام : « وفى الفقه الأكبر ، المروى عن الإمام أبى حنيفة – رحمه الله – قال : « من قال : لا أعرف ربى فى السماء ، أم فى الأرض ، فقد كفر ، لأن الله – تعالى – يقول : (الرحمٰن على العرش استوى) (٢) وعرشه فوق سبع سماواته »

قلت : فإن قال : إنه على العرش استوى ، ولكنه يقول : لا أدرى ، العرش فى السماء ، أم فى الأرض ؟ قال : هو كافر ، لأنه أنكر أن يكون فى السماء ، لأنه – تعالى – فى أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى ، لا من أسفل .

وفى لفظ : سألت : أبا حنيفة : عمن يقول : لاأعرف ربى ، فى السماء ، أم فى الأرض ؟ قال : قد كفر ، لأن الله – تعالى – يقول : (الرحمٰن على العرش استوى) (٣) وعرشه فوق سبع سموات .

قال : فإنه يقول : على العرش استوى ، ولكن لا يدرى العرش فى الأرض ، أو فى السماء ؟ قال : إذا أنكر أنه فى السماء فقد كفر » . ثم قال :

« ففى هذا الكلام المشهور عن أبى حنيفة ، عند أصحابه ؛ أنه كفر الواقف ، الذى يقول : لا أعرف ربى ، فى السماء ، أم فى الأرض .

فكيف يكون الجاحد ، النافى ، الذى يقول : ليس فى السماء ، أو ليس فى السماء ولا فى الأرض ؟ .

واحتج على كفره بقوله تعالى : (الرحمٰن على العرش استوى) (٣) قال : وعرشه فوق سبع سموات ، وبين بهذا أن قوله – تعالى – : (الرحمٰن على

---

(١) التمهيد جـ ٧ ص ١٢٩ .
(٢) الآية ٥ من سورة طه .
(٣) الآية ٥ من سورة طه .

العرش استوى) [١] يبين أن الله ، فوق السماوات ، فوق العرش ، وأن الاستواء على العرش ، دل على أن الله بنفسه فوق العرش .

ثم إنه أردف ذلك بتكفير من قال : إنه على العرش استوى ، ولكن توقف فى كون العرش فى السماء ، أم فى الأرض ؛ قال : لأنه أنكر أنه فى السماء ، لأن الله فى أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى ، لا من أسفل .

وهذا تصريح من أبى حنيفة – رحمه الله – بتكفير من أنكر أن يكون الله فى السماء .

واحتج على ذلك بأن الله فى أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى ، لا من أسفل ، وكل من هاتين الحجتين فطرية عقلية ، فإن القلوب مفطورة على الإقرار بأن الله فى العلو ، وعلى أنه يدعى من أعلى ، لا من أسفل .

وقد جاء اللفظ الآخر صريحاً عنه بذلك ، فقال : « إذا أنكر أنه فى السماء فقد كفر » [٢] وكلام العلماء من أهل السنة ، من السلف وأتباعهم فى هذا الموضوع كثير جدا . فنكتفى بهذا الطرف اليسير ، لأن العاقل المنصف ، الذى يريد الحق ، ويطلبه إذا بان له الدليل ، كفاه اليسير ، وأما من ضل ، وعاند ، فلا يفيده البيان والإكثار ، من الكلام ، والله الهادى ، وهو المستعان .

قوله : « وقال ابن عباس : المجيد ، الكريم ، والودود : الحبيب ، يقال : حميد مجيد ، كأنه فعيل ، من ماجد ، محمود من حمد »

قول ابن عباس انتهى عند قوله : يقال . قال الحافظ : « وصله ابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، فى قوله تعالى : « ذو العرش المجيد » . قال : المجيد الكريم وبه أى بالسند – عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وهو الغفور الودود » . قال : الودود الحبيب » [٣] .

---

(١) الآية ٥ من سورة طه .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ٨ ص ٤٧ – ٤٩ .

(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٨ .

وذكر السيوطى أنه خرجه ابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقى فى الصفات ، فى الموضعين » [١] .

قلت : يقصد البخارى – رحمه الله – أن العرش أضيف إلى الله – تعالى – الإضافة الدالة على المصاحبة ، والاختصاص ، حيث قال : « ذو العرش » أى صاحب العرش . فدل ذلك على اختصاص العرش المذكور بالله دون سائر المخلوقات . والمجيد قرأ بالرفع صفة لذو ، الذى هو الله – تعالى – ، وقرأ بالجر صفة للعرش .

قال ابن جرير : « قرأ عامة قراء المدينة ومكة ، وبعض الكوفيين بالرفع ، ردا على قوله : « ذو العرش » ، على أنه صفة الله – تعالى ذكره – وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة خفضا ، على أنه من صفة العرش .

والصواب من القول : أنهما قراءتان ، معروفتان ، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب » [٢] .

قال أبو حيان : « ذو العرش » خص العرش بإضافة نفسه ، تشريفا للعرش ، وتنبيها على أنه أعظم المخلوقات » [٣] .

و « المجيد » فسره ابن عباس ، بالكريم – وقد جاء فى القرآن وصف العرش بأنه كريم ، قال – تعالى – : (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) [٤] فوصف العرش بأنه كريم لسعته وحسنه ، وهو فى وصف الله ، الجواد ، واسع العطاء كثير الخير ، حميد الصفات .

---

(١) الدر المنثور جـ ٨ ص ٤٧١ ، وانظر الطبرى جـ ٣٠ ص ١٣٨ و ١٣٩ .

(٢) تفسير الطبرى جـ ٣٠ ص ١٣٩ .

(٣) البحر المحيط جـ ٨ ص ٤٥٢ .

(٤) الآية ١١٦ من سورة المؤمنون .

قال فى القاموس : « المجيد » الرفيع العالى ، والكريم ، والشريف الفعال » [١] .

قوله : « الودود » الحبيب ، تقدم أن هذا التفسير مروى عن ابن عباس بسند متصل ، والود خالص الحب وصافيه .

وفى القاموس : « الودود » كثير الحب . وقد تقدم الكلام فى صفة المحبة .

« الودود » فعول ، من الود ، قال شعيب عليه السلام : « إن ربى رحيم ودود » [٢] ، وقال – تعالى – : (وهو الغفور الودود) [٣] فقرنه بالرحيم فى موضع ، وبالغفور فى موضع .

قال أبو بكر بن الأنبارى : « الودود » معناه المحب لعباده ، من قولهم : وددت الرجل أوده ، وداً ، وودا ، وودا .

ويقال : وددت الرجل ، وداداً ، ووداداً ، ووِدادة .

وقال الخطابى : هو اسم مأخوذ من الود ، وفيه وجهان : أحدهما أن يكون فعولا فى محل مفعول ، كما قيل : رجل هيوب ، بمعنى مهيب ، وفرس ركوب ، بمعنى مركوب . والله – سبحانه وتعالى – مودود فى قلوب أوليائه ، لما يعرفونه من إحسانه إليهم . والوجه الآخر أن يكون بمعنى الود ، أى أنه تعالى يود عباده الصالحين .

قال تعالى : (سيجعل لهم الرحمٰن وداً) [٤] فسرت بأنه يحبهم ، ويحببهم إلى عباده .

---

(١) جـ ١ ص ٣٣٦ .

(٢) الآية ٩٠ من سورة هود .

(٣) الآية ١٤ ن سورة البروج .

(٤) الآية ٩٦ من سورة مريم .

ويؤيده الحديث الصحيح « إذا أحب الله عبداً نادى ياجبريل ، إنى أحب فلانا ، فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض » وسيأتى إن شاء الله تعالى .

والأكثرون على ماذكره ابن الأنبارى ، أنه فعول بمعنى فاعل ، أى هو الواد ، كما قرنه بالغفور ، الذى يغفر ، وبالرحيم وهو الذى يرحم » [١]

وقوله : « يقال حميد مجيد ، كأنه فعيل ، من ماجد ، محمود ، من حمد » قال الحافظ : « أصل هذا قول أبى عبيدة ، فى مجاز القرآن ، فى قوله : « عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد » أى محمود ماجد » [٢] .

قال الكرمانى : « غرضه منه ، أن مجيدا بمعنى فاعل ، كقدير بمعنى قادر ، حميدا بمعنى مفعول ، فلذلك قال : « مجيد من ماجد ، حميد من ماجد ، حميد من محمود ، قال : وفى بعض النسخ : محمود من حميد ، وفى أخرى : من حمد ، مبنى للفاعل ، والمفعول أيضا ، وذلك لاحتمال أن يكون حميد بمعنى حامد ، ومجيد بمعنى ممجد ، ثم قال : وفى عبارته تعقيد » [٣] .

قال الحافظ : « قلت : وهو فى قوله : « محمود من حمد » . وقد اختلفت الرواة فيه ، والأولى فيه ماوجد فى أصله ، وهو كلام أبى عبيدة » [٤]

« فالحميد الذى له من الصفات ، وأسباب الحمد مايقتضى أن يكون محمودا ، وإن لم يحمده غيره ، فهو حميد فى نفسه .

---

(١) النبوات ص ٧١ – ٧٢ ملخصا .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٨ .

(٣) شرح الكرمانى على البخارى جـ ٢٥ ص ١٢٩ .

(٤) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٨ .

والمحمود من تعلق به حمد الحامدين ، والحمد ، والمجد إليهما يرجع الكمال كله ، فإن الحمد يستلزم الثناء والمحبة للمحمود ، فمن أحببته ولم تثن عليه لم تكن حامداً له .

وهذا الثناء والحب ، يتبع الأسباب المقتضية له ، وهو ماعليه المحمود من صفات الكمال ، ونعوت الجلال ، والإحسان إلى الغير ، فإن هذه ، هى أسباب المحبة وكلما كانت هذه الصفات أجمع ، وأكمل كان الحمد والحب أتم وأعظم .

والله سبحانه له الكمال المطلق ، الذى لانقص فيه بوجه ، والإحسان كله له ومنه ، فهو أحق بكل حمد ، وبكل حب ، فهو أهل أن يحب لذاته ، ولصفاته ولأفعاله ولأسمائه ، ولإحسانه ، ولكل ماصدر منه .

والمجد مستلزم للعظمة ، والسعة ، والجلال ، كما يدل عليه موضوعه فى اللغة » [١] يقال : استمجد المرخ والعفار ، لكثرة النار فيهما .

قال ابن القيم : ومن أسمائه – تعالى – ماهو دال على جملة أوصاف عديدة ، لايختص بصفة معينة ، بل هو دال على معناه ، لا على معنى مفرد ، نحو المجيد ، العظيم ، الصمد . فإن المجيد ، من اتصف بصفات متعددة ، من صفات الكمال ، ولفظه يدل على هذا فإنه موضوع فى اللغة للسعة ، والكثرة ، والزيادة ، فمنه استمجد المرخ والعفار ، وأمجد الناقة علفا ، ومنه « ذو العرش المجيد » صفة للعرش ، لسعته ، وعظمته وشرفه » [٢] .

* * *

---

(١) جلاء الأفهام ص ١٨٧ .

(٢) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١٦٠ .

٤٧ – قال : « حدثنا عبدان ، عن أبى حمزة ، عن الأعمش ، عن جامع ابن شداد ، عن صفوان بن محرز ، عن عمران بن حصين ، قال : « إنى عند النبى – ﷺ – إذ جاءه قوم من بنى تميم ، فقال : اقبلوا البشرى يابنى تميم ، قالوا : بشرتنا فأعطنا ، فدخل ناس من أهل اليمن ، فقال : اقبلوا البشرى ياأهل اليمن ، إذ لم يقبلها بنو تميم ، قالوا : قبلنا ، جئناك لنتفقه فى الدين ، ولنسألك عن أول هذا الأمر ماكان ؟ قال : كان الله ، ولم يكن شىء قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض ، وكتب فى الذكر كل شىء ، ثم أتانى رجل ، فقال : ياعمران أدرك ناقتك ، فقد ذهبت ، فانطلقت أطلبها ، فإذا السراب ينقطع دونها ، وأيم الله لوددت أنها ذهبت ولم أقم » .

* * *

عمران ، هو أبو نجيد بضم النون ، وفتح الجيم ابن حصين ، الخزاعى ، البصرى ، أسلم عام خيبر ، سنة سبع ، وشهد مابعدها من غزوات رسول الله – ﷺ – . وكان من فضلاء الصحابة ، وكانت الملائكة تسلِّم عليه مواجهة ، وكان مجاب الدعوة ، بعثه عمر إلى أهل البصرة يفقههم ، وكان الحسن البصرى يحلف بالله ماقدمها مثله ، اعتزل الناس فى الفتنة ، فلم يشهد شيئا من حروبها . مات فى البصرة سنة اثنين وخمسين رضى الله عنه [١] .

قوله : إنى عند النبى – ﷺ – فى الرواية التى ذكرها فى بدء الخلق : « دخلت على النبى – ﷺ – وعقلت ناقتى بالباب » [٢] .

---

(١) الرياض المستطابة ص ٢١٩ .

(٢) انظر البخارى مع الفتح جـ ٦ ص ٢٨٦ .

ويظهر أن هذه الواقعة فى المدينة ، فى آخر حياة النبى ﷺ ، ولهذا ذكرها البخارى فى آخر المغازى ، فى ذكر الوفود ، على النبى ﷺ .

قوله : « اقبلوا البشرى يابنى تميم » وفى رواية : « أبشروا يابنى تميم » ، والمراد بهذه البشرى الخير العظيم ، الذى يترتب على الإسلام ، والنجاة من العذاب العظيم ، الذى يترتب على عدم الدخول فى الإسلام ، وذلك فى الدنيا والآخرة .

قال الحافظ : « المراد بهذه البشارة ، أن من أسلم نجا من الخلود فى النار ، ثم بعد ذلك يترتب جزاؤه على وفق عمله ، إلا أن يعفو الله » (١) .

« وتميم اسم رجل ، وهو تميم بن مر بن إد بن طابخة – واسم طابخة – عمرو ابن إلياس ابن مضر ، والتميم فى اللغة الشريد » (٢) .

« قالوا : بشرتنا فأعطنا » يظهر أنهم مافهموا مقصد الرسول – ﷺ – بما أراده بالبشرى ، أو أن رغبتهم فى العاجلة ، فعلقوا بها آمالهم ، فقدموا ذلك على التفقه فى الدين ، والإقبال على تفهم ماقاله الرسول – ﷺ – ولهذا كره رسول الله – ﷺ – قولهم كما فى الرواية الأخرى ، وتغير لون وجهه حيث استشعر قلة فقههم فى الدين ، ورغبتهم فى الآخرة . والله أعلم .

« فدخل ناس من أهل اليمن » تقدم ذكر اليمن ، وسبب تسميته فى شرح حديث معاذ . « فقال : اقبلوا البشرى ياأهل اليمن ، إذ لم يقبلها بنو تميم » . البشرى اسم من البشير ، وهى الإخبار بما يسر ، ويفرح غالبا ، وسميت بذلك لأنه يظهر أثرها على بشرة الوجه .

قال الحافظ : « أى اقبلوا منى مايقتضى أن تبشروا بالجنة إذا أخذتم به » (٣) ويؤخذ من هذا أنه ينبغى ، بل يتعين قبول ماجاء عن الله ، ورسوله ،

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤٠٩ .
(٢) انظر نهاية الأرب ص ١٨٨ و ٣٢٢ .
(٣) الفتح جـ ٦ ص ٢٨٨ .

بدون توقف أو استفسار ، أو طلب للعلة ، والسبب ، لأن قول بنى تميم : بشرتنا فأعطنا . لا يدل بظاهره على أنهم لم يقبلوها ، ومع ذلك جعل عدم فهمهم للمقصود وطلبهم لأمر عاجل ، عدم قبول للبشرى .

قوله : « جئناك لنتفقه فى الدين » الفقه هو الفهم ، أى فهم المراد ، أى أننا قد آمنا بك ، وبما جئت به ، وأتينا إليك لتفهمنا ديننا الذى جئت به وتعلمنا مانعتقده ، ونعمل به ، وهذا من توفيق الله لعبده ، أن يهتم بالتفقه فى دينه ، حتى يعبد ربه على علم وبصيرة .

قوله : « ولنسألك عن أول هذا الأمر ماكان » ؟ الإشارة فى قوله : هذا تعود إلى شىء مشاهد ، حاضر ، موجود ، وهو هذا الخلق المرئى ، من السموات والأرض ، ومابينهما ، ومافيهما ، والمعنى : جئنا نسأل ، عن مبدأ خلق هذه المخلوقات المشاهدة ، وهذا هو الظاهر .

قال الحافظ : « كأنهم سألوا عن أحوال هذا العالم ، وهو الظاهر ، ويحتمل أن يكونوا سألوا عن أول جنس المخلوقات » (١) .

قلت : الاحتمال الثانى بعيد ، بل باطل كما يأتى بيانه فى كلام شيخ الإسلام وقوله فى الحديث « عن أول هذا الأمر » يرده ، لأن الإشارة إلى المخلوقات المشاهدة كما تقدم ، وجواب السؤال يدل على أنهم سألوا عن مبدأ هذا العالم المشاهد . والأمر يطلق ويراد به المأمور ، ويراد به المصدر ، الذى هو حكم الآمر والأول هو المراد هنا قطعا .

وقد رد شيخ الإسلام احتمال كونهم سألوا عن أول جنس المخلوقات من وجوه كثيرة ، وبين أن ذلك باطل ، وذكر أن الحديث روى بثلاثة ألفاظ :

أحدها المذكور هنا : « كان الله ولم يكن شىء قبله » .

والثانى : « كان الله ، ولم يكن شىء معه » .

---

(١) الفتح جـ ٦ ص ٢٨٨ .

والثالث : « كان الله ، ولم يكن شيء غيره » . ثم قال : « لا بد أن يكون الرسول - ﷺ - قال أحدها ، لأن المجلس كان واحدا ، وسؤالهم ، وجوابهم فى ذلك المجلس ، وعمران الذى روى الحديث لم يبق فى المجلس إلى انقضائه بل ذهب لما أخبر بذهاب راحلته ، وهو أخبر بلفظ الرسول - ﷺ - ولم يرو هذا الحديث غيره - فدل ذلك على أن الرسول - ﷺ - قال واحدا من هذه الألفاظ ، والآخران رويا بالمعنى ، فيكون ماقاله : هو لفظ « القبل » لما فى صحيح مسلم ، من قوله - ﷺ -: « أنت الأول فليس قبلك شيء » (1) .

وأكثر أهل الحديث يرويه بهذا اللفظ ، وهو ذكر الجمل الثلاث بالواو ، وهى

١ - « قوله كان الله ، ولم يكن شيء قبله » .

٢ - « وكان عرشه على الماء » .

٣ - « وكتب فى الذكر كل شيء » .

ولم يذكر شيئا منها بثم ، وإنما جاء ذلك فى خلق السموات والأرض .

والواو ، لاتفيد الترتيب ، على الصحيح ، فلا يكون فى ذلك ذكر أول المخلوقات ، بل ولا فيه الإخبار بخلق العرش ، والماء ، وإن كان ذلك كله مخلوقا ، ولكن المقصود أن جوابه لأهل اليمن ، عن بدء خلق السموات والأرض ، وما بينهما وهى المخلوقات التى خلقت فى ستة أيام ، لا ابتداء ماخلقه الله قبل ذلك .

ويدل على ذلك ، أنه أخبر عن تلك الأشياء بما يدل على وجودها ، ولم يتعرض لابتداء خلقها ، وذكر السموات والأرض بما يدل على خلقها ، سواء قال : « وخلق السموات والأرض » أو قال : « وثم خلق السموات والأرض » فعلى التقديرين ، أخبر بخلق ذلك ، وكل مخلوق ، محدث كائن بعد أن لم يكن .

فتبين أنه لم يكن مقصوده الإخبار عن أول جنس المخلوقات ، بل ولا الإخبار عن خلق العرش والماء ، وإنما مقصوده الإخبار عن بدء خلق السموات

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٨٤ الحديث رقم ٢٧١٣ .

والأرض ، وما بينهما ، حين كان عرشه على الماء » (١) .

وقد ثبت فى حديث عبد الله بن عمرو ، قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال : وعرشه على الماء » (٢) .

ولما كان شيخ الإسلام يقرر هذا ، وهو أن الله لم يزل فعال لما يريد ، ويرد على من يقول : المعنى : كان الله ، ولا شيء معه أى لا مخلوق ، ولا فعل ، ولا مفعول ، ثم صار يخلق ويفعل بعد أن لم يكن يفعل ، ويخلق ، وهذا هو قول الجهمية ، والمعتزلة .

لما كان يقرر ذلك ، ويرد قول الجهمية والمعتزلة ، ظن كثير ممن لم يفهم مراده ولم يعرف مذهب أهل السنة فى هذه المسألة ، ظن أنه يقول بقدم العالم لأنه يقول بحوادث لا أول لها ، لأنهم يسمون أفعال الله الاختيارية ، التى يفعلها بإرادته حوادث .

وماعلم هؤلاء أن لازم قولهم ، أشنع ، وأفظع ، وهو أن الرب تعالى كان معطلا عن الفعل ، ثم صار فعالا لأفعاله بعد أن لم يكن كذلك .

مع أن ما قاله شيخ الإسلام هو مذهب السلف مثل الإمام أحمد ، والدارمى والبخارى وغيرهم .

قال الإمام أحمد فى رده على الجهمية : « فلما ظهرت عليه الحجة ، قال : إن الله يتكلم ، ولكن كلامه مخلوق » .

قلنا : وكذا بنو آدم كلامهم مخلوق ، فقد شبهتم الله بخلقه ، حين زعمتم أن كلامه مخلوق .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٨ ص ٢١٦ - ٢٢٢ بتصرف .
(٢) صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٤٤ رقم ٢٦٥٣ .

ففى مذهبكم ، قد كان فى وقت من الأوقات لا يتكلم ، حتى خلق التكلم . وكذلك بنو آدم كانوا لا يتكلمون حتى خلق الله لهم كلاما .

وقد جمعتم بين كفر ، وتشبيه ، وتعالى الله عن هذه الصفة .

بل نقول : إن الله لم يزل متكلما إذا شاء ، ولا نقول : إنه كان ، ولا يتكلم حتى خلق الكلام ، ولا نقول : إنه قد كان لايعلم ، حتى خلق علما فعلم ، ولانقول : إنه قد كان ولا قدرة له ، حتى خلق لنفسه القدرة ، ولانقول : إنه كان ولا نور له ، حتى خلق لنفسه نورا ، ولانقول : إنه كان ولا عظمة له ، حتى خلق لنفسه عظمة . فقالت الجهمية ، لما وصفنا الله بهذه الصفات : إن زعمتم ، أن الله ونوره ، والله وقدرته ، والله وعظمته ، فقد قلتم بقول النصارى ، حين زعموا أن الله لم يزل ونوره ، ولم يزل وقدرته .

قلنا : لا نقول : إن الله لم يزل ، وقدرته ، ولم يزل ، ونوره ، ولكن نقول : لم يزل بقدرته ، ونوره ، لا متى قدر ، ولا كيف .

فقالوا : لا تكونوا موحدين أبداً ، حتى تقولوا : قد كان الله ولا شيء .

فقلنا : نحن نقول : قد كان الله ، ولاشيء ، ولكن إذا قلنا : إن الله لم يزل بصفاته كلها أليس إنما نصف إلها واحدا بجميع صفاته ؟ .

وضربنا لهم مثلا فى ذلك ، فقلنا : أخبرونا ، عن هذه النخلة ، أليس لها جذع ، وكرب ، وليف ، وسعف ، وخوص ، وجمار ، واسمها اسم شيء واحد ، وسميت نخلة ، بجميع صفاتها ، فكذلك الله – وله المثل الأعلى بجميع صفاته ، إله واحد .

ولانقول : إنه كان فى وقت من الأوقات ، ولا قدرة له ، حتى خلق له . والذى ليس له قدرة ، هو عاجز .

ولانقول : قد كان فى وقت من الأوقات ، لا يعلم حتى خلق له علما ، والذى لا يعلم هو جاهل » (١)

بيَّن الإمام – رحمه الله – تعالى – أنه – تعالى – لم يزل متكلما ، قادرا ، فعالا لما يريد . فلم يكن قبل وجود الخلق معطلا عن الفعل ، كما هو مقتضى قول الذين أنكروا وجود حوادث لا أول لها ، وزعموا أن هذا قول الفلاسفة الدهرية . وفى الواقع هو قول السلف ، وهو الذى دلت عليه نصوص الشرع ، وأيده العقل .

قال الإمام أبو سعيد الدارمى – رحمه الله – : « والله – تعالى – وتقدس اسمه – كل أسمائه سواء ، لم يزل كذلك ، ولا يزال ، لم تحدث له صفة ، ولا اسم ، لم يكن كذلك كان خالقا قبل المخلوقين ، ورازقا قبل المرزوقين ، وعالما قبل المعلومين ، وسميعا قبل أن يسمع أصوات المخلوقين ، بصيرا قبل أن يرى أعيانهم مخلوقة » (٢) .

والمقصود أن الله – سبحانه وتعالى – لم يزل فعالاً لما يريد ، وأنه لم يكن معطلا عن الفعل حتى خلق هذا الكون ، المشهود الذى سئل عن مبدأه أهل اليمن ، قال شيخ الإسلام : .

« لا نزاع بين أهل الملل أن الله – سبحانه – كان قبل أن يخلق هذه الأمكنة والأزمنة ، وأن وجوده لايجب أن يقارن هذه الأزمنة ، والأمكنة » (٣)

قوله : « كان الله ، ولم يكن شيء قبله » تقدم فى كلام شيخ الإسلام أن هذا اللفظ هو الذى قاله الرسول – ﷺ – وأن اللفظين ، الآخرين رويا بالمعنى وهما « لم يكن شيء غيره » و « لم يكن شيء معه » ، وأيد ذلك بأنه من معنى قوله – تعالى – : (هو الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، وهو بكل شيء عليم) (٤) .

---

(١) الرد على الجهمية ص ٩٠ – ٩٢ عقائد السلف .
(٢) نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسى .
(٣) نقض التأسيس جـ ١ ص ٥٦٢ .
(٤) الآية ٣ من سورة الحديد .

فقوله تعالى : « هو الأول » هو الذى ليس قبله شىء ، كما فى صحيح مسلم ، من حديث أبى هريرة ، عن النبى - ﷺ - أنه كان يقول : « اللهم أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر ، فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر ، فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء » (١) .

وأما قول الحافظ : « قضية الجمع بين الروايتين ، تقتضى حمل هذه على رواية « ولاشىء غيره » ، لا العكس ، والجمع يقدم على الترجيح بالاتفاق » (٢)

فيقال له : هذا لو احتمل أن يكون الحديث صدر منه - ﷺ - فى مقامين ، أما إذا كان فى مجلس واحد ، والراوى واحد ، وقد أخبر أنه لم يبق إلى نهاية المجلس بل قام لما سمع هذا القول من النبى - ﷺ - ولحق براحلته ، فلا بد أن اللفظ الذى سمعه أحد هذه الألفاظ الثلاثة ، والآخران روى بالمعنى ، فأصبح الجمع لا وجه له .

وحمل هذه الرواية على رواية « ولا شىء غيره » تحكم بلا دليل ، حمل عليه التعصب للمذهب ، وإلا فالواجب حملها على المعروف من كلام النبى - ﷺ - الموافق لكلام الله - تعالى - كما تقدمت الإشارة إليه .

وأما قوله : إن هذه المسألة من مستشنع ماينسب لابن تيمية ، فقد تقدم أن هذا هو مذهب السلف ، وأن ما يريد ترجيحه الحافظ هو مذهب الجهمية والمعتزلة ، والأشعرية من أهل البدع ، والله أعلم .

وكلمة « كان » هنا تفيد الأزلية ، والأزلية . هى ما لابداية له .

قال الطيبى : « لفظة كان فى الموضعين - يعنى « كان الله » و « كان

---

(١) تقدم تخريجه فى ص ٣٧٨ .

(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤١٠ .

عرشه على الماء » بحسب حال مدخولها ، فالمراد بالأول الأزلية والقدم ، وبالثانى الحدوث بعد العدم » (١) .

« وقال ابن عباس : « كان ولا يزال » . ولم يقيد كونه بوقت دون وقت ، ويمتنع أن يحدث له غيره صفة ، بل يمتنع توقف شيء من لوازمه على غيره سبحانه فهو المستحق لغاية الكمال ، وذاته هى المستوجبة لذلك الكمال المطلق وهو المحمود على ذلك ، أزلا وأبداً ، لا يحصى الخلق ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه » (٢) .

وقال الراغب : « كان : عبارة عما مضى من الزمان ، وفى كثير من وصف الله -تعالى - تنبيء عن معنى الأزلية ، قال : (وكان الله بكل شيء عليما) (٣) (وكان الله على كل شيء قديرا) (٤) ، وما استعمل منه فى جنس الشيء متعلقا بوصف له هو موجود فيه . فتنبيه على أن ذلك الوصف لازم له ، قليل الانفكاك منه نحو قوله فى الإنسان (وكان الإنسان كفورا) (٥) وإذا استعمل فى الزمان الماضى ، فقد يجوز أن يكون المستعمل فيه على حالته ، ويجوز أن يكون قد تغير ، نحو كان فلان كذا ثم صار كذا » (٦) .

ومعنى قوله : « كان الله ، ولم يكن شيء قبله » أنه - تعالى - هو الأول قبل كل شيء ، الذى لايتصور لأوليته مبدأ ، حتى يمكن أن يتصور قبله شيء ، بل هو الأول بلا بداية ، كما أنه الآخر بلا نهاية فما من غاية يقدرها العقل إلا وأزليته - تعالى - قبلها ، بلا غاية محدودة والأزل معناه عدم الأولية ، فليس الأزل

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤١٠ .
(٢) مجموع الفتاوى جـ ١٨ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .
(٣) الآية ٢٦ من سورة الفتح والآية ٤٠ من سورة الأحزاب .
(٤) الآية ٢٧ من سورة الأحزاب ، والآية ٢١ من سورة الفتح .
(٥) الآية ٦٧ من سورة الإسراء .
(٦) المفردات فى غريب القرآن ص ٤٤٤ .

شيئا محدودا فلو قدر أن الأرض كلها وعاء مملوء ذرات ، وبعد مليون سنة تفنى ذرة واحدة فقط ، لفنية الذرات كلها ، والأزل باقٍ ، بل لو فرض أضعاف أضعاف ذلك بالملايين ، والمقصود بذلك التقريب إلى الفهم فقط ، وإلا فالأزل ليس له بداية أبدا .

قوله : « وكان عرشه على الماء » أى وقت خلق السموات والأرض ، كان عرشه على الماء . والمراد هنا الإخبار بكون العرش على الماء ، عند ابتداء خلق السموات والأرض .

قال ابن خزيمة : « معنى قوله : وكان عرشه على الماء ، كقوله : « وكان الله عليما حكيما » (١) يعنى أن كان هنا لا تدل على أن ذلك أمر قد مضى ، وانقضى ، بل تدل على ثبوته فهو كان ، ولا يزال على ماكان ، و « ليس معنى ذلك أن شيئا من مفعولاته قديم معه ، بل هو خالق كل شيء ، وكل شيء سواه مخلوق له ، وكل مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن ، مع أنه – تعالى – لم يزل بصفاته خالقا فعالا لما يريد » .

ومن المعلوم أن الخلق صفة كمال ، كما قال – تعالى – : (أفمن يخلق ، كمن لايخلق) (٢) فلايجوز أن ينفك عن هذه الصفة ، ولكن كل مخلوق محدث ، مسبوق بالعدم وليس مع الله شيء قديم ، ولاشك أن هذا أبلغ فى الكمال ، من أن يكون معطلا غير قادر على الفعل .

وأما جعل المفعول المعين مقارنا له – تعالى – أزلا وأبدا ، فهو باطل عقلا وشرعا ولا يقوله إلا جاهل أو معطل .

« والأدلة على بدء خلق الأفلاك ، وخلق الزمان الذى هو مقدار حركة الفلك كثيرة ، أخبرت بها الرسل ، كما أخبرت أنها خلقت من مادة موجودة قبلها ، وفى زمان قبل هذا الزمان ، فإن الله – تعالى – أخبر أنه خلق السموات

---

(١) كتاب التوحيد ص ١٠٣ .

(٢) الآية ١٧ من سورة النحل .

والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، وسواءً قيل : إن تلك الأيام بمقدار هذه الأيام المعروفة بطلوع الشمس وغروبها ، أو أنها أكبر منها ، وأن كل يوم قدره ألف سنة .

والحق أن تلك الأيام ، التى خلقت فيها السماوات والأرض غير هذه الأيام وغير الزمان الذى هو مقدار حركة هذه الأفلاك ، وأن تلك الأيام مقدرة بحركة أجسام موجودة قبل خلق السماوات والأرض .

وقد أخبر – سبحانه وتعالى – أنه (استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أوكرها ، قالتا أتينا طائعين) [١] فخلقت من الدخان

وقد جاءت الآثار عن السلف ، أنها خلقت من بخار الماء ، وهو الماء الذى كان العرش عليه ، قبل وجود هذا الخلق ، كما قال تعالى : (وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء) [٢] فأخبر – تعالى – أنه خلق السماوات والأرض فى مدة ، ومن مادة ، ولم يذكر القرآن أنه خلق شيئا من لا شىء ولا يعارض هذا بقوله تعالى : (وقد خلقتك من قبل ، ولم تك شيئا) [٣] . لأنه تعالى قد أخبر أنه خلقه من نطفة » [٤] وخلق أباه من تراب ، وقد أخبر الرسول – ﷺ – أن الملائكة خلقت من نور ، والجن من النار .

وهذه الجملة من الحديث هى محل الشاهد ، وهو دليل على عظم العرش ، وأن له شأنا غير شأن السماوات والأرض ، وأن وجوده قبل وجودهما .

وقوله : « ثم خلق السماوات ، والأرض » نص فى ذلك لأن ثم تفيد الترتيب مع التراخى ، أى ترتيب خلق السماوات والأرض على وجود العرش والماء .

ولا شك أن العرش ، والماء مخلوقان ، ولم يذكر الله جل وعلا لنا وقت خلق العرش والماء ، كما لم يذكر لنا أن له مخلوقات قبلهما ، ولكن النصوص من الوحى ، والفطر ، والعقل السليم تدل على أن الله – تعالى – لم يزل يفعل مايشاء ، ويتكلم

---

(١) الآية ١١ من سورة فصلت .
(٢) الآية ٧ من سورة هود .
(٣) الآية ٩ من سورة مريم .
(٤) مجموع الفتاوى جـ ١٨ ص ٢٣٥ بتصرف .

بما يشاء ، وهذا من الكمال الواجب له ، والذى يليق به تعالى .

ومايقوله المتكلمون من المعتزلة ، والأشاعرة ، ومن تبعهم ، من أن هذا الكون المشاهد لنا ، ومايتصل به - من السموات والأرض ، وكذلك العرش والماء ، هو مبدأ فعله وخلقه ، وليس قبله شيء من مفعولاته - يخالف كماله الواجب له تعالى .

فإن وصفه - تعالى - بأنه لم يكن قادرا على الفعل ، والكلام ونحوهما من صفات الكمال - ثم صار قادرا على ذلك - فيه نقص يجب أن ينزه عنه ، وقدرته التامة الكاملة التى هى من لوازم ذاته - تعالى - تفيد خلاف هذا القول وهى من أظهر صفات الكمال ، ولا يجوز أن تقيد صفاته - تعالى - ، وأفعاله بوقت دون وقت .

وباليقين العقلى يمتنع أن يكون قادرا بعد أن لم يكن كذلك ، إلا بأمر جعله قادرا ، ومن المحال أن يؤثر فيه شيء غيره ، فإذا لم يكن هناك إلا العدم المحض استحال كونه قادرا ، بعد أن لم يكن كذلك .

كما يمتنع أن يكون عالما بعد أن لم يكن كذلك ، وأن يكون سميعا بصيرا إن لم يكن . أما المخلوق المفعول ، مثل الإنسان ، فإنه كان غير عالم ، ولا قادر ، فجعله الله عالما قادرا .

وقوله : « وكتب فى الذكر كل شيء » الكتابة هنا أضيفت إلى الله تعالى ، ولايتعين منه أنه تعالى مباشرة الكتابة بنفسه ، بل يجوز أن يأمر بذلك مايشاء .

وقد جاء الحديث عن رسول الله - ﷺ - موضحا ذلك ، كما فى حديث عبادة بن الصامت : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن أول ماخلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، قال : رب وما أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » (١) .

والمقصود بالذكر هنا محل الكتابة - وهو اللوح المحفوظ .

---

(١) رواه أبو داود فى السنن جـ ٥ ص ٧٦ رقم ٧٤٠٠ .

« والمراد أنه تعالى كتب كل ما أراد إيجاده من تلك الساعة التى جرت فيها الكتابة إلى قيام الساعة .

ولفظة « كل شيء » يعم فى كل موضع بحسب ماسيقت له ، كما فى قوله – تعالى – : (بكل شيء عليم) (وعلى كل شى قدير) (الله خالق كل شيء) .

و « تدمر كل شيء » « وأوتيت من كل شيء » (١) .

وقوله : « فإذا السراب ينقطع دونها » أى يشاهدها من خلف السراب ، فهو ينقطع بينه وبينها لبعدها ، فيراها مرة ، وأخرى يكاد يخفيها السراب .

وقوله : « وأيم الله » قيل معناه : يمين الله ، فهو قسم مشهور عند العرب وفيه لغات عدة .

وقوله : « لوددت أنها ذهبت ، ولم أقم » يقول : إن رغبتى والأحب إلىَّ أنى بقيت فى مجلسى عند رسول الله – ﷺ – أتعلم منه الإيمان والعلم ولم أقم فى طلب راحلتى ، بل أتركها مؤثراً ماأسمعه من رسول الله – ﷺ – من غذاء القلب والروح ، على راحلتى ، وهذا شأن صحابة رسول الله – ﷺ – ورضى الله عنهم – فى حرصهم على التعلم منه ، والبحث عن الهدى والخير ، ولهذا حفظوا كل ماقاله الرسول – ﷺ – وما فعله ، حتى نقلوا لنا تحرك شعر لحيته وهو يصلى ، وغير ذلك فجزاهم الله خيرا ، وقاتل من يبغضهم ويتنقصهم .

* * *

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١٨ ص ٢٣٣ .

٤٨ – قال : « حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن همام ، حدثنا أبو هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال : « إن يمين الله ملآى ، لايغيضها نفقة – سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ماأنفق منذ خلق السماوات والأرض ، فإنه لم ينقص مافى يمينه ، وعرشه على الماء ، وبيده الأخرى الغيض – أو القبض – يرفع ، ويخفض » .

* * *

قد تقدم هذا الحديث فى باب قول الله – تعالى – « لماخلقت بيدى » وتقدم الكلام عليه وماهنا يختلف عن الماضى فى سنده ، وفى بعض ألفاظه ، على عادة المؤلف رحمه إذا كرر الحديث ، فلابد أن يأتى بما يغاير السابق ، إما فى السند والمتن ، أو فى أحدهما – إلا إذا لم يتيسر له ذلك ، وهو نادر .

والذى تقدم فيه « يد الله ملآى » وما هنا « إن يمين الله ملآى » .

وما تقدم فيه « وقال : أرأيتم » . وهنا كلمة « قال » ليست موجودة .

وماتقدم فيه « فإنه لم يغض مافى يده » وماهنا « فإنه لم ينقص مافى يمينه »

وماتقدم فيه « وقال : عرشه على الماء » وهنا لفظة « قال » غير موجودة .

وماتقدم « وبيده الأخرى الميزان » وهنا « وبيده الأخرى الغيض –: أو القبض » هذا فى المتن ، وأما السند فهو غير المتقدم .

والمقصود قوله : « وعرشه على الماء » أى أنه – تعالى – لما خلق السماوات والأرض ، كان عرشه على الماء ، فوجود العرش ، والماء سابق وجود السماوات والأرض بزمن طويل جدا ، الله أعلم بمقداره .

★ ★ ★

٤٩ – قال « حدثنا أحمد ، حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى ، حدثنا حماد بن زيد ، عن ثابت ، عن أنس ، قال : جاء زيد بن حارثة ، يشكو ، فجعل النبى – ﷺ – يقول : « اتق الله وأمسك عليك زوجك » قال (١) أنس : لو كان رسول الله – ﷺ – كاتماً شيئاً لكتم هذه ، قال : فكانت زينب تفخر على أزواج النبى – ﷺ – تقول : زوَّجكن أهاليكن ، وزوَّجنى الله – تعالى – من فوق سبع سماوات .

وعن ثابت (وتخفى فى نفسك ماالله مبديه ، وتخشى الناس) نزلت فى شأن زينب وزيد بن حارثة » .

* * *

زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى ، مولى رسول الله – ﷺ – .

ذكر الحافظ فى الإصابة ، نقلا عن الكلبى بسنده ، قال : « زارت سعدى أم زيد قومها وزيد معها ، فأغارت خيل لبنى القين بن جسر ، على أبيات بنى معن ، فاحتملوا زيدا وهو غلام يفعة ، فأتوا به سوق عكاظ ، فعرضوه للبيع ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد ، بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها رسول الله – ﷺ – وهبته له ، ثم جاء والده حارثة ، وعمه كعب ، يريدان فدائه ، فطلبا ذلك من رسول الله – ﷺ – فقال لهما رسول الله : ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ماأنا بالذى أختار على من اختارنى فاختار زيد رسول الله – ﷺ – فقال له والده وعمه : ويحك يازيد أتختار العبودية على الحرية ؟ فقال : إنى رأيت من هذا الرجل شيئاً ماأنا بالذى أختار عليه أحدا .

---

(١) فى بعض نسخ البخارى : قالت عائشة .

فلما رأى رسول الله – ﷺ – ذلك خرج به إلى الحجر ، وقال : اشهدوا أن زيداً ابنى ، عند ذلك طابت نفس والده وعمه .

وزوجه رسول الله – ﷺ – زينب بنت جحش ، وهى ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب ، ثم لم يتلاءما ، فطلقها زيد ، فزوجها الله – تعالى – نبيه لحكمة ذكر الله – تعالى – فى القرآن .

قال ابن عمر : « إن زيد بن حارثة مولى رسول الله – ﷺ – ماكنا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) [١]

كان زيد هو الأمير فى غزوة مؤتة ، واستشهد فيها رضى الله عنه » [٢]

قوله : « جاء زيد بن حارثة يشكو » أى جاء إلى رسول الله – ﷺ – يشكو زوجه زينب ويستشيره فى طلاقها ، لأنها كانت تترفع عليه ، وتقابله ببعض الكلام غير المناسب لحدة كانت فيها ، كما (روى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، قال جاء زيد بن حارثة فقال : يارسول الله إن زينب اشتد على لسانها ، وأنا أريد أن أطلقها ؟ فقال له : « اتق الله ، وأمسك عليك زوجك » [٣] . وهذا منقطع ، وقد ذكر كثير من المفسرين والمؤرخين أثاراً موضوعة ، مكذوبة على رسول الله – ﷺ – فى قصة زواجه – ﷺ – بزينب ، وبعضها ضعيف ، لايثبت به حكم .

ثم استغل تلك الأخبار بعض أعداء الرسل ، من زنادقة ، وكفار ملاحدة متقدمون ، ومتأخرون ، واغتر بذلك كثير من الجهلة .

---

(١) الآية ٥ من سورة الأحزاب ، ورواه البخارى ، انظره مع الفتح جـ ٨ ص ٥١٧ .

(٢) الإصابة جـ ٢ ص ٥٩٩ – ٦٠١ .

(٣) الفتح جـ ٨ ص ٥٢٤ .

وقد بين الله –تعالى – المقصود من زواج رسوله – ﷺ – بزينب بقوله : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ، وكان أمر الله مفعولا) [١] .

المعنى : لما فرغ زيد منها وطابت نفسه عنها ، وطلقها ، أمرناك بتزوجها لئلا يبقى فى قلوب المؤمنين حرج فى تزوج زوجات أدعياءهم ، الذين تبنوهم ، فصاروا يدعون إليهم ، فيقال : ابن فلان ، وليس ابناً له إذا فارقوهن .

وهذا إمعان فى إبطال هذا التبنى ، الذى كان معروفا فى الجاهلية الأولى كما عرف فى الجاهلية الحاضرة ، حيث أمر الله – تعالى – إمام المسلمين وقدوتهم بذلك . وكان زيد بن حارثة ، قد تبناه رسول الله – ﷺ – كما تقدمت الإشارة إليه ، فكان يدعى بزيد بن محمد ، فأبطل الله – تعالى – ذلك بقوله : (وماجعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ادعوهم لآبائهم ، هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم ، وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ماتعمدت قلوبكم ، وكان الله غفورا رحيما) [٢] .

فهو – تعالى – يعلم عباده أن أدعياءهم الذين هم مواليهم ، ودعوهم أبناء لهم ، إنهم ليسوا لهم بأبناء ، لأنهم أبناء رجال آخرين .

وقد أوحى الله – تعالى – إلى رسوله بأنه سوف يتزوج زينب ، أوحى الله بذلك إليه قبل أن يطلقها زيد ، فلما جاء يشكوها إليه ، ويستشيره فى طلاقها ، قال له : « اتق الله يازيد وأمسك عليك زوجك ، فعاتبه الله – تعالى – على ذلك ، وعلى ماكان يخشاه من أقوال الناس فى ذلك فقال – تعالى – : (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله ، وتخفى

---

(١) الآية ٣٧ من سورة الأحزاب .
(٢) الآيتان ٤ و ٥ من سورة الأحزاب .

فى نفسك ماالله مبديه ، وتخشى الناس ، والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) الآية (١)

والذى كان – ﷺ – يخفيه ، هو كراهيته لزواجها خوفاً من قالة الناس أنه تزوج زوجة ابنه .

قال ابن حجر : « والحاصل أن الذى كان يخفيه هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته ، والذى كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس : تزوج امرأة ابنه ، وأراد الله إبطال ماكان الجاهلية عليه ، من أحكام التبنى بأمر لاأبلغ فى الإبطال منه ، وهو تزوج امرأة الذى يدعى ابنا [له] ، ووقوع ذلك من إمام المسلمين ، ليكون أدعى لقبولهم .

وإنما وقع الخبط فى تأويل متعلق الخشية ، والله أعلم » (٢) . يشير إلى ماذكره بعض المفسرين من أقوال باطلة ، وقصص موضوعة مكذوبة .

قوله : « قال أنس : لو كان رسول الله – ﷺ – كاتماً شيئا لكتم هذه » أى لو قدر على سبيل الفرض الممتنع شرعا كتم شىء من الوحى ، لكان فى هذه الآية ، ولكنه غير واقع ، بل ممتنع شرعا .

وهذه الآية من أعظم الأدلة لمن تأملها على صدق الرسول – ﷺ – فالله – تعالى – يخبر عما وقع فى نفسه من خشية الناس ، فبلغه كما قال الله – تعالى – مع ماتضمنه من لومه ، بخلاف حال الكذاب ، فإنه يتجنب كل مايمكن أن يكون فيه عليه غضاضة ، ومثل ذلك قوله – تعالى – : (عبس وتولى) إلى آخر الآيات ونظائرها فى القرآن .

وقوله : « فكانت زينب تفخر على أزواج النبى – ﷺ – » .

---

(١) الآية ٣٧ من سورة الأحزاب .

(٢) الفتح جـ ٨ ص ٥٢٤ .

الفخر : هو ذكر المحاسن ، وعدّها ، مباهاة بها غيره .

قال الجوهرى : « الفخر : الافتخار ، وعد القديم » (١)

فزينب رضى الله عنها – تعتد بأن زواجها برسول الله – ﷺ – كان بأمر الله له بذلك ، وأنه من أعظم فضائلها ، وأنه لايساويها فى ذلك من أزواجه أحد .

قوله « تقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله – تعالى – من فوق سبع سماوات » هذا القدر من الحديث هو محل الشاهد ، وهو ثبوت علو الله – تعالى – وتقرره لدى المؤمنين ، فهو أمر مسلم به بين عموم المسلمين ، بل بين عموم الخلق إلا من غيرت فطرته ، فهو من الصفات المعلومة بالسمع ، والعقل ، والفطرة عند كل من لم تنحرف فطرته .

وأما الاستواء على العرش فهو من الصفات المعلومة بالسمع ، لا بالعقل كما نبه على ذلك شيخ الإسلام (٢) ، وغيره من الأئمة .

ومعنى قولها : « وزوجنى الله » أى أمر رسوله بأن يتزوجها بقوله – تعالى – : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها)

وقوله فى الرواية الأخرى : « نزلت آية الحجاب ، فى زينب بنت جحش » . آية الحجاب هى قوله – تعالى – : (يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى ، إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ولامستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذى النبى ، فيستحى منكم ، والله لايستحى من الحق ، وإذا سألتموهن متاعا ، فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) إلى آخر الآية (٣) .

قوله : « وأطعم عليها يومئذ خبزاً ولحماً » أى صنع وليمة لزواجه بها ، من

---

(١) الصحاح جـ ٢ ص ٧٧٩ .
(٢) انظر مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٢٢٧ .
(٣) الآية ٥٣ من سورة الأحزاب .

الخبز ، واللحم ، وهذا النوع من الطعام هو أعلى مايملكون فى زمنه - ﷺ - .

قوله : « تقول : إن الله أنكحنى فى السماء » هو كقولها السابق « وزوجنى الله من فوق سبع سماوات » . وكثير ماتأتى « فى » بمعنى على أى إن زواجى صدر من الله - تعالى - حيث أمر رسوله به ، والله فى السماء .

فإما أن تكون « فى » بمعنى على ، أو يراد بالسماء العلو ، وكلاهما صحيح مستقيم جاءت به النصوص ، قال - تعالى - : (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) [١] وقال - تعالى - : (فليمدد بسبب إلى السماء) [٢] .

« ولما كان مستقراً فى نفوس المخاطبين أن الله - تعالى - هو العلى الأعلى ، وأنه فوق كل شى ، كان المفهوم من قوله : « أنه فى السماء » أنه فى العلو ، وأنه فوق كل شيء ولهذا قالت : « من فوق سبع سماوات » .

وكذلك الجارية ، لما قال لها النبى - ﷺ -: « أين الله ؟ قالت : فى السماء » [٣] إنما أرادت ، العلو ، وإذا قيل : العلو ، فإنه يتناول مافوق المخلوقات كلها ، فما فوقها كلها هو فى السماء ، ولا يقتضى هذا أن يكون هناك ظرف وجودى يحيط به ، إذ ليس فوق العالم شيء موجود إلا الله - تعالى - .

وكذلك إذا قيل : العرش فى السماء ، فإنه لايقتضى أن يكون العرش فى شيء آخر موجود مخلوق ، وإن قدر أن السماء المراد بها الأفلاك ، كان المراد أنه عليها كما قال : (فسيحوا فى الأرض) [٤] وقال : (لأصلبنكم فى جذوع النخل) [٥] وقال : (فسيروا فى الأرض) [٦] ويقال : فلان فى الجبل ، وفى

---

(١) الآية ٤٨ من سورة الفرقان .
(٢) جزء من الآية ١٥ من سورة الحج .
(٣) رواه مسلم وغيره .
(٤) الآية ٢ من سورة براءة .
(٥) جزء من الآية ٧١ من سورة طه .
(٦) الآية ١٣٧ من سورة آل عمران .

السطح ، وإن كان على أعلى شيء منه . فإن حرف « فى » يتعلق بما قبله ، وبما بعده ، فيكون بحسب المضاف إليه .

ولهذا يفرق بين كون الشيء فى المكان ، وكون الماء فى الإناء ، وكون الوجه فى المرآة ، وكون الكلام فى الكتاب ، وكون العرش ، والجنة فى السماء ، فإن لكل نوع من هذه خاصة يتميز بها عن غيره .

* * *

٥٠ – قال : « حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة عن النبى – ﷺ – قال : « إن الله لما قضى الخلق ، كتب عنده فوق عرشه ، إن رحمتى سبقت غضبى » .

* * *

تقدم هذا الحديث فى باب قول الله – تعالى – : (ويحذركم الله نفسه) وقد غاير بين سنده هنا وهناك ، وفى متنه بعض الاختلاف ، ففى الرواية المتقدمة « لما خلق الله الخلق » وهنا « إن الله لماقضى الخلق » ، وهناك « كتب فى كتابه وهو يكتب على نفسه ، وهو وضع عنده على العرش » وهنا « كتب عنده ، فوق عرشه » وهناك ، « إن رحمتى تغلب غضبى » ، وهنا ، « سبقت غضبى » .

وقد مضى شرحه ، والمقصود هنا ، قوله : « عنده ، فوق عرشه » هذان ظرفان مختصان بالمكان ، وقد أضيفا إلى الله – تعالى – ، فلابد أن هذه الإضافة تقتضى تخصيصا للعرش على غيره من السموات والأرض .

« فإضافة العرش إلى الله إضافة مخصوصة ، وقد قال – تعالى – : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) [١] فإذا كان العرش مضافا إلى الله فى هذه الآية ونحوها إضافة اختصاص ، فذلك يوجب أن يكون بينه وبين الله – تعالى – من النسبة ماليس لغيره ، فما يذكره الجهمية من الاستيلاء ، والقدرة ، وغير ذلك أمر مشترك بين العرش ، وسائر المخلوقات » [٢]

ومافى هذا من قوله : « عنده فوق عرشه » . والآيات نحو « ذو العرش » « عرش ربك » ينفى أن يكون الثابت من الإضافة هو القدر المشترك بين سائر

---

(١) الآية ١٧ من سورة الحاقة .

(٢) نقض التأسيس جـ ١ ص ٥٧٠ – ٥٧٧ .

المخلوقات كما تقوله الجهمية وأتباعهم ، ويوجب اختصاصا للعرش بالله ليس لغيره من سائر المخلوقات وقد علم المسلمون أنه استوى على عرشه استواء يليق بجلاله وعظمته ، كما أخبرهم ربهم بذلك ، ونبيهم ﷺ .

ومانقله الحافظ عن الخطابى أن معنى « فوق العرش » أى عنده علم ذلك فهو لاينساه ، ولا يبدله » هو من تخبطات أهل التأويل ، ويقال له : وهل علم الله يختص بهذا الكتاب ، فهو الذى لاينساه ، ولايبدله ، وأما سائر الكون فليس عنده علمه أو ينساه ويبدله ؟ إن الأجدى بالخطابى ومن يشتغل بالحديث أن يتبع كلام رسول الله – ﷺ – ولايحمله على المذاهب الباطلة ، بل يجب أن يصونه عن مثل هذه التحريفات الباردة ، والحق أن قوله : « عنده فوق عرشه » على ظاهره ، وأن كل تأويل له عن ظاهره ، تبديل للمعنى الذى أراده رسول الله – ﷺ – ، ونحن نؤمن ايماناً يقيناً قاطعا وكل المؤمنين أن الرسول – ﷺ – أحرص على عقيدة المسلمين ، وعلى تنزيه الله – تعالى – من هؤلاء المحرفين لكلامه . وهو كذلك أقدر على البيان والإيضاح منهم ، وهو كذلك أعلم بالله ، ومايجب له ومايمتنع عليه من هؤلاء المتخبطين .

فهذا كتاب خاص ، وضعه عنده فوق عرشه ، مثبتاً فيه ماذكر ، لزيادة الاهتمام به ولاينافى ذلك أن يكون مكتوبا أيضاً فى اللوح المحفوظ .

وهو كتاب حقيقة ، كتبه – تعالى – كما ذكر لنا رسولنا – ﷺ – حقيقة ، وهو عند الله حقيقة ، فوق عرشه حقيقة ، والمقصود أن الله – تعالى – مستو على عرشه على الحقيقة ، وعرشه فوق مخلوقاته كلها عالٍ عليها .

★ ★ ★

٥١ – قال : حدثنا إبراهيم بن المنذر ، حدثنى محمد بن فليح ، قال : حدثنى أبى ، حدثنى هلال ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى هريرة – رضى الله – عنه . عن النبى – ﷺ – . قال : « من آمن بالله ورسوله ، وأقام الصلاة ، وصام رمضان ، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة هاجر فى سبيل الله ، أو جلس فى أرضه التى ولد فيها ، قالوا : يارسول الله أفلا ننبىء الناس بذلك ؟ قال : إن فى الجنة مائة درجة ، أعدها الله للمجاهدين فى سبيله ، كل درجتين مابينهما كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله ، فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمٰن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » .

* * *

قوله : « من آمن بالله ورسوله » هذا هو الأساس الذى يبنى عليه العمل ، فلابد من الإيمان بالله ورسوله أولا قبل العمل ، فكل عمل مشروط لصحته أن يكون العامل مؤمناً قال الله – تعالى – : (ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة) (١).

وقال – تعالى – : (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، فلا كفران لسعيه) (٢) .

وقد ذكر الله – تعالى – عن رسله الذى أرسلهم إلى الناس أنهم دعوهم إلى الإيمان بالله ، وعبادته وحده ، وهو معنى قوله – ﷺ – : « أمرت أن أقاتل

---

(١) الآية ٤٠ من سورة غافر الذنب .

(٢) الآية ٩٤ من سورة الأنبياء .

الناس حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله ، وأنى رسول الله » كما سبق ، وتقدم حديث معاذ ، حين بعثه النبى - ﷺ - إلى اليمن ، وقال له : « فليكن أول ماتدعوهم إليه شهادة أن لا إلٰه إلا الله » الخ

والإيمان بالله - تعالى - يدخل فيه الإيمان بأنه المالك لكل شىء ، المتصرف كيف يشاء ، وأنه الإلٰه الحق ، الذى يجب أن يعبد وحده ، لا شريك له فى ذلك ، لا ملك ولا نبى ، ولا أحد من الخلق مهما علت منزلته ، وحسنت عبادته .

ويدخل فيه الإيمان بأسماء الله الحسنى ، وصفاته العليا ، وأن يثبت له ماأثبته لنفسه ، وأثبتته له رسله ، من غير تحريف ولا تمثيل ، ولا تكييف ولا تعطيل ، بل ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

قوله : « وأقام الصلاة » إقامة الصلاة الإتيان بها على وفق أمر الله - تعالى - وأمر رسوله كاملة فى أفضل أوقاتها .

قوله : « وصام رمضان » الصيام فى اللغة : هو الإمساك ، وفى الشرع إمساك مخصوص ، عن أشياء مخصوصة من طلوع الفجر ، إلى غروب الشمس .

قال الحافظ : وسقط ذكر الحج . على أحد الرواة ، لأنه قد جاء ذكره فى الترمذى والحديث لم يذكر لبيان الأركان ، فيجوز أنه اقتصر على ذكر البعض ، لأنه هو المتكرر غالبا ، وأما الزكاة فلا تجب إلا على من له مال ، بشرطه ، والحج لايجب إلا مرة على التراخى » (١)

والمقصود من الحديث : أن من حصل له الإيمان بالله ، وما يلزم له ، من إيمان برسله ، وملائكته ، وكتبه ، واليوم الآخر ، وبقضاء الله وقدره ، مع التزام ماشرعه الله لعباده من الأمر ، والنهى ، وجاهد فى سبيل الله مع ماذكر استحق دخول الجنة على الله ، ولابد أن يوفى الله - تعالى - بذلك .

---

(١) الفتح جـ ٦ ص ١٢ .

قوله : « كان حقا على الله أن يدخله الجنة » قد تقدم الكلام على حق العباد على الله فى حديث معاذ ، فى الباب الأول ، وهو حق أحقه الله – تعالى – على نفسه كما قال – تعالى – : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) [١] .

قال الحافظ : « ليس معنى ذلك ، أنه لازم له لأنه لا آمر له ، ولا ناهى يوجب عليه ، ويلزمه المطالبة به ، وإنما معناه إنجاز ماوعد به من الثواب ، وهو لا يخلف الميعاد » [٢] .

قلت : لايلزم من كونه حقا واجبا ، أن يكون له آمر وناهى يوجب عليه ذلك بل هو – تعالى – الذى أوجبه على نفسه ، فلابد من وقوعه ، كما أخب – تعالى – .

قوله : « هاجر فى سبيل الله ، أو جلس فى أرضه التى ولد فيها » الهجرة فى اللغة هى : الترك ، والمفارقة . والمقصود بها هنا : الانتقال ، من بلد الشرك والكفر إلى بلد الإسلام ، وهى واجبة على المسلم إذا خاف الفتنة فى دينه ، أو منع من ممارسة شعائر دينه ، وإعلانه ظاهرا .

وتكون الهجرة بالنية والقصد ، وتكون باللسان ، وبالبدن .

قال الراغب : « الهجر ، والهجران : مفارقة الإنسان غيره ، إما بالبدن ، أو باللسان ، أو بالقلب . قال – تعالى – : (واهجروهن فى المضاجع) [٣] كناية عن عدم قربهن .

وقال – تعالى – : (إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا) [٤] فهذا هجر بالقلب واللسان .

وقوله : (واهجرهم هجراً جميلا) [٥] يحتمل الثلاثة ، وقوله : (والرجز

---

(١) الآية ٥٤ من سورة الأنعام .
(٢) الفتح جـ ١٣ ص ٤١٣ .
(٣) الآية ٣٤ من سورة النساء .
(٤) الآية ٣٠ من سورة الفرقان .
(٥) الآية ١٠ من سورة المزمل .

فاهجر) (١) حث على المفارقة بالوجوه كلها .

والمهاجرة فى الأصل ، مصارمة الغير ، ومتاركته ، من قوله عز وجل : (والذين هاجروا وجاهدوا) (٢) وقوله : (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم) (٣) وقوله : (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله) (٤) وقوله (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله) (٥) فالظاهر منه الخروج من دار الكفر ، إلى دار الإيمان ، كمن هاجر من مكة إلى المدينة » (٦)

ويدخل فى ذلك هجران المعاصى ، والشهوات ، والأخلاق الذميمة ، وجميع المعاصى ورفضها واجتنابها .

قال ابن القيم : « وللعبد فى كل وقت ، هجرتان إلى الله بالطلب والمحبة ، والعبودية والتوكل ، والإنابة ، والتسليم والتفويض ، والخوف والرجا ، وصدق اللجاء . وهجرة إلى رسوله - ﷺ - فى حركاته وسكناته ، الظاهرة ، والباطنة بحيث تكون موافقة لشرعه الذى هو تفصيل محاب الله ، ومرضاته ، ولا يقبل الله من أحد دنيا سواه » (٧) .

وسبيل الله طاعته ، واتباع أمره ، واجتناب نهيه ، واتباع رسوله - ﷺ -

---

(١) الآية ٤ من سورة المدثر .

(٢) الآية ٢١٨ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٨ من سورة الحشر .

(٤) الآية ١٠٠ من سورة النساء .

(٥) الآية ٨٩ من سورة النساء .

(٦) المفردات ص ٥٣٦ - ٥٣٧ .

(٧) طريق الهجرتين ص ٧ .

قوله : « أو جلس فى أرضه التى ولد فيها » وفى رواية « فى بيته » ، والمعنى : أنه بقى فى بلده يعبد ربه ، ولا يشرك به شيئا ، ولم يهاجر إلى المدينة النبوية ، وذلك أن الهجرة كانت فرضا على كل قادر ، فلما فتحت مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، وأصبحت جزيرة العرب كلها دار إسلام ، إلا القليل ، نسخت الهجرة لأجل ذلك ، ولكن حكمها باق إلى يوم القيامة .

قال الحافظ : « فيه تأنيس لمن حرم الجهاد ، وأنه ليس محروما من الأجر ، بل له من الإيمان ، والتزام الفرائض مايوصله إلى الجنة ، وإن قصر ، عن درجة المجاهدين » (١) .

قوله : « فقالوا : يارسول الله أفلا تنبىء الناس بذلك ؟ » رأوا أن هذا فيه بشارة للمسلمين ، وتسهيل عظيم عليهم ، فى عدم لزوم الهجرة ، فإن ترك الوطن ، والأهل والأقارب ، والمألوفات ، كل ذلك يشق على النفس ، ولا يقوى عليه كل أحد .

قال الحافظ « الذى خاطبه بذلك هو معاذ بن جبل ، كما فى رواية الترمذى ، أو أبو الدرداء ، كما وقع عند الطبرانى ، وأصله فى النساء ، لكن فيه ، فقلنا » (٢) .

قوله : « إن فى الجنة مائة درجة » جاء فى رواية الترمذى ، عن معاذ ، « قلت يارسول الله ألا أخبر الناس ؟ قال : « ذر الناس يعملون ، فإن فى الجنة مائة درجة » (٣)

فظهر أن المراد : لاتبشر الناس ، بما ذكر ، من دخول الجنة ، لمن آمن ، وعمل الأعمال المفروضة عليه ، فيقفوا عند ذلك ، ولا يتجاوزوه إلى ماهو أفضل منه من الدرجات التى تحصل بالجهاد ، وهذه هى النكتة فى قوله : « أعدها الله

---

(١) الفتح جـ ٦ ص ١٢ .
(٢) الفتح جـ ٦ ص ١٢ .
(٣) انظر السنن للترمذى جـ ٤ ص ٨٢ .

للمجاهدين » ، وفى هذا تعقب على بعض شراح المصابيح ، فى قوله : « سَوَّى النبى – ﷺ – . بين الجهاد فى سبيل الله ، وبين عدمه ، وهو الجلوس فى الأرض التى ولد فيها ، لأن التسوية ليست على عمومها ، وإنما هى فى أصل دخول الجنة ، لا فى تفاوت الدرجات » (١)

وهذه الدرجات للمجاهدين فى سبيل الله خاصة ، ولا ينفى هذا وجود ، درجات أخر لغير المجاهدين فى الجنة ، كما جاء فى سنن أبى داود ، والترمذى ، وصححه : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارتق ، ورتل ، كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأُها » (٢) وعدد آيات القرآن ست وثلاثون ، ومائتان ، وستة آلاف على اختلاف فى ذلك .

ولهذا قال : « أعدها الله للمجاهدين فى سبيله » . قال ابن القيم : « يجوز أن تكون هذه المائة من جملة الدرج . ويجوز أن تكون نهايتها هذه المائة » (٣) ورجح الأول .

« الجهاد : استفراغ الوسع فى مدافعة العدو . وهو ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر ، ومجاهدة الشيطان ، ومجاهدة النفس » (٤) ، وتدخل كلها فى الجهاد فى سبيل الله ، ويشملها قوله – تعالى – : (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) (٥) ونحوها من الآيات .

---

(١) الفتح جـ ٦ ص ١٢ .

(٢) انظر سنن أبى داود جـ ٢ ص ١٥٣ ، والترمذى جـ ٤ ص ٢٤٨ ، فضائل القرآن رقم ٢٩١٥ .

(٣) حادى الأرواح ص ٦ .

(٤) المفردات ص ١٠١ .

(٥) الآية ٢١٨ من سورة البقرة .

وقال الحافظ : « الجهاد بكسر الجيم : أصله لغة المشقة ، يقال : جهدت جهادا ، بلغت المشقة ، وشرعا : بذل الجهد فى قتال الكفار ، ويطلق أيضا على مجاهدة النفس والشيطان والفساق .

فأما مجاهدة النفس ، فعلى تعلم أمور الدين ، ثم على العمل بها ، ثم تعليمها .

وأما مجاهدة الشيطان ، فعلى دفع مايأتى به من الشبهات ، وما يزينه من الشهوات .

وأما مجاهدة الكفار ، فتقع باليد ، والمال ، واللسان ، والقلب .

وأما مجاهدة الفساق : فباليد ، ثم اللسان ، ثم القلب » (١)

قوله : « كل درجتين مابينهما كما بين السماء والأرض » المقصود بالدرجة المنزلة المعدة لمن يستحقها من أهل الإيمان ، والعمل ، ودرجات الجنة كثيرة ، كما تقدمت الإشارة إليه ، ولا شك أن كل درجة تختلف عن التى دونها بما فيها من أنواع النعيم ، والحسن .

وهذا التفاوت العظيم فى الدرجات لتفاوت أعمال العاملين فى الإيمان ، والمقاصد ، والخشية والإخلاص ، والمحبة والإنابة ، والجد ، وكثرة العمل وغير ذلك

قال الحافظ : « عند الترمذى : مابين كل درجتين مائة عام ، وللطبرانى خمسمائة عام ، فإن كانتا محفوظتين ، كان اختلاف العدد بالنسبة إلى اختلاف السير ، وفى رواية للترمذى : لو أن العالمين اجتمعوا فى إحداهن لوسعتهم » (٢).

وقال ابن القيم : لاتناقض ، بين تقدير مابين الدرجتين ، لاختلاف السير فى السرعة ، والبطء ، والنبى - ﷺ - . ذكر هذا تقريبا للإفهام » (٣) .

---

(١) الفتح جـ ٦ فاتحته .
(٢) المصدر نفسه ص ١٢ - ١٣ .
(٣) حادى الأرواح ص ٦١ .

قوله : « فإذا سألتم الله ، فسلوه الفردوس » . الفردوس : اسم يطلق على جميع الجنة ويطلق على أفضلها ، وأعلاها كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات .

قال – تعالى – : (أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) (١)

وقال – تعالى – : (إن الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) (٢) .

وأصل الفردوس : البستان ، والفراديس : البساتين ، قال الليث : الفردوس : الجنة ذات الكروم ، يقال : كرم مفردس ، أى معرش .

وقال الضحاك : هى الجنة الملتفة بالأشجار ، واختاره المبرد ، وقال : الفردوس فيما سمعت من كلام العرب : الشجر الملتف ، والأغلب عليه العنب .

وقال مجاهد : هو البستان بالرومية ، واختاره الزجاج ، وقال : حقيقته : البستان الذى يجمع كل مايكون فى البساتين » (٣) .

وفى اللسان : « الفردوس : البستان ؛ قال الفراء هى عربى ، قال ابن سيدة : الفردوس الوادى الخصيب عند العرب ، وهو بلسان الروم ، البستان » (٤) وذكر نحو ماتقدم

قوله : « فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة » قال الحافظ : « المراد بالأوسط

---

(١) الآيتان ١٠ و ١١ من سورة المؤمنون .

(٢) الآية ١٠٧ من سورة الكهف .

(٣) حادى الأرواح ص ٧٤ – ٧٥ .

(٤) لسان العرب جـ ٢ ص ١٠٦٩ .

هنا : الأعدل والأفضل : كقوله – تعالى – : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) (١) فعلى هذا فعطف الأعلى عليه للتأكيد .

وقال الطيبى : المراد بأحدهما العلو الحسى ، وبالأخذ العلو المعنوى .

وقال ابن حبان : المراد بالأوسط : السعة ، وبالأعلى الفوقية » (٢) .

قلت : الظاهر أن المراد أن الفردوس ، هو وسط الجنة ، وهو أعلاها على ظاهر النص ، يعنى أن الجنان الأخرى عن جوانبه ، ومن تحته ، وهو أعلاها ، ويدل على ذلك قوله : « وفوقه عرش الرحمٰن » فليس فوق الفردوس إلا عرش الرحمٰن – جل وعلا ، كما يدل عليه أيضا قوله : « ومنه تفجر أنهار الجنة » لأن الأنهار عادة تنبع من الأعلى ، والله أعلم .

قوله : « وفوقه عرش الرحمٰن » هذه الجملة هى المقصود ، من سياق الحديث لأنه يدل على أن أعلى مخلوق هو العرش ، وليس فوق العرش مخلوق ولكن الرحمٰن – جل وعلا – فوقه .

قال ابن خزيمة : « فالخبر يصرح أن عرش ربنا – جل وعلا – فوق جنته ، وقد أعلمنا – عز وجل – أنه مستوٍ على عرشه ، فخالقنا عال فوق عرشه ، الذى هو فوق جنته » (٣) .

وذكر بسنده ، عن عبد الله بن مسعود : « قال : مابين كل سماء إلى الأخرى ، مسيرة خمسمائة عام ، ومابين السماء والأرض ، مسيرة خمسمائة عام ، ومابين السماء السابعة إلى الكرسى مسيرة خمسمائة عام ، ومابين الكرسى ، إلى الماء ، مسيرة خمسمائة عام ، والعرش على الماء ، والله على العرش ، ويعلم أعمالكم » (٤) .

---

(١) الآية ١٤٣ من سورة البقرة .
(٢) الفتح جـ ٦ ص ١٣ .
(٣) كتاب التوحيد ص ١٠٤ .
(٤) كتاب التوحيد ص ١٠٥ .

وذكر له طرقا عدة ، وهو صحيح ، ورواه البيهقى ، عن أبى ذر ، مرفوعا قريبا من لفظه [١] .

وعلو الله – تعالى – واستواؤه على عرشه ، مجمع عليه بين الصحابة ، والتابعين وأئمة المسلمين ومن تبعهم ، ولم يخالف فيه إلا من هو متهم على الإسلام أو مغرور بالتقليد لمن يحسن به الظن .

« وأول من ابتدع القول بأن الله – تعالى – ليس فوق العرش فى الإسلام هو الجعد بن درهم ، والجهم بن صفوان ، وشيعتهما ، وهم عند أئمة المسلمين من شرار أهل الأهواء ، وقد أطلق السلف من القول بتكفيرهم ، مالم يطلقوه على أحد وقالوا : نحكى كلام اليهود ، والنصارى ولا نستطيع أن نحكى كلام الجهمية ، كما قال عبد الله بن المبارك ، وقالوا : اتفق المسلمون ، واليهود ، والنصارى ، على أن الله – تعالى – فوق العرش ، وقالت الجهمية : ليس الله فوق العرش » [٢] .

* * *

---

(١) انظر الأسماء والصفات ص ٤٠١ .

(٢) نقض التأسيس جـ ١ ص ١٢٧ .

٥٢ – قال : « حدثنا يحيى بن جعفر ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، هو التيمى – عن أبيه ، عن أبى ذر ، قال : « دخلت المسجد ، ورسول الله – ﷺ – جالس ؛ فلما غربت الشمس قال : ياأباذر ، هل تدرى أين تذهب هذه ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنها تذهب تستأذن فى السجود ، فيؤْذن لها ، وكأنها قد قيل لها : ارجعى من حيث جئت ، فتطلع من مغربها ، ثم قرأ : (ذلك مستقر لها) فى قراءة عبد الله » .

* * *

قوله : « أتدرى أين تذهب هذه » هذا الأسلوب من التعليم كان النبى – ﷺ – يستعمله مع أصحابه ، وهو من الأساليب التى ترسخ المعلومات فى الذهن لأن المسئول يبقى بعده يتطلع إلى الجواب ، بإقبال ولهف ، فإذا ورد عليه الجواب وهو بهذه الحال ، ثبت فى قلبه ، ورسخ لديه ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

قوله : « ذلك مستقرها » هذا تفسير لقوله – تعالى – : (والشمس تجرى لمستقر لها) (١) قال ابن كثير : « فيه قولان : أحدهما أن المراد ، مستقرها المكانى ، وهو تحت العرش مما يلى الأرض ، من ذلك الجانب ، وهى أينما كانت فهى تحت العرش ، هى وجميع المخلوقات ، لأنه سقفها ، وليس بكرة ، كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة ، وإنما هو قبة ذات قوائم ، تحمله الملائكة ، وهو فوق العالم ، مما يلى رؤوس الناس . فالشمس إذا كانت فى قبة الفلك ، وقت الظهيرة ، تكون أقرب ماتكون إلى العرش ، فإذا استدارت فى فلكها الرابع ، إلى مقابلة هذا

---

(١) الآية ٣٨ من سورة يس .

المقام ، وهو وقت نصف الليل صارت أبعد ماتكون من العرش ، فحينئذ تسجد ، وتستأذن فى الطلوع ، كما جاءت بذلك الأحاديث » ثم ذكر هذا الحديث بطرقه ، ثم قال : والقول الثانى : أن المراد بمستقرها هو منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة يبطل سيرها ، وتسكن حركتها ، وتكوَّر ، وينتهى هذا العالم إلى غايته ، وهذا مستقرها الزمانى » (١) .

قوله : « تستأذن فى السجود ، فيؤذن لها » أى تطلب من الله الإذن ، فى مواصلة سيرها فى حالة سجودها ، فيأذن الله – تعالى – لها ، إلى الوقت الذى تستأذن ثم لايؤذن لها ، فتبقى فى مكانها ، ثم يقال لها : ارجعى من حيث جئت ، فينعكس سيرها ، حيث تطلع على الناس من المغرب ، ولابد أن تطلع على كل الناس من مغربها ، وعند ذلك يؤمنون ، ولكن لاينفعهم إيمانهم كما أخبر الله – تعالى – بذلك ، وهذا إيذان بانقضاء هذه الدار .

قال الكرمانى : « القراءة المشهورة المتواترة هى : (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) ، وقراءة عبد الله بن مسعود : ذلك مستقرها » (٢) هكذا قال ، والذى فى البخارى ، مستقر لها ، ولم يقرأ بها أحد من القراء .

قال ابن كثير : « قرأ ابن مسعود ، وابن عباس : (والشمس تجرى لامستقر لها) أى لا قرار لها ، ولا سكون ، بل هى سائرة ليلا ونهاراً ، لاتفتر ، ولاتقف » (٣) .

فعلى هذا يكون لابن مسعود فيها قراءتان ، وافقه ابن عباس على إحداهما وهما شاذتان .

وقد ذكر البخارى – رحمه الله – هذا الحديث فى بدء الخلق ، وفيه « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش » .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٦٢ – ٥٦٣ .
(٢) الكرمانى جـ ٢٥ ص ٦٣٣ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٦٣ .

وسيأتى فى آخر الباب بعد هذا ، وفيه ، « قال مستقرها تحت العرش » ، وذكر أيضا هذين اللفظين فى تفسير سورة يس ، وبذلك تظهر مناسبة الحديث للباب فذكره لأجل مافيه من قوله : « تذهب حتى تسجد تحت العرش » ، وقوله : « مستقرها تحت العرش » فى غير هذه الرواية هنا .

قال الحافظ : « وأخرجه النسائى بلفظ : « تذهب حتى تنتهى تحت العرش ، عند ربها » (١) وهو واضح فى أن سجودها فى أرفع ماتكون ، وأقرب ماتكون إلى العرش . ومعلوم أنها دائم تحت العرش ، ولكن سجودها فى مكان معين من مسيرها وهو دليل واضح على علو العرش ، وارتفاعه العظيم ، وهذا هو مراد البخارى رحمه الله من الحديث ، ومعلوم أن الله – تعالى – فوق العرش كما سبق .

قال الحافظ : « قوله : تحت العرش » قيل : معناه هى حين محاذاتها ، ولايخالف هذا قوله تعالى : (وجدها تغرب فى عين حمئة) (٢) فإن المراد بها نهاية مدرك البصر إليها حال الغروب ، وسجودها تحت العرش إنما هو بعد الغروب .

قال – وفى الحديث رد على من زعم أن المراد بمستقرها غاية ماتنتهى إليه فى الارتفاع وذلك أطول يوم فى السنة .

وقيل : مستقرها : منتهى أمرها ، عند انتهاء الدنيا .

وقال الخطابى : يحتمل أن يكون المراد باستقرارها تحت العرش ، أنها تستقر تحته ، استقرارا لانحيط به نحن ، وليس فى سجودها كل ليلة تحت العرش مايعيق سيرها ودورانها فيه .

قلت : وظاهر الحديث أن المراد بالاستقرار وقوعه فى كل ليلة ويوم عند سجودها ، ومقابل الاستقرار ، المسير المعبر عنه بالجرى » انتهى (٣) .

---

(١) الفتح جـ ٨ ص ٥٤١ .
(٢) الآية ٨٦ من سورة الكهف .
(٣) الفتح ملخصا جـ ٨ ص ٥٤٢ .

وقال أيضا : « وظاهر الحديث أن الشمس هى التى تسير ، وتجرى .

وقال ابن العربى : أنكر قوم سجودها ، وهو صحيح ممكن ، وتأوله قوم على ماهى عليه من التسخير الدائم ، ولامانع من أن تخرج عن مجراها ، فتسجد ثم ترجع .

قلت : إن أراد بالخروج ، الوقوف فواضح ، وإلا فلا دليل على الخروج » اهـ (١)

قلت : وكونها تسجد تحت العرش ، لا يقتضى ، مفارقتها لفلكها وانتظامها فى مسيرها بالنسبة للأرض ، فهى دائمة الطلوع على جزء من الأرض ، والأوقات بالنسبة إلى أهل الأرض تختلف بمقدار سيرها .

ومعلوم أن تعاقب الليل والنهار ، واختلافهما يترتب على مسيرها ، فربما يقول قائل أين سجودها تحت العرش ؟ ومتى يكون ؟ وسيرها مستمر ، وبعدها عن الأرض لايختلف فى وقت من الأوقات ، كما أن سيرها لا يتغير كما هو مشاهد .

والجواب : أنها تسجد كل ليلة تحت العرش ، كما أخبر به الصادق المصدوق ، وهى طالعة على جانب من الأرض ، مع سيرها فى فلكها ، وهى دائما تحت العرش ، فى الليل والنهار ، بل وكل شىء من المخلوقات تحت العرش ، ولكنها فى وقت من سيرها ، وفى مكان معين ، يحصل سجودها ، الذى لا يدركه الخلق ، ولكن علم بالوحى ، وهو سجود حقيقى ، يناسبها على ظاهر النص .

أما التسخير : فهى لاتنفك عنه أبدا . والله أعلم .

قال شيخ الإسلام : « فإذا كان النبى - ﷺ - قد أخبر أنها تسجد كل ليلة تحت العرش ، فقد علم اختلاف حالها بالليل والنهار ، مع كون سيرها فى

---

(١) الفتح جـ ٦ ص ٢٩٩ .

فلكها من جنس واحد ، وأن كونها تحت العرش لايختلف فى نفسه ، وإنما ذلك اختلاف بالنسبة والإضافة ، علم أن تنوع النسب ، والإضافة لا يقدح فيما هو ثابت فى نفسه لامختلف » [١] .

يعنى أن اختلاف السير يكون بالنسبة لمن فى الأرض ، فهى تطلع على جانب منها وتغرب عن جانب آخر ، مع أن سيرها فى فلكها ليس فيه هذا الاختلاف ، فلا يختلف سجودها باختلاف الليل والنهار ، لأن هذا الاختلاف يكون بالنسبة إلى من فى الأرض ، وبالإضافة إليهم ، أماهى فسجودها فى مكان معين من سيرها ، وفى وقت معين لا يختلف .

ثم قال رحمه الله - : « ومن هنا يظهر الجواب عما ذكره ابن حزم ، وغيره فى حديث النزول [٢] ، حيث قالوا : قد ثبت أن الليل يختلف بالنسبة إلى الناس ، فيكون أوله ونصفه ، وثلثه بالمشرق قبل أوله ، ونصفه ، وثلثه بالمغرب ، قالوا : فلو كان النزول هو النزول المعروف ، للزم أن ينزل فى جميع أجزاء الليل ، إذ لا يزال فى الأرض ليل ، قالوا : أو لا يزال نازلا ، وصاعدا ، وهو جمع بين الضدين .

وهذا إنما قالوه لتخيلهم من نزوله - تعالى - مايتخيلونه من نزول أحدهم ، وهذا عين التمثيل ، ثم إنهم بعد ذلك جعلوه كالواحد العاجز منهم ، الذى لايمكنه أن يجمع من الأفعال مايعجز غيره عن جمعه .

وقد جاءت الأحاديث بأنه يحاسب خلقه يوم القيامة ، كل منهم يراه مخليا به ، ويناجيه ، لايرى أنه متخليا لغيره ، ولامخاطبا لغيره » [٣]

وسيأتى إن شاء الله - تعالى - إيضاح الرد على شبههم هذه وغيرها فى

---

(١) بيان تلبيس الجهمية جـ ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) سيأتى شرحه إن شاء الله تعالى ، وهذا الكلام محله شرح حديث النزول ، ولكن لشدة ارتباطه بما ذكر فى سير الشمس أحببت إثباته هنا .

(٣) بيان تلبيس الجهمية جـ ٢ ص ٢٢٨ .

شرح الحديث . وفى صحيح مسلم ، عن أبى ذر – رضى الله عنه – « قال : سألت رسول الله – ﷺ – عن قول الله – تعالى – : « والشمس تجرى لمستقر لها » ؟ قال : « مستقرها تحت العرش » (١)

وهذا يعين المقصود بالمستقر ، وأنه الموضع الذى تسجد فيه لربها ، وتستأذن بمواصلة سيرها ، وأن هذا يكون كل ليلة بالنسبة إلينا ، ويجوز أن يكون بالنهار بالنسبة لغيرنا كأمريكا مثلا .

وقد روى مسلم هذا الحديث مبسوطا مبينا حيث قال : بعد ذكر السند « عن أبى ذر – رضى الله عنه – أن النبى – ﷺ – قال يوما : « أتدرون أين تذهب هذه الشمس ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : إن هذه تجرى حتى تنتهى إلى مستقرها تحت العرش ، فتخر ساجدة ، فلا تزال كذلك ، حتى يقال لها : ارتفعى . ارجعى من حيث جئت ، فترجع ، فتصبح طالعة ، من مطلعها ، ثم تجرى حتى تنتهى إلى مستقرها تحت العرش ، فتخر ساجدة ، ولا تزال كذلك ، حتى يقال لها : ارتفعى ارجعى من حيث جئت ، فترجع ، فتصبح طالعة من مطلعها ، ثم تجرى لا يستنكر الناس منها شيئا حتى تنتهى إلى مستقرها ، تحت العرش ، فيقال لها : ارتفعى ، أصبحى طالعة من مغربك ، فتصبح طالعة من مغربها . فقال رسول الله ﷺ –: « أتدرون متى ذاكم ؟ ذاك حين لاينفع نفسا إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها خيراً » (٢) .

وقد ذكر الله تعالى فى كتابه أن الشمس والقمر يسجدان له تعالى فقال : « ألم تر أن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الأرض والشمس والقمر » (٣)

* * *

---

(١) صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٩ .

(٢) صحيح مسلم جـ ١ ص ١٣٨ ، وانظر شرح النووى جـ ٢ ص ١٩٥ .

(٣) الآية ١٨ من سورة الحج .

٥٣ – قال : « حدثنا موسى ، عن إبراهيم ، حدثنا ابن شهاب ، عن عبيد الله بن السباق ، أن زيد بن ثابت .

وقال الليث : حدثنى عبد الرحمن بن خالد ، عن ابن شهاب ، عن ابن السباق ، أن زيد بن ثابت حدثه ، قال : أرسل إلى أبو بكر ، فتتبعت القرآن ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى ، لم أجدها مع أحد غيره . (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) [١] حتى خاتمة براءة » .

* * *

زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوذان ، النجارى ، الأنصارى ، أبو سعيد ، ويقال أبو خارجة ، قدم النبى – ﷺ – المدينة وهو ابن إحدى عشرة سنة .

وكان يكتب الوحى ، قال الشعبى : غلب زيد الناس على اثنتين ، الفرائض ، والقرآن . وكان أحد أصحاب الفتوى من الصحابة .

وقال مسروق : قدمت المدينة ، فوجدت زيد بن ثابت من الراسخين فى العلم . وفضائله كثيرة ، توفى سنة ٤٨ وقيل ٥١ ، وقيل ٥٥ وقيل غير ذلك » [٢]

ومقصود البخارى – رحمه الله – من هذا الحديث . هو ذكر العرش فى الآية الكريمة حيث قال تعالى : (فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم) [٣] .

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة براءة .
(٢) تهذيب التهذيب جـ ٣ ص ٣٩٩ .
(٣) آخر آية من سورة براءة .

قال الإمام ابن جرير – رحمه الله تعالى – : « يقول – تعالى ذكره – : فإن تولى ، يامحمد ، هؤلاء الذين جئتهم بالحق ، من عند ربك ، من قومك ، فأدبروا عنك ، ولم يقبلوا ماأتيتهم به من النصيحة فى الله ، ومادعوتهم إليه ، من النور والهدى ، فقل حسبى الله ، يكفينى ربى ، لا إله إلا هو » لامعبود ، سواه « عليه توكلت » وبه وثقت ، وعلى عونه اتكلت وإليه وإلى نصره استندت ، فإنه ناصرى ، ومعينى ، على من خالفنى ، وتولى عنى منكم ومن غيركم من الناس ، « وهو رب العرش العظيم » الذى يملك ما دونه ، والملوك كلهم مماليكه ، وعبيده » .

وإنما عنى بوصفه – جل ثناؤه نفسه بأنه رب العرش العظيم – الخبر عن جميع مادونه أنهم عبيده ، وفى ملكه ، وسلطانه ، لأن العرش العظيم إنما يكون للملوك ، فوصف نفسه بأنه ذو العرش ، دون سائر خلقه ، وأنه المالك العظيم ، دون غيره ، وأن من دونه فى سلطانه ، وملكه ، جار عليه حكمه وقضاؤه » (١) .

وقال ابن كثير : « وهو رب العرش العظيم » أى هو مالك كل شىء ، وخالقه ، لأن العرش العظيم ، الذى هو سقف المخلوقات ، وجميع الخلائق من السماوات والأرضين ، ومافيهما ومابينهما ، تحت العرش ، مقهورون بقدرة الله تعالى ، وعلمه محيط بكل شىء ، وقدره نافذ فى كل شىء ، وهو على كل شىء وكيل » (٢) .

وثبت عن أُبى بن كعب – رضى الله عنه – أن هذه الآية آخر مانزل من القرآن (٣)

وقد تقدم أن تخصيصه – تعالى – العرش بأنه ربه ، وإضافته إليه – تعالى – يدل على أمر زائد على ما فى المخلوقات غيره ، من السماوات والأرض بأنه ربها .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ١١ ص ٧٧ – ٧٨ بتحقيق محمود شاكر .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ١٧٩ – ١٨٠ ط الشعب .
(٣) انظر المصدرين المذكورين هنا .

وكذلك وصفه إياه بأنه عظيم وكريم ، ومجيد ، وهذه الأوصاف ، والإضافة لم تأت فى غير العرش من المخلوقات ، وهذا لأنه تعالى اختاره لقربه ، واستوائه عليه .

قوله : « حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى ، لم أجدها مع أحد غيره » يعنى أنه ماوجدها مكتوبة ، مثبتة بالكتابة ، إلا عند أبى خزيمة .

وليس معنى ذلك أنه لم يحفظها إلا أبى خزيمة ، فإن زيداً وأُبياً ، وأبا بكر ، وغيرهم من الصحابة كانوا يحفظون القرآن كله ، وهو يريد من كتبها عن الرسول ﷺ بدون واسطة .

قال الحافظ : « قوله : لم أجدها مع أحد غيره » أى مكتوبة ، لما تقدم من أنه كان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة .

ولا يلزم من عدم وجدانه إياها حينئذ أن لاتكون تواترت عند من لم يتلقها من النبى - ﷺ - وإنما زيد كان يطلب التثبت عمن تلقاها بغير واسطة .

ولعلهم لما وجدها زيد عند أبى خزيمة تذكروها ، كما تذكرها زيد ، وفائدة التتبع المبالغة فى الاستظهار ، والوقوف عند ماكتب بين يدى النبى ﷺ .

قال الخطابى : هذا مما يخفى معناه ، ويوهم أنه كان يكتفى فى إثبات الآية بخبر الشخص الواحد ، وليس كذلك ، فقد اجتمع فى هذه الآية زيد بن ثابت ، وأبو خزيمة ، وعمر .

ثم علق الحافظ على كلام الخطابى بقوله :

« وكأنه ظن أن قولهم : لا يثبت القرآن بخبر الواحد ، أى الشخص الواحد ، وليس كما ظن ، بل المراد بخبر الواحد ، خلاف التواتر ، فلو بلغت رواة

الخبر عددا كثيرا وفقد شيئا من شروط المتواتر (١) ، لم يخرج عن كونه خبرا لواحد .

والحق أن المراد بالنفى ، نفى وجودها مكتوبة ، لانفى كونها محفوظة » (٢)

ثم ذكر أحاديث تؤيد ماقال .

وقال فى موضع آخر : « والذى يظهر أن الذى أشار إليه أنه فقده ، فقد وجودها مكتوبة ، لافقد وجودها محفوظة ، بل كانت محفوظة عنده ، وعند غيره ، ويدل على هذا قوله : فى حديث جمع القرآن « فأخذت أتتبعه ، من الرقاع والعسب » (٣)

وقال أيضا : « والأرجح أن الذى وجد معه آخر سورة التوبة أبو خزيمة بالكنية والذى وجد معه الآية من سورة الأحزاب خزيمة ، وأبو خزيمة ، قيل : هو ابن أوس بن يزيد بن أحرم ، مشهور بكنيته ، دون اسمه ، وقيل : هو الحارث بن خزيمة ، وأما خزيمة ، فهو ابن ثابت ذو الشهادتين » (٤) .



---

(١) من كون الناقلين عدادا كثيرا ، يمتنع تواطئهم على الكذب ، من أول السند إلى نهايته .

(٢) فتح البارى جـ ٩ ص ١٥ .

(٣) الفتح ٨ ص ٥١٨ .

(٤) الفتح جـ ٩ ص ١٥ .

٥٤ – قال : « حدثنا معلى بن أسد ، حدثنا وهيب ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن أبى العالية ، عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : كان النبى – ﷺ – يقول عند الكرب : « لا إله إلا الله العليم الحليم ، لاإله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ، ورب الأرض ، ورب العرش الكريم » .

* * *

قوله : « يقول عند الكرب » الكرب بفتح الكاف ، وسكون الراء ، قال الأزهرى : « هو الغم الذى يأخذ بالنفس ، يقال كربه الغم ، وإنه لمكروب النفس ، والكربة الاسم ، والكريب : المكروب » (١) .

وقال الجوهرى : « الكربة بالضم : الغم الذى يأخذ بالنفس ، وكذلك الكرب ، على مثال الضرب ، تقول منه : كربه الغم ، إذا اشتد عليه ، والكرائب ، الشدائد الواحدة كريبة » (٢) .

قوله : « كان يقول عند الكرب » كان ، تدل على كثرة وقوع ذلك منه ﷺ – لأن لفظة « كان » تدل على الاستمرار غالبا .

وقوله : « لا إله إلا الله » الإلٰه هو المعبود الذى تأله القلوب ، وتذل له وتحبه ، وتعظمه وتخافه ، وترجوه ، فالإله هو الذى يقصد بالخوف ، والرجاء ، مع الذل والتعظيم ، وكلما زاد الخوف والرجاء ، والذل ، والتعظيم ، صارت العبادة أكمل .

---

(١) تهذيب اللغة جـ ١٠ ص ٢٠٥ .

(٢) الصحاح جـ ١ ص ٢١١ .

قال شيخ الإسلام : « الإله هو الذى يؤله ، فيعبد ، محبة وإنابة ، وإجلالا ، وإكراما » (١)

فقوله : « لا إله إلا الله » أى لا أتوجه بقلبى عابدا وخاضعا ، متذللا ، خائفا راجيا إلا إلى الله وحده ، فهو إلهى ، ومعبودى ، الذى يملك نفعى ، وضرى ، وبإخلاص التأله له كمال حياتى ، وسعادتى ، وفى عدم ذلك الشقاء والهلاك .

« فالعبد كلما كان أذل لله ، وأعظم افتقاراً إليه ، وخضوعا له ، كان أقرب إليه وأعز له ، وأعظم لقدره عنده ، فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله تعالى . فأما المخلوق فكما قيل : احتج لمن شئت تكن أسيره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، وأحسن لمن شئت تكن أميره .

فأعظم ما يكون العبد قدرا وحرمة عند الخلق إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه ، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم كنت أعظم ما يكون عندهم ، ومتى احتجت إليهم ولو بشربة ماء ، نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم ، وهذا من حكمة الله ، ورحمته ، ليكون الدين كله لله ، لا يشرك به شيء .

والرب تعالى أكرم ماتكون عليه أحوج ماتكون إليه ، وأفقر ماتكون إليه وهو – تعالى – يعلم مايصلح عبده ، ويقدر على ذلك ، ويريده ، رحمة منه وفضلا ، وذلك صفته من جهة نفسه ، لاشيء آخر جعله مريدا ، راحما ، بل رحمته من لوازم نفسه ، فإنه كتب على نفسه الرحمة ، ورحمته وسعت كل شيء » (٢)

قوله : « العليم الحليم » أى هو تعالى العليم بكل شيء ، فيعلم حالى ومانزل به ، ويعلم أسبابه ، ومايترتب عليه ، لايخفى عليه خافية ، فعلمه محيط بكل شيء .

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ١ ص ٢٢ .

(٢) مجموع الفتاوى جـ ١ ص ٣٩ – ٤٠ .

وهو تعالى حليم لا يعجل بالعقوبة ، لمن يستحقها ، بل يعفو ، ويتجاوز ، وحلمه عن علم وحكمة ، فله تعالى الكمال المطلق ، قال تعالى : (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، تسبح له السموات السبع ، والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا) (١) وكثيراً مايأتى وصفه - تعالى - بالحلم مقرونا بالمغفرة ، مما يدل على أن الحلم هو عدم المعاجلة لمن استحق العقوبة ، وأنه تعالى يحلم على عباده ، ويغفر لهم جرائمهم ، ولهذا أخبر - تعالى - أنه لو يؤاخذ الناس بظلمهم ، وماكسبت أيديهم ماترك على ظهر الأرض من دابة ، قال تعالى : (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابة) (٢) .

قوله : « لا إله إلا الله رب العرش العظيم » كرر التوسل بإلهيته تعالى ، والتبرىء من كل ماسواه من مألوه ، وهذا أعظم الوسائل إلى الله - تعالى - ، وهو إخلاص العبادة والتوجه إلى الله بصدق ، ورغبة ، ورهبة .

ولهذا صار إخلاص التأله والدعاء لله وحده ، مفزع جميع العقلاء من المؤمنين والكفار ، فى كل كرب وشدة ، كما ذكر الله تعالى هذا المعنى عن السابقين من الكفار ، وغيرهم من أهل الإيمان .

قال تعالى : (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية ، لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كل

الآيات من ٤٢ - ٤٤ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٦١ من سورة النحل .

كرب ثم أنتم تشركون) (١) وقال تعالى عن الطاغية الجبار : (حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) (٢)

وقال تعالى : (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه) (٣) ، وقال تعالى عن نبيه يونس عليه السلام : (وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) (٤) وهذا كثير فى القرآن ، وقد تقدمت الإشارة إلى شيء من ذلك .

قوله : « لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ، ورب العرش الكريم » هذا تكرير للتوسل إلى الله تعالى بألوهيته وربوبيته ، فبدأ بما يدل على إخلاص التأله له تعالى ، ثم توسل باسميه الكريمين العليم والحليم ، ثم بأنه رب العرش العظيم ، ثم بأنه رب السماوات والأرض ، ورب العرش الكريم .

فاشتمل هذا الدعاء العظيم على التوجه إلى الله تعالى بأنواع التوحيد الثلاثة ، توحيد الإلهية ، وتوحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات .

والربوبية نوعان : عامة ، وخاصة ، فهو تعالى رب كل شيء ومليكه ، المتصرف فيه كيف يشاء ، وهو القائم على كل مخلوق بما يصلحه ، ويربيه ، « أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » . وقد جمع النوعين فى هذا الحديث ، فتوسل بأنه رب العرش العظيم ، الكريم وبأنه رب السماوات والأرض ، والرب هو المالك المتصرف ، القائم على كل مربوب بما يحتاجه من تربية فى شئون حياته كلها .

والمقصود من الحديث قوله : « رب العرش العظيم » وقوله : « رب العرش

---

(١) الآيتان ٦٣ و ٦٤ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٩٠ من سورة يونس .
(٣) الآية ٨ من سورة الزمر .
(٤) الآية ٨٧ من سورة الأنبياء .

الكريم » وكلاهما وصف للعرش ، وصفه بأنه عظيم ، وبأنه كريم ، والعظمة تدل على الكبر . والسعة ، والكرم يدل على الحسن ، والجمال ، والسعة أيضا .

قال الكرمانى : « وصف العرش بالعظمة ، هو من جهة الكمية ، وبالكرم أى الحسن من جهة الكيفية ، فهو ممدوح ذاتاً وصفة ، وخص بالذكر لأنه أعظم أجسام العالم ، فيدخل الجميع تحته ، دخول الأدنى ، تحت الأعلى ، وذكر لفظ الرب من بين سائر الأسماء الحسنى ليناسب كشف الكروب ، الذى هو مقتضى التربية ، ولفظ « الحليم » لأن كرب المؤمن غالبا إنما هو على نوع تقصير أو غفلة فى الطاعات » (١)

وربوبيته تعالى للعرش ، مع وصفه بأنه عظيم ، وكريم تفيد تخصيصا له عن غيره من السماوات والأرض ، وذلك لأنه قد خصه بقربه ، واستوائه تعالى عليه ذكر شيخ الإسلام ، عن أبى عمرو الطلمنكى – وهو من أئمة أهل السنة – أنه قال : « وأجمعوا – يعنى أهل السنة والجماعة – على أن لله عرشاً ، وعلى أنه مستوٍ على عرشه ، وعلمه ، وقدرته ، وتدبيره بكل ماخلقه .

قال : فأجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى : (وهو معكم أينما كنتم) (٢) ونحو ذلك فى القرآن أن ذلك علمه ، وأن الله فوق السماوات بذاته مستوٍ على عرشه ، كيف شاء .

قال : وقال أهل السنة فى قوله : (الرحمٰن على العرش استوى) (٣) : الاستواء من الله تعالى على عرشه المجيد ، على الحقيقة ، لا على المجاز .

واستدلوا بقول الله – تعالى – (فإذا استويت أنت ومن معك على

---

(١) شرح الكرمانى على البخارى جـ ٢١ ص ١٤٩ .

(٢) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٣) الآية ٥ من سورة طه .

الفلك) (١) وبقوله (لتستووا على ظهوره) (٢) ، وبقوله : (واستوت على الجودى) (٣) إلا أن المتكلمين من أهل الإثبات فى هذا على أقوال .

فقال مالك – رحمه الله تعالى –: إن الاستواء معقول ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وقال عبد الله بن المبارك ، ومن تابعه من أهل العلم ، وهم كثير : إن معنى استوى على العرش : استقر ، وهو قول القتيبى .

وقال غير هؤلاء : استوى : أى ظهر .

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى : استوى بمعنى علا .

وتقول العرب : استويت على ظهر الفرس ، بمعنى علوت عليه ، واستويت على سقف البيت ، بمعنى علوت عليه .

ويقال : استويت على السطح بمعناه .

فقوله تعالى : (استوى على العرش) بمعنى علا على العرش .

وقول الحسن (٤) وقول مالك من أنبل جواب وقع ، فى هذه المسألة ، وأشده استيعاباً لأن فيه نبذ التكييف ، وإثبات الاستواء المعقول ، وقد ائتم أهل العلم بقوله واستجودوه ، واستحسنوه » (٥) .

ثم تكلم على فساد قول من تأول استوى بمعنى استولى ، وقد مضى ما يغنى عن ذكره .

---

(١) الآية ٢٨ من سورة المؤمنون .
(٢) الآية ١٣ من سورة الزخرف .
(٣) الآية ٤٤ من سورة هود .
(٤) الحسن يقول معنى استوى : ارتفع .
(٥) إلى هنا ينتهى كلام الطلمنكى .

ثم قال : « وقال الثعلبى : قال الكلبى ، ومقاتل : « ثم استوى على العرش » يعنى استقر ، قال : وقال أبو عبيدة : صعد .

وقيل استولى ، وقيل ملك ، واختار هو [١] ماحكاه عن الفراء ، وجماعة أن معناه أقبل ، على خلق العرش ، وعمد إلى خلقه ، قال : ويدل عليه قوله : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) [٢] أى عمد إلى خلق السماء .

وهذا من أضعف الوجوه [٣] فإنه قد أخبر أن العرش كان على الماء قبل خلق السماوات ، والأرض ، وكما مر فى حديث عمران : « كان الله ، ولم يكن شىء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ، ثم خلق السماوات ، والأرض » .

فإذا كان العرش مخلوقا ، قبل خلق السماوات والأرض ، فكيف يكون معنى استوائه عليه ، بعد خلق السماوات والأرض ، هو عمده إلى خلقه ، مع أنه لايعرف فى اللغة « استوى » بمعنى عمد إلى فعل كذا ، لاحقيقة ، ولامجازا ، لا فى النثر ، ولا فى النظم .

ومن قال : استوى ، بمعنى عمد ، ذكره فى قوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) [٢] لأنه عدى بحرف الغاية ، كما يقال : عمدت إلى كذا ، وقصدت إلى كذا ، ولا يقال : عمدت على كذا ، ولا قصدت عليه ، مع أن هذا أيضا غير معروف فى اللغة ، ولا هو قول أحد من مفسرى السلف ، بل المفسرون من السلف ، بخلاف ذلك .

---

(١) يعنى الثعلبى وهذه الأقوال منقولة من تفسيره ، وهو يجمع فيه بين المتناقضات وليس لديه تميز لمذهب السلف .

(٢) الآية ١١ من سورة حٰم فصلت .

(٣) بل هو باطل مخالف للنصوص الواضحة ، وقد تقدم بيان بطلانه . وهذا الذى اختاره الثعلبى هو قول الجهمية والمعتزلة ، ومن تبعهم من الأشعرية وغيرهم من أهل البدع .

وإنما هذا القول ، وأمثاله ابتدع فى الإسلام ، لما ظهر إنكار أفعال الرب تعالى – التى تقوم به ، ويفعلها بقدرته ، ومشيئته ، واختياره ، فصار كل يفسر القرآن على ما يوافق قوله ، واعتقاده .

وأما السلف فأقوالهم فى هذا الباب متفقة ، وإن اختلفت عباراتهم ، فمقصودهم واحد ، وهو إثبات علو الله واستواؤه على عرشه .

فإن قيل : إذا كان الله لا يزال عاليا على المخلوقات ، فكيف يقال : ثم ارتفع إلى السماء وهى دخان ؟ أو يقال : ثم علا على العرش ؟ .

فالجواب : أن هذا كما أخبر أنه ينزل إلى السماء الدنيا ثم يصعد ، وروى : ثم يعرج وكما أخبر أنه يجىء لفصل القضاء بين عباده ، وهو سبحانه لم يزل فوق ، فإن صعوده من جنس نزوله ، ومجيئه ، وهو تعالى فى نزوله ومجيئه ، لايصير شىء من المخلوقات فوقه ، فهو سبحانه يصعد ، وإن لم يكن منها شىء فوقه .

فإن قيل : فإذا كان إنما استوى على العرش بعد أن خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، فقبل ذلك هل كان على العرش ، أو لم يكن ؟

قيل : الاستواء علو خاص ، فكل مستو على شىء عال عليه ، وليس كل عال على شىء مستو عليه ، ولهذا لايقال لكل ماكان عاليا على غيره أنه مستو عليه . ولكن كل ماقيل : إنه استوى على كذا فهو عال عليه .

والذى أخبر الله – تعالى – أنه كان بعد خلق السماوات والأرض ، الاستواء ، لامطلق العلو ، مع أنه يجوز أنه كان مستويا عليه قبل خلق السماوات والأرض ، لما كان عرشه على الماء ، ثم لما خلق هذا العالم كان عاليا على العرش ، ولم يكن مستويا عليه ، ثم استوى عليه بعد ذلك [1] .

والأصل أن علوه على المخلوقات ، وصف لازم له كما أن عظمته ، وكبرياءه

---

(١) أو يقال إن الاستواء بعد خلق السماوات والأرض ، استواء خاص غير الذى قبل ذلك .

وقدرته كذلك ، وأما الاستواء فهو فعل يفعله سبحانه بمشيئته ، وقدرته ولهذا قال فيه : ثم استوى » [١] .

وقال ابن عبد البر : « وأما ادعاؤهم المجاز فى الاستواء ، وقولهم فى تأويل استوى : استولى .

فلا معنى له ، لأنه غير ظاهر فى اللغة ، ومعنى الاستيلاء فى اللغة : المغالبة ، والله لايغالبه ، ولا يعلوه أحد ، وهو الواحد الصمد .

ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته ، حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز ، إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا ، إلا على ذلك ، وإنما يوجه كلام الله – عز وجل – إلى الأشهر ، والأظهر من وجوهه ، مالم يمنع من ذلك مايجب له التسليم .

ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع ، ماثبت شيء من العبارات ، وجل الله عن أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب فى معهود مخاطباتها ، وهو العلو ، والارتفاع ، على الشيء ، والاستقرار والتمكن فيه » [٢] .

وقد تقدم ذكر بعض ماقاله السلف والأئمة فى ذلك ، فى أول الباب ، والجواب عما اعتمده أهل التأويل .

★ ★ ★

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٥١٩ – ٥٢٣ ببعض التصرف .

(٢) التمهيد جـ ٧ ص ١٣١ .

٥٥ - قال : « حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن عمرو بن يحي ، عن أبيه ، عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال النبى : « يصعقون يوم القيامة فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة ، من قوائم العرش » .

★ ★ ★

٥٦ - « وقال الماجشون : عن عبد الله بن الفضل ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، عن النبى - ﷺ - قال : « فأكون أول من بعث ، فإذا موسى آخذ بالعرش »

* * *

« الصعق : غشى يلحق من يسمع صوتا شديدا أو يرى شيئا هائلا مفزعا » (١) وفى الأبى : « الصعق ، والصعقة ، والصاعقة ، والهلاك ، والموت ، وقيل : كل عذاب مهلك ، وهو أيضا : الغشية تعترى من فزع لسماع صوت [مفزع أو رأى مهولا] » (٢) وقد اختلف فى هذا الصعق المذكور فى هذا الحديث ، أهو نفخة الصور للبعث ، أو غيرها .

فقيل : إنها نفخة البعث ، لأن النفخة الأولى ، لايحس بها الأموات ، وإنما هى لموت من كان حياً ، وإنهاء الدنيا ، وابتداء الآخرة .

ولكن يشكل على هذا قوله - ﷺ - « فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أفاق قبلى ، أم جوزى بصعقة الطور » ومعلوم أن موسى عليه السلام قد مات ، فلا يجوز أن يكون المعنى : « فلا أدرى هل موسى مات ، أم جوزى عن الموت بصعقة الطور » .

وقد اختلف فى النفخ فى الصور هل هو مرتان أو ثلاث .

---

(١) الفتح جـ ٦ ص ٤٤٤ .
(٢) شرح الأبى على مسلم جـ ٦ ص ١٦٧ .

قال الإمام ابن جرير رحمه الله فى قوله تعالى : (وله الملك يزم ينفخ فى الصور) [١] :

اختلف فى الصور فى هذا الموضع .

فقال بعضهم : هو قرن ينفخ فيه نفختان ، إحداهما لفناء من كان حياً على الأرض ، والثانية لنشر كل ميت ، واعتلوا لقولهم ذلك ، بقوله : (ونفخ فى الصور ، فصعق من فى السماوات ، ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى ، فإذا هم قيام ينظرون) [٢] [٣]

وقال على قوله تعالى : (فإذا نفخ فى الصور ، فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون) [٤]

اختلف أهل التأويل فى المعنى بقوله : (فإذا نفخ فى الصور) من النفختين ، أيهما عنى بها ؟ فقال بعضهم : « عنى بها النفخة الأولى » .

ثم ذكر عن ابن عباس : قال : فذلك فى النفخة الأولى ، فلا يبقى على الأرض شيء وروى ذلك أيضا عن السدى .

ثم ذكر القول الثانى : أن المراد بذلك النفخة الثانية ، وروى ذلك عن ابن مسعود وغيره » [٥]

وهذا الذى ذكره الطبرى – رحمه الله – يدل على أن النفخ فى الصور مرتين . الأولى لموت من كان حياً على وجه الأرض ، والثانية ، لبعث الموتى . وعليه يكون الإشكال فى الحديث ظاهرا ، وسيأتى ذكر ألفاظ الحديث فى البخارى ومسلم .

---

(١) الآية ٧٣ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٦٨ من سورة الزمر .
(٣) تفسير الطبرى جـ ١١ ص ٤٦٢ بتحقيق محمود شاكر .
(٤) الآية ١٠١ من سورة المؤمنون .
(٥) تفسير الطبرى جـ ١٨ ص ٥٤ ط الحلبى .

وقد أجاب القرطبى عن الإشكال بقوله : « المعنى فلا أدرى أبعثه الله قبلى ؟ تفضيلا له ، من هذا الوجه ، كما فضل بالدنيا بالتكليم أو كان جزاء له بصعقة الطور قدم بعثه على بعث الأنبياء ، الآخرين ، بقدر صعقته عندما تجلى ربه للجبل » (١)

فعلى هذا يكون المعنى فى قوله : « أو جوزى بصعقة الطور » أى قدم بعثه علىَّ جزاء له بما حصل من صعقته فى الطور ، وهذا غير صحيح لأمور عدة .

منها أن الحديث على هذا يصبح فيه تكرار لا معنى له ، إذ يكون المعنى على قول القرطبى « فلا أدرى أبعث قبل ؟ أم جوزى ببعثه قبلى بصعقة الطور » .

ومنها أن ظاهر الحديث يرد هذا ، لأن قوله : « فلا أدرى أبعث قبلى ؟ أم جوزى بصعقة الطور ؟ » ظاهره ، فلا أدرى أصعق فبعث قبلى أم أنه لم يصعق ، وإنما جوزى عن الصعق بصعقة الطور ، ولهذا لم يقتنع القرطبى بهذا الجواب فذكر جوابا آخر سيأتى ثم قال :

« وقال شيخنا أحمد بن عمر : وظاهر حديث النبى – ﷺ – يدل على أن ذلك إنما هو بعد النفخة الثانية ، نفخة البعث ، ونص القرآن يقتضى أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق ، ولهذا قال بعض العلماء : يحتمل أن يكون موسى – عليه السلام – ممن لم يمت من الأنبياء ، وهذا باطل بما صح من النصوص بذكر موته .

قال : وقال القاضى عياض : يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع ، بعد النشر حين تنشق السماوات والأرض ، قال : فتستقل الأحاديث والآيات ، والله أعلم .

ثم قال : قال شيخنا أبو العباس : وهذا يرده ماجاء فى الحديث أنه عليه

---

(١) التذكرة جـ ١ ص ٢٠٨ ، وهو أخذ هذا عن الحليمى كما فى المنهاج ، انظر الورقة ٢١٤ من المخطوطة وانظر المطبوع جـ ١ ص ٤٣٢ .

السلام حين يخرج من قبره يلقى موسى ، وهو متعلق بالعرش ، وهذا عند نفخة البعث .

قلت : وسيأتى مايوضح ذلك فى روايات الحديث التى أذكرها إن شاء الله .

ثم قال : « قال شيخنا أحمد بن عمر : والذى يزيح هذا الإشكال ، إن شاء الله – تعالى – أن الموت ليس بعدم محض ، وإنما هو انتقال من حال ، إلى حال ، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم ، أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين ، مستبشرين . وهذه صفة الأحياء فى الدنيا .

وإذا كان هذا فى الشهداء ، كان الأنبياء بذلك أحق ، وأولى ، فإذا نفخ فى الصور نفخة الصعق ، صعق كل من فى السماوات ، والأرض ، إلا من شاء الله فأما صعق غير الأنبياء ، فموت ، وأما صعق الأنبياء ، فالأظهر أنه غشية فإذا نفخ فى الصور ، نفخة البعث ، فمن مات ، حيى ، ومن غشى عليه أفاق » (١)

قلت : وحاصل هذا الجواب ، أن الصعقة المذكورة فى الحديث هى الأولى ، وأن الصعق يكون للأرواح ، وكل ذلك باطل ، لأنه سيأتى أن الحديث ينص على أنها نفخة البعث ، ومعلوم أن الأرواح لاتموت ، فكيف يكون صعق غير الأنبياء موت مع أنه زعم أن الصعق للأرواح ، وكل ذلك يفتقر إلى دليل ، والأدلة خلافه .

ولهذا قال ابن القيم : « وحمل الحديث على هذا ، لايصح ، لأنه ﷺ تردد هل أفاق موسى قبله ، أو لم يصعق ، بل جوزى بصعقة الطور .

فالمعنى : لا أدرى أصعق أم لم يصعق .

وقد قال فى الحديث : « فأكون أول من يفيق » . وهذا يدل على أنه – ﷺ – يصعق فيمن يصعق ، وأن التردد حصل فى موسى ، هل صعق وأفاق قبله من صعقته ، أو لم يصعق .

---

(١) التذكرة جـ ١ ص ٢٠٨ – ٢٠٩ .

ولو كان المراد به ، الصعقة الأولى ، وهى صعقة الموت ، لكان ﷺ قد جزم بموته ، وتردده هل مات موسى ، أو لم يمت ، وهذا باطل ، لوجوه كثيرة . فعلم أنها صعقة فزع ، لاصعقة موت ، والآية لاتدل على أن الأرواح كلها تموت ، عند النفخة الأولى ، وإنما تدل على أن من لم يذق الموت قبلها يموت ، وأما من مات ، أو من لم يكتب عليه الموت ، فلا يموت » (١)

وقال السفارينى : « وصعق الأرواح عند النفخ فى الصور ، لا يلزم منه موتها . ففى الصحيحين : « أن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق فإذا موسى آخذ بقائمة العرش ، فلا أدرى أفاق قبلى ، أم جوزى بصعقة يوم الطور » ؟

فهذا صعق فى موقف القيامة ، إذ جاء الله لفصل القضاء ، وأشرقت الأرض بنوره ، فحينئذ ، يصعق الخلائق كلهم ، قال تعالى : (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) (٢) .

ولو كان هذا الصعق موتا ، لكانت موتة أخرى » (٣) ثم ذكر كلام ابن القيم السابق . وقال ابن القيم بعد ماقرر أن هذا الصعق المذكور ، إنما هو فى الموقف ، إذا جاء رب العالمين – جل وعلا – لفصل القضاء بين عباده .

قال : « فإن قيل : فكيف تصنعون بقوله فى الحديث : « إن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من تنشق عنه الأرض ، فأجد موسى باطشا بقائمة العرش » ؟ قيل : لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا ، ومنه نشأ الإشكال ، ولكنه دخل فيه على الراوى ، حديث فى حديث ، فركب بين اللفظين ، فجاء هكذا والحديثان هكذا أحدهما :

---

(١) الروح ص ٣٦ .
(٢) الآية ٤٥ من سورة الطور .
(٣) لوامع الأنوار البهية جـ ٢ ص ٣٨ .

« أن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق »

والثانى : « أنا أول من تنشق عنه الأرض ، يوم القيامة » . فدخل على الراوى هذا الحديث ، فى الحديث الآخر ، وكان شيخنا أبو الحجاج المزى يقول : ذلك » (١)

قلت : وهذا احتمال بعيد جداً . ويحتاج إلى دليل ، ولا وجود له إذ لايجوز تخطئة الراوى بمجرد إشكال يعرض للإنسان فى لفظ الحديث ، فما قال ابن القيم رحمه الله هنا غير صحيح ، وسيتبين ذلك عند ذكر روايات الحديث .

فلفظ حديث أبى سعيد فى البخارى : « لا تخيروا بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من تنشق عنه الأرض ، فإذا أنا بموسى ، آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى ، أكان فيمن صعق ؟ أم حوسب بصعقة الأولى » (٢) ثم رواه فى أماكن متعددة من صحيحه بألفاظ متقاربة ، ليس فيها فأكون أول من تنشق عنه الأرض ، إلا فى هذا الموضع .

ولكن فى رواية أبى هريرة : أنه – ﷺ – قال : « لاتفضلوا بين أولياء الله ، فإنه ينفخ فى الصور ، فيصعق من فى السماوات ، ومن فى الأرض ، إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى ، فأكون أول من بعث ، فإذا موسى آخذ بالعرش ، فلا أدرى أحوسب بصعقته يوم الطور ، أم بعث قبلى » (٣)

قال الحافظ : « وقع فى رواية إنى أول من يرفع رأسه بعد النفخة الثانية » وفى أخرى « إنى أول من يرفع رأسه بعد النفخة الأخيرة » (٤)

ورواه فى التفسير بسند آخر ، مختصرا ، ولفظه : « إنى أول من يرفع

---

(١) الروح ص ٣٧ .

(٢) انظر البخارى مع الفتح جـ ٥ ص ٧٠ .

(٣) انظر الفتح جـ ٦ ص ٤٥١ .

(٤) الفتح جـ ٦ ص ٤٤٤ .

رأسه ، بعد النفخة الآخرة ، فإذا أنا بموسى ، متعلق بالعرش ، فلا أدرى ، أكذلك كان ، أم بعد النفخة » (١) ثم ذكره معلقا ، فى الموضع نفسه بلفظ : « فأكون أول من بعث ، فإذا موسى آخذ بالعرش » ورواه مسلم ، ولفظه : « لاتفضلوا بين أنبياء الله ، فإنه ينفخ فى الصور ، فيصعق من فى السماوات ، ومن فى الأرض ، إلا من شاء الله ، قال ثم ينفخ فيه أخرى ، فأكون أول من بعث ، أو فى أول من بعث ، فإذا موسى آخذ بالعرش ، فلا أدرى أحوسب بصعقة يوم الطور ، أو بعث قبلى ؟ » .

ثم رواه بسند آخر - وفيه « فإن الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق » (٢) .

وأما حديث أبى سعيد المتقدم ، فى ذكر الانشقاق ، فقد رواه أيضا الإمام أحمد : فقال : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن عمرو بن يحي ، عن أبيه ، عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله - ﷺ -: « لاتخيروا بين الأنبياء ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، فأفيق ، فأجد موسى متعلقا بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أجزى بصعقة الطور ، أو أفاق قبلى » (٣)

وذكر الحافظ أن فى رواية محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة - عند ابن مردويه - « أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، فأنفض التراب عن رأسى ، فآتى قائمة العرش فأجد موسى قائما عندها ، فلا أدرى أنفض التراب عن رأسه قبلى ، أو كان ممن استثنى الله » (٤)

فهذه الرواية تدل على أن الصعق المذكور هو النفخة الثانية فى الصور ، فإن قوله فى رواية أبى هريرة : « فإنه ينفخ فى الصور ، فيصعق من فى السماوات

---

(١) الفتح جـ ٨ ص ٥٥١ .
(٢) مسلم جـ ٤ ص ١٨٤٤ - رقم ٢٣٧٣ .
(٣) المسند جـ ٣ ص ٣٣ .
(٤) الفتح جـ ٦ ص ٤٤٥ .

ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى ، فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى آخذ بالعرش » وفى الرواية الأخرى : « إنى أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة ، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش » ، وفى أخرى « إنى أول من يرفع رأسه بعد النفخة الثانية »

وفى رواية مسلم « ثم ينفخ فيه أخرى ، فأكون أول من بعث » .

فهذا واضح وصريح ، فى أن المقصود البعث من الموت الحاصل بنفخ الصور النفخة الثانية ، وبه يتبين أن ماقاله القرطبى وغيره مما سبق ذكره ، وكذا ماذهب إليه ابن القيم كله غير صحيح كما سبق ، وكذا قول الحليمى في المنهاج : « أن ظاهر الحديث أن هذه صعقة غشى يوم القيامة ، لاصعقة الموت ، الحادث عن نفخ الصور » [1] مردود بما صرحت به الروايات المذكورة .

فالصواب مانصت عليه هذه الروايات من أن موسى عليه السلام يبعث قبل نبينا – ﷺ – وأما تردده أأصابه الصعق فبعث قبله ، أو كان ممن استثنى الله تعالى ، أو جوزى عن الصعق بصعقة الطور ، كل ذلك يقتضى أنه بعث قبله .

ولكن يبقى الإشكال فى أن النفخة التى استثنى الله تعالى منها هى الأولى . ومعلوم أن موسى عليه السلام قد مات قبلها ، فكيف يصح استثناؤه منها ؟

فيقال ، وكذا نبينا ﷺ وسائر الأنبياء لا ينالهم ذلك ، وإنما ينال من كان حياً فى ذلك الوقت ، ويكون الأقرب ماقاله الحليمى : « أن المعنى إذا نفخ فى الصور مرة أخرى ، كنت أول من بعث ، فأجد موسى مبعوثا قبلى ، فلا أدرى أفضل بذلك على سائر الخلق ، أو أن ذلك جزاء له بصعقة الطور » [2]

---

(١) انظر المنهاج المخطوط ورقة ٢١٤ . وانظر المطبوع جـ ١ ص ٤٣٢ وهو كثير التحريف .

(٢) انظر المنهاج ورقة ٢١٤ أو المطبوع جـ ١ ص ٤٣٢ وهذا معنى كلامه وليس لفظه .

وهذا بناء على أن النفخ فى الصور مرتان ، وهو الذى تؤيده الأدلة الصحيحة ، كما مر فى هذه الروايات السابقة .

قال الحافظ : « ثبت فى صحيح مسلم أنهما نفختان ، ولفظه فى أثناء حديث مرفوع : « ثم ينفخ فى الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ، ورفع ليتا ، ثم يرسل الله مطرا كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون »

وفى حديث أبى هريرة المتفق عليه « بين النفختين أربعون » ، وفى ذلك دلالة على أنهما نفختان فقط ، والتغاير فى كل منهما باعتبار من يسمعهما ، فالأولى يموت بها كل من كان حياً ، ويغشى على من لم يمت ممن استثنى الله تعالى .

والثانية يعيش بها من مات ، ويفيق بها من غشى عليه » (١)

وقد ذهب إلى أنها ثلاث نفخات بعض العلماء ، كالحافظ ابن كثير وحمل قوله تعالى : (ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض) على أنها نفخة الفزع ، وممن ذهب إلى ذلك القرطبى وابن العربى وغيرهم ، وعمدتهم فى ذلك حديث الصور ، حيث صرح فيه أن النفخات ثلاث ، ولكنه حديث ضعيف مضطرب ، كما بينه الحافظ ابن حجر رحمه الله فلا يعتمد عليه لذلك ، وآية الزمر واضحة الدلالة فى أن النفخ فى الصور مرتين .

قوله : « فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش » وفى رواية أبى هريرة : « آخذ بالعرش » أى أنه - ﷺ - يجد موسى عليه السلام بعد مابعث ، ممسكا بأحد قوائم العرش ، والمراد بالعرش : عرش رب العالمين .

---

(١) انظر فتح البارى جـ ١١ ص ٣٦٩ - ٣٧٠ و جـ ٦ ص ٤٤٦ ، وانظر الحديث الذى يشير إليه فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢٥٨ و ٢٢٥٩ رقم ٢٩٤٠ ، وانظر حديث أبى هريرة فى البخارى مع الفتح جـ ٨ ص ٥٥١ و ٦٨٩ ، وفى مسلم جـ ٤ ص ٢٢٧٠ رقم ٢٩٥٥ .

ففى هذا فضل لموسى عليه السلام ، حيث بعث قبل نبينا – ﷺ – وهذه القبلية إما مجرد فضيلة خصه الله بها كما خص بالتكليم ، وإما جزاء بالصعقة التى أصابته ، يوم سأل ربه الرؤية عندما تجلى الله تعالى للجبل . والله أعلم .

ومما تقدم من النصوص التى ذكرها البخارى – رحمه الله – هنا وغيرها ، يعلم أن الله تعالى خص العرش من بين مخلوقاته ، بأنه استوى عليه ، وأنه فوق جميع المخلوقات ، وأن له حملة ، اليوم ، ويوم القيامة ، وأنه تعالى تعبد من شاء من ملائكته بأن يحفوا به ، ويطوفوا به ، وأن حملته ومن حوله من الملائكة يسبحون الله تعالى – ويستغفرون للمؤمنين ، وأنه أول المخلوقات المعلومة لنا ، فقد أخبر تعالى أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السماوات والأرض كما قال – تعالى – : (وهو الذى خلق السماوات والأرض ، فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء) [1] .

وأنه – تعالى – كان ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شيء ثم خلق السماوات والأرض .

وقد تقدم ذكر حديث عبد الله بن عمرو : « إن الله قدر مقادير الخلائق ، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » وهو فى صحيح مسلم كما فى هذه النصوص ، وصف العرش بأنه عظيم ، وأنه كريم ، وأنه مجيد .

وكثيرا مايمدح الله – تعالى – نفسه بأنه ذو العرش ، كما قال – تعالى – : (قل لو كان معه آلهة كما يقولون ، إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ، تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا) [2]

---

(١) الآية ٧ من سورة هود .

(٢) الآيات ٤٢ و ٤٣ و ٤٤ من سورة الإسراء .

وقال – تعالى – : (رفيع الدرجات ذو العرش) [١] . وقال – جل وعلا – : (وهو الغفور الودود . ذو العرش المجيد) [٢] وقال – تعالى – : (فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) [٣] إلى غير ذلك .

كما جاء فى الحديث الصحيح مايدل على أنه أثقل الأوزان ، كما فى قوله – ﷺ – لجويرية : « لقد قلت بعدك أربع كلمات ، ثلاث مرات ، لو وزنت بما قلت ، منذ اليوم لوزنتهن : « سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته » [٤] .

كما فى النصوص المتقدمة أنه سقف أعلى الجنان ، وهى الفردوس ، وأن له قوائم ، وغير ذلك مما بينته النصوص التى جاءت بها الرسل ، وكل ذلك يدل على أن الله فوق العرش مستوٍ عليه ، وقد اتفق على هذا الأنبياء كلهم ، وذكر فى كل كتاب أنزل على كل نبى ، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها من جميع الطوائف ، إلا من ضل الحق واتبع غير سبيل المؤمنين من الجهمية ، والمعتزلة والأشعرية وغيرهم .

* * *

---

(١) الآية ١٥ من سورة غافر الذنب .

(٢) الآيتان ١٤ و ١٥ من سورة البروج .

(٣) الآية الأخيرة من سورة براءة .

(٤) صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٩٠ .

قال : « باب قول الله – تعالى – : (تعرج الملائكة والروح إليه) [١]

وقوله – جل ذكره – : (إليه يصعد الكلم الطيب) [٢]

* * *

قال الأزهرى : فى عرج : « قال الله – جل وعز –: (تعرج الملائكة ، والروح إليه) [١] أى تصعد ، يقال : عرج ، يعرج ، عروجا .

وقوله – جل وعز –: (من الله ذى المعارج) [٣] قال قتادة : ذى المعارج : ذى الفواضل ، والنعم ، وقيل : معارج الملائكة ، وهى مصاعدها ، التى تصعد ، وتعرج فيها ، ذكر ذلك أبو إسحاق .

وقال الفراء : ذى المعارج ، من نعت الله ، لأن الملائكة ، تعرج إلى الله ، فوصف نفسه بذلك [٤] .

وقال الليث : عرج يعرج ، عروجا ، ومعروجا ، قال : والمعرج المصعد ، والمعرج الطريق الذى تصعد فيه الملائكة .

---

(١) الآية ٤ من سورة المعارج .

(٢) الآية ١٠ من سورة فاطر .

(٣) الآية ٣ من سورة المعارج .

(٤) انظر معانى القرآن للفراء جـ ٣ ص ١٨٤ .

قال : والمعراج : يقال : شبه السلم ، أو درجة ، تعرج فيه الأرواح ، إذا قبضت » (١)

وقال الجوهرى : « عرج فى الدرجة ، والسلم ، يعرج ، عروجا ، إذا ارتقى .

والمعراج : السلم ، ومنه : ليلة المعراج ، والجمع معارج ، ومعاريج » (٢) .

وقال الراغب : « العروج : ذهاب فى صعود . قال : (تعرج الملائكة والروح) (٣) (فظلوا فيه يعرجون) (٤) ، والمعارج : المصاعد ، قال : (ذى المعارج) (٥) وليلة المعراج ، سميت لصعود الدعاء فيها ، إشارة إلى قوله : (إليه يصعد الكلم الطيب) (٦)

قوله : سميت ، لصعود الدعاء فيها يعنى : المعارج سميت لذلك ، ولا يعنى ليلة المعراج

وقال الطبرى ، فى قوله – تعالى – : (ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون) (٤) « وأما قوله : « يعرجون » ، فإن معناه : يرقون فيه ، ويصعدون ، يقال : منه عرج يعرج ، عروجا ، إذا رقى ، وصعد » (٧) .

---

(١) تهذيب اللغة جـ ١ ص ٣٥٥ .
(٢) الصحاح جـ ١ ص ٣٢٨ .
(٣) الآية ٤ من سورة المعارج .
(٤) الآية ١٤ من سورة الحجر .
(٥) الآية ٣ من سورة المعارج .
(٦) المفردات ص ٣٢٩ .
(٧) تفسير الطبرى جـ ١٤ ص ١١ ط الحلبى .

وقال فى قوله – تعالى –: (ذى المعارج) [(١)] يعنى ذا العلو ، والدرجات ، والفواضل والنعم » – ثم روى ذلك عن ابن عباس ، وقتادة . وروى عن مجاهد ، قال : معارج السماء .

ثم قال : « وقوله – تعالى – : (تعرج الملائكة ، والروح إليه) : يقول – تعالى ذكره – : تصعد الملائكة ، والروح – وهو جبريل – عليه السلام « إليه » يعنى : إلى الله – جل وعز – والهاء فى قوله : « إليه » عائدة على اسم الله » [(٢)]

قوله : والروح – هو جبريل – هذا هو الظاهر من سياق الآية ، فيكون من عطف الخاص على العام .

وقوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب » وقال مجاهد : « العمل الصالح يرفع الكلم الطيب »

قال الحافظ : « وصله الفريابى من رواية ابن نجيح ، وأخرج البيهقى من طريق على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : « الكلم الطيب ، ذكر الله ، والعمل الصالح ، أداء فرائض الله ، فمن ذكر الله ، ولم يؤد فرائضه ، رد كلامه » [(٣)] ورواه ابن جرير [(٤)]

قلت : أثر مجاهد ، رواه ابن جرير فى تفسيره ، ولفظه : « الكلام الطيب ذكر الله ، والعمل الصالح أداء فرائضه ، فمن ذكر الله فى أداء فرائضه ، حمل عليه ذكر الله ، فصعد به إلى الله . ومن ذكر الله ، ولم يؤد فرائضه ، رد كلامه على عمله ، فكان أولى به » [(٤)]

---

(١) الآية ٣ من سورة المعارج .

(٢) تفسير الطبرى جـ ٢٩ ص ٧٠ .

(٣) الفتح جـ ١٣ ص ٤١٦ .

(٤) تفسير الطبرى جـ ٢٢ ص ١٢١ ط الحلبى ، وانظر الأسماء والصفات ص ٤٢٦ .

وقال ابن جرير : « إليه يصعد الكلم الطيب » يقول – تعالى ذكره – : إلى الله يصعد ذكر العبد إياه وثناؤه ، وأداء فرائضه ، والانتهاء إلى ماأمر به » (١)

ثم روى عن ابن مسعود أنه قال : « إذا حدثناكم بحديث ، أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله – تعالى – إن العبد المسلم ، إذا قال : سبحان الله ، وبحمده ، الحمد لله ، لا إله إلا الله ، والله أكبر ، تبارك الله ، أخذهن ملك ، فجعلهن تحت جناحيه ، ثم صعد بهن إلى السماء ، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة ، إلا استغفروا لقائلهن ، حتى يجيء بهن وجه الرحمن ، ثم قرأ عبد الله : « إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه » (٢) .

ثم روى قول مجاهد الذى ذكره البخارى ، وروى عن الحسن ، وقتادة : « لايقبل الله قولا إلا بعمل ، من قال ، وأحسن العمل ، قبل الله منه » (٣)

ومقصود البخارى بهذا الباب ، ذكر بعض الأدلة على علو الله – تعالى – وبيان أن ذلك ثابت بكتاب الله – تعالى – وسنة رسوله ﷺ ، وبالعقل ، والفطرة . فقد فطر الله تعالى العباد على الإيمان بذلك ، وآمن الصحابة به ، واتبعهم عليه كل من سلك طريق الرسل .

فالإيمان بعلو الله تعالى وفوقيته ، فطرى عقلى شرعى ، ومن خالف ذلك فقد انحرف عن طريق الرسل ، وسلك فى ذلك غير سبيل المؤمنين .

ولبيان أن الإيمان بذلك . فطرى ، عقلى ، ذكر قول أبى ذر ، قبل أن يسلم أنه قال لأخيه : « اعلم لى ، علم هذا الرجل ، الذى يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء » كما يأتى بيانه .

---

(١) تفسير الطبرى جـ ٢٢ ص ١٢٠ .

(٢) المرجع المذكور .

(٣) الطبرى جـ ٢٢ ص ١٢١ .

ومعلوم أن الخبر ، لايأتى إلا من مخبر ، والمخبر الذى يرسل الرسل بأوامره ، ونواهيه ، هو الله – جل وعلا – وهو فى السماء ، أى فى العلو بائن من خلقه .

وهذه المسألة من كبار مسائل العقيدة الإسلامية ، ومع ظهورها ، وكثرة الأدلة عليها وتنوعها ، واتفاق الرسل ، والكتب وأتباع الرسل عليها ، ضل فيها طوائف كثيرة كالجهمية ، والمعتزلة ، وأكثر الأشعرية ، ولا يزال على الضلال فيها خلق كثير ممن يتبنى مذهب الأشعرية ، والماتريدية ، معتقدين ، أن ذلك الضلال هو الحق وانه مذهب أهل السنة ، وأن أدلة كتب الله ، ووحيه إلى رسله ، ظواهر تدل على التشبيه بظاهرها ، فلهذا يجب صرفها عن ذلك الظاهر .

ويرى هؤلاء أن من اعتقد مادل عليه القرآن ، والسنة بظاهرهما ، أنه مشبه ومجسم ، مع أن العقل ، والفطر السالمة من الانحراف ، يتفقان على مادل عليه وحى الله تعالى ، ولهذا ترمى الأشعرية كل من اعتقد علو الله ، واستواءه على عرشه على الحقيقة ، بالتشبيه ، والتجسيم ، وأحيانا يصرحون بكفرهم كما هو عقيدتهم فى قرار نفوسهم ، ومع هذا ترى كثيرا منهم رافعاً عقيرته داعياً إلى الاتفاق والوئام ، وهذا لن يكون أبداً مادام فى الأرض معتقد للحق ، لأنه لاتفاق بين الهدى ، والضلال ، والحق ، والباطل ، وكيف يكون اتفاق مع من يرى أن من اعتقد مادلت عليه النصوص الصريحة ، الواضحة الكثيرة ، أنه ضال ، ومشبه ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله : « وقال أبو جمرة : عن ابن عباس ، لما بلغ أبا ذر مبعث النبى – ﷺ – فقال لأخيه : اعلم لى علم هذا الرجل ، الذى يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء » هذا التعليق قد تقدم تاما موصولا ، فى المناقب ، وفى الفضائل (١) .

ومقصوده من ذلك ، بيان أن علو الله تعالى على خلقه ، أمر مفطور عليه الخلق ، ومعلوم بالعقل ، والوحى جاء مؤيداً لذلك ، وموضحا له .

★ ★ ★

---

(١) انظر الفتح جـ ٦ ص ٥٤٩ و جـ ٧ ص ١٧٣ .

٥٧ – قال : « حدثنا إسماعيل ، حدثنى مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – ﷺ – قال : « يتعاقبون ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة العصر ، وصلاة الفجر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ، وهو أعلم بهم ، كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون »

* * *

« يتعاقبون » . التعاقب : إتيان فريق ، عقب فريق ، ثم يعود الأول ، بعد إتيان الثانى .

وإنما يكون التعاقب بين طائفتين ، أو رجلين ، ومنه . تعقيب الجيوش ، بأن يرسل طائفة من الجيش إلى مدة ، ثم يرسل مكانهم طائفة أخرى ، ويرجع الأولون .

والضمير فى قوله « فيكم » يعود إلى المخاطبين ، وهم الأمة المستجيبة للرسول – ﷺ – .

والأظهر أن هؤلاء الملائكة غير الحفظة ، كما قاله القرطبى ، وأيده الحافظ ، بأنه لم ينقل أن الحفظة يفارقون العبد ، ولا أن حفظة الليل ، غير حفظة النهار ، وبغير ذلك (١)

« ويجتمعون فى صلاة العصر ، وصلاة الفجر » أى يجتمع فى صلاة العصر ، الهابطون ليبيتوا مع العباد ، والذين كانوا معهم فى النهار ، فالفريقان يحضران صلاة العصر ، وصلاة الفجر ، فيصعد الذين صحبوا العباد بالنهار ،

---

(١) انظر الفتح جـ ٢ ص ٣٤ – ٣٥ .

عقب صلاة العصر ويبقى الذين يبيتون معهم ليلا ، ثم بعد اجتماع الفريقين أيضا ، فى صلاة الفجر يصعد الذين باتوا مع العباد ، ويبقى الذين نزلوا فى صلاة الفجر من السماء . والله تعالى يسأل كل فريق ، عن العباد ، يقول : كيف تركتم عبادى ، أى على أى حال تركتموهم – وهو – جل وعلا – أعلم من الملائكة المصاحبين لهم ، بهم . ولكن يسأل تعالى الملائكة عنهم ، لإظهار كرامتهم ، فضلا منه ، وإحسانا إليهم ، وبهذا يعلم أهمية المحافظة على هاتين الصلاتين فى الجماعة .

قوله : « ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم – وهو أعلم – كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم يصلون ، وأتيناهم ، وهم يصلون »

تقدم معنى العروج ، وأنه الصعود ، والارتفاع ، والذهاب إلى العلو ، وهذا هو محل الشاهد ، من الحديث ، لأن السؤال حصل بعد صعودهم ، حيث يصلون إلى المكان المحدد لهم ، والله تعالى فوقهم ، وهو تعالى يخاطبهم بذلك ، بدون واسطة ، كما هو ظاهر النص ، ولو كان ذلك بوحى لم يكن هناك فرق بين كونهم فى السماء ، أو فى الأرض .

وهذا الحديث يتفق فى المعنى مع قوله تعالى : « تعرج الملائكة والروح إليه » وكأن البخارى يشير بذلك إلى تفسيرها ، وأن عروج الملائكة المذكور فى هذا الحديث ، داخل فى مدلولها .

ودل قوله : « وهو أعلم بهم » أن المقصود من السؤال ، إظهار كرامة المؤمنين من بنى آدم ، بطاعتهم لربهم ، وعبادتهم إياه ، والتنويه بفضلهم ، عند الملائكة الذين فى السماء ، والملائكة المسؤلون ، فهموا من الله تعالى ماأراده . ولهذا قالوا فى الجواب : « تركناهم ، وهم يصلون ، وأتيناهم ، وهو يصلون »

وفى هذا دليل على أن من جلس فى مصلاه ، يذكر الله ويدعوه أنه فى صلاة لأن الملائكة يحضرون الصلاة معهم ، وبعد الفراغ منها يصعدون .

قال الحافظ : « ويستفاد منه أن الصلاة أعلى العبادات ، لأنه عنها وقع السؤال والجواب ، وفيه الإشارة إلى عظم هاتين الصلاتين ، لكونهما تجتمع فيهما الطائفتان ، وفى غيرهما طائفة واحدة .

والإشارة إلى شرف الوقتين المذكورين ، وقد ورد أن الرزق يقسم بعد صلاة الصبح ، وأن الأعمال ترفع آخر النهار ، فمن كان حينئذ فى طاعة ، بورك فى رزقه ، وفى عمله .

ويترتب عليه حكمة الأمر بالمحافظة عليهما ، والاهتمام بهما .

وفيه تشريف هذه الأمة ، على غيرها ، ويستلزم تشريف نبيها على غيره .

وفيه الإخبار بالغيوب ، ويترتب عليه زيادة الإيمان .

وفيه الإخبار بما نحن فيه ، من ضبط أحوالنا حتى نتيقظ ، ونتحفظ فى الأوامر والنواهى ، ونفرح فى هذه الأوقات بقدوم رسل ربنا ، وسؤال ربنا عنا .

وفيه إعلامنا بحب ملائكة الله لنا ، لنزداد فيهم حباً ، ونتقرب إلى الله — تعالى — بذلك .

وفيه كلام الله تعالى مع الملائكة ، وغير ذلك من الفوائد » (١) .

وفيه كثرة الملائكة ، وأن لكل منهم وظائف مكلفون بها ، وبيان نصحهم لبنى آدم ، وحبهم الخير لهم ، وأن استقرارهم فى السماء ، وإنما ينزلون إلى الأرض حسب أوامر الله لهم .

* * *

---

(١) الفتح جـ ٢ ص ٣٧ .

٥٨ – قال : « وقال خالد بن مخلد : حدثنا سليمان ، حدثنى عبد الله ابن دينار ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : « قال رسول الله – ﷺ – من تصدق بعدل تمرة ، من كسب طيب ، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها ؛ بيمينه ، ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه ، حتى تكون مثل الجبل »

* * *

« الصدقة : مايخرجه الإنسان من ماله ، على وجه القربة ، كالزكاة ، لكن الصدقة فى الأصل ، تقال : للمتطوع به ، والزكاة ، للواجب ، وقد يسمى الواجب صدقة إذا تحرى صاحبها ، الصدق فى فعلها » (١) .

وسميت صدقة ، من الصدق ، لأنها تدل على صدق إيمان المتصدق غالبا .

قوله : « بعدل تمرة » بفتح العين ، قال القاضى عياض : « العدل بالفتح المثل وماعادل الشىء ، وكافأه ، من غير جنسه ، وبالكسر ، ماعادله ، من جنسه وكان نظيره ، وقيل : الفتح ، والكسر لغتان فيها ، وهو قول البصريين » (٢) .

والمعنى : من تصدق بقدر تمرة ، أو بقيمتها .

قوله : « من كسب طيب » أى تصدق بمال حلال ، جيد ، وإن كان قليلا .

« ولا يصعد إلى الله إلا الطيب » . تقدم هذا الحديث فى الزكاة بسند

---

(١) المفردات للراغب ص ٢٧٨ .

(٢) المشارق جـ ٢ ص ٦٩ .

متصل غير هذا وفيه « ولا يقبل الله إلا الطيب » [١] .

فالذى يقبله الله – تعالى – يصعد إليه ، فيبارك به لصاحبه ، وينميّه .

وهذه الجملة من الحديث هى المقصود منه هنا ، حيث دل على علو الله – تعالى – وأنه فوق ، وماقبله الله من الأعمال ، فإنه يصعد إليه ، وقد تقدم أن الملائكة تصعد إلى الله – تعالى – وتعرج إليه ، والصعود ، والعروج سواء فى المعنى ، كما تقدم فى كلام ابن جرير .

وقد اختار البخارى بعض النصوص فى هذا الباب ، التى فيها ذكر الصعود والعروج ونحوهما لوضوح الدلالة فى ذلك على علو الله – تعالى – كما أنه نوع الأدلة فى ذلك كما تقدم للإيضاح ، وأدلة علو الله تعالى كثيرة جداً ، ومتنوعة كما ستأتى الإشارة إلى ذلك .

« قوله : « فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبها ، كما يربى أحدكم فلوه » أى أن الله – تعالى – يقبلها من صاحبها ، فيأخذها بيده اليمنى ، وكلتا يديه يمين ، فينميها لصاحبها ، ويبارك فيها ، ويعتنى بها عناية بالغة ، كما يعتنى أحدنا بأغلى مالديه من المال ، وأنفسه ، وهو ولد الفرس ، الذى يعد لمدافعة الأعداء وقتالهم ، وحماية الأعراض ، والنفوس ، والأموال ، حتى يصير ماهو بقدر التمرة – لشدة عناية الله – تعالى – به مثل الجبل .

وقد تخبط شراح الحديث ممن سلك طريق الأشاعرة ، فى شرح هذه الجملة ، وجاؤا بماليس له وجه ، مع أن المتكلم به قد أعطى من الفصاحة والبيان والنصح للسامع ، والحرص على وصول الخير إليه ما ليس عليه مزيد ، فيجب أخذ كلامه على ظاهره ، والإيمان به ، وإحسان الظن به ، فهو صلوات الله وسلامه عليه أقدر على إيضاح مايريد من هؤلاء ، كما أنه ﷺ أعلم بالله منهم ، فليس

---

(١) انظر الفتح جـ ٣ ص ٢٧٨ .

كلامه بحاجة إلى تلك التأويلات الباردة [١] ، والتمحلات المتكلفة ، كالتى ذكر ابن حجر ، - عفا الله عنا وعنه -.

★ ★ ★

(١) انظر بعض ماقاله هؤلاء المؤولة فى فتح البارى جـ ٣ ص ٢٨٠ .

٥٩ – ثم ذكر حديث ابن عباس : فى دعاء الكرب ، وقد تقدم فى الباب قبل هذا ، وفيه اختلاف فى سنده ومتنه ، كما هى عادته .

* * *

والمقصود منه هنا قول : « رب العرش العظيم » وقوله : « رب العرش الكريم » وقد تقدم أن العرش هو سقف المخلوقات كلها ، وليس فوقه مخلوق . وقد وصفه – تعالى – بأنه عظيم ، وبأنه كريم ، وأضافه – تعالى – إليه مما يدل على أن له خصوصية دون غيره ، من السماوات والأرض كما تقدم .

وقد أخبرنا – تعالى – بأنه استوى عليه ، فهو من دلائل علوه تعالى فوق خلقه .

★ ★ ★

٦٠ – قال : « حدثنا قبيصة ، حدثنا سفيان ، عن أبيه ، عن ابن أبى نعم ، أو أبى نعم – شك قبيصة – ، عن أبى سعيد ، قال بعث إلى النبى ﷺ بذهيبة ، فقسمها بين أربعة » .

وحدثنى إسحاق بن نصر ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا سفيان ، عن أبيه ، عن ابن أبى نعم ، عن أبى سعيد الخدرى ، قال : « بعث علي ، وهو فى اليمن إلى النبى – ﷺ – بذهيبة فى تربتها ، فقسمها بين الأقرع بن حابس الحنظلى ثم أحد بنى مجاشع ، وبين عيينة بن بدر ، الفزارى ، وبين علقمة بن علاقة العامرى ، ثم أحد بنى كلاب ، وبين زيد الخيل ، الطائى ، ثم أحد بنى نبهان . فتغيظت قريش ، والأنصار ، فقالوا : يعطيه صناديد أهل نجد ، ويدعنا – ؟ قال : إنما أتألفهم ، فأقبل رجل ، غائر العينين ، ناتىء الجبين ، كث اللحية ، مشرق الوجنتين ، محلوق الرأس ، فقال : يامحمد : اتق الله ، فقال النبى – ﷺ –: فمن يطيع الله إذا عصيته ؟ ، فيأمننى على أهل الأرض ، ولاتأمنونى . فسأل رجل ، من القوم قتله – أراه خالد بن الوليد – فمنعه النبى – ﷺ – فلما ولى ، قال النبى – ﷺ –: إن من ضئضىء هذا قوما يقرؤون القرآن ، لايجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام ، مروق السهم من الرمية ، يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان ، لئن أدركتهم لأقتلنهم ، قتل عاد » .

* * *

أرسل النبى – ﷺ – على بن أبى طالب إلى اليمن ، يدعو إلى الله تعالى – ويقبض الزكاة من أصحابها ، ويقضى فى المنازعات ، وكان ذلك قبل حجة الوداع ، كما ذكره البخارى فى آخر المغازى ، ثم إن علياً وافى رسول الله – ﷺ – بمكة ، فى حجة الوداع راجعا من اليمن ، وكان قد أرسل إليه ، بذهيبة ، تصغير

ذهبة ، أى قطعة من الذهب ، فقسمها رسول الله - ﷺ - بين هؤلاء الأربعة المذكورين ، رجاء إسلامهم ، وكانوا رؤساء قبائلهم ، فإذا أسلموا ، أسلم تبعا لهم خلق كثير ، ولهذا أعطاهم النبى - ﷺ - المال ترغيبا لهم فى الإسلام ، وتأليفا لقلوبهم عليه ، كما بينه - ﷺ - فى جوابه للصحابة ، الذين قالوا : « يعطيه صناديد أهل نجد ، ويدعنا » .

وقوله : « فى تربتها » أى أنها لم تخلص من ترابها ، فليست ذهبا خالصا ، لأنها مختلطة بالتراب .

قيل : إنها من الخمس ، واستبعد ابن حجر أن تكون من أصل الغنيمة ، ويمكن أن تكون زكاة .

قوله : « فتغيظت قريش ، والأنصار » من الغيظ ، أى غاظها ذلك ، حيث لم يعطهم منها ، وفى رواية « فغضبت » من الغضب .

« فقالوا : يعطيه صناديد أهل نجد ، ويدعنا » الصناديد ، جمع صنديد ، وهو الرئيس ، وفى القاموس : الصندد [بفتح الصاد ، وإسكان النون ، وكسر الدال الأولى] (١) السيد ، الشجاع ، أو الحليم ، أو الجواد ، أو الكريم » ا هـ .

قوله : « إنما أتألفهم » أى أعطيهم ليألفوا الدين ، ويجتمعوا على حبه ، والرغبة فيه ، فأرغبهم فيه على طريق الإحسان إليهم ، بالدنيا حتى يصل إلى قلوبهم ، فيحبوه ويرغبوا فيه ، أو لأجل مايتحصلون عليه من الدنيا ثم بعد ذلك لمايرجونه من جزاء الله وثوابه فى الآخرة .

والتأليف من الألف ، وهو الاجتماع ، والالتئام مع الحب .

والمعنى : أنى أعطيهم ليكون ذلك داعيا لهم إلى حب الإسلام ، والرغبة فيه والاجتماع عليه ، حتى يكونوا من أنصاره ، ويتبعهم على ذلك أقوامهم وعشائرهم ،

---

(١) ما بين المعقوفين من حاشية القاموس جـ ١ ص ٣٠٩ .

فيحصل بذلك عز الإسلام ، ونصره ، فهذا العطاء مما يحبه الله ويثيب عليه ، وهو من الإنفاق فى سبيل الله – تعالى – ، بل من أفضله .

ووصفه الرجل المعترض على رسول الله – ﷺ – هى أمور اتفقت فيه ، وليست هذه الأوصاف الظاهرة فى هذا الهالك مذمومة لذاتها .

وقوله : « فمن يطيع الله ، إذا عصيته » يعنى أنه – ﷺ – هو أحق الناس وأولاهم بطاعة الله – تعالى – وتقواه .

وهذا هو الضلال أن يتصور الإنسان الطاعة ، معصية ، فهذا الرجل المعترض تصور أن فعل رسول الله – ﷺ – معصية ، وأنه من الجور ، فنصب نفسه آمرا بتقوى الله ، فقال للرسول – ﷺ –: اتق الله ، مع أن فعل رسول الله – ﷺ – هو تقوى ، ومن أعظم الطاعات له ، فهو يعطى لله ، ولنصر دينه ، وهداية عباده .

قوله : « فيأمننى على أهل الأرض ، ولا تأمنونى » أى يأمننى الله – تعالى – على الرسالة التى أرسلنى بها إلى أهل الأرض ، ولاتأمننى أنت أيها المعترض ، ومن على شاكلتك ممن ضل طريق الرشد ، لاتأمنونى على حطام الدنيا أن أضعه حيث يجب أن يوضع ، على وفق أمر الله تعالى .

والرواية التى ذكرها فى المغازى : « فقال : ألا تأمنونى ، وأنا أمين من فى السماء يأتينى خبر السماء صباحا ومساء » (١)

وهذا اللفظ أظهر ، وأوضح فى المقصود ، من الرواية المذكورة هنا .

قال الحافظ : « وبهذا تظهر مناسبة هذا الحديث للترجمة ، لكنه جرى على عادته فى إدخال الحديث فى الباب ، للفظة تكون فى بعض طرقه هى المناسبة

---

(١) انظر الفتح جـ ٨ ص ٦٧ .

لذلك الباب ، يشير إليها ، ويريد بذلك شحذ الأذهان ، والبعث على كثرة الاستحضار » (١)

قلت : ولايخلو اللفظ المذكور من الدليل على المقصود الذى هو علو الله – تعالى – لأن قوله : « فيأمننى على أهل الأرض » يدل على أن الآمن الذى هو الله – تعالى – فى السماء .

ومعنى قوله : « من فى السماء » أى الله الذى فى السماء ، و « فى » هنا بمعنى « على » كما ذكر البيهقى ، عن أبى بكر ، أحمد بن إسحاق الضبعى : « أن العرب قد تضع « فى » بموضع « على » ، قال الله – تعالى –: (فسيحوا فى الأرض) (٢) ، وقال : (لأصلبنكم فى جذوع النخل) (٣) ومعناه : على الأرض ، وعلى جذوع النخل .

فكذلك قوله : (فى السماء) أى على العرش ، فوق السماء ، كما صحت الأخبار عن النبى – ﷺ – » (٤) .

وهذا الحديث مثل قول الله تعالى –: (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ، أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا) (٥) .

فإما أن تكون « فى » بمعنى « على » كما تقدم ؛ أو يقصد بالسماء العلو أى أأمنتم من فى العلو ، وكلاهما صحيح سائغ فى اللغة والمعنى .

---

(١) الفتح جـ ١٣ ص ٤١٨ .
(٢) الآية ٢ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٧١ من سورة طه .
(٤) الأسماء والصفات ص ٤٢١ .
(٥) الآيتان ١٦ و ١٧ فى سورة الملك .

قوله : « فسأله رجل من القوم قتله ، أراه خالد بن الوليد ، فمنعه النبى ﷺ » أى استأذن الرسول فى ذلك ، وقد تقدم فى المناقب أن السائل هو عمر ابن الخطاب (١) .

قال الحافظ : « لاتنافى بين الروايتين ، إذ يجوز أن يكون كل واحد منهما طلب ذلك » (٢) .

وقد جاء أن سبب منعه من قتله ، خوف أن يقال : إن محمداً يقتل أصحابه ، فيصير بذلك تنفيرا عن الدخول فى الإسلام .

قوله : « إن من ضئضىء هذا ، قوم يقرؤون القرآن ، لايجاوز حناجرهم » قال فى النهاية : « الضئضىء : الأصل ، يقال : ضئضىء صِدْق ، وضوضؤ صدق ، يريد أنه يخرج من نسله ، وعقبه » (٣) .

وفى اللسان : « الضئضىء ، والضؤضؤ : الأصل ، والمعدن » (٤) .

والمقصود ، الإخبار بأنه يأتى من جنس هذا الرجل ، الضال ، قوم يسلكون مسلكه يقرأون القرآن ، ولكن لا يصل إلى قلوبهم ، فهم لايفهمونه ، على ما أريد ، بل يضعونه فى غير موضعه ، لأنهم ضالون ، وجاهلون ، ولهذا يمرقون من الإسلام ، مروق السهم من الرمية ، أى يخرجون من الإسلام ، بسرعة ، وسهولة ، غير متأثرين به ، كأنهم لم يدخلوه ، وهذا يدل على أنهم دخلوا فى الإسلام ، ولكن لم يتمكن الإيمان فى قلوبهم ، ولم يفهموه على وجهه ، ولهذا صار من أوصافهم ، أنهم يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون الكفار عباد الأوثان ، ومن أجل ذلك قال – ﷺ – لئن أدركتهم ، لأقتلنهم ، قتل عاد – أى لا أبقى منهم

---

(١) انظر الفتح جـ ٦ ص ٦١٨ .
(٢) المرجع المذكور جـ ٦ ص ٦١٨ .
(٣) النهاية جـ ٣ ص ٦٩ .
(٤) لسان العرب جـ ٢ ص ٥٠٣ المرتب .

أحدا يشير بذلك إلى قوله : فى وصف هلاك عاد (فهل ترى لهم من باقيه) [١] ولم يرد أنه يقتلهم بالشيء الذى قتلت به عاد بعينه .

ويحتمل أن يكون من الإضافة إلى الفاعل ، ويراد به القتل الشديد القوى ، ويكون فى ذلك إشارة إلى وصفهم بالشدة ، والقوة ، ويؤيده أنه وقع فى طريق أخرى « قتل ثمود » [٢] .

★ ★ ★

(١) الآية ٨ من سورة الحاقة .

(٢) قاله الحافظ فى الفتح جـ ٦ ص ٣٧٧ .

٦١ – ثم ذكر حديث أبى ذر الذى تقدم فى الباب قبل هذا فقال :

« حدثنا عياش بن الوليد ، حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن إبراهيم التيمى ، عن أبيه ، عن أبى ذر ، قال : سألت النبى – ﷺ – عن قوله : (والشمس تجرى لمستقر لها) ؟ قال : « مستقرها تحت العرش » . قد تقدم شرحه ، والشاهد منه هنا . أن الشمس فى ارتفاعها ، وأبعد ماتكون عن الأرض التى عليها المخاطبين آن ذاك تكون تحت العرش ، فالمخلوقات كلها تحته ، والله – تعالى – فوق العرش ، فهو عال على خلقه كلهم وفوقهم .

* * *

فى هذا الباب ، والذى قبله قصد البخارى – رحمه تعالى – إثبات علو الله ، واستواءه على العرش ، كما هو ثابت فى نفس الأمر ، وتظافرت عليه أدلة الوحى ، والعقول والفطر ، وكما هو مذهب السلف من الصحابة ، وأتباعهم إلى اليوم .

والنصوص التى ذكرها البخارى ظاهرة الدلالة على ذلك ، وهى نزر يسير جدا من النصوص الكثيرة ، المتنوعة فى ذلك .

قال ابن أبى العز : « ومن سمع أحاديث الرسول – ﷺ – ، وكلام السلف وجد منه فى إثبات الفوقية مالاينحصر .

ولاريب أن الله – سبحانه – لماخلق الخلق ، لم يخلقهم فى ذاته المقدسة ، فإنه الأحد ، الصمد ، فتعين أنه خلقهم خارجا عن ذاته .

ولو لم يتصف – سبحانه – بفوقية الذات ، مع أنه قائم بنفسه ، غير مخالط للخلق لكان متصفا بضد ذلك ، لأن القابل للشيء لايخلو منه أو من ضده ، وضد الفوقية ، السفول ، وهو مذموم على الإطلاق .

فإن قيل : لانسلم أنه قابل للفوقية ، حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها .

قيل : لو لم يكن قابلا للعلو ، والفوقية ، لم يكن له حقيقة ، قائمة بنفسها فمتى أقررتم ، أنه موجود ، قائم بنفسه ، ليس وجوده ذهنياً ، بل وجوده خارج الأذهان قطعا .

تعين أن يكون متميزا عن خلقه ، عالياً عليهم .

وقد علم العقلاء كلهم ، بالضرورة ، أن ماكان وجوده ، خارج الأذهان ، فهو إما أن يكون داخلا فى الخلق ، أو بائناً منهم ، خارجاً عنهم .

وإنكار ذلك إنكار لما هو أجلى وأظهر من الأمور البديهيات ، الضرورية ، بلا ريب ، فلا يستدل بدليل على وجوده ، إلا كان العلم بالمباينة أظهر منه ، وأوضح وأبين .

وإذا كانت صفة العلو ، والفوقية صفة كمال ، لانقص ،ولاتستلزم نقصاً ولامحذور فيها ، ولاتخالف كتاباً ، ولا سنة ، ولاإجماعا ، فنفى حقيقتها يكون عين الباطل ، والمحال ، الذى لاتأتى به شريعة أصلا ، فكيف إذا كان لايمكن الإقرار بوجوده – تعالى – ، وتصديق رسله ، والإيمان بكتابه ، وما جاء به رسوله إلا بذلك ؟ .

فكيف إذا انضم إلى ذلك شهادة العقول السليمة ، والفطر المستقيمة . والنصوص الواردة ، المتنوعة فى الدلالة ، على علو الله – تعالى – على خلقه وكونه فوق عباده ، التى تقرب من عشرين نوعا .

أحدها : التصريح بالفوقية ، مقرونا بأداة « من » المعينة للفوقية بالذات كقوله – تعالى – : (يخافون ربهم من فوقهم) (١) .

---

(١) الآية ٥٠ من سورة النحل .

الثانى : ذكر الفوقية ، مجردة عن الأداة ، كقوله – تعالى – : (وهو القاهر فوق عباده) [١]

الثالث : التصريح بالعروج إليه ، كقوله – تعالى – : (تعرج الملائكة والروح إليه) [٢] وقوله – ﷺ – « فيعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ، وهو أعلم » كما تقدم .

الرابع : التصريح بالصعود إليه ، كقوله –تعالى – : (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) [٣]

الخامس : التصريح برفعه – تعالى – بعض خلقه إليه ، كقوله : – تعالى – : (بل رفعه الله إليه) [٤] وقوله : (إنى متوفيك ، ورافعك إليَّ) [٥] .

السادس : التصريح بالعلو المطلق ، الدال على جميع مراتب العلو ، ذاتا وقدرا وشرفا ، كقوله – تعالى – : (وهو العلى ، العظيم) [٦] وقوله – تعالى – : (وهو العلى الكبير) [٧] وقوله – تعالى – : (إنه عليٌّ حكيم) [٨] .

---

(١) الآية ١٨ و ٦١ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٤ من سورة المعارج .

(٣) الآية ١٠ من سورة فاطر .

(٤) الآية ١٥٨ من سورة النساء .

(٥) الآية ٥٥ من سورة آل عمران .

(٦) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

(٧) الآية ٢٣ من سورة سبأ .

(٨) الآية ٥١ من سورة الشورى .

السابع : التصريح بتنزيل الكتاب منه ، كقوله - تعالى - : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) [١] وقوله : (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) [٢] وهو كثير .

الثامن : التصريح باختصاص بعض المخلوقات ، بأنها عنده ، وأن بعضها أقرب إليه من بعض ، كقوله - تعالى - : (إن الذين عند ربك) [٣] وقوله - تعالى - : (وله من فى السموات والأرض . ومن عنده) [٤] ففرق تعالى بين من له عموما وبين من عنده من الملائكة . وقد تقدم قوله - ﷺ - : « إن الله لماخلق الخلق كتب كتاباً فهو عنده فوق عرشه » .

التاسع : التصريح بأنه - تعالى - فى السماء ، كقوله . - تعالى - : (أأمنتم من فى السماء ، أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور) [٥] ، وتقدم أن ذلك ، على وجهين ، إما أن تكون « فى » بمعنى « على » ، أو يراد بالسماء العلو ، لايجوز غير ذلك .

العاشر : التصريح : برفع الأيدى إلى الله - تعالى - : كقوله - ﷺ - : (إن الله يستحى من عبده ، إذا رفع إليه يديه ، أن يردهما صفراً » [٦]

الحادى عشر : التصريح بالاستواء ، مقروناً بأداة « على » مخصوصاً بالعرش الذى هو أعلى المخلوقات .

---

(١) الآية الأولى من سورة الزمر .
(٢) الآية ٢ من سورة غافر الذنب .
(٣) آخر آية من سورة الأعراف .
(٤) الآية ١٩ من سورة الأنبياء .
(٥) الآية ١٦ من سورة الملك .
(٦) أخرجه أبو داود فى السنن جـ ٢ ص ١٦٥ رقم ١٤٨٨ ، والترمذى فى الدعوات جـ ٥ ص ٢١٧ ، وابن ماجه فى السنن جـ ٢ ص ١٢٧١ الحديث رقم ٣٨٦٥ .

الثانى عشر : التصريح بنزوله – تعالى – كل ليلة إلى سماء الدنيا ، والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى أسفل .

الثالث عشر : الإشارة الحسية إليه فى العلو ، كما فعل ذلك رسول الله – ﷺ – فى خطبته فى حجة الوداع ، حيث قال : « إنكم مسئولون عنى ، فماذا أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت ، وأديت ، ونصحت ، فرفع إصبعه إلى السماء ، وقال : اللهم اشهد » (١)

الرابع عشر : سؤال الرسول – ﷺ – بلفظ « أين الله » وإخباره عمن قال : « الله فى السماء » بأنه مؤمن (٢)

الخامس عشر : اتفاق الكتب المنزلة من الله والرسل على أن الله فوق عباده عال عليهم ، كما قال – تعالى – عن فرعون : (وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحاً ، لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه كاذبا » (٣) لأن موسى عليه السلام أخبر فرعون أن الله فى السماء ، فقال هذا القول ليموّه على السذج أتباع كل ناعق بدون بصيرة .

السادس عشر : عروج النبى – ﷺ – إليه – تعالى – ، وإخباره ، أنه تردد نبيه – تعالى – وبين موسى ، يطلب التخفيف من عدد الصلوات » (٤)

وقد غلط أكثر المتكلمين فى مسمى السماء ، حيث ظنوا أن السماء يقصد به مكان معين محاط ، فتوهموا أن من قال : إن الله فى السماء أن مكاناً يحيط به أو يحويه ـــ تعالى – وتقدس .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه وغيره ، انظر مسلم جـ ٢ ص ٨٩٠ الحديث رقم ١٢١٨ ، وهو حديث جابر الطويل فى صفة الحج .

(٢) انظر صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٨٢ الحديث رقم ٥٣٧ .

(٣) الآيتان ٣٦ و ٣٧ من سورة غافر الذنب .

(٤) شرح الطحاوية بتصرف ص ٢٥٦ – ٢٦٠ الطبعة الثالثة .

قال شيخ الإسلام : « من توهم أن كون الله فى السماء أن السماء تحيط به ، أو تحويه فهو كاذب إن نقله عن غيره ، وضال إن اعتقده فى ربه .

ومافهم هذا أحد من النصوص ، ولم ينقل عن أحد ، ولو سئل سائر المسلمين ، هل تفهمون من قول الله ، ورسوله : أن الله فى السماء ، أن السماء تحويه ؟ لبادروا إلى القول : بأن هذا شيء ماخطر بالبال .

فمن الضلال أن يجعل ظاهر نصوص الكتاب والسنة فى ذلك دالة على الباطل والتشبيه .

بل عند الناس قولك : إن الله فى السماء ، وقولك : الله فوق العرش ، سواء إذ السماء إنما يراد به العلو ، فالمعنى : أن الله فى العلو . لافى السفل .

وقد علم المسلمون أن كرسيه ، سبحانه – وتعالى – وسع السموات ، والأرض ، وأن الكرسى فى العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وأن العرش ، خلق من مخلوقات الله ، لانسبة له إلى عظمة الله تعالى .

فكيف يتوهم بعد هذا أن خلقا يحصره أو يحويه ؟ وقد قال – تعالى – : (ولأصلبنكم فى جذوع النخل) (١) وقال – تعالى – : (فسيروا فى الأرض) (٢) . بمعنى على الأرض ، وهو كلام عربى حقيقة لامجازا ، وهذا يعلمه من عرف حقائق الحروف » (٣)

وعلو الله – تعالى – ظاهر جداً ، وقد تقدم أن البخارى – رحمه الله – أشار بما ذكره فى هذا الباب ، إلى أن علو الله – تعالى – وفوقيته ثابت بالكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والعقل ، والفطر ، أما ثبوته بالكتاب والسنة فواضح .

---

(١) الآية ٧١ من سورة طه .

(٢) الآية ١٣٧ من سورة آل عمران ، والآية ٣٦ من سورة النحل .

(٣) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ١٠٦ .

وأما الإجماع فأشار إليه بقصة زينب ، أنها كانت تفتخر ، على أزواج النبى – ﷺ – تقول : زوَّجكن أهاليكن ، وزوَّجنى الله ، من فوق سبع سماوات . فهذا يدل على الإجماع ، لأن ذلك متقرر عندهم ، ولم ينكر ذلك أحد ، بل يذكر فى كل مناسبة ، ومن ذلك هذا الذى قالته زينب ، فالإجماع عليه ظاهر ، والإجماع لايكون على خلاف المعقول .

وأما الفطرة ، فأشار إليها بماذكره ، عن أبى ذر أنه قال لأخيه . قبل أن يسلم : « اعلم لى علم هذا الرجل ، الذى يأتيه الخبر من السماء » أى يأتيه الخبر من الله الذى فى السماء ، لأنه يقول . للناس : أنا رسول الله إليكم .

قال شيخ الإسلام : « تبين وجوب إثبات العلو لله – تعالى – من وجوه .

أحدها : أن القرآن ، والسنن المستفيضة ، المتواترة ، وغير المتواترة ، وكلام السابقين والتابعين ، وأهل القرون الثلاثة ، مملوء بما فيه إثبات العلو لله ، وأنه مستوٍ على عرشه ، بأنواع من الدلالات .

فالله – تعالى – يخبرنا تارة ، أنه خلق السموات والأرض ، فى ستة أيام ثم استوى على العرش .

وتارة يخبر بعروج الأشياء ، وصعودها ، وارتفاعها إليه ، كقوله – تعالى – : (بل رفعه الله إليه) [١] (إنى متوفيك ورافعك إلىّ) [٢] (تعرج الملائكة والروح إليه) [٣] (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) [٤] .

---

(١) الآية ١٥٨ من سورة النساء .
(٢) الآية ٥٥ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ٤ من سورة المعارج .
(٤) الآية ١٠ من سورة فاطر .

وتارة يخبر بنزولها منه ، أو من عنده ، كقوله – تعالى – : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) [١] (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) [٢] (حمٓ تنزيل من الرحمن الرحيم) [٣] (حمٓ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) [٤] .

وتارة يخبر بأنه العلى الأعلى ، كقوله – تعالى – : (سبح اسم ربك الأعلى) [٥] وقوله – تعالى – : (وهو العلى العظيم) [٦] .

وتارة يخبر بأنه فى السماء ، كقوله – تعالى – : (أأمنتم من فى السماء ، أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور . أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً) [٧] فذكر السماء دون الأرض ، وكقوله – ﷺ – : « ألا تأمنونى ، وأنا أمين من فى السماء » وقوله للجارية : أين الله ؟ قالت : فى السماء ، قال : اعتقها ، فإنها مؤمنة » ولم يعلق ألوهية أوغيرها كما فى قوله – تعالى – : (وهو الذى فى السماء إله ، وفى الأرض إله) [٨] وقوله : (وهو الله فى السموات والأرض) [٩] أى هو المألوه المعبود فى السموات والأرض .

وتارة يجعل بعض الخلق عنده ، دون بعض ، كقوله : (وله من فى

(١) الآية ١١٤ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ١٠٢ من سورة النحل .

(٣) فاتحة سورة فصلت .

(٤) فاتحة سورة الجاثية والأحفاف .

(٥) فاتحة سورة الأعلى .

(٦) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة والآية ٤ من سورة الشورى .

(٧) الآيتان ١٦ و ١٧ من سورة الملك .

(٨) الآية ٨٤ من سورة الزخرف .

(٩) الآية ٣ من سورة الأنعام .

السموات ، والأرض ومن عنده ، لايستكبرون عن عبادته) (١)

فلو كان موجب العندية ، معنى عاما كدخولهم تحت قدرته ، ومشيئته ، ونحو ذلك لكان كل مخلوق عنده ، ولم يكن أحد مستكبرا ، عن عبادته .

وأما الأحاديث ، والآثار عن الصحابة ، والتابعين ، فلا يحصيها إلا الله - تعالى - .

فلا يخلو أن يكون ما اتفقت عليه هذه النصوص ، من إثبات علو الله تعالى . على خلقه هو الحق ، أو الحق ، نقيضه ، إذ الحق لايخلو عن النقيضين .

فإن كان نفى العلو هو الحق ، فمعلوم أن القرآن لم يبين هذا ، لانصاً ، ولامفهوماً . وكذلك الرسول - ﷺ - ولا أحد من الصحابة ، وأتباعهم ، ولا أحد من أئمة المسلمين ، ولايمكن أحد أن ينقل عن واحد منهم شيئا من ذلك ، بل نقيضه هو المستفيض عنهم ، كما هو الموافق للكتاب ، والسنة .

ويلزم على ذلك أن يكون الله ورسوله ، والمؤمنون ، لم ينطقوا بالحق فى هذا الباب ، بل تكلموا بما يدل على الضلال ، إما نصاً ، أو ظاهراً .

فإن قيل : هذه النصوص ماأريد بها إثبات علو الله على خلقه ، وإنما أريد بها علو المكانة ، والقدر .

قيل : فكان يجب على المتكلم بها أن يبين للناس الحق ، الذى يجب أن يؤمن به ويعتقد ، ظاهراً وباطناً ، وأنه لم يرد بهذا الكلام مفهومه ، ومقتضاه .

فإن قيل : إنه تكلم بالمجاز ، المخالف للحقيقة .

قيل : من المعلوم باتفاق العقلاء أن المخاطب المبين إذا تكلم بمجاز ، فلا بد أن يقرن بخطابه مايدل على إرادة المعنى المجازى ، فإذا كان الرسول - ﷺ -

---

(١) الآية ١٩ من سورة الأنبياء .

الذى بين للناس مانُزِّل إليهم ، يعلم أن المراد بالكلام خلاف مقتضاه وظاهره ، وجب عليه أن يقرن بخطابه مايصرف القلوب عن فهم المعنى الذى لم يرده ، ولاسيما إذا كان ذلك المعنى باطلا ، ولايجوز اعتقاده فى الله – تعالى – . وهذا يجب ولو لم يخاطبهم بما يفهم منه خلاف الحق ، الذى يجب اعتقاده ، إذا كان مخوفا عليهم ، فكيف إذا كان فى كلامه مايفهم منه خلاف الحق » (١)

فلا عذر لمن أنكر علو الله ، ونفاة العلو ، والصفات ، يقولون : إن هذه النصوص لم يرد بها الحقيقة . والظاهر المفهوم منها ، والقرينة الصارفة عن ذلك هى دلالة العقل ، فاكتفى المتكلم بهذه القرينة ، لأنها عقلية ، عند كل عاقل .

فيقال لهم : إذا كان ماتكلم به الله ورسوله ، إنما يفيد مجرد الضلال ، الهدى إنما يستفاد من العقول ، فلماذا ينزل الله الكتاب ، ويرسل الرسول ؟ للعناء والشقاء ؟ فإن تركهم على جاهليتهم خير لهم من أن ينزل عليهم الكتاب ، ويرسل إليهم الرسول ، هذا هو لازم هذا القول الباطل .

ويقال أيضاً : الرسول جاء بإثبات العلو ، والصفات ، وذلك أظهر فى العقل من قولكم .

ثم الرسول – ﷺ – إما أن يتكلم بالهدى ، أو بالضلال ، أو يسكت عنهما .

ومعلوم أن السكوت عنهما خير من التكلم بالضلال .

وبذلك يعلم بالعقل ، أنه لم يسكت عن بيان الحق ، والهدى ، والتحذير من اعتقاد الباطل ، وبذلك يتفق ماجاء به الرسول – ﷺ – مع العقل الصحيح ، الذى لم تفسده الشياطين ، والهوى المضل .

فالعقل يوافق ماجاء به الرسول – ﷺ – لا ما يقوله نفاة الصفات ،

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ١٦٤ – ١٦٨ ملخصا .

وليس بين العقل الصريح ، والنقل الصحيح تناقض أصلا ، كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه درء تعارض العقل والنقل وغيره .

فقولهم : إن القرينة الصارفة عن الظاهر ، هى العقل ، خطأ محض ، إذ العقل يوافقها لايخالفها كما توهموه ، كما أن إثبات الصفات ليس فيه تشبيه كما زعموا ولكن الأوهام ، وسوء الظن بالله ، ورسوله أرادهم .

ومن حججهم الباطلة التى حملتهم على صرف النصوص ، عن ظاهرها ، ورأوا وجوب تأويلها لذلك ، هى قاعدتهم ، فى أن جميع الأجسام حادثة لملازمتها للأعراض التى هى الصفات ، فوجب تنزيه الرب – تعالى – عن كل صفة تستلزم التركيب ، أو الجسمية . لأن الأعراض لاتكون إلا فى جسم ، والجسم لابد أن يكون مركباً من الجواهر – كما زعموا – ولهذا قالوا : إن الاستواء ، والعلو يلزم منهما النقلة ، والمكان والحركة ، وهذه من صفات الأجسام .

فيقال لهم : الحياة ، والعلم ، والسمع ، والبصر ، مما جوزتم لأنفسكم أن تصفوه به ، لايعقل أن تقوم إلا بجسم مع أنكم تسمون ، الصفات أعراضاً ، ولافرق بين ماأثبتموه ، ومانفيتموه فى المعنى ألا يجوز لغيركم أن يصف الله تعالى بما وصف به نفسه ، ووصفته به رسله بأنه – تعالى – مستوٍ على عرشه ، وعالٍ على خلقه ، وبأن له وجها ويدين حقيقة . ونحو ذلك مما تسمونه أبعاضاً ، تستلزم التركيب ، والجسمية ، كما افتريتموه ، على رب العالمين ، ورميتم من وصف الله – تعالى – بما وصف به نفسه بالتشبيه ، والتجسيم ، مع أنهم أقرب إلى المعقول منكم ، وقد سلم لهم المنقول بدون تحريف .

قال شيخ الإسلام : « ولاريب أن الله موجود ، قائم بنفسه ، وترفع إليه الأيدى عند الدعاء ، كما فطر على ذلك جميع عباده ، ولاريب أنه تجوز رؤيته فى الآخرة كما أخبر بذلك فى كتابه ، فإذا سموا هذه المعانى تجسيماً ، فلا ينبغى لنا أن نترك ما أخبر الله به عن نفسه ، فى كتابه ، ونذهب إلى تأويلها ، لمجرد هذه

التسميات الحادثة المبتدعة » (١) .

وقال أيضا : « ولفظ الظاهر فيه إجمال ، واشتراك ، فإن كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين ، أو ما هو من خصائصهم ، فلا ريب أن هذا غير مراد .

والسلف والأئمة لم يكونوا يسمون هذا ظاهرها ، ولايرتضون أن يكون ظاهر القرآن والحديث كفراً ، وباطلا .

والله سبحانه – وتعالى – أعلم وأحكم من أن يكون كلامه الذى وصف به نفسه ، لايظهر منه الا ماهو كفر ، أو ضلال .

والذين يجعلون ظاهرها ذلك ، يغلطون من وجين :

أحدهما : أنهم جعلوا المعنى الفاسد ، هو ظاهر نص كلام الله وكلام رسوله ، ولذلك أوجبوا تأويله ، ليخالف الظاهر الذى زعموا ، وليس الأمر كذلك .

الثانى أنهم ردوا المعنى الصحيح الذى هو ظاهر اللفظ ، لاعتقادهم أنه باطل كقولهم فى الحديث : « قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن » . قالوا : لايجوز أن يراد به الظاهر ، فليس فى قلوبنا أصابع .

ومعلوم أنه ليس ظاهره أن القلوب متصلة بالأصابع ، ولامماسة لها ، ولا أن أصابع الرحمن فى جوف العبد ، ولايفهم من قول القائل : هذا بين يدى ، ما يقتضى مباشرته ليديه .

وإذا قيل : إن السحاب بين السماء والأرض ، لم يقتضى أن يكون مماساً للسماء ، أو الأرض ونظائر ذلك كثيرة » (٢)

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٣ ص ٤٣ – ٤٥ ملخصا .
(٢) المصدر المشار اليه .

وقال أبو نصر السجزى فى الإبانة : وأئمتنا كسفيان ، ومالك ، والحمادين ، وابن عينية ، والفضيل ، وابن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق ، متفقون على أن الله فوق العرش ، وعلمه فى كل مكان ، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا ، وأنه يغضب ، ويرضى ، ويتكلم بما يشاء » [١]

وقال ابن عبد البر فى شرحه لحديث النزول : « وفيه دليل على أن الله – عز وجل – فى السماء على العرش ، من فوق سبع سماوات ، كما قالت الجماعة ، وهو من حجتهم على المعتزلة والجهمية ، فى قولهم : إن الله – عز وجل – فى كل مكان ، وليس على العرش . والدليل على صحة ماقال أهل الحق : قوله – تعالى – : (الرحمن على العرش استوى) [٢] وقوله – تعالى – : (ثم استوى على العرش ، مالكم من دونه من ولى ، ولاشفيع) [٣] وقوله – تعالى – : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) [٤] وقوله – تعالى – : (إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا) [٥] وقوله – تعالى – : (إليه يصعد الكلم الطيب) [٦] وقوله – تعالى – : (فلما تجلى ربه للجبل) [٧] وقوله – تعالى – : (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض) [٨] وقوله – تعالى – : (سبح اسم ربك الأعلى) ، وهذا من العلو ، وكذلك قوله – تعالى – : (العلى العظيم) [٩]

---

(١) ذكره الذهبى فى سير أعلام النبلاء جـ ١٧ ص ٦٥٦ .
(٢) الآية ٥ من سورة طه .
(٣) الآية ٤ من سورة الٓمٓ السجدة .
(٤) الآية ١١ من سورة حمٓ فصلت .
(٥) الآية ٤٢ من سورة الإسراء .
(٦) الآية ١٠ من سورة فاطر .
(٧) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف .
(٨) الآية ١٦ من سورة الملك .
(٩) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة والآية ٤ من سورة الشورى .

وقوله – تعالى – : (الكبير المتعال) [١] ، وقوله – تعالى – : (رفيع الدرجات ذو العرش) [٢] وقوله – تعالى – : (يخافون ربكم من فوقهم) [٣] ، والجهمى يزعم أنه أسفل .

وقال جل ذكره : (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه) [٤] وقال – تعالى – : (تعرج الملائكة والروح إليه) [٥] وقال – تعالى – لعيسى : (إنى متوفيك ورافعك إليَّ) [٦] وقال – تعالى – : (بل رفعه الله إليه) [٧] وقال – تعالى – : (فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار) [٨] وقال – تعالى – (ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ولايستحسرون) [٩] وقال – تعالى – : (ليس له دافع . من الله ذى المعارج) [١٠] والعروج الصعود . وأما قوله – تعالى – : (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم) فمعناه : من على السماء ، يعنى على العرش ، وقد يكون « فى » بمعنى « على » ، ألا ترى إلى قوله – تعالى – : (لأصلبنكم فى جذوع النخل) [١١] وقوله – تعالى – : (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) [١٢] أى على الأرض وهذا كله يعضده قوله – تعالى – : (تعرج الملائكة والروح إليه) [٥] وماكان مثله مما تلونا من الآيات فى هذا الباب » [١٣] ا هـ

---

(١) الآية ٩ من سورة الرعد .
(٢) الآية ١٥ من سورة غافر الذنب .
(٣) الآية ٥٠ من سورة النحل .
(٤) الآية ٥ من سورة الٓمٓ السجدة .
(٥) الآية ٤ من سورة المعارج .
(٦) الآية ٥٥ من سورة آل عمران .
(٧) الآية ١٥٨ من سورة النساء .
(٨) الآية ٣٨ من سورة فصلت .
(٩) الآية ١٩ من سورة الأنبياء .
(١٠) الآيتان ٢ و ٣ من سورة المعارج .
(١١) الآية ٧١ من سوزة طه .
(١٢) الآية ٢ من سورة التوبة .
(١٣) التمهيد جـ ٧ ص ١٢٩ – ١٣٠ .

وقال أيضا : « وما روى عن ابن عباس فى قوله – تعالى – : (الرحمن على العرش استوى) [١] أنه قال : على جميع بريته ، فلا يخلو منه مكان » .

فالجواب : أنه منكر ، ونقلته مجهولون ، وضعفاء . وهم لايقبلون أخبار الآحاد العدول ، فكيف يحتجون بمثل هذا الأثر الساقط . وأما تعلقهم بقوله – تعالى – : (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) [٢] وقوله تعالى : (مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) الآية [٣] وزعمهم أن الله – تبارك وتعالى – فى كل مكان بنفسه وذاته .

فيقال لهم : أنتم لاتخالفون بأنه ليس فى الأرض دون السماء ، بذاته ، فيجب حمل هذه النصوص على المعنى الصحيح المجمع عليه ، وهو أنه فى السماء إله معبود ، من أهل السماء ، وفى الأرض ، إله معبود ، من أهل الأرض ، وهو الذى قاله أهل العلم بالتفسير .

وقوله تعالى : (مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) [٣] الآية ليس فيها حجة لهم ، لأن علماء الصحابة ، والتابعين ، الذين روى عنهم التفسير ، قالوا فى هذه الآية : هو على العرش ، وعلمه فى كل مكان ، ولم يخالفهم فى ذلك من يعتد به .

ثم ذكر عن ابن مسعود : قال : « الله فوق العرش ، لايخفى عليه شىء من أعمالكم . وذكر عن الضحاك ، وسفيان الثورى مثله » [٤] .

---

(١) الآية ٥ من سورة طه .

(٢) الآية ٨٤ من سورة الزخرف .

(٣) الآية ٧ من سورة المجادلة .

(٤) التمهيد جـ ٧ ص ١٣٣ – ١٣٩ ملخصا .

فتبين بما ذكره أن هذه الآيات التى تعلق بها نفاة العلو ، تدل على عكس قولهم ، فهى متفقة مع النصوص الصريحة فى الدلالة على علو الله تعالى .

ومن الحجج القاطعة أن الله تعالى فوق السماوات على عرشه ، أن كل داع يدع الله – تعالى – يجد فى نفسه دافعا يدفعه إلى الاتجاه إلى الله فوقه ، وهو أمر ضرورى وقطعى ، فلا يمكن لأى سائل يسأل الله ويطلب منه إلا رفع يديه ، واتجه بقلبه ، ونظره إلى من يستغيث به الذى هو عال فوق جميع مخلوقاته مستوٍ على عرشه ، فالعلم بذلك فطرى ضرورى عقلى ، ونصوص الشرع جاءت مؤيدة ذلك مقررة له .

قال شيخ الإسلام : « ذكر محمد بن طاهر المقدسى ، عن الشيخ الجليل أبى جعفر الهمدانى ، أنه حضر مجلس أبى المعالى الجوينى ، وهو يقول : كان الله ، ولاعرش [ولامكان] وهو على ما [كان] عليه [قبل خلق المكان] أو كلام من هذا المعنى ، فقال : ياشيخ ، دعنا من ذكر العرش أخبرنا عن هذه الضرورة التى نجدها فى قلوبنا ، فإنه ماقال عارف قط : ياالله إلا وجد من قلبه ضرورة ، بطلب العلو ، ولا يلتفت يمنة ، ولايسرة ، فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا ؟ .

فصرخ أبو المعالى ، ولطم رأسه ، وقال : « حيرنى الهمدانى ، حيرنى الهمدانى » (١)

وقد تعلق نفاة العلو أيضا : بأن الله – تعالى – لوكان فى مكان ، لأشبه المخلوقات لأن ماأحاطت به الأمكنة ، فهو مخلوق .

فيقال : هذا نشأ عن القياس الفاسد ، والتشبيه المستكن فى نفوس هؤلاء إذ لو آمنوا بأن الله على كل شيء قدير ، وأنه ليس كمثله شيء ، ماانطلت هذه الشبه وهذا الهراء على نفوسهم .

ويقال أيضا : ألستم تقرون بأن الله – تعالى – موجود قبل خلق الكون ،

---

(١) الاستقامة جـ ١ ص ١٦٧ .

فهو تعالى كما قال رسول الله – ﷺ –: « كان الله ، ولم يكن شيء معه » [(١)]

ونحن وأنتم وكل العقلاء ، لا نعقل وجود أحد منا ، إلا فى مكان ، وماليس فى مكان ، فهو عدم ، والله بخلاف ذلك ، فلا يجوز أن يقاس بخلقه كما فعلتم قلتم : لوكان فى مكان ، لأشبه خلقه .

فإن زعموا أنه يلزم من كونه تعالى فى العلو ، التغير ، والانتقال ، لأنه تعالى كان ، ولا مكان ، فلما خلق المكان ، صار فى العلو ، فزال عن صفته فى الأزل وصار فى مكان .

قيل : وأنتم يلزمكم أقبح من ذلك ، وهو زعمكم أنه – تعالى – كان ، لافى مكان ، ثم صار فى كل مكان ، فقد تغير عندكم معبودكم ، وانتقل من لامكان ، إلى كل مكان . وهذا لازم لكم ، لانفكاك لكم منه .

وقولهم : كان الله ، ولا مكان ، وهو الآن على ماكان عليه قبل خلق المكان . كلام فاسد ، متناقض ، وذلك أن النفاة للاستواء والعلو ، وغيرهما ، على قسمين :

قسم يقول : إن الله لا فوق ، ولا تحت ، ولا يمين ، ولا شمال ، ولا أمام ، ولا خلف ولا داخل العالم ، ولا خارجه ، وهذا لا يفهم منه إلا العدم المحض ، فليس له وجود فعلى على هذا الوصف ، فهو إذاً ليس له مكان أصلا ، إذ لا وجود له .

وقسم يقول : إنه فى كل مكان ، فيلزم أنه كان فى كل مكان ، قبل خلق المكان ، فهو إذا فى هذا الكون كله ، قبل خلقه له ، وهذا قول ظاهر الفساد ، إذ معناه : كان فى الأمكنة ، قبل خلقها .

فالحق « أن الله تعالى ليس كمثله شيء لا فى نفسه ، ولا فى فعله ، وفى

---

(١) تقدم هذا الحديث مشروحا ، وبين أن هذا اللفظ مروى بالمعنى ، وأن الصواب « ولم يكن شيء قبله » .

صفاته ، ولافى مفعولاته فإذا رام الإنسان أن ينفى شيئا مما يستحقه ، لعدم نظيره فى الشاهد المحسوس ، صار مايثبته بدل نفيه أبعد عن المعقول ، والمشهود » [١] .

ومن الحجج المشهورة على وجوب علو الله تعالى : ماتقدم فى كلام ابن أبى العز : وهو أن يقال : لماخلق الله الخلق ، لابد أن يكون خلقه بائنا منه ، فلا يجوز أن يكون الخالق – جل وعلا – فى المخلوق ، وأن يكون المخلوق حاوياً له ، تعالى عن ذلك ، فلا بد أن يكون بائنا عنه ، ولا يجوز أن يكون المخلوق فوق الخالق – تعالى – وتقدس ، فلا بد أن يكون عاليا فوق خلقه .

قال شيخ الإسلام : « معرفة القلوب ، وإقرارها بفطرة الله التى فطرها عليها ، أن ربها فوق العالم ، ودلالة الكتاب والسنة على ذلك ، وظهور ذلك فى خاصة الأمة وعامتها ، وكلام السلف فى ذلك ، أعظم من كونه – تعالى – يرى بالأبصار يوم القيامة ، أو أن رؤيته بالأبصار جائزة .

ويشهد لهذا أن الجهمية ، أول ماظهروا فى الإسلام ، فى أوائل المائة الثانية . وكان حقيقة قولهم فى الباطن ، تعطيل الرب – تعالى – من الصفات كلها ، ولا يصفونه – تعالى – إلا بالسلوب المحضة ، التى لاتنطبق إلا على المعدوم ، وكانوا فى الباطن ينكرون أن يرى ، أو يتكلم ، أو أنه فوق العرش ، أو أن يكون موصوفا بالصفات التى جاءت بها كتب الله ، أو دلت عليها مع ذلك الدلائل العقلية ، لكن ماكانوا يظهرون من قولهم للناس ، ماهو ظاهر البطلان ، ومالَيس فيه شبهة مثل نفى العلو المعروف ، المتيقن من الدين بالضرورة عند العامة ، والخاصة ، وإنما يظهرون مافيه شبهة ، ولهم عليه حجة ، ويكونون فيه أقل مخالفة لما يعلمه الناس من الحجج الفطرية ، الشرعية . وهذا شأن كل من أراد أن يظهر خلاف ماعليه أمة من الأمم من الحق ، فإنهم لاينقضون الأصول العظيمة ، الظاهرة ابتداء » [٢] .

ومن المؤسف أن بعض ضلالات الذين ذكرهم الشيخ ، قد ورثها كثير من علماء المسلمين كالأشعرية ، الذين يزعمون أنهم أعداء لهم وخصوم ، مع أنهم

---

(١) بيان تلبيس الجهمية جـ ١ ص ١٤٧ .
(٢) بيان تلبيس الجهمية جـ ٢ ص ٧٨ – ٧٩ بتصرف .

يتفقون معهم على إنكار علو الله تعالى ، واستوائه على عرشه ، ومجيئه لفصل القضاء بين عباده ، ونزوله إلى سماء الدنيا كل ليلة ، كما أخبر به رسول الله – ﷺ .

كما أنهم يؤولون الصفات إلا قليلا ، تأويلا يؤول إلى الإنكار ، مثل اليدين ، والرجلين ، والوجه ، والرحمة ، والمحبة ، والضحك ، والرضا ، والغضب ، والسخط ، والمقت . وغير ذلك .

ويوافقون الجهمية فى كون القرآن مخلوقا ، فإنهم يجعلون الكلام قسمين : نفسى ، وهو المعنى القائم بالنفس ، وهذا هو الذى يصفون الله به ، ولفظى حرفى وهو المكتوب فى المصاحف ، وهو ليس كلاما لله عندهم ، بل هو عبارة عن كلام الله وهو مخلوق ، وهذا قول الجهمية ، الذين كفَّرهم السلف من أجله .

والمقصود أن علو الله – تعالى – واستواءه على عرشه ثابت بنصوص الكتب المنزلة على رسل الله ، وبالفطر ، التى عليها عباده ، وبالعقول التى لم تنتكس بفعل الشياطين ، وبإجماع أهل العلم والإيمان ، من جميع الأمم ، كما تقدمت الإشارة إليه . ولم يعرف خلاف فى هذه المسألة ، ونحوها إلا بعد مادخل كثير من الزنادقة فى الإسلام نفاقا ، وقصداً لإفساد الدين ، بعد المائة الأولى للهجرة ، وإن كان قد وجد قبل ذلك بعض المفسدين ، المتطرفين ، الذين كان لهم الأثر السيء فى الأمة .

قال شيخ الإسلام : « افترق الناس ، فى علوِ الله ، واستوائه ، أربع فرق :

الأولى : الجهمية ، النفاة ، يقولون : ليس داخل العالم ، ولا خارجه ، ولا فوق ، ولا تحت ، وجميع الطوائف من أهل البدع يتمسكون بنصوص ، إلا الجهمية .

وقسم ثان منهم يقولون : إنه بذاته فى كل مكان ، ويدخل فيهم الأشاعرة ، وهؤلاء هم الفرقة الثانية .

الثالثة : من يقول : إنه فوق العرش ، وهو فى كل مكان ، ويزعم أنه بذلك يجمع بين النصوص .

الرابعة : المتبعون للكتاب ، والسنة ، الذين أثبتوا ماأثبته الله ، ورسوله ، من غير تحريف ، فآمنوا بأن الله فوق سماواته ، مستوٍ على عرشه » (١)

وقد تقدم ذكر بعض الآيات الدالة على علو الله تعالى صراحة ، وبعض الأحاديث مما ذكره البخارى ، وغيره .

ومما لم يذكره ، قصة معراج الرسول - ﷺ - إلى ربه فوق السماوات كلها ، وهى ثابتة ثبوتا قطعياً بدون ريب .

وفى حديث الرقية : « ربنا الله الذى فى السماء ، تقدس اسمك » (٢)

وفى حديث الأوعال : « والعرش فوق ذلك ، والله فوق عرشه ، وهو يعلم ماأنتم عليه » (٣)

وفى سنن أبى داود ، عن جبير بن مطعم قال : أتى رسول الله - ﷺ - أعرابى فقال : يارسول الله ، جهدت الأنفس ، وجاع العيال ، وهلك المال ، فادع الله لنا ، فإنا نستشفع بك على الله ، ونستشفع بالله عليك ، فسبح رسول الله ﷺ . حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه ، وقال : ويحك أتدرى ماالله ؟ إن الله لايستشفع به على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك ، إن الله على عرشه ، وإن عرشه على سماواته وأرضه هكذا ، وقال بأصابعه ، مثل القبة » (٤)

---

(١) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ٢٢٩ - ٢٣١ ملخصا .

(٢) رواه أبو داود فى السنن جـ ٤ ص ٢١٨ رقم ٣٨٩٢ ، وأحمد فى المسند جـ ٦ ص ٢١ .

(٣) رواه أبو داود جـ ٥ ص ٩٣ والترمذى وقال : حسن غريب جـ ٥ ص ٤٢٤ رقم ٣٣٢٠ وبن ماجه جـ ١ ص ٦٩ وأحمد فى المسند جـ ١ ص ٢٠٦ و ٢٠٧ وغيرهم .

(٤) أخرجه أبو داود فى السنن جـ ٥ ص ٩٤ ، وأبو سعيد الدارمى فى الرد على الجهمية ص ٢٧٢ ، وفى الرد على المريسى ص ٤٤٧ .

وفى خطبته ﷺ – فى عرفة ، فى أعظم جمع اجتمع له ﷺ بعدما أمر ، ونهى ، جعل يقول : « ألا هل بلغت » ؟ فيقولون : نعم . عند ذلك يرفع إصبعه إلى السماء ، وينكبها إليهم ، ويقول : اللهم أشهد غير مرة [1] .

والنصوص فى ذلك كثيرة جدا ، والحق فى هذه المسألة واضح جلى ، بل وفى كل مايجب لله تعالى ، وما يمتنع عليه ، ومعلوم أن الله – تعالى – قد أكمل لهذه الأمة دينها على لسان رسولها ، وأتم عليها النعمة بذلك ، وأنزل كتابه فيه تبيان كل شيء ، ومعرفته تعالى بما له من الأوصاف ، ومعرفة مايمتنع عليه هى أجل أمور الدين وأعظم أصوله ، فلابد أن يكون هذا قد بيِّن غاية البيان .

ثم إنه ليس بين علو الله تعالى على جميع خلقه ، ومعيته لخلقه ، وقربه من عباده ، منافاة فعلوه – تعالى – واستواؤه على عرشه ، ثابت ثبوتا قطعياً ، كما وضح ذلك تعالى فى كتابه ، وبينه رسوله – ﷺ – وكذلك معيته تعالى لخلقه ، قد وضحها وبينها رسوله ، فوجب الإيمان بذلك ، فكما أنه تعالى مستوٍ على عرشه ، وعالٍ على خلقه ، حقيقة ، فهو كذلك موصوف بالقرب ، والمعية على الحقيقة .

قال شيخ الإسلام : « لايخالف ماثبت من علو الله ، وأنه فوق العرش ، معيته لخلقه ، الثابتة بمثل قوله : (وهو معكم أينما كنتم) [2] .

وقوله – ﷺ –: « إذا قام أحدكم إلى الصلاة ، فإن الله قِبَلَ وجهه » [3] ونحو ذلك .

وذلك أن الله معنا حقيقة ، وهو فوق عرشه حقيقة ، كما جمع الله بينهما فى

---

(١) تقدم أنه أخرجه مسلم .

(٢) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٣) رواه البخارى فى الصلاة باب ٣٣ ص ٧٥ وفى أماكن متعددة ، ومسلم جـ ١ ص ٣٨٨ رقم ٥٤٧ .

قوله – تعالى –: (هو الذى خلق السموات والأرض ، فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش يعلم مايلج فى الأرض ، ومايخرج منها ، وماينزل من السماء ، ومايعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعلمون بصير) (١) فأخبر – تعالى – أنه فوق العرش ، يعلم كل شيء ، وهو معنا أينما كنا ، كما قال النبى – ﷺ – فى حديث الأوعال « والله فوق العرش ، وهو يعلم ماأنتم عليه » (٢) .

وذلك أن كلمة مع فى اللغة ، إذا أطلقت ، لم يكن ظاهرها فى اللغة إلا المقارنة المطلقة ، من غير وجوب مماسة ، أو محاذاة ، عن يمين أو شمال ، فإذا قيدت بمعنى من المعانى ، دلت على المقارنة فى ذلك المعنى ، فإنه يقال : مازلنا نسير والقمر معنا ، ويقال : هذا المتاع معى ، لمجامعته لك ، وإن كان فوق رأسك فالله مع خلقه حقيقة ، وهو فوق عرشه حقيقة .

ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد ، فقوله – تعالى – : (وهو معكم أينما كنتم) (٣) دل ظاهر الخطاب أن حكم هذه المعية ، ومقتضاها : أنه مطلع عليكم شهيد عليكم ، ومهين ، عالم بكم ، وهذا معنى قول السلف : إنه معهم بعلمه ، وهذا ظاهر الخطاب ، وحقيقته .

وقوله : (لاتحزن ، إن الله معنا) (٤) حق على ظاهره ، ودلت الحال ، على أن حكم هذه المعية : الاطلاع ، والنصر ، والتأييد ، ومثلها قوله : (إننى معكما أسمع وأرى) (٥) وقوله – تعالى – : (إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم

---

(١) الآية ٤ من سورة الحديد .
(٢) تقدم ذكر من خرجه ص ٤٧٦ .
(٣) الآية ٤ من سورة الحديد .
(٤) الآية ٤٠ من سورة التوبة .
(٥) الآية ٤٦ من سورة طه .

محسنون) (١) حق ، وحكمها النصر ، والتأييد » (٢) .

والمعية نوعان : عامة ، وخاصة .

فالأولى ، هى المذكورة فى مثل قوله تعالى : (وهو معكم أينما كنتم) (٣)

والثانية هى المذكورة فى مثل قوله تعالى : (إننى معكما أسمع وأرى) (٤) ، فهذه خاصة بأنبيائه وأولياءه ، وعباده المؤمنين ، فهو – تعالى – معهم دون أعدائهم ، معهم بسمعه ، ورؤيته ونصره ، وتأييده ، كما أنه – تعالى – معهم بإحاطته وقبضته .

والمعية لاتدل على المخالطة ، والممازجة ، وإنما تدل على المصاحبة ، كما قال رسول الله – ﷺ –: « اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل » (٥) .

فهو – سبحانه – مع المسافر فى سفره ، ومع أهله فى وطنه ، وهو فوق عرشه ، وكل ذلك على ظاهره ، غير محتاج إلى تأويل ، ولا يلزم منه أن تكون ذاته مختلطة بذوات خلقه تعالى الله وتقدس عن ذلك ، وذلك لأن المفهوم من المعية فى اللغة العربية المصاحبة والمقارنة ، حكمها حسب مورد الخطاب ، فقوله – تعالى – (محمد رسول الله والذين معه) (٦) أى على الإيمان ، لا أن ذواتهم حالة فى ذاته ، بل هم مصاحبون له ، ومتبعون له على الإيمان ، وقوله : « فأولئك مع المؤمنين » يدل على موافقتهم ، فى الإيمان ، وموالاتهم .

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة النحل .
(٢) مجموع الفتاوى جـ ٥ ص ١٠٢ – ١٠٤ .
(٣) الآية ٤ من سورة الحديد .
(٤) الآية ٤٦ من سورة طه .
(٥) رواه مسلم فى الصحيح جـ ٢ ص ٩٧٨ الحديث رقم ١٣٤٢ ورواه غيره .
(٦) الآية ٢٩ من سورة الفتح .

فالله – تعالى – مع عباده ، يراهم ، ويسمع كلامهم ، وهو محيط بهم ، وعلمه بهم من لوازم معيته لهم ، وليست المعية هى العلم كما يتوهمه بعض الناس ، فعلمه تعالى محيط بكل شيء ولايختلف أو يتغير ، ولذلك صارت المعية إلى خاصة ، وعامة ، وكل واحدة لها مقتضاها وحكمها ، فمن مقتضى العامة : المراقبة ، والتخويف ، والاطلاع على جميع التصرفات ، وماتكنه الصدور .

ومن مقتضى الخاصة : النصر ، والتأييد ، والحفظ .

وتفسير من فسرها بالعلم من السلف ، يقصد بيان أن الله ليس مختلطا بخلقه أو حالا فيهم ، أو أن شيئا من مخلوقاته تحويه ، أو تظله ، أو تقله – تعالى – وتقدس .

وأما القرب ، فقد جاء على صيغتين : الإفراد نحو قوله تعالى – : (وإذا سألك عبادى عنى ، فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان ، فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) [1] وكما فى حديث أبى موسى المتقدم : « إن الذى تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

وهو تعالى فوق عرشه ، ويقرب ممن يشاء من خلقه ، كيف يشاء ، كما قرب من موسى – عليه السلام – حين كلمه ، وهو فوق عرشه ، فوق السماوات كلها فلا تنافى بين علوه ، وقربه ومعيته ، لأنه تعالى أكبر من كل شيء ، وأعظم من كل شيء ، وهو محيط بكل شيء ، وهو بكل شيء عليم ، وعلى كل شيء قدير . – تعالى – الله عن ظنون السوء الكاذبة .

فعلو الله العلى العظيم ، واستوائه على عرشه ، ومعيته وقربه كل ذلك ثابت له حق على ظاهره ، كما أخبر به تعالى عن نفسه ، وأخبرت به رسله فالكل ثابت لله تعالى فى الكتب الإلهية ، وفى نصوص الأنبياء .

وأهل الفطرة العقلية السليمة ، من الأولين والآخرين ، يقولون : إنه تعالى فوق عرشه ، عالٍ على خلقه ، وهو معهم ، بعلمه ورؤيته ، وسمعه وإحاطته ، وقبضته وهيمنته عليهم .

---

(١) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

ومع أنبياءه ، وأولياءه بذلك وبنصره ، وتأييده ، وحفظه .

ومعيته تعالى من صفاته الخاصة به .

وأما الصيغة الأخرى للقرب : صيغة الجمع كقوله تعالى : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) [١] وهذا يقصد به فى لغة العرب ، الواحد العظيم ، الذى له عبيد يطيعونه ، ويسارعون فى أمره وإذا وقع الفعل منهم عن أمره قال : نحن فعلنا ، كما يقول الرئيس نحن أمرنا بكذا . والله تعالى رب الملائكة ، وخالقهم ، وخالق أفعالهم ، وهم يمتثلون لأمره ، (لايعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون مايؤمرون) [٢] ، (لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) [٣] مع أنه تعالى غنى بذاته عن ملائكته ، وجميع خلقه ، وهو الذى أقدر خلقه على مايفعلون ، وأعطاهم القدرة على ذلك ، وإذا شاء سلبهم ذلك ، فإذا قال تعالى -: (ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون) [٤] إذا كان المراد الملائكة كان من هذا الباب .

والمقصود أن علو الله - تعالى - ثابت له بالعقل ، وأدلة الكتاب ، ومابلغه الرسول - ﷺ - أمته ، وثابت بالضرورة الفطرية ، والأدلة عليه لاتحصى ومنكره ، منكر للمعلوم بالضرورة من الدين ، والمعلوم بالضرورة العقلية الفطرية وليس بين علو الله واستواءه على عرشه ، وبين معيته لخلقه ، وللأولياءه وأنبياءه ، وقربه منهم تعارض .

★ ★ ★

تم الجزء الأول من الشرح ويليه الجزء الثانى وأوله :
باب قول الله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة » .

---

(١) الآية ١٦ من سورة ق .
(٢) الآية ٦ من سورة التحريم .
(٣) الآية ٢٧ من سورة الأنبياء .
(٤) الآية ٨٥ من سورة الواقعة .

١ - فهرس الآيات التى استدل بها البخارى

★ ★ ★

٢ – الأحاديث المشروحة ، التى استدل بها البخارى على ترتيب الكتاب

★ ★ ★

٣ - فهرس الأبواب : حسب ترتيب البخارى رحمه الله

★ ★ ★

٤ – فهرس بأهم المراجع للشرح

١ – اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهميه ، للإمام ابن قيم الجوزية ، المطبعة المنيرية بتصحيح الشيخ عبد الله بن حسن وإبراهيم الشورى عام ١٣٥١ هـ .

٢ – إرشاد السارى ، المجلد العاشر منه – وهو شرح القسطلانى على البخارى ، صورته دار الفكر فى بيروت عن الطبعة السادسة مطبعة بولاق عام ١٣٠٦ هـ

٣ – الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ، نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود عام ١٤٠٤ هـ .

٤ – إيثار الحق على الخلق ، لأبى عبد الله محمد بن المرتضى اليمانى ، صورته دار الكتب العلمية فى بيروت عن الطبعة الأولى .

٥ – الاستيعاب لأبى عمر ابن عبد البر ، تحقيق البجاوى .

٦ – الإصابة للحافظ ابن حجر ، تحقيق البجاوى .

٧ – بدائع الفوائد لابن القيم ، الطبعة المنيرية .

٨ – بيان تلبيس الجهمية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق محمد بن عبد الرحمن بن قاسم ، مطبعة الحكومة السعودية فى مكة المكرمة عام ١٣٩١ هـ

٩ – التمهيد شرح الموطأ – لابن عبد البر ، المجلد السابع طبعة المغرب

١٠ – التمهيد فى علم الكلام ، للباقلانى .

١١ – تفسير البغوى « معالم التنزيل » على هامش تفسير الخازن ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى عام ١٣٧٥ هـ

١٢ – تفسير ابن كثير ، تحقيق عبد العزيز غنيم ، ومحمد أحمد عاشور ، ومحمد إبراهيم البنا ، مطبعة الشعب بمصر .

١٣ – تفسير الطبرى ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المعارف بمصر .

١٤ – تفسير الطبرى ، مطبعة الحلبى ، الطبعة الثالثة عام ١٣٨٨ هـ

١٥ – تفسير أسماء الله الحسنى ، للزجاج .

١٦ – تهذيب الأسماء واللغات للنووى ، تصوير دار الكتب العلمية فى بيروت عن الطبعة المنيرية .

١٧ – تهذيب اللغة ، للأزهرى ، تحقيق عبد السلام محمد هارون .

١٨ – جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ، نشرته المكتبه العلمية بالمدينة عن المطبعة المنيرية .

١٩ – جلاء الأفهام لابن القيم ، المطبعة المنيرية عام ١٣٥٧ هـ .
٢٠ – حادى الأرواح لابن القيم .
٢١ – الحيدة فى الرد على المعتزلة ، لعبد العزيز الكنانى ، مطابع القصيم فى الرياض .
٢٢ – خلق أفعال العباد ، للبخارى ضمن مجموعة عقائد السلف ، نشره على سامى النشار ، وعمار جمعى الطالبى .
٢٣ – درء تعارض العقل والنقل ، تحقيق محمد رشاد سالم ، طبعته جامعة الإمام محمد بن سعود عام ١٤٠٤ هـ .
٢٤ – الأذكار للنووى ، تحقيق محمد رضا خورشيد .
٢٥ – الروح لابن القيم ، مطبعة محمد صبيح ، الطبعة الثانية عام ١٣٧٦ هـ .
٢٦ – رد الإمام أحمد على الزنادقة والجهمية . ضمن مجموعة عقائد السلف ، نشر على سامى النشار وزميله .
٢٧ – زاد المسير لابن الجوزى ، طبعة المكتب الإسلامى .
٢٨ – الأسماء والصفات للبيهقى .
٢٩ – السنة لعبد الله بن الإمام أحمد ، مطبعة الحكومة السعودية فى مكة .
٣٠ – السنة لابن أبى عاصم . تحقيق وتخريج الألبانى .
٣١ – سنن أبى داود ، إعداد عزت عبيد الدعاس .
٣٢ – سنن الترمذى ، نشر المكتبه السلفية فى المدينة .
٣٣ – سنن النسائى « المجتبى » الطبعة الأولى ، المطبعة المصرية فى الأزهر .
٣٤ – سنن ابن ماجه ، رقم أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقى .
٣٥ – شرح أصول اعتقاد أهل السنة ، للالكائى ، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان .
٣٦ – شرح الطحاوية ، لابن أبى العز ، الطبعة الثالثة .
٣٧ – شرح الكرمانى على البخارى ، صورة عن الطبعة الأولى ، دار إحياء التراث ببيروت .
٣٨ – شرح مسلم للنووى ، المطبعة المصرية سنة ١٣٤٩ هـ
٣٩ – شرح العمدة [أحكام الأحكام] لابن دقيق العبد ، تحقيق محمد حامد الفقى ، مطبعة أنصار السنة .
٤٠ – شرح كتاب الإيمان من صحيح البخارى للنووى .
٤١ – الصحاح للجوهرى ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الثانية .
٤٢ – صحيح مسلم ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقى .

٤٣ – طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ، مطبعة أنصار السنة .
٤٤ – عدة الصابرين لابن قيم الجوزية .
٤٥ – غريب الحديث ، لأبى عبيد ، طبعة حيدر آباد .
٤٦ – غريب الحديث للخطابى ، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغزناوى ، من منشورات مركز البحث العلمى فى جامعة أم القرى سنة ١٤٠٢ هـ .
٤٧ – فتح البارى ، للحافظ ابن حجر العسقلانى . المطبعة السلفية .
٤٨ – القاموس المحيط ، لمجد الدين الفيروزابادى . مطبعة السعادة بمصر .
٤٩ – كتاب التوحيد للإمام ابن خزيمة . تحقيق الهراس .
٥٠ – مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم ، طبعة الرياض .
٥١ – مسند الإمام أحمد ، صورة المكتب الاسلامى عن الطبعة الأولى فى مصر .
٥٢ – مسند الإمام أحمد ، تحقيق وشرح أحمد شاكر ١٦ جزءًا ولم يكمل ، مطبعة المعارف بمصر .
٥٣ – مشارق الأنوار ، للقاضى عياض ، صورته دار الجيل عن الطبعة الأولى بمصر سنة ١٣٣٣ هـ .
٥٤ – المفردات فى غريب القرآن ، للراغب الأصفهانى ، تحقيق محمد سيد كيلانى مطبعة مصطفى البابى .
٥٥ – منهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية ، طبعة بولاق .
٥٦ – منهاج السنة ، الجزء الأول والثانى ، تحقيق محمد رشاد سالم .
٥٧ – المنهاج فى شعب الإيمان للحلبى ، مصور عن ثلاث نسخ مخطوطة ومطبوع فى بيروت .
٥٨ – موطأ الإمام مالك ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقى .
٥٩ – نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسى ، ضمن مجموعة عقائد السلف سابقة الذكر .
٦٠ – النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية ، الطبعة المنيرية عام ١٣٤٦ .

* * *

٥ - فهرس الموضوعات

★ ★ ★

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى بمكتبة الخانجى

مطبعة المدنى — القاهرة

دار المدنى للنشر والتوزيع
جدة : ص ب ١٨٤٨٥ — ت : ٦٤٣٢٣٦٢

تصويبات « شرح كتاب التوحيد »

ص	س	الخطأ	صوابه	ص	س	الخطأ	صوابه
٣	٦	الأسله	أرسله	١١٦	١٠	غير	غر
،،	١٥	وتمام على النعمة	وتمام النعمة	١٢٤	١٥	مطلوب من	مطلوب
١١	١٩	أنا خلقت	أنا خلقته	١٢٥	٩	الجامعه وحقيقته	الجامعة وحقيقته
١٧	١٦	ثم برميهم	ثم يرميهم	١٢٨	١	ما بين	ما يبين
٢٩	٢	فى ذكر الخبر	فى ذكر الحبر	،،	٨	وصفاته الأول	وصفاته والأول
،،		سأله	ساءله	١٣٠	١٧	وفقهاءهم	وفقهائهم
،،	١٣	أمله	آمله	١٣٣	٣	أيا النبى	أيها النبى
٣٠	١١	الإيجار	الإيجاز	١٤٠	٣	المقبض	القبض
٣٣	٦	حنيفيا	حنيفا	،،	٢١	باختيارية	باختياره
٣٨	٢٠	الفتح البخارى	الفتح	١٤٧	٥	أرض غزاز	أرض عزاز
،،	١٧	إبلاغه العباد	إبلاغ العباد	،،	١٣	بن ثعلبة	بنى ثعلبة
٤٢	٢٢	يثير العزيز	تيسير العزيز	١٥٣	١٥	واستنتارهم	واستتارهم
٥٣	٩	وكذا ومن	وكذا من	١٦١	٣	املئت	امتلأت
٦٣	٣	واللهم	اللهم	،،	٥	امتلئت	امتلأت
٦٦	٩	المازنى	المازرى	١٦٢	٦	ملتها	ملؤها
٨٠	١٠	سراحيل	شراحيل	١٦٣	٧	ما خلقنا	ما خلقت
٨٤	١٠	النهى	المنهى	١٧١	١	فيها	فيهما
٨٥	١٦	بالتواب	بالثواب	،،	١٦	وعلى	وعلا
٨٦	١٦	زعموا مع	هذا مع	١٧٥	١٩	بضم الميم	بفتح السين
٨٨	١٣	ويسكنون	ويسكتون	١٧٧	٨	ينوّر	ينور
٩٧	١٢	فوجب	فوجه	١٨٠	٢	هذه الأخبار	هذه الأخبار
١٠٢	١	القوت	الفوت			الأخبار	الإخبار
١٠٤	٤	وأعلامهم	إعلامهم	١٨١	١٦	وبال	ووبال
١٠٦	١٥	وما يكره	وما يكرهه	١٨٨	٩	يأتم	بأتم
،،	١٨	يشاء	شاء	١٨٩	١	سمه	سمع
١٠٧	١٩	حقيقة	حقيقية	،،	٣	إلا الصلاة	إلا لصلاة
١٠٨	٤	لا يكون الاضافة	لا يكون إلا إضافة	١٩١	١٣	خفيه	خفيت
،،	٦	إرادة	إيراده	١٩٦	١٢	قد قال	وقد قال
،،	١٤	بأنه متدينا	بأنه كان متدينا	١٩٧	١٢	وسمع القبول	وسمع القبول
١١٠	٢٠	النظرة	النضرة			بنعدى	يتعدى
١١١	١	السميقع	السميفع	٢١١	٧	وتحول	ونحول
،،	١٤	الأخبار	الإخبار	٢١٢	٥	مشيئة	مشيئته

ص	س	الخطأ	صوابه
٢١٥	١٣	اشتقت	اشتق
٢١٦	٣	ونوعد	وتوعد
٢١٧	١	من حيث	من حيث لا
٢٢٦	٢١	إلا ذكر	إلا بذكر
٢٢٨	٦	صفحة ١٦١	صفحة ٢٢٤
٢٣٤	٣٤	واللهم	اللهم
٢٤٦	١٩	شبة	شيبة
‘‘	١٢	ابن	أبو
٢٥٣	٢	واختبارا	واختيارا
٢٦٤	١٧	المرأ	المرء
‘‘	٢٤	صالح	صالحا
٢٦٥	٧	بنأ	نبئ
٢٦٦	٦	واستولاه	واستواءه
٢٧٠	٣	عابد	عابده
٢٧١	١١	وأنه أقبل	وأنه إذا أقبل
٢٧٣	٩	فاكتفى تعالى بذلك	فاكتفى بذلك
٢٧٦	١٢	مع بقاءها	بقائها
٢٧٧	١٢	وهذا	هذا
٢٧٧	١٦	اثنين	اثنتين
٢٩٠	١٣	وغيره	غيره
‘‘	١٩	نسأله العافية	نسأل الله العافية
٢٩٤	٦	فزعة	قزعة
‘‘	١٢	رؤية	رواية
٢٩٦	٦	الخلق	الخلف
٣٠١	١٣	الموقوف	الوقوف
٣١٠	١٠	تعالى – لوضع	ولو شاء تعالى لوضع
٣١٣	١٩	مسندالسلف	مستند السلف
٣١٦	٤	الحذرى	الخدرى
٣٣٠	٢	مملوءان	هما مملوءان
٣٣٥	٧	العين	الغين
٣٤٣	٥	ولكن بخير	ولكن بخبر
٣٤٦	٤	سعيد	سعد
٣٥١	١٢	ينشف	ينشق
٣٥٣	١٤	سألكم	سالمكم
٣٥٦	١٥	إذا التقى	فإذا انتفى
٣٦٠	١٨	مواره	موارده
٣٦١	٥	بسنده أبى	بسند عن أبى
٣٦٥	١	استولى فلان على مصر استولى	استولى فلان على مصر استوى
٣٧٦	١٧	من البشير	من التبشير
٣٧٩	٥	لم يزل فعال	لم يزل فعالا
٣٨٦	١٤	بعيران	بعيران بعد أن
٣٨٨	٩	رحمه	رحمه الله
٣٩٦	١٤	بوجب	يوجب
٤٠٠	٩	أحب	أخبر
٤٠١	١٣	دنيا	دينا
٤٠٢	٩	تنبئ	ننبئ
٤٠٦	٣	وبالأخذ	وبالآخر
٤١٠	٧	أنها دائم	أنها دائما يبحث فيها
٤٢٥	٥	واستواؤه	واستوائه
٤٣٠	١٧	موت	موتا
٤٤٤		اتيان	االتيان
‘‘	٨	‘‘	‘‘
٤٦١	١٥	نيه	بينه
٤٦٦	١٠	الهدى	والهدى
‘‘	١١	للعناء	أاللعناء
٤٦٨	٩	وجين	وجهين
٤٧٠	٢	ربكم	ربهم
٤٨٠	١٩	واستوائه	واستواؤه
٤٨٤	٥	بردها	يرددها
‘‘	١٧	بعزة الذى	بعزتك الذى
٤٩٥	٨	فلا إنكاره	فى إنكار